converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version



تەكىردى لېلردناوللى الم

994.37



verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



onverted by Liff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطبعــــة الأولحــــ يونيـو ١٩٨٨

الطبعة الشّانيّة يوليو ١٩٨٨

الطبعكة الشكالشكة يناير 14۸۹

الطبعثة الرابعثة يناير 199٠

جيسع جشقوق الطسيع محسفوظة

© دارالشروقــــ

ميخائيل جوربانشوف البيريستر ويكا

تفکیرددیثد لبــــلادنا وللعــــالـــم

> ترجمة حمدىعبدالجـقاد

مراجعة محمد المعلم

دارالشروقــــ



إلى القسارئ

عند كتابة هذا الكتاب كانت تحدونى الرغبة فى أن أوجه كلامى مباشرة إلى شعوب الاتحاد السوفيتي ، والولايات المتحدة ، بل وكل البلدان فى الحقيقة .

لقد التقيت بقادة حكومات وغيرهم من قادة دول عديدة وبممثلي شعوبهم ، ولكن غرضي من هذا الكتاب هو التحدث دون وسطاء إلى مواطني العالم بأسره عن أشياء تهمنا جميعا دون استثناء .

ولقد كتبت هذا الكتاب لأنى أومن بسلامة حسهم . وأنا على قناعة بأنهم ، مثلى ، قلقون على مستقبل كوكبنا . وهذا هو الأمر الأهم .

وعلينا أن نلتقى ونتناقش . علينا أن نحل المشاكل بروح التعاون بدلا من العداوة . وأنا أدرك جيدا أنه لن يتفق معى كل الناس . وكحقيقة فإنى لن أتفق مع مايقوله الآخرون حول مختلف المسائل . وهذا مايجعل الحوار هاما بدرجة أكبر . إن هذا الكتاب هو إسهامي في الحوار .

وكتاب البيريسترويكا ليس بحثا علميا أو كتيب دعاية ، رغم أن الآراء والاستنتاجات والمواقف التحليلية التي سيجدها القارئ فيه ترتكز بالطبع على قيم محددة ومقدمات نظرية . إنه بالأحرى مجموعة من الأفكار والتأملات حول البيريسترويكا ، والمشاكل التي تواجهها ، ونطاق التغيرات التي تتضمنها ، وتعقد ، ومسئولية ، وتفرد عصرنا . قد تجنبت بالفعل حشو الكتاب بالحقائق ، والأرقام ، والتفاصيل . إنه كتاب عن خططنا وعن الطرق التي سننفذها بها ، وأكرر ، إنه دعوة إلى الحوار وقد كرست قسماكبيرا منه للتفكير السياسي الجديد ، لفلسفة سياستنا الخارجية . وإذا ما ساعد هذا الكتاب على تعزيز الثقة الدولية ، فسأعتبر أنه قد قام بدوره .

ما هى البيريسترويكا ، أو إعادة البناء؟ ولماذا نحن فى حاجة إليها؟ وماهو جوهرها وأهدافها؟ وما الذى ترفضه وما الذى تخلقه؟ وكيف تتقدم؟ وماذا يمكن أن تكون نتائجها بالنسبة للاتحاد السوفيتي والمجتمع العالمي؟

كل هذه أسئلة مشروعة يبحث الكثيرون عن أجوبة لها : السياسيون ، ورجال الأعال ، الباحثون والصحفيون ، المدرسون ، والأطباء ، ورجال الدين ، والكتاب والطلبة ، والعال والفلاحون . ويريد الكثيرون أن يفهموا ما يحدث بالفعل في الاتحاد السوفيتي ، وبخاصة وأن الصحافة والتليفزيون في الغرب تجتاحها موجات من سوء النية تجاه بلادى .

وتشكل البيريسترويكا محور الحياة الفكرية لمجتمعنا الآن. وهذا أمر طبيعى ، لأنها تخص مستقبل هذا البلد. وتؤثر التغييرات التي تحدثها على الشعب السوفيتى ، وتتناول أكثر المسائل حيوية . وكل امرئ شغوف بأن يعرف نوع المجتمع الذى سنعيش فيه نحن ، وسيعيش فيه أطفالنا وأحفادنا .

وتبدى البلدان الاشتراكية الأخرى اهتماما حيا وطبيعيا بإعادة البناء السوفيتى . فهم كذلك يعيشون فترة صعبة وهامة للغاية من البحث فى تطورهم . ويستحدثون ويجربون طرق تشريع للنمو الاقتصادى والاجتماعى . ويرتبط النجاح فى ذلك بدرجة كبيرة بتفاعلنا ، وبمهامنا ومشاغلنا المشتركة .

وهكذا فإن الاهتمام الحالى ببلادنا أمر مفهوم ، وبخاصة إذا ماوضعنا فى الاعتبار مالها من تأثير فى شئون العالم .

وعندما وضعت كل ذلك فى الاعتبار ، وافقت على طلب الناشرين الأمريكيين بأن أكتب هذا الكتاب . فنحن نريد أن يفهمنا الناس . والاتحاد السوفيتي يعيش حقا فى فترة مفعمة بالحركة . ولقد قدم الحزب الشيوعي تحليلا انتقاديا للوضع الذي تطور بحلول منتصف الثمانينيات ، وصاغ سياسة البيريسترويكا هذه ، أو إعادة البناء ، سياسة تشريع تقدم البلاد الاجتماعي والاقتصادي وتجديد كل مناحي

الحياة . وتفهم الشعب السوفيتي هذه السباسة كما تقبلها . لقد بعثت البيريسترويكا الحيوية في المجتمع بأسره . حقا ، إن بلادنا ضخمة . وقد تراكم العديد من المشاكل ، ولن يكون من السهل حلها . بيد أن التغيير قد بدأ ولا يمكن للمجتمع الآن أن يتراجع إلى الخلف .

وهناك تفسيرات مختلفة للبيريسترويكا فى الغرب ، بما فى ذلك فى الولايات المتحدة . هناك رأى يقول بأنها قد فرضتها الحالة المتدهورة للاقتصاد السوفيتى ، وأنها تعنى التحرر من الوهم بالنسبة للاشتراكية ، وأن ثمة أزمة بالنسبة لمثلها وأهدافها النهائية . ولا شىء يمكن أن يكون أبعد عن الحقيقة قدر هذه التفسيرات ، مها كانت الدوافع التى خلفها .

لقد كان الدافع إلى البيريسترويكا بدرجة كبيرة بالطبع هو عدم رضانا عن الطريقة التى كانت تسير بها الأمور فى بلادنا فى السنوات الأخيرة . ولكن دفع إليها لدرجة كبيرة ، الوعى بأن طاقة الاشتراكية الكامنة لم يستفد منها كما يجب . ونحن ندرك ذلك بوضوح خاص الآن فى أيام الذكرى السبعين لثورتنا . إن لدينا أساسا ماديا سليما ، وثروة من الخبرات ، ونظرة عالمية عريضة نستطيع أن نحسن بها مجتمعنا بشكل هادف ومستمر . ساعين إلى كسب عائدات متزايدة دوما ـ من حيث الكم والكيف ـ من كل أوجه نشاطنا .

ويمكننى أن أقول من البداية إن البيريسترويكا قد برهنت على أنها أصعب مما تصورناها فى البداية . وكان علينا أن نعيد تقييم أشياء عديدة . ومع ذلك ، فمع كل خطوة إلى الأمام نزداد اقتناعا بأننا اخترنا الطريق الصحيح ونتصرف بشكل سليم .

ويقول بعض الناس: إن الأهداف الطموحة التي طرحتها سياسة البيريسترويكا في بلادنا كانت وراء المقترحات السلمية التي تقدمنا بها أخيرا في المجال الدولى. وهذه مبالغة في تبسيط الأمور. فن المعروف جيدا أن الاتحاد السوفيتي يعمل منذ فترة طويلة من أجل السلام والتعاون ، وقد تقدم بعديد من المقترحات ، التي لو

قبلت لأدت إلى تطبيع الوضع الدولى.

حقا ، إننا نحتاج إلى ظروف دولية طبيعية من أجل تقدمنا الداخلى . ولكننا نريد عالما متحررا من الحرب ، وبدون سباق تسلح ، وأسلحة نووية وعنف ، ليس فقط لأن هذا وضع أفضل لتطورنا الداخلى . إنه احتياج عالمى موضوعى ينشأ من وقائع أيامنا الحاضرة .

بيد أن تفكيرنا الجديد يسير إلى مدى أبعد. فالعالم لا يعيش فحسب فى جو التهديد النووى ، وإنما فى جو مشاكل اجتماعية هامة لم تحل ، وضغوط خلفها التقدم العلمى والتكنولوجى وتفاقم المشاكل العالمية . وتواجه البشرية اليوم مشاكل لم يسبق لها مثيل ، وسيبتى المستقبل محفوفا بالخطر ما لم نجد حلولا مشتركة . وتعتمد كافة البلدان الآن على بعضها البعض أكثر من أى وقت مضى . كما أن تكديس الأسلحة ـ لاسها الصواريخ النووية ـ يجعل من اندلاع حرب عالمية ، حتى وإن يكن دون قرار من أعلى أو بطريقة عفوية ، احتمالا يتزايد باستمرار ، ويمكن أن يحدث نتيجة خلل تكنيكي أو لقابلية الإنسان للخطأ . ومع ذلك فسوف تحل الكارثة بكل ماهو حي على ظهر الأرض .

ويبدو أن كل امرئ يوافق على أنه لن يكون هناك منتصر أو خاسر فى مثل هذه الحرب . ولن يكون هناك من يبقى حيا . إنه خطر مدمر بالنسبة للجميع .

ورغم أن أفق الموت فى حرب نووية هو بدون شك السيناريو الممكن والأكثر رعبا ، فإن المسألة أكثر من ذلك . إن سباق التسلح المتصاعد ، الذى تضاعفه الحقائق العسكرية والسياسية للعالم ، والرؤية التقليدية للتفكير السياسي السابق على العصر النووى ، يعوق التعاون بين البلدان والشعوب ، والذى لاغنى عنه _ كما يرى الشرق والغرب _ إذا ما أرادت بلدان العالم أن تحافظ على الطبيعة دون أذى ، وأن تضمن الاستخدام الرشيد لمواردها ، وإعادة إنتاجها ، وبالتالى أن تبقى بشكل يناسب البشر.

حقا ، إن العالم لم يعد على نفس الحالة التي كان عليها ، ولا يمكن حل مشاكله الجديدة على أساس التفكير الذى وصل إلينا من قرون سابقة . فهل بإمكاننا أن نتمسك بالرأى القائل بأن الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى ؟ .

وباختصار ، فقد توصلنا فى القيادة السوفيتية إلى الاستنتاج القائل ونحن نردده ـ بأن هناك حاجة إلى تفكير سياسى جديد . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن القادة السوفيت يسعون بقوة إلى ترجمة هذا التفكير الجديد إلى عمل ، وأساسا فى ميدان نزع السلاح . وهذا هو الدافع وراء مبادرات السياسة الخارجية التى قدمناها بأمانة إلى العالم .

وفيما يتعلق بنطاق التفكير التاريخي الجديد، فإنه يشمل حقا كافة القضايا الأساسية لعصرنا.

ورغم كافة متناقضات عالم اليوم ، ورغم كل تنوع الأنظمة الاجتاعية والسياسية به ، ورغم كافة الخيارات المختلفة التي قامت بها البلدان في مختلف الأزمنة ، فإن هذا العالم يعتبر مع ذلك كلا واحدا . ونحن جميعا ركاب على ظهر سفينة واحدة ، هي الأرض ، وعلينا ألا نسمح بأن تغرق . فلن تكون هناك سفينة نوح ثانية .

ينبغى للسياسة أن تستند إلى الحقائق. والحقيقة الأكثر هولا في عالم اليوم هي الترسانات العسكرية الضخمة ، من كل من الأسلحة التقليدية والنووية للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي . وهذا مايلتي على بلدينا مسئولية خاصة حيال العالم بأسره . ووعيًا منا بهذه الحقيقة ، فإننا نسعى بحق إلى تحسين العلاقات السوفيتية الأمريكية ، ونحتفظ على الأقل بهذا الحد الأدنى من التفاهم المتبادل اللازم لحل المسألة الحاسمة لمستقبل العالم .

ونحن نقول صراحة : إننا نرفض المطامع الساعية إلى الهيمنة ، والادعاءات العالمية للولايات المتحدة . ونحن لا تروق لنا جوانب معينة فى السياسة وطريقة الحياة الأمريكية . ولكننا نحترم حق شعب الولايات المتحدة ، وكذلك حق أى شعب

آخر، فى الحياة وفقا لقواعده وقوانينه، وعاداته وأذواقه. ونحن نعرف ونأخذ فى الاعتبار الدور الكبير الذى تلعبه الولايات المتحدة فى العالم الحديث، ونقدر إسهام الأمريكيين فى الحضارة العالمية، ونحسب حسابا للمصالح المشروعة للولايات المتحدة، وندرك أنه بدون هذا البلد يستحيل إزالة خطر الكارثة النووية، وضمان سلم وطيد. وليست لدينا أية نوايا سيئة تجاه الشعب الأمريكي. ونحن راغبون ومستعدون للتعاون فى كافة المجالات.

ولكننا نريد أن نتعاون على أساس المساواة ، والتفاهم المتبادل والمعاملة بالمثل . فأحيانا لا يخيب أملنا فحسب ، بل تساورنا شكوك خطيرة عندما تعامل الولايات المتحدة بلدنا كمعتد ، «كإمبراطورية للشر» . وتروج كافة أشكال القصص المختلقة والمزيفة حولنا ، ويبدو العداء وعدم الثقة حيال شعبنا ، وتفرض كافة أنواع القيود بل المواقف غير المتحضرة حيالنا . وهذا قصر نظر لا يمكن أن نسمح به .

إن الوقت ينقضى ولا يجب أن نضيعه . وعلينا أن نعمل . إذ لا يسمح لنا الوضع بأن ننتظر اللحظة الأفضل : إننا اليوم بحاجة إلى الحوار الواسع والبناء . وهذا هو مانقصده عندما ننظم صلات تليفزيونية بين المدن السوفيتية والأمريكية ، وبين الأمريكيين وبين السياسيين والشخصيات العامة السوفيتية والأمريكية ، وبين الأمريكيين العاديين والمواطنين السوفيت . وتعرض وسائل الإعلام لدينا كل منظور المواقف الغربية ، بما فى ذلك أكثرها محافظة . ونحن نشجع الصلات مع المدافعين عن النظرات والمعتقدات السياسية المختلفة . وبهذه الطريقة نعبر عن إدراكنا بأن هذا الأسلوب يساعدنا على التحرك نحو عالم مقبول للطرفين .

ونحن بعيدون عن أن نعتبر نظرتنا هى النظرة الوحيدة الصحيحة . وليست لدينا حلول شاملة ، ولكننا على استعداد للتعاون بإخلاص وأمانة مع الولايات المتحدة والبلدان الأخرى فى البحث عن أجوبة لكافة المشاكل حتى أكثرها صعوبة .

overted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البابالأول البيربيستروبيكا



ماهى البيريسترويكا ؟ وما الذى دعا إلى فكرة إعادة البناء ؟ وما الذى تعنيه في تاريخ الاشتراكية ؟ وما الذى تبشر به شعوب الاتحاد السوفيتى ؟ وكيف يمكنها التأثير على العالم الخارجى ؟ كل هذه الأسئلة تشغل عامة الناس فى العالم وتجرى مناقشتها بالفعل ، ولنبدأ بالسؤال الأول

البيريسترويكا _ ضرورة ملحة

عند دراسة أصول البيريسترويكا وجوهرها فى الاتحاد السوفيتى أعتقد أن شيئا واحدا يجب أن يؤخذ فى الاعتبار . فالبيريسترويكا ليست نزوة لدى بعض الأفراد الطموحين أو مجموعة من الزعماء . ولوكانت كذلك ، لما كان بمقدور النصائح ، أو الاجتاعات الكاملة ، أو مؤتمر الحزب أن يحشد الشعب فى العمل الذى يؤديه ويشارك فيه أبناء الشعب السوفيتى بشكل متزايد كل يوم .

إن البيريسترويكا ضرورة ملحة نشأت من عمليات التطور العميقة في مجتمعنا الاشتراكي. فهذا المجتمع ناضج للتغيير، ويتوق إليه منذ أمد طويل. وأى تأخير في بدء البيريسترويكا كان بالإمكان أن يؤدى إلى تفاقم الوضع الداخلي في المستقبل القريب. وهذا ماكان سيحمل في طياته، إذا ماتحدثنا بصراحة، أزمات اجتاعية واقتصادية وسياسية خطيرة.

لقد خلصنا إلى هذه الاستنتاجات من تحليل عام وصريح للوضع الذى تطور إليه مجتمعنا بحلول منتصف الثمانينيات. وهذا الوضع وما نجم عنه من مشاكل، يواجه حاليا قيادة البلاد التي ظهرت فيها بالتدريج عناصر جديدة في السنوات القليلة الماضية. وأود أن أناقش هنا النتائج الأساسية لهذا التحليل، الذي كان

علينا خلاله أن نعيد تقييم أشياء عديدة ، ونعيد النظر فى تاريخنا القريب والبعيد نسبيا على السواء .

إن روسيا التي حدثت بها ثورة عظيمة (١) منذ سبعين عاما مضت ، بلد قديم ذو تاريخ فريد حافل بالابتكارات والإنجازات والأحداث الفاجعة . وقد قدمت للعالم كثيرا من الاكتشافات والشخصيات البارزة .

ومع ذلك ، فالاتحاد السوفيتي دولة فتية لامثيل لها في التاريخ أو في العالم الحديث . فخلال العقود السبعة الماضية ـ وهي فترة قصيرة في تاريخ الحضارة البشرية اجتازت بلادنا تاريخا يعادل قرونا . وقامت واحدة من أقوى الدول في العالم لتحل محل الامبراطورية الروسية المتخلفة ، شبه الإقطاعية وشبه المستعمرة . إن لدينا قوى إنتاج ضخمة ، وقدرة فكرية جبارة ، وثقافة رفيعة ، ومجتمعا فريدا يضم مايزيد على مائة أمة وقومية ، ورعاية اجتماعية راسخة لم ٢٨٠ مليونا من البشر فوق منطقة تشكل سدس الكرة الأرضية ـ وهذه هي منجزاتنا التي لاتمارى والتي يفخر بها الشعب السوفيتي عن حق .

وأنا لا أقول هذا كى تبدو بلادى أفضل مماكانت عليه أو مما هى عليه. ولا أريد أن أبدو كالمدافع الذى ينظر إلى « ما يخصه » على أنه الأفضل والأرقى دون شك. إن ماسبق أن قلته هو الواقع الفعلى ، والحقيقة الأكيدة ، والنتاج الواضح لعمل أجيال عديدة من شعبنا . ومن الواضح بالمثل أن تقدم بلادنا غدا ممكنا فقط ، بفضل الثورة ، وهو نتاج للثورة . إنه ثمرة الاشتراكية ، باعتبارها النظام الاجتماعى الجديد ، ونتيجة الحيار التاريخي لشعبنا . إنه يستند إلى مآثر آبائنا وأجدادنا وملايين الشعب العامل ـ من العال والفلاحين والمثقفين ـ الذين أخذوا

⁽۱) بدأت الثورة فى ۲۰ أكتوبر ۱۹۱۷ وفقا للتقويم اليوليوسى الذى استخدم فى روسيا حتى فبراير المهدم الموليوسى الذى استخدم فى روسيا حتى فبراير المهدم الخريجورى المعمول به بشكل عام . ولهذا السبب فإننا نحتفل بذكرى الثورة يوم ۷ نوفمبر.

على عاتقهم منذ سبعين عاما مضت المسئولية المباشرة عن مستقبل بلادهم.

وبودى أن يتدبر القارئ كل هذا: وإلا فسيكون من الصعب عليه أن يرى ما حدث وما يحدث في مجتمعنا. وسوف أعود إلى الجوانب التاريخية لتطورنا فيما بعد. ولكن لنوضح أولا الوضع المعقد للحد ما الذي تطور في البلاد بحلول الثمانينيات والذي جعل البيريسترويكا مسألة ضرورية حتمية.

فى مرحلة معينة ـ وهو ما أصبح واضحا على وجه الخصوص فى النصف الأخير من السبعينيات ـ حدث شىء ما لاتفسير له لأول وهلة . لقد بدأت البلاد تفقد قوة اندفاعها . وتكرر الاخفاق الاقتصادى بدرجة أكبر . وبدأت الصعوبات تتراكم وتتدهور ، والمشاكل التى لاتجد حلا تتضاعف . وبدأت تظهر فى حياة مجتمعنا عناصر ما نسميه بالركود وظواهر أخرى غريبة على الاشتراكية . وتشكل نوع من «الدولاب الكابح» الذى يؤثر على تنميتنا الاجتماعية والاقتصادية . وحدث كل هذا فى وقت أتاحت فيه الثورة العلمية والتكنولوجية آفاقا جديدة للتقدم الاقتصادى والاجتماعى .

كان هناك شيء غريب يحدث: فالحدافة الضخمة لآلة قوية كانت تدور، إما فى الوقت الذي كان فيه نقل الحركة منها إلى أماكن العمل يتبدد أو فى الوقت الذي كانت فيه سيور الحركة مرتخية للغاية.

وعند تحليل الوضع ، اكتشفنا في البداية تباطؤا في النمو الاقتصادى . فني الخمسة عشر عاما الأخيرة تدهورت معدلات نمو الدخل القومي لأكثر من النصف وبحلول بداية الثمانينيات انحفضت إلى مستوى قريب من الركود الاقتصادى . لقد بدأ البلد ، الذي كان يوما ما يلحق بسرعة ببلدان العالم المتقدمة ، يفقد موقعا بعد آخر . وبالإضافة إلى ذلك ، بدأت تتسع ، وفي غير صالحنا ، الفجوة في كفاءة الإنتاج ، وجودة المنتجات ، والتطور العلمي والتكنولوجي ، وإنتاج التكنولوجيا المتقدمة واستخدام التقنيات المتقدمة .

وأصبحت حركة اندفاع الناتج الإجالى ، وبخاصة فى الصناعات الثقيلة ، ذات أولوية قصوى ، ومجرد غاية فى ذاتها . وحدث نفس الشىء فى البناء الأساسى ، حيث أصبح قسم له وزنه من الثروة القومية رأسمالا عاطلا . وكانت هناك مشاريع مكلفة لم تبلغ أبدا أعلى المستويات العلمية والتكنولوجية . واعتبر العامل أو المؤسسة التى أنفقت أكبر قدر من العمل والمواد والأموال ، أفضلها جميعا . ومن طبيعة الأمور أن يحاول المنتج «إرضاء» المستهلك ، إذا ماسمح لى بأن أضع الأمر بهذه الصورة . غير أن المستهلك وجد نفسه ، فى حالتنا ، تحت رحمة المنتج تماما ، وكان عليه أن يرضى بما اختار الأخير أن يقدمه له . وكان ذلك مرة أخرى نتيجة لحركة اندفاع الناتج الإجهالى .

وأصبح شيئا مميزا للعديد من مديرينا الاقتصاديين ، أن يفكروا لا في كيفية زيادة الأصول القومية ، وإنما في كيفية وضع مزيد من المواد ، والعمل ، ووقت العمل في سلعة ماكي يبيعوها بسعر أعلى . وبالتالى فقد كان هناك نقص في السلع بالنسبة لكل « الناتج الإجهالي » لقد أنفقنا وما نزال ننفق في الحقيقة ، مواد خام وطاقة وموارد أخرى بالنسبة للوحدة من الناتج أكثر بكثير مما تنفقه البلدان المتطورة الأخرى . إن ثروة بلادنا بمفهوم الموارد الطبيعية وقوة العمل قد أفسدتنا . ويمكن حتى القول بأنها قد أصابتنا بالعفن . وهذا ، في الحقيقة ، السبب الرئيسي في أنه كان بإمكان بلادنا أن تتطور على نطاق واسع لعقود .

وحيث أننا تعودنا إعطاء الأولوية للنمو الكمى فى الإنتاج ، فقد حاولنا أن نوقف هبوط معدلات النمو ، ولكننا فعلنا ذلك أساسا عن طريق مواصلة زيادة النفقات : فقمنا بتعزيز صناعتى الوقود والطاقة وزدنا من استخدام الموارد الطبيعية في الإنتاج .

ومع مرور الوقت ، أصبح من الصعوبة بمكان الحصول على الموارد الطبيعية , ومن ناحية أخرى ، نتج عن الأساليب المحسنة للتوسع في

الأصول الثابتة نقص مصطنع في القوى العاملة. وفي محاولة لإصلاح الوضع بشكل ما ، بدأ دفع مكافآت كبيرة ، لا مبرر لها ، أي ، غير مكتسبة في الحقيقة ، وأدخلت كافة أنواع الحوافز غير المستحقة تحت ضغط هذا النقص ، مما أدى في مرحلة لاحقة ، إلى أسلوب التقارير المنمقة لمجرد الكسب . وزادت المواقف الطفيلية ، وبدأت مكانة العمل الواعي العالى النوعية تتراجع ، وغدت عقلية «المساواة في الأجور» منتشرة . ولم يؤد انعدام التوازن بين حجم العمل وحجم الاستهلاك ، الذي أصبح كمسار عجلة الدولاب الكابح ، إلى إعاقة نمو انتاجية العمل فحسب ، بل أدى أيضا إلى تشويه مبدأ العدالة الاجتاعية .

وهكذا كان القصور الذاتى للتنمية الاقتصادية الأفقية يقودنا إلى إخفاق وركود اقتصادى .

وكان الاقتصاد يواجه إرهاقا ماليا متزايدا . ولم يساعد بيع كميات كبيرة من النفط وغيره من موارد الوقود والطاقة والمواد الخام فى السوق العالمية إلى التحسن بل أدى إلى تفاقم الوضع فقط . واستخدمت الدخول النقدية التي تم الحصول عليها بهذه الطريقة لحل مشاكل الساعة أساسا بدلا من أن تستخدم للتحديث الاقتصادى كى نلحق بغيرنا تكنولوجيًّا .

وكان لابد لمعدلات النمو الهابطة والركود الاقتصادي من أن يؤثرا على جوانب حياة المجتمع السوفيتي الأخرى . وأثرت الانجاهات السلبية بشكل خطير على المجال الاجتماعي وأدى إلى ظهور مايسمي « بمبدأ المتبقي » والذي تلقت على أساسه البرامج الاجتماعية والثقافية ما يتبقى في الميزانية بعد ما يخصص للإنتاج . وبدا في بعض الاحيان أن «أذنا صماء» تعطى للمشاكل الاجتماعية . وبدأ المجال الاجتماعي يتخلف عن المجالات الأخرى من حيث التطور التكنولوجي ، والعاملين والخبرة ، ومن حيث ماهو أكثر أهمية وهو نوعية العمل .

ونحن نواجه هنا تناقضات أكبر، لقد ضمن مجتمعنا عالة كاملة ووفر ضانات

اجتاعية أساسية ، ولكننا عجزنا فى نفس الوقت عن أن نستخدم على الوجه الأكمل قدرة الاشتراكية على تلبية الاحتياجات المتنامية فى الإسكان ، وفى نوعية وأحيانا كمية المواد الغذائية ، وفى التنظيم المناسب للعمل فى النقل ، وفى الخدمات الصحية ، وفى التعليم وفى حل المشاكل الأخرى ، التى نشأت بالطبع فى مجرى تطور المجتمع .

وكان هناك وضع سخيف يتطور، فالاتحاد السوفيتي وهو أكبر منتج في العالم للصلب، والمواد الحام، والوقود والطاقة، يواجه نقصا فيها بسبب الاستخدام التبديدي أو غير الكفء. ورغم أنه من أكبر منتجى الحبوب للغذاء، كان عليه أن يشتري ملايين أطنان الحبوب في العام للعلف. ومع أن لدينا أكبر عدد من الأطباء، ومن أسرة المستشفيات بالنسبة لكل ألف من السكان، نجد نقصا صارخا في خدماتنا الطبية. ويمكن لصواريخنا أن تصل إلى مذنب هالى وتطير إلى الزهرة بدقة مذهلة، ولكن إلى جانب هذه الانتصارات العلمية والتكنولوجية نجد نقصا واضحا في الكفاءة في استخدام المنجزات العلمية للحاجات الاقتصادية، كما أن كثيرا من الأجهزة المنزلية السوفيتية من نوع ردىء.

ولسوء الحظ ، فليس هذا كل مافى الأمر . فقد بدأ تدهور تدريجي فى القيم الأيديولوجية والمعنوية لشعبنا .

كان واضحا لكل امرئ أن معدلات النمو تنخفض بسرعة وأن كل دولاب مراقبة الجودة لايعمل بكيفية سليمة. وكان هناك تناقص فى الاستعداد لتلقى أحدث منجزات العلوم والتكنولوجيا، وتباطر فى التحسن فى مستويات المعيشة، وكانت هناك صعوبات فى توفير المواد الغذائية، والإسكان، والسلع الاستهلاكية والخدمات.

وعلى الصعيد الأيديولوجي كذلك ، أدى الدولاب الكابح إلى مقاومة متزايدة لمحاولات تفحص المشاكل الناشئة والأفكار الجديدة بشكل دقيق وبناء.

وكانت دعاية النجاح ـ الحقيق أو المدعى ـ تحظى باليد العليا . وجرى تشجيع المديح والخنوع ، وتجاهل احتياجات وآراء الناس العاديين ، والرأى العام فى مجموعة ، وشُجّع التنظير المدرسي فى العلوم الاجتاعية وطُوّر ، بينما استبعد التفكير الحلاق من العلوم الاجتاعية ، وأعلنت أحكام وتقييات عفوية وسطحية على أنها حقائق لاتقبل الجدل . وأضعفت المناقشات العلمية والنظرية ، والتي لاغنى عنها لتطور الفكر والعمل الخلاق . وكذلك أثرت اتجاهات سلبية مماثلة على الثقافة ، والفنون والصحافة ، وأيضا على عملية التعليم والطب حيث ساد المستوى دون المتوسط ، والشكلية والمديح الصاخب أيضا .

وكان لتقديم الواقع «الخالى من المشاكل» آثاره العكسية: فقد حدث انفصال بين القول والعمل، مما حفّز على السلبية العامة وعلى عدم تصديق الشعارات التي تعلن وكان من الطبيعي تماما أن يؤدى هذا الوضع إلى فجوة في المصداقية، وأصبح كل مايعلن من فوق المنابر ويطبع في الصحف والكتب الدراسية مثار شك وتساؤل. وبدأ الفساد يسرى في الأخلاقيات العامة، والضعف يعرف طريقه إلى الشعور العظيم بالتضامن بين المواطنين والذي تشكل خلال أوقات الثورة البطولية، والخطط الخمسية الأولى، والحرب الوطنية العظمي، وإعادة التعمير فيما بعد الحرب. وزاد إدمان الخمور والمخدرات العظمي، وتغلغلت القوالب الجامدة للثقافة الجاهيرية الغريبة علينا، مما أدى إلى السوقية والأذواق الهابطة وزاد من الجدب الأيديولوجي.

وضعف توجيه الحزب ، وانعدمت المبادرة فى بعض العمليات الاجتماعية الحيوية . وأخذ كل فرد يلاحظ الركود بين القيادة وانتهاك العملية الطبيعية للتغيير فيها . وفى مرحلة معينة أدى ذلك إلى إضعاف أداء المكتب السياسي (٢)

⁽٢) المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي هو هيئة القيادة الجماعية للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي . ويجرى انتخابه في اجتماع كامل للجنة المركزية لتوجيه عمل الحزب فيما بين الاجتماعات الكاملة للجنة المركزية .

وسكرتارية (٣) اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي ، والأداء الحكومي وكذلك الحال بالنسبة لكل من اللجنة المركزية وجهاز الحزب .

وغالبا ماحل العبث السياسي والتوزيع الواسع النطاق للجوائز، والألقاب، والمكافآت محل الاهتام الحقيقي بالشعب، وبظروفه المعيشية وظروف عمله، وبخلق مناخ اجتاعي موات. ونشأ مناخ بأن «كل شيء على مايرام». وفترت المطالبة بالانضباط والشعور بالمسئولية يوما بعد يوم وبذلت المحاولات لتغطية كل ذلك بحملات صاخبة ومشروعات طنانة واحتفالات بذكري مناسبات عديدة على المستوى المركزي والمحلى. وكان عالم الواقع اليومي وعالم الرخاء الزائف يتباعدان أكثر فأكثر.

وعجز العديد من تنظيات الحزب فى المناطق عن اللهادئ ، أو فى الهادئ ، أو فى الهجوم بحزم على الاتجاهات الحاطئة ، وأسلوب تغطية البعض على البعض والتسيب فى الانضباط . وغالبا ماانتهكت مبادئ المساواة بين أعضاء الحزب وأصبح العديد من أعضاء الحزب فى المواقع القيادية فوق الرقابة والنقد ، مما أدى إلى الفشل فى العمل ، وإلى ممارسات خاطئة وخطيرة .

وظهر فى بعض المستويات الإدارية عدم احترام للقانون، وتشجيع للكلام المضلل والرشوة، والحنوع والتمجيد. وكانت الجاهير العاملة ساخطة بحق على سلوك الأشخاص اللين يحظون بالثقة والمسئولية، ومع ذلك يسيئون استخدام السلطة، ويقمعون النقد، ويجمعون الثروات، والذين تحولوا حتى إلى شركاء فى أعال إجرامية، إن لم يكونوا منظمين لها.

وإنصافا للحق ، ينبغي أن نقول إنه خلال تلك السنوات حلت كذلك

⁽٣) سكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى هى جهاز اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى التي يتتخبها الاجتاع الكامل للجنة المركزية للإشراف على العمل اليومى للحزب ، وأساسا انتقاء الكوادر وتنظيم التحقق من انجاز القرارات المتخذة .

مسائل كثيرة ذات أهمية حيوية ، بطريقة أو بأخرى . ولكن ، كانت هذه المسائل أولا مجرد بضع مشاكل شدت الاهتام منذ وقت طويل ، وثانيا ، حتى حيث اتخذت القرارات فقد نفذت جزئيا فقط ، أو لم تنفذ على الإطلاق . والأمر الأكثر دلالة أن أيا من هذه التدابير لم يكن شاملا ، ولم يتجاوز تأثيره بعض جوانب حياة المجتمع ، وترك الدولاب الكابح القائم دون مساس .

وبطبيعة الحال ، كانت تنظيات الحزب تعمل ، وأدى غالبية الشيوعيين واجبهم نحو الشعب بإخلاص وتفان . ولكن ينبغى أن نعترف بأنه لم يكن هناك جهد فعال لسد الطريق أمام غير الأمناء ، والمحابين الذين يسعون وراء مصالحهم الحاصة . وبشكل عام ، فقد تخلفت الخطوات العملية التى اتخذتها هيئات الحزب والدولة عن متطلبات العصر وعن الحياة نفسها . وتراكمت المشاكل بسرعة أكثر مماكانت تحل . وبشكل عام ، فقد أصبح المجتمع بصورة متزايدة صعب القياد . واعتقدنا فقط أننا نمسك بزمام الأمور ، بيناكان الوضع الناشئ بالفعل شبيها بما حذرنا منه لينين : فلم تكن السيارة تتجه إلى حيث يعتقد من يجلس على عجلة القيادة .

ولاينبغى أن نطلى هذه الفترة بألوان داكنة فقط. فقد عملت الغالبية الساحقة من الشعب السوفيتي بأمانة. وواصل العلم والاقتصاد والثقافة التطور ومع ذلك ، فقد كانت الظواهر السلبية مؤلمة ولا يمكن الساح بها.

أعتقد أننى قلت مافيه الكفاية لتدركواكم كان الوضع خطيرا وكم كان التغيير الشامل ملحا.

وقد وجد الحزب القوة والشجاعة لكى يقيم الوضع بدقة ويعترف بضرورة إجراء تغييرات وتحويلات أساسية .

وقادنا الموقف الأمين وغير المتحيز إلى الاستنتاج المنطقي الوحيد بأن البلاد على شفا أزمة. وقد أعلن هذا الاستنتاج في اجتماع أبريل ١٩٨٥ الكامل للجنة

المركزية ، الذي دشن استراتيجية البيريسترويكا الجديدة وصاغ مبادئها الأساسية .

وأود أن أؤكد هنا أن هذا التحليل بدأ منذ وقت طويل قبل اجتماع أبريل الكامل. وعلى ذلك فقد درست استنتاجاته بعناية. إنه لم يكن شيئا غير متوقع وإنما هو رأى متوازن. وسيكون من الخطأ الاعتقاد بأنه بعد شهر من الاجتماع الكامل للجنة المركزية في مارس ١٩٨٥، والذي انتخبني سكرتيرا عاما، ظهرت فجأة مجموعة من الناس تفهم كل شيء وتعرف كل شيء، وإن هؤلاء الناس قدموا إجابات حاسمة لكل المسائل. إن مثل هذه المعجزات ليس لها وجود.

كانت الحاجة إلى التغيير تختمر ليس فقط فى مجال الحياة المادى وإنما فى الوعى الشعبى كذلك . وانتقد الناس الذين يمتلكون خبرة عملية وإحساسا بالعدالة والتزاما بمثل البلشفية الأسلوب القائم للعمل ، وأشاروا بقلق إلى أعراض التدهور والضعف المعنوى للمثل الثورية والقيم الاشتراكية .

وبدأ العال والفلاحون والمثقفون ، والمسئولون فى الحزب على المستوى المركزى والمحلى ، يفكرون فى أوضاع البلاد . وكان هناك إدراك متزايد بأن الأمور لا يمكن أن تسير على ماهى عليه لوقت أطول . وتفجرت الحيرة والسخط لأن القيم العظيمة التى ولدتها ثورة أكتوبر والنضال البطولى من أجل الاشتراكية قد وطئتها الأقدام .

ورأى كل الشرفاء بمرارة أن الناس يفقدون اهتامهم بالشئون الاجتاعية ، وأن العمل لم تعد له مكانته المحترمة ، وأن الناس ، وبخاصة الشباب ، يجرون وراء الكسب بأى ثمن . لقد كان لدى شعبنا على الدوام قدرة حقيقية على تبين الفجوة بين الأقوال والأفعال . ولا غرابة فى أن الحكايات الشعبية الروسية مليئة بالسخرية من الناس الذين يحبون التباهى والمظاهر ، كما أن الأدب الذى لعب على الدوام دورا عظيا فى حياة بلادنا الروحية لايعرف رحمة إزاء كل مظاهر الظلم وسوء استخدام السلطة . وقد حاول الكتاب ، ومنتجو الأفلام ، ومخرجو المسرح

والممثلون، فى أفضل أعالهم، أن يدعموا إيمان الشعب بالمنجزات الأيديولوجية للاشتراكية، ويأملوا فى انبعاث روحى للمجتمع، وأعدوا الشعب معنويا للبيريسترويكا، رغم القيود البيروقراطية بل والاضطهاد.

وعندما أقول كل ذلك فإنما أربد أجعل القارئ يدرك أن طاقة التغيير الثورى تتجمع بين شعبنا وفى الحزب منذ بعض الوقت. وأن أفكار البيريسترويكا لاتدفع إليها مجرد المصالح والاعتبارات البرجاتية ، وإنما يدفع إليها كذلك ضميرنا المعذب ، والتزامنا العنيد بالمثل التي ورثناها عن الثورة ، وكنتيجة للبحث النظرى الذي أعطانا معرفة أفضل بالمجتمع وعزز تصميمنا على السير إلى الأمام.

التوجمه إلى لينين ، مصدر أيديولوجي للبيريسترويكا

إن الدافع الذى منح الحياة لثورتنا العظيمة كان قويا لدرجة لاتسمح لحزبنا وشعبنا بأن يقبلا الظواهر التى تهدد بتبديد مكاسبها. وبقيت أعال لينين ومثله عن الاشتراكية ، بقيت بالنسبة لنا معينا لاينضب للفكر الإبداعي الجدلى ، والإثراء النظرى والحصانة السياسية . وكانت صورته نفسها مثالا لايخبو للقوة المعنوية النظرى والحصانة الروحية الشاملة ، وتكريس الذات لقضية الشعب النبيلة ، وللثقافة الروحية الشاملة ، وتكريس الذات لقضية الشعب وللاشتراكية . إن لينين يعيش في عقول ملايين الناس وأفئدتها . وينمو الاهتام بتراث لينين والتعطش إلى معرفته على نطاق أوسع في كتاباته الأصلية مع تراكم الظواهر السلبية في المجتمع .

والتوجه إلى لينين ، حفز الحزب والمجتمع إليه بدرجة كبيرة سعيها للعثور على تفسيرات وإجابات عن الأسئلة التي طرحت . وجذبت مؤلفات لينين في السنوات الأخيرة من حياته الاهتمام بشكل خاص . وسوف أسوق خبرتي الخاصة لإثبات ذلك في تقريري بتاريخ ٢٢ أبريل ١٩٨٣ في الاجتماع الجماهيري المكرس للذكري ١١٣ لميلاد لينين أشرت إلى معتقدات لينين حول الحاجة لأن نضع في الاعتبار متطلبات

القوانين الاقتصادية ، حول التخطيط والحساب الاقتصادى (ئ) ، والاستخدام الماهر للعلاقات السلعية ـ النقدية والحوافز المادية والمعنوية . وأيد المستمعون بحاس هذه الإشارة إلى أفكار لينين . وأحسست مرة أخرى ، أن أفكارى تتفق مع مشاعر زملائى أعضاء الحزب وكثير من الناس الذين تشغلهم مشاكلنا بشكل جاد ، والذين يريدون بإخلاص أن يصححوا الأوضاع . وفى الحقيقة ، فقد شعر الكثيرون من زملائى أعضاء الحزب بالحاجة الملحة إلى تجديد المجتمع ، إلى التغيير . ومع ذلك ينبغى أن أقول إنني شعرت كذلك بأن التقرير لم يرق للجميع ، وأنه لم يكن متفائلا بالقدر الذي تطلبه الوقت عند ذاك .

واليوم يوجد لدينا فهم أفضل لمؤلفات لينين الأخيرة ، التي كانت في جوهرها وصيته السياسية ، وندرك بشكل أكثر وضوحا سبب ظهور هذه المؤلفات . فعندما اشتدت وطأة المرض على لينين كان شديد القلق على مستقبل الاشتراكية . وأدرك الأخطار التي تترصد النظام الجديد . وعلينا أيضا أن ندرك هذا القلق . لقد رأى أن الاشتراكية تواجه مشاكل هائلة ، وأن عليها أن تكافح بقدر كبير من أجل ماعجزت الثورة البرجوازية عن تحقيقه . ومن ثم استخدام أساليب لم تكن تبدو جوهرية بالنسبة للاشتراكية نفسها ، أو على الأقل ، اختلفت في بعض الوجوه عن بعض بالنسبة للاشتراكية نفسها ، أو على الأقل ، اختلفت في بعض الوجوه عن بعض الأفكار الكلاسيكية المقبولة بشكل عام للتطور الاشتراكي .

والفترة اللينينية على جانب كبير من الأهمية في الحقيقة . وهي تعلمنا لأنها برهنت على قوة الجدل الماركسي اللينيي ، الذي تستند استنتاجاته على تحليل الوضع

⁽٤) الحساب الاقتصادى هو أسلوب لعمل أى مؤسسة فى إطار الخطة الاقتصادية القومية . إنه يستهدف مؤسسة تستخدم وسائل الإنتاج المملوكة ملكية عامة وتسدد كافة النفقات والمدفوعات لميزانية الدولة من الأرباح التى تحققها من بيع المنتجات . والأفكار العلمية والتكنولوجية ، والخدمات وما إلى ذلك، ومع ذلك، تمول الدولة برامج توسع وتحدث المؤسسات . ومن طريق الحساب الاقتصادى الكامل . الذي طبق عام ١٩٨٧ تمول المؤسسة كل نفقاتها بنفسها . ويذلك تخفض مدفوعاتها إلى ميزانية الدولة .

التاريخي الفعلى. لقد أدرك الكثيرون مناحتي قبل اجتماع أبريل الكامل بوقت طويل أنه يجب إعادة تقييم كل ما يتعلق بالاقتصاد ، والثقافة ، والديموقراطية والسياسة الخارجية وكافة المجالات . والشيء المهم أن نترجم ذلك إلى لغة الحياة اليومية العملية .

برنامج أعد بعناية ، وليس إعلانا طنانا

إن مفهوم إعادة البناء بكل مايتضمنه من مشاكل قد نشأ بالتدريج. وقبل اجتماع أبريل الكامل بدأت مجموعة من قادة الحزب والدولة تحليلا شاملا لحالة الاقتصاد. وأصبح تحليلهم بعد ذلك ، أساسا لوثائق البيريسترويكا. لقد صغنا الأفكار الأساسية ورسمنا سياسة بدأنا تنفيذها فيما بعد ، مستخدمين توصيات العلماء والخبراء ، وكل إمكانياتنا وأفضل ما أبدعه الفكر الاشتراكي .

وهكذا تراكمت ترسانة من الأفكار البناءة. وعلى ذلك فنى اجتماع أبريل ١٩٨٥ الكامل توصلنا إلى اقتراح برنامج منسق ومدروس بعناية لابأس بها ، وإلى وضع استراتيجية محددة لمواصلة تطور البلاد وخطة للعمل . وكان من الواضح أن الترميم والترقيع التجميلي ليسا بكافيين ، وأن هناك حاجة إلى فحص دقيق شامل . كما لم يكن بالإمكان الانتظار ، فقد أضعنا كثيرا من الوقت كها حدث .

وكانت أول مسألة طرحت تتعلق بتحسين الوضع الاقتصادى. ووقف الاتجاهات غير المواتية في هذا المجال ومحاولة عكسها.

وكانت الأولوية العاجلة للغاية التى تطلعنا إليها بالطبع فى البداية ، أن نعيد تنسيق الاقتصاد بشكل ما ، وأن نشدد الانضباط ، وأن نرفع مستوى التنظيم والمسئولية ، وأن نلحق بغيرنا فى المجالات التى تخلفنا عنهم فيها . وتم القيام من أجل ذلك بعمل شاق ، ولايزال متواصلا ، وقد أعطى نتائجه الأولى كها كان متوقعا . وتوقفت معدلات النمو الاقتصادى عن التدهور ، بل إنها تبدى بعض أمارات التحسن .

وللتأكيد، رأينا أن هذه الوسائل وحدها لن تضغى دينامية كبيرة على الاقتصاد، وكان معروفا لنا أن الأولويات الرئيسية تكمن فى مكان آخر فى إعادة متعمقة لتنظيم هيكلة الاقتصاد، وفى إعادة بناء قاعدته المادية، وفى تكنولوجيات جديدة، وفى تغييرات فى سياسة الاستثار، وفى مستويات عالية من الإدارة. وكل هذا يعنى شيئا وأحدا تسريع التقدم العلمى والتكنولوجي.

وبالتأكيد لم يكن من قبيل الصدفة أن كان أول تحرك قامت به القيادة الجديدة للاتحاد السوفيتي بعد اجتاع أبريل الكامل هو مناقشة هذه الأمور في اجتاع موسع (كونفرنس) هام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي في يونيو ١٩٨٥. ولم تكن هذه المناقشة من النوع الذي اعتدناه لسنوات طويلة. فقد وجه فيها الكثير من الانتقادات ـ المريرة والمتحمسة. بيد أن الشيء الرئيسي الذي جرت مناقشته يتعلق بالطرق والوسائل الفعالة للانتقال إلى اقتصاديات مكثفة ، إلى نوعية جديدة من النمو الاقتصادي.

وخلال ذلك العام ، وضعت برامج شاملة هامة فى المجالات الجوهرية للعلم والتكنولوجيا . وهى ترمى إلى التوصل إلى تقدم هام والوصول إلى المستوى العالمى مجلول نهاية القرن .

وفى الواقع ، فإن لدينا الآن استثارا وسياسة هيكلية جديدة . لقد تحول التركيز من البناء الجديد إلى إعادة التجهيز التكتيكى للمؤسسات ، وإلى توفير الموارد ، ورفع جودة المنتج بشكل جاد . وسنواصل إيلاء اهمام كبير لتطوير صناعات التعدين . وفى بحال تزويد الاقتصاد بالمواد الأولية والوقود والطاقة الكهربائية ، سيكون التركيز على تطبيق تكنولوجيات موفرة لهذه الموارد وعلى ترشيد استخدامها .

وقد طورنا برنامجا خاصا لتحديث الصناعة الهندسية ، التي تعرضت للإهمال . ويهدف البرنامج إلى التجديد الكامل للمنتجات الهندسية والتوصل إلى المستوى

العالمي مع بداية التسعينيات. ويشمل البرنامج، بالتأكيد، تحويلا جذريا للدولاب الاقتصادى، الحيوى كما نعرف جيدا، لاندفاع التقدم التكنولوجي وزيادة الكفاءة الاقتصادية.

وتمثل هذه المسألة أهمية خاصة ، مما يوجب على أن أعود إليها أكثر من مرة ، في العديد من صفحات هذا الكتاب .

لقد كان الاقتصاد ، وسوف يظل بالطبع ، شاغلنا الرئيسي . ولكننا في نفس الوقت بدأنا في تغيير الوضع المعنوى والنفسي في المجتمع . وإذا ما عدنا إلى السبعينيات لوجدنا كثيرا من الناس يدركون أنه لاغني لنا عن تغييرات هامة في التفكير والتكوين النفسي ، وفي تنظيم شكل وأساليب العمل في كل مكان _ في الحزب ، وفي جهاز الدولة ، وفي المراتب العليا وقد حدث ذلك في اللجنة المركزية للحزب ، وفي الحكومة ، وفي أماكن أخرى كذلك . وكانت هناك حاجة الى تغييرات معينة في العاملين . وشغل أشخاص جدد مواقع قيادية ، أشخاص فهموا الوضع جيدا ، ولديهم أفكار عا يجب عمله وكيفية ذلك .

وبدأ صراع لا هوادة فيه ضد انتهاكات مبادئ العدالة الاشتراكية دونما اعتبار لمن ارتكب هذه الانتهاكات. وأعلنت سياسة تقوم على المصارحة. وأعطيت الفرصة لمن يتحدثون لصالح الحزب والحكومة والهيئات الاقتصادية والمنظات العامة ويباشرون نشاطهم علانية بأن يدلوا بآرائهم بصراحة ، وأزيلت كافة القيود وصور الحظر التي لا مبرر لها.

لقد توصلنا إلى استنتاج أنه بدون تنشيط العامل البشرى ، أى بدون أن نأخذ فى الاعتبار المصالح المختلفة للناس ، وأسر العمل ، والهيئات العامة ، والمجموعات الاجتاعية المختلفة ، وبدون أن نعتمد عليهم ، ونجذبهم إلى المشاركة فى المساعى البناءة النشطة ، فسيكون من المستحيل علينا أن نحقق أيًا من المهام المرسومة ، أو نغير الوضع فى البلاد .

لقد أعجبت منذ فترة طويلة بعبارة جديرة بالملاحظة قدمها لينين: إن الاشتراكية هي الإبداع الحي للجاهير. والاشتراكية ليست خطة نظرية مسبقة تتطابق مع أى مجتمع ينقسم إلى مجموعتين: الذين يعطون الأوامر والذين يتبعونهم. وأنا ضد مثل هذا الفهم الميكانيكي المبسط للاشتراكية.

إن الناس ، بكل تنوعهم الإبداعي هم صناع التاريخ . وهكذا فإن المهمة الأولية لإعادة البناء ــ التي تعتبر شرطا ضروريا لا غني عنه إذا ما أريد لها النجاح ــ تتمثل في « إيقاظ » هؤلاء الناس الذين « استسلموا للنوم » واستثارة فعاليتهم ليكونوا نشطين ومهتمين حقا ، وفي كفالة شعور كل امرئ كما لو أنه سيد البلاد ، وسيد مؤسسته ، أو مكتبه ، أو معهده . وهذا هو الشيء الرئيسي .

ويعتبر دفع الفرد إلى المشاركة فى كافة العمليات الجانب الأهم فيها نقوم به . وعلى البيريسترويكا أن تقدم « بوتقة » للمجتمع ، وفى المحل الأول للفرد نفسه . وسيكون مجتمع تم تجديده . وهذا مايكشف عن مدى جدية المهمة التي بدأنا فى حلها ، وهي مهمة فى غاية الصعوبة . ولكن الهدف جدير بالجهد .

إن كل مانقوم به يمكن تفسيره وتقييمه بشكل مختلف. وإليكم قصة قديمة : فقد اقترب مسافر من بعض الناس الذين يقيمون بناء وسألهم واحدا واحدا : « ما الذي تفعله ؟ » وأجاب أحدهم مستفزا : « انظر ، إننا من الصباح حتى الليل نحمل هذه الأحجار اللعينة .. » ونهض آخر من على ركبتيه وشد كتفيه وقال بفخار : « إننا نبني معبدا ، كما ترى ! » .

وهكذا فإذا كان أمامك هذا الهدف النبيل معبد مضىء فوق ربوة خضراء فستكون أثقل الأحجار خفيفة ، وأشق الأعمال ممتعة .

ولكى تصنع شيئا بشكل أفضل ، سيكون عليك أن تعمل بجد أكبر. إننى أحب هذه العبارة : العمل بجد أكبر. وهي بالنسبة لي ليست مجرد شعار ، وإنما

طريقة معتادة للتفكير، واقتناع. وأية مهمة يقوم بها المرء يجب أن يفهمها ويحسها بروحه وعقله وقلبه وعند ذلك فقط سيعمل المرء بجد أكبر.

والشخص ذو المعنويات الضعيفة لن يعمل بجد أكبر. وعلى العكس، فإنه يستسلم أمام الصعوبات، إذ أنها تقهره. ولكن إذا ما كان الشخص قوى المعتقدات والمعرفة، مرتفع المعنويات، فلا يمكن قهره، وبإمكانه أن يقاوم أى عواصف. ونحن نعرف ذلك من تاريخنا.

ومهمتنا الرئيسية اليوم هي أن نرفع من روح الفرد ، ونحترم عالمه الداخلي ، ونعطيه قوة معنوية . ونحن نسعى لأن نجعل كل قدرات المجتمع الفكرية ، وكل إمكانياته الثقافية تعمل من أجل تشكيل شخص نشط اجتاعيا ، وغنى روحيا ، ومستقيم وحى الضمير . وينبغى أن يعرف كل فرد ويشعر أن هناك حاجة إلى إسهامه ، وأن كرامته لا تخدش ، وأنه يعامل بثقة واحترام . وعندما يرى الفرد كل ذلك ، فإن في مقدوره أن يحقق الكثير .

والبيريسترويكا بالطبع تؤثر بشكل ما على كل فرد ، فهى تنزع الكثيرين من حالة الهدوء المعتادة ، والرضى عن طريقة الحياة القائمة . وأعتقد أن من المناسب هنا أن ألفت انتباهكم إلى أحد السهات الخاصة بالاشتراكية . وتحضرنى الدرجة العالية من الحهاية الاجتماعية في مجتمعنا . إنها من ناحية ، ودون شك ميزة وإنجاز هام لنا . ومن ناحية أخرى ، تجعل من بعض الناس عالة على غيرهم .

ولا توجد لدينا بالفعل أى بطالة . فقد أخذت الدولة على عاتقها الاهتام بضان العالة . وحتى الشخص الذى يفصل لكسله أو لخرقه انضباط العمل يجب أن تقدم له وظيفة أخرى . وقد أصبحت مساواة الأجور كذلك سمة دائمة لحياتنا اليومية : وحتى إذا كان الشخص عاملا رديئا ، فإنه يحصل على مايكفيه لحياة معقولة ومريحة . وأطفال أى طفيلى غير متحفظ لن يتركوا تحت رحمة القدر . ولدينا مبالغ هائلة من الأموال مكثفة فى الصناديق الاجتاعية يتلقى منها الشعب

مساعدة مالية . وتقدم نفس الصناديق إعانات لرعاية دور الحضانة والملاجئ ودور الطلائع (٥) وغيرها من المؤسسات التي ترتبط بإبداع الأطفال وبالرياضة . والرعاية الصحية مجانية ، وكذلك التعليم . ويجد الناس الحاية ضد تقلبات الحياة ، ونحن نفخر بذلك .

ولكننا نجد فى نفس الوقت أن الناس غير المحلصين يحاولون استغلال ميزات الاشتراكية هذه ، وهم يعرفون حقوقهم فحسب ، ولكنهم لايريدون أن يعرفوا واجباتهم : إنهم يعملون بتكاسل ، ويتهربون ، ويتعاطون المسكرات بكثرة . وهناك قلة من الناس بالفعل كيفوا القوانين والسياسات القائمة مع مصالحهم الحاصة الأنانية . وهم لا يعطون المجتمع سوى القليل ، ولكنهم مع ذلك يعملون على أن يحصلوا منه على كل ما يمكن ، بل وحتى على ما يبدو مستحيلا ، وهم يعيشون على دخول لم يتكسبوها .

إن سياسة إعادة البناء تضع كل شيء في مكانه. ونحن نحيى تماما مبدأ الاشتراكية: «من كل حسب قدرته ، ولكل حسب عمله » ، ونسعى إلى تأكيد العدالة الاجتاعية للجميع ، والحقوق المتساوية للجميع ، وقانون واحد للجميع ، ونوع واحد للانضباط للجميع ، وشعور عال بالمسئولية لكل فرد . والبيريسترويكا ترفع من مستوى التوقع والمسئولية الاجتاعية . والوحيدون من بين الناس الذين يتعضون من التغيرات هم من يعتقدون أن لديهم بالفعل مايحتاجون إليه ، فما اللماعى إذا لأن يتكيفوا من جديد ؟ ولكن إذا ما كان شخص ما حى الضمير ، ولم ينس مايتعلق بخير شعبه ، فإنه لا يستطيع ــ ولا يجب عليه ــ أن يفكر بمثل هذه الطريقة . ثم تكشف الجلاسنوست ، أو العلانية ، أن شخصا ما يحظى بامتيازات غير مشروعة ، ونحن لم يعد بإمكاننا أن نتسامح حيال الركود أكثر من ذلك .

^(°) دور وتصور الطلائع ــ مؤسسات بجانب المدرسة تغرس فى التلاميذ حب العمل والمعرفة والاهتمام بها ، وتطور القدرات الاجتماعية والتوجهات المهنية للجيل الشاب .

إننا نطرح المسألة بالطريقة التالية: إن كل شخص ، عاملا كان أم مديرا . مشغل آلات زراعية أم مدير ناد ، صحفيا أم سياسيا ، لديه مايعيد النظر فيه : ق أسلوبه وطرقه في العمل ، ويحتاج إلى أن يقيم بشكل نقدى وضعه الخاص . ولقد طرحنا مهمة التغلب على القصور الذاتي والنزعة المحافظة بشكل جاد ــ كي نستثير كبرياء كل فرد ، غرور كل فرد . ووجد هذا صدى لدى كثير من الناس ـ وهم الغالبية ، رغم أن استجابة البعض كانت سلبية ، وبخاصة هؤلاء الذين مازالوا على تشبهم بالقديم ، وينبغي أن ننظر إلى أنفسنا كذلك من زاوية ما إذا كنا نعيش ونعمل وفقا لما يمليه علينا ضميرنا . وربما نكون في بعض الأمور قد انحرفنا عن الصواب ، وتبنينا معايير غريبة علينا ، وعلى سبيل المثال ، فقد بدأت تنتقل عن الصواب ، وتبنينا معايير غريبة علينا ، وعلى سبيل المثال ، فقد بدأت تنتقل الينا عدوى عقلية شيوعية سوقية . وإذا ماتعلمنا أن نعمل بشكل أفضل ، وأن نكون أكثر أمانة ، وأكثر جدارة بالاحترام ، فسوف نقيم عندئذ طريقة حياة اشتراكية حقا .

ومن الحيوى أن نتطلع إلى الأمام. ويجب أن نتزود من الخبرة السياسية والفهم النظرى والشجاعة المدنية بما يكنى لتحقيق النجاح، وضمان أن البيريسترويكا سوف تلبى المعايير الأخلاقية الرفيعة للاشتراكية.

ونحن نريد عملا متحمسا ومأمونا من جانب كل المنظات العامة ، وكل فرق الإنتاج والاتحادات الإبداعية ، وأشكالا جديدة من النشاط من جانب المواطنين وإحياء ما تم نسيانه منها . وباختصار ، فإننا في حاجة إلى إشاعة الديموقراطية الواسعة في كل جوانب المجتمع . وتعتبر إشاعة الديموقراطية كذلك الضمان الأساسي لأن تكون العمليات الحالية لا رجعة فيها .

ونحن نعرف الآن أنه كان بمقدورنا أن نتجنب كثيرا من هذه المصاعب لو تطورت العملية الديموقراطية بشكل عادى في بلادنا.

وقد تعلمنا هذا الدرس من تاریخنا جیدا ولن ننساه أبدا. وسوف نتمسك

الآن بجزم بالخط القائل: بأنه من خلال التطوير الثابت للأشكال الديموقراطية الكامنة في الاشتراكية فحسب أو من خلال توسيع الحكم الذاتي يمكننا أن نحقق تقدما في الإنتاج والعلم، والتكنولوجيا، والثقافة، والفن، وفي كافة المجالات الاجتاعية. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكننا بها ضهان الانضباط الواعي. والبيريسترويكا نفسها يمكنها أن تتحقق فقط من خلال الديموقراطية. وحيث أننا نرى أن مهمتنا تتمثل في الكشف عن إمكانيات الاشتراكية والاستفادة منها عن طريق تكثيف العامل البشرى، فليس أمامنا من طريق آخر سوى إشاعة الديموقراطية، بما في ذلك إصلاح الدولاب الاقتصادي والإدارة، إصلاحا يكون عنصره الرئيسي هو تطوير أسر العمل.

ولأننا نؤكد ، على وجه الدقة ، على تطوير الديموقراطية الاشتراكية ، فإننا نولى اهتماما كبيرا للمجال الفكرى ، والوعى الشعبى وللسياسة الاجتماعية النشطة . وبذلك نريد أن ننشط العامل البشرى .

غالبا مايصور لينين في الغرب على أنه مدافع عن أساليب الإدارة المتسلطة . وهذه علامة على الجهل التام بأفكار لينين ، وعلى تشويهها المتعمد في كثير من الأحيان . وفي الحقيقة ، فإن الاشتراكية والديموقراطية لاتنفصلان ، وفقا لما يقول لينين . وتصل الجهاهير العاملة إلى السلطة عن طريق كسب الحريات الديموقراطية . كما أن بإمكانهم ، في ظروف توسيع الديموقراطية فقط ، أن يعززوا ويحققوا هذه السلطة . وهناك فكرة أخرى صحيحة تماما للينين تقول : بأنه كلما اتسع نطاق العمل وازداد عمق الإصلاح ، كلما كانت هناك حاجة أكبر إلى زيادة الاهتمام به ، وإلى إقناع ملايين وملايين الناس بضرورته . وهذا يعني أننا إذا كنا قد بدأنا إعادة بناء شاملة وجذرية ، فيجب أن نكشف كذلك عن كل إمكانيات الديموقراطية .

ومن المضرورى أن نتعلم كذلك كيف نعدل السياسة بما يتمشى وطريقة تقبل ٣٢.

الجاهير لها ، وأن نضمن التغذية الخلفية ، وأن نتشرب الأفكار والآراء والنصائح الواردة من الشعب . وتقترح الجاهير كثيرا من الأشياء المفيدة والهامة التي لاتجد إدراكا لها اليوم « من أعلى » . ولهذا السبب فعلينا أن نمنع ، مها كلفنا الأمر ، الموقف المتعجرف إزاء ما يقوله الناس . وفي الاعتبار النهائي ، فإن أهم شيء لنجاح البيريسترويكا هو موقف الشعب منها .

وهكذا ، لم تدفعنا النظرية فحسب ، وإنما دفعنا واقع العمليات التي تجرى إلى البدء في البرنامج الخاص بالتغييرات الديموقراطية الشاملة في الحياة العامة ، والذي قدم إلى اجتماع يناير ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي .

وشجع الاجتماع الكامل الجهود الواسعة لتقوية الأساس الديموقراطي للمجتمع السوفيتي ، ولتطوير شبكة الحكم الذاتي . ونحن نرى الآن كم كان هذا الدافع حافزا للشعب . فالتغييرات الديموقراطية تجرى في كل أسرة عمل ، وفي كل منظمة حكومية وعامة ، وفي داخل الحزب . إن مزيدا من الجلاسنوست والرقابة الحقيقية من «أسفل» ومزيدا من المبادرة والجرأة في العمل قد أصبح الآن جزءا لا يتجزأ من حياتنا .

لقد طورت العملية الديموقراطية البيريسترويكا بكاملها ، ورفعت مستوى أهدافها ، وجعلت مجتمعنا يفهم مشاكله بطريقة أفضل . وسمحت هذه العملية لنا بأن ننظر إلى المسائل الاقتصادية برؤية أوسع ، وأن نتقدم ببرنامج للاصلاحات الاقتصادية الجذرية . إن الدولاب الاقتصادى يتمشى الآن بشكل جيد مع النظام الشامل للإدارة الاجتماعية الذي يرتكز على مبادئ ديموقراطية متجددة .

وقمنا بهذا العمل فى اجتماع يونيو ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى ، الذى تبنى «أسس إعادة البناء الجذرى للإدارة الاقتصادية ». وربما كان ذلك أهم برامج الإصلاح الاقتصادى ، وأكثرها

جذرية منذ طبق لينين سياسته الاقتصادية الجديدة عام ١٩٢١. ويستهدف الإصلاح الاقتصادى الحالى تحويل التركيز من أساليب الإدارة فى الأساس إلى أساليب التدبير الاقتصادى فى الأساس وفى كل مستوى ، ويدعو إلى إشاعة ديموقراطية الإدارة على نطاق واسع ، وإلى التنشيط الشامل للعامل البشرى .

ويرتكز الإصلاح على زيادة استقلال المؤسسات والاتحادات بدرجة كبيرة ، ونقلها إلى الحساب الاقتصادى الكامل والتمويل الذاتى ، ومنح كافة الحقوق المناسبة لأسر العمل . وستكون الآن مسئولة بشكل كامل عن الإدارة ذات الكفاءة والنتائج النهائية . وسوف تتناسب أرباح أسرة العمل تناسبا طرديا مع كفاءتها .

وفي هذا الخصوص، فإننا نستهدف إعادة تنظيم جذرية للإدارة الاقتصادية المركزة لصالح المؤسسات. وسوف نحرر الإدارة المركزية من مهام التدخل في إدارة المؤسسات مما يمكنها من التركيز على العمليات الرئيسية التي تحدد استراتيجية النمو الاقتصادى. ولكى نجعل من ذلك حقيقة بدأنا إصلاحا جذريا جادا في النخطيط، وفي تشكيل الأسعار، وفي الدولاب المالي والاثنماني، وفي شبكة الإمدادات المادية والتكنولوجية للإنتاج، وإدارة التقدم العلمي والتكنولوجي، والعمل والجال الاجتماعي. ويهدف هذا الإصلاح ـ خلال العامين أو الأعوام الثلاثة التالية ـ إلى الانتقال من نظام الإدارة المغالي في مركزيته والذي يعتمد على الأوامر، إلى نظام ديموقراطي، يرتكز على ربط المركزية الديموقراطية بالإدارة الذاتية.

ويعتبر تبنى المبادئ الأساسية لتغيير جوهرى فى الإدارة الاقتصادية خطوة كبيرة إلى الأمام فى برنامج البيريسترويكا والآن تتعلق البيريسترويكا بالفعل بكل الجوانب الرئيسية فى الحياة العامة ولسوف تتطور ، بالطبع ، أفكارنا عن محتويات وأساليب وأشكال البيريسترويكا ، وتزداد وضوحا وتصحح فها بعد .

وهذا أمر طبيعى ومحتوم . إنها عملية حية . وسوف تطرح التغييرات ، بلاشك ، مشاكل هامة جديدة تحتاج إلى حلول غير تقليدية . بيد أن مفهوم البيريسترويكا العام ، وخطتها العامة ، واضحان لنا ، ليس فقط من حيث الجوهر ، وإنما كذلك من حيث المكونات .

وتعنى البيريسترويكا التغلب على عملية الركود ، وتحطيم الدولاب الكابح ، وخلق دولاب فعال يعول عليه لتسريع التقدم الاجتاعي والاقتصادي وإعطائه دينامية أكبر.

وتعنى البيريسترويكا مبادرة الجاهير. إنها التطوير الشامل للديموقراطية ، والحكم الذاتى الاشتراكى ، وتشجيع المبادرة والمسعى الخلاق ، وتحسين النظام والانضباط ، ومزيدا من الجلاسنوست ، والنقد والنقد الذاتى فى كافة بجالات مجتمعنا . إنها أقصى احترام للفرد ومراعاة للكرامة الشخصية .

والبيريسترويكا هي التكثيف الشامل للاقتصاد السوفيتي ، وإحياء وتطوير مبادئ المركزية الديموقراطية في إدارة الاقتصاد الوطني ، والتطبيق الشامل للأساليب الاقتصادية ، والتخلي عن الإدارة بالأوامر والأساليب الإدارية ، والتخلي والإقدام الاشتراكي .

وتعنى البيريسترويكا تحولا حازما إلى الأساليب العلمية ، وقدرة على توفير أساس علمى صلب لكل مبادرة جديدة . وهى تعنى ربط منجزات الثورة العلمية والتكنولوجية بالاقتصاد المخطط .

وتعنى البيريسترويكا إيلاء الأولوية لتطوير المجال الاجتماعي بهدف التلبية الأفضل دوما لاحتياجات الشعب السوفيتي لمعيشة وظروف عمل طيبة ، ولراحة واستجام وتعليم ورعاية صحية طيبة . وهي تعنى اهتماما دائبا بالثروة الثقافية والروحية ، وبثقافة كل فرد وثقافة المجتمع ككل .

وتعنى البيريسترويكا أن نزيل من المجتمع التشويهات للأخلاق الاشتراكية ،

والتنفيذ الثابت لمبادئ العدالة الاشتراكية . كما تعنى وحدة الأقوال والأفعال ، والحقوق والواجبات . إنها ترفع مستوى العمل الأمين العالى التأهيل ، والتغلب على اتجاهات مساواة الأجور والنزعة الاستهلاكية .

وهذه هى الصورة التى نرى بها البيريسترويكا اليوم. هذه هى الصورة التى نرى بها مهامنا ، وجوهر ومحتوى عملنا للفترة القادمة . وإنه لمن الصعب الآن أن نقول كم من الزمن سوف تستغرق هذه الفترة . وستكون بالطبع أطول كثيرا من عامين أو ثلاثة أعوام . ونحن مستعدون للعمل الجاد ، والشاق والمضنى لكى نضمن أن تصل بلادنا إلى آفاق جديدة بحلول نهاية القرن العشرين .

وغالبا ما يسألوننا عما نريد من البيريسترويكا . وماهى أهدافنا النهائية ؟ ومن الصعوبة بمكان أن نقدم إجابة تفصيلية ودقيقة . ونحن لا نحب أن نشغل أنفسنا بالتنبؤ ومحاولة تقدير كافة العناصر المعارية للمبنى العام الذى نشيده في عملية البيريسترويكا .

ولكن بإمكانى أن أقول من حيث المبدأ: إن النتيجة النهائية للبيريسترويكا واضحة لنا. إنها تجديد دقيق لكافة جوانب الحياة السوفيتية ، يتمثل فى إعطاء الاشتراكية أكثر الأشكال تقدمية فى التنظيم الاجتماعى ، والعرض الأكمل للطبيعة الإنسانية لنظامنا الاجتماعى فى جوانبه الحاسمة ـ الاقتصادية ، والاجتماعية والسياسية ، والمعنوية .

وأؤكد مرة أخرى أن البيريسترويكا ليست نوعا من التنوير أو الإلهام. إن إعادة بناء حياتنا يعنى فهم الضرورة الموضوعية للتجديد والتسريع. وقد نشأت هذه الضرورة فى قلب مجتمعنا. ويكن جوهر البيريسترويكا فى حقيقة أنها توحد الاشتراكية مع الديموقراطية ، وتبعث إلى الحياة بالمفهوم اللينيني للبناء الاشتراكي من الناحية النظرية والتطبيقية على السواء. وهذا هو جوهر البيريسترويكا الذى يفسر روحها الثورية الحقة ونطاقها الشامل.

إن الهدف جدير بالجهد . ونحن على يقين من أن جهدنا سيكون إسهاما هاما في التقدم الاجتماعي للبشرية .

مزيد من الاشتراكية ومزيد من الديموقراطية

ترتبط البيريسترويكا ارتباطا وثيقا بالاشتراكية كنظام. وتجرى مناقشة هذا الجانب من الموضوع على نطاق واسع ، وبخاصة فى الحارج ، ولن يكون حديثنا عن البيريسترويكا واضحا تماما إذا لم نتناول هذا الجانب.

هل تعنى البيريسترويكا أننا نتخلى عن الاشتراكية أو على الأقل عن بعض جوانبها؟ البعض يوجه هذا السؤال وهو يراوده الأمل. بينا آخرون يراودهم الشك.

وهناك أناس فى الغرب يودون أن يقولوا لنا : إن الاشتراكية تعانى من أزمة حادة ، وقد وصلت بمجتمعنا إلى طريق مسدود . وهم بذلك يفسرون تحليلنا الانتقادى للوضع فى نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات . وهم يقولون : بأن أمامنا مخرجا واحدا : أن نتبنى أساليب رأسمالية للإدارة الاقتصادية والنماذج الاجتاعية ، وأن ننجرف ناحية الرأسمالية .

وهم يقولون لنا : إن البيريسترويكا لن تؤدى إلى نتيجة داخل إطار نظامنا . ويقولون : إن علينا أن نغير هذا النظام ، وأن نستعير من خبرة نظام اجتاعى سياسي آخر . وهم يضيفون إلى ذلك أنه إذا ما سار الاتحاد السوفيتي في هذا الطريق ، وتخلى عن خياره الاشتراكي . فن المفروض أن تصبح الصلات الوثيقة مع الغرب ممكنة . وهم يذهبون بعيدا ويدعون بأن ثورة أكتوبر ١٩١٧ كانت خطأ عزل بلادنا تماما تقريبا عن التقدم الاجتماعي العالمي .

ولكى أضع حدا لكافة الشائعات والتخمينات التى تكثر فى الغرب عن ذلك ، أود أن أوضح مرة أخرى أننا نقوم بكل إصلاحاتنا وفقا للخيار

الاشتراكي. ونحن نبحث داخل الاشتراكية وليس خارجها عن إجابات لكافة الأسئلة المطروحة. ونحن نُقيِّم نجاحاتنا وأخطاءنا على السواء بمعايير اشتراكية. والذين يأملون بأننا سنبتعد عن الطريق الاشتراكي سيصابون بخيبة أمل كبيرة. ولهذا السبب فإن كل قسم من برنامج البيريسترويكا والبرنامج ككل يرتكز بكامله على مبدأ مزيد من الاشتراكية، ومزيد من الديموقراطية.

إن مزيدا من الاشتراكية تعنى مسعى ديناميا وجهدا إبداعيا ، ومزيدا من التنظيم ، والقانون والنظام ، ومزيدا من الأساليب العلمية والمبادرة فى الإدارة الاقتصادية ، والكفاءة فى الإدارة ، وحياة أغنى ماديا وأفضل للشعب .

ومزيد من الاشتراكية تعنى مزيدا من الديموقراطية ، والعلانية والجاعية فى الحياة اليومية ، ومزيدا من الثقافة والإنسانية فى الإنتاج ، والعلاقات الاجتماعية والشخصية بين الناس ، ومزيدا من الكرامة واحترام الذات بالنسبة للفرد .

ومزيد من الاشتراكية تعنى مزيدا من الوطنية والطموح لمثل نبيلة . ومزيدا من الاهتمام المدنى بشئون البلاد الداخلية ، وبتأثيرها الإيجابي على الشئون الدولية .

وفى كلمات أخرى ، مزيد من كل هذه الأشياء الكامنة فى الاشتراكية وفى المبادئ النظرية التي تميزها كتشكيل اجتماعي ـ اقتصادى متميز .

ولسوف ننطلق نحو اشتراكية أفضل بدلا من أن نبتعد عنها . ونحن نقول ذلك بأمانة ، دون أن نحاول خداع شعبنا أو العالم . وأية آمال بأننا سنبدأ بناء مجتمع آخر غير اشتراكي وننتقل إلى المعسكر الآخر آمال غير واقعية وخاطئة . والذين يتوقعون منا في الغرب أن نتخلي عن الاشتراكية سيصابون بخيبة أمل . لقد آن الأوان لكي يدركوا هذا ، بل ماهو أكثر أهمية ، أن ينطلقوا من مفهومنا في علاقاتهم العملية مع الاتحاد السوفيتي .

وبعد هذا الكلام ، أود أن يكون واضحا تماما ، أننا نحن الشعب السوفيتي ، رغم أننا مع الاشتراكية (وقد شرحت سابقا السبب في ذلك) ، فإننا لانفرض

آراءنا على أى فرد. وليقرركل امرئ خياره ، فسوف يضع التاريخ كل شيء في مكانه. واليوم كما قلت لمجموعة من الشخصيات العامة الأمريكية (سايروس فانس ، هنرى كيسنجر وآخرين) فإننا نشعر بوضوح كما لم يحدث من قبل بأنه بفضل النظام الاشتراكي والاقتصاد المخطط ، تجرى التغيرات في سياستنا الهيكلية بسهولة أكبر بالنسبة لنا عنها في ظروف المؤسسة الخاصة ، رغم الصعوبات الخاصة التي نواجهها ، كذلك .

إننا نريد مزيدًا من الاشتراكية ، وبالتالى مزيدًا من الديموقراطية .

وكما نفهم الأمر، فإن صعوبات ومشاكل السبعينيات والثمانينيات لا تعنى نوعا ما من الأزمة بالنسبة للاشتراكية كنظام اجتاعى وسياسى، ولكنها بالأحرى نتيجة لعدم الثبات بما فيه الكفاية فى تطبيق مبادئ الاشتراكية، وللانحرافات عنها وحتى تشويهها، وللتمسك المتواصل بأساليب وأشكال الإدارة الاجتاعية التى نشأت فى ظروف تاريخية معينة فى المراحل الأولى للتطور الاشتراكى.

وعلى العكس ، فالاشتراكية كنظام اجتماعي فني ، وكطريقة للحياة ، تملك إمكانيات ضخمة للتطور الذاتي والإتقان الذاتي ، وعلينا أن نكشف عنها . وتملك إمكانيات ضخمة كذلك لحل المشاكل الرئيسية للتقدم العلمي والتكنولوجي ، والاقتصادي ، والثقافي ، والفكري للمجتمع المعاصر ، ولتطوير الإنسان الفرد . وهذا مايشير إليه الطريق الذي اختارته بلادنا منذ أكتوبر ١٩١٧ ، الطريق الذي كان مليئا بصعوبات عديدة ، وأحداث فاجعة ، وعمل مجهد ، كما كان مليئا في نفس الوقت بانتصارات وإنجازات عظيمة .

دروس التاريخ

يصح القول بأن تطور مابعد الثورة مر بمراحل صعبة ، ويرجع ذلك بدرجة كبيرة إلى التدخل الفظ للقوى الإمبريالية في شئوننا الداخلية ، كما حدثت أخطاء في

السياسة وفى التقديرات والحسابات. ورغم ذلك تقدم الاتحاد السوفيتى ، وقام مجتمع تتوفر فيه لدى الناس الثقة بمستقبلهم. وإذا كانت الحقيقة رائدنا ، فإن أى مراقب موضوعى عليه أن يعترف بأن التاريخ السوفيتى هو بشكل عام تاريخ تقدم لاشك فيه ، رغم كل الحسائر والانتكاسات والنقائص : لقد تقدمنا فى ظل انعدام وجود طرق بالمعنى الحرفى والمجازى : لقد حدنا عن الطريق أحيانا وارتكبنا أخطاء ، وأريقت دماء وبذل عرق أكثر مما يجب على هذا الطريق . ولكننا واصلنا السير بعناد ولم نفكر أبدا فى التراجع والتخلى عن الأرض التى كسبناها أو فى وضع اختيارنا الاشتراكى محل تساؤل .

ومن الصعب أن نتصور أنه كان بإمكاننا ، ونحن نسير نحو مستقبل غير معروف ، أن نتجنب الانتكاسات ، وأن نجد كل مانريده مجهدا كرصيف شارع نفسكى بروسبكت (١) . ولنأخذ التصنيع ، على سبيل المثال . في أية ظروف حققناه ؟ إن الحرب الأهلية وتدخل ١٤ دولة أجنبية (١٠) تركا البلاد مخربة تماما . كما كان هناك حصار اقتصادى و «عزل صحى » . ولم يكن هناك تراكم ولامستعمرات ، وإنما على العكس ، كان من الضرورى استخدام الأموال المتوفرة لتحسين مناطق الأطراف القومية التي عانت من الاضطهاد في ظل العنصرية . ولكى نقذ مكتسباتنا الاشتراكية ، كان علينا أن نبني _ وبسرعة _ قاعدة صناعية وطنية بمواردنا الداخلية ، بالحد من الاستهلاك وتقليصه إلى الحد الأدنى . ووقع العبء المادى لهذا البناء الجديد على الشعب ، الذي شكل الفلاحون غالبيته .

⁽٦) يعتبر شارع نفسكى بروسبكت فى ليننجراد الشارع الرئيسى فى المدينة . وهو يسير فى خط مستقيم تماما . ويستخدم فى اللغة الروسية كاستعارة لوصف من يعتقدون بأن التطور الاجتماعى يمكن أن يسير فى طريق مستقيم مماثل .

 ⁽٧) الحرب الأهلية والتدخل الأجنبي (١٩١٨ - ١٩٢٢) - نضال الجمهورية السوفيتية ضد الثورة المضادة وغزو القوات البريطانية ، والفرنسية ، والأمريكية ، والألمانية ، واليابانية والبولندية وغيرها لأجزاء من أراضيه (شارك في الغزو ١٤ دولة).

وكان علينا ، فى الواقع ، أن نبنى الصناعة ، وبخاصة الصناعة الثقيلة وصناعات القوى وبناء الآلات ، من لاشىء . وبدأنا بجرأة نحقق هذه المهمة . إن حيوية خطط الحزب ، التى فهمتها الجاهير وتقبلتها ، وحيوية الشعارات والمشروعات المشربة بالطاقة الأيديولوجية لثورتنا ، قد أفصحت عن نفسها فى الحاس الذى انضم به ملايين الناس السوفيت إلى الجهود المبذولة من أجل بناء الصناعة الوطنية . وقد أذهل هذا الحاس العالم . فنى ظل ظروف حرجة للغاية ، وبعيدا عن منازلهم فى الغالب ، وبدون أية آلات عادة ، وفى ظروف عدم توفر الغذاء ، صنعوا المعجزات من لاشىء . واستمدوا الإلهام من أن قضيتهم قضية عظيمة وتاريخية . ورغم أنهم لم يكونوا على معرفة جيدة ، فقد أدركوا المهمة العظيمة والفريدة التى يؤدونها . وكان هذا حقا مأثرة عظيمة باسم مستقبل وطنهم وإظهارا لإخلاص الشعب للاختيار الحر الذى قرره فى عام ١٩١٧ .

لقد تغلب آباؤنا وأجدادنا على كل ما واجههم وقدموا إسهاما حاسما لتطوير وتعزيز مجتمعنا فى وقت كان لابد فيه من تقرير مستقبله كله.

كان التصنيع في العشرينيات والثلاثينيات حقا اختبارا قاسيا للغاية . ولنحاول الآن بإدراك متأخر ، أن نجيب على السؤال : هل كان التصنيع ضروريا ؟ هل كان بإمكان بلد واسع مثل بلادنا أن يعيش في القرن العشرين دون أن يكون دولة متطورة صناعيا ؟ ثم لقد كان هناك سبب آخر أوضح لنا على الفور كذلك أنه لم يكن أمامنا من خيار سوى الإسراع في التصنيع . فنذ ١٩٣٣ بدأت الفاشية تنمو بسرعة . فأين كان يمكن أن يكون العالم الآن إذا لم يكن الاتحاد السوفيتي قد سد الطريق أمام آلة الحرب الهتلرية ؟ لقد سحق شعبنا الفاشية بقوته الجبارة التي بناها في العشرينيات والثلاثينيات . فإذا لم يكن قد حدث تصنيع ، لكنا قد أصبحنا في مواجهة الفاشية بدون سلاح .

إننا لم نجد أنفسنا تحت جرارات الفاشية . لقد عجزت كل أوربا عن وقف

هتلر، ولكننا سحقناه. وهزمنا الفاشية ليس فقط بفضل بطولة جنودنا وتضحياتهم، وإنما بفضل صلبنا الأفضل، ودباباتنا وطائراتنا الأفضل. وكل هذا صنعته فترتنا السوفيتية.

أو لنأخذ « الجماعية » . وأنا أعرف كم من الخيال والتأمل والنقد الخبيث لنا يتعلق بهذا المصطلح ، ناهيك عن العملية نفسها . بيد أن العديد من الدارسين الموضوعيين لهذه الفترة من تاريخنا لايبدو أنهم قادرون على فهم أهمية وضرورة الحاجة إلى الأخذ بالجماعية في بلادنا .

وإذا ما ألقينا نظرة علمية وصادقة حقا على ظروف ذلك الوقت ، وعلى السات الخاصة لتطور مجتمعنا ، المجتمع السوفيتي ، وإذا لم نغمض أعيننا عن التخلف البالغ للإنتاج الزراعي ، الذي لم يكن بإمكانه أن يتغلب على هذا التخلف إذا مابق إنتاجا صغيرا ومجزءا ، وإذا ما حاولنا أخيرا ، أن نقيم بشكل سليم النتائج الفعلية لتطبيق الجاعية ، فلابد من التوصل إلى استنتاج بسيط واحد : لقد كانت الجاعية عملا تاريخيا عظيما ، وأهم تغيير اجتماعي منذ ١٩١٧ . نعم لقد تقدمت بصعوبة شديدة ، وليس بدون تجاوزات وأخطاء فاضحة في الأساليب ومعدل التقدم . بين أن مواصلة التقدم بالنسبة لبلادناكانت ستبدو شبه مستحيلة بدونها . لقد وفرت الجاعية أساسا اجتماعيا لتحديث القطاع الزراعي من الاقتصاد ، وجعلت بالإمكان إدخال أحدث الأساليب الزراعية . وضمنت نمو الانتاجية وأقصى زيادة في الناتج . وهو ماكان يستحيل الحصول عليه لو ترك الريف في حالته السابقة ، حالة العصور الوسطى بالفعل ، دون مساس . وبالإضافة إلى ذلك ، حررت إدخال الجاعية موارد عالاكثيرين كانت ثمة حاجة إليهم في مجالات التنمية الأخرى في عمعنا ، وفي المقام الأول في الصناعة .

لقد غيّر تطبيق الجماعية ، ولكن ليس بسهولة وعلى الفور ، غيّر كل طريقة حياة الفلاحين ، وجعل بإمكانهم أن يصبحوا طبقة متمدينة حديثة من المجتمع . ولولا

تطبيق الجهاعية . ماكان بإمكاننا حتى أن نفكر اليوم فى إنتاج الحبوب بكمية تبلغ ٢٠٠ مليون طن ، كما تقضى خطتنا للمستقبل القريب . ومع ذلك ، فقد تخطينا بالفعل إجهالى إنتاج الحبوب فى بلدان السوق المشتركة معا ، رغم حقيقة أن عدد سكانتا أقل .

ومع ذلك ، فمن الصحيح أننا سنواجه نقصا فى العديد من المواد الغذائية ، وبخاصة فى منتجات الماشية . ولكن بدون تطبيق الجاعية ماكنا ننتج الآن بالنسبة للفرد الواحد ماننتجه بالفعل . وهو مايسد معظم احتياجاتنا الحيوية . ومما له أهمية خاصة ، أن إمكانية المجاعة ونقص التغذية قد أزيلت إلى الأبد من بلادنا . وكانت تلك هى محنة روسيا لقرون عديدة . ومن حيث الغذاء الغنى بالسعرات ، يحتل الاتحاد السوفيتي مكانه على وجه التحديد بين البلدان المتطورة . والمسألة الرئيسية هى أن بفضل تطبيق الجاعية وتاريخها الذي يزيد على خمسين عاما ، اكتسبنا القدرة على أن نرفع _ فى مجرى إعادة البناء _ كل القطاع الزراعي إلى مستوى نوعى جديد .

نعم لقد كان التصنيع وتطبيق الجاعية فى الزراعة أمرين لاغنى عنها. وإلا ماكان بالإمكان إعادة تعمير البلاد. بيد أن أساليب وأشكال تحقيق هذه الاصلاحات لم تكن تتفق على الدوام مع المبادئ الاشتراكية ، ومع الأيديولوجية والفلسفة الاشتراكية . ولعبت الظروف الخارجية دورا أساسيا فقد كانت البلاد تحس بخطر عسكرى مستمر عليها ولكن إلى جانب ذلك كانت هناك تجاوزات، وسطوة الضغط الإدارى ، ومعاناة الناس هكذا كانت الأمور فى الحقيقة . وكان هذا قدر بلادنا ، بكل تناقضاتها ، بما فى ذلك الإنجازات العظيمة ، والأحطاء الفاجعة ، والأحداث المأساوية .

نعم ، لقد كانت لدينا كذلك أوقات صعبة ، أوقات صعبة للغاية من حين لآخر ، بعد الانتصار في الحرب . وأتذكر رحلاتي بالقطار من جنوب روسيا إلى موسكو للدراسة في أواخر الأربعينيات . لقد رأيت بأم عيني ستالينجراد ،

وروستوف ، وخاركوف ، وأوريل ، وكورسك ، وفورونيز المخربة . وكان هناك الكثير من أمثال هذه المدن المخربة : ليننجراد ، كييف ، مينسك ، أوديسا ، سيفاستوبول ، سمولنسك ، بريانسك ، نونجورود كل شيء كان خرابا : مئات وآلاف المدن ، والمبلدان والقرى ، والمصانع ، والمعامل . ونهبت أقيم آثارنا الثقافية أو دمرت ـ متاحف وقصور الفن ، والمكتبات والكنائس .

وقالوا فى الغرب فى ذلك الوقت إن روسيا لن تستطيع أن تنهض حتى فى ماثة عام ، وأنها ستبقى خارج السياسة الدولية لوقت طويل قادم لأنها ستركز على تضميد جراحها بشكل ما . واليوم يقولون ـ بعضهم بإعجاب وآخرون بعداء صريح ـ إننا دولة عظمى ! لقد بعثنا بلادنا ورفعناها بجهودنا الخاصة ، مستفيدين من الإمكانيات الهائلة للنظام الاشتراكى .

ولا يمكننا إلا أن نذكر جانبا آخر من الموضوع غالبا ما يجرى تجاهله أو السكوت عليه فى الغرب . ولكن بدونه يستحيل ببساطة فهمنا ، نحن الشعب السوفيتى . فإلى جانب المنجزات الاقتصادية والاجتاعية ، كانت هناك أيضا حياة جديدة ، كان هناك حاس بناة عالم جديد ، وإلهام الأشياء الجديدة والمدهشة ، وشعور حاد بالفخار بأننا وحدنا ، وبدون مساعدة وليس لأول مرة ، نرفع بلادنا على أكتافنا ، كان الناس يتعطشون إلى المعرفة والثقافة ويستوعبونها . كانوا مبتهجين بالحياة ، يربون أطفالهم ، ويؤدون أعالهم اليومية . وقد قمنا بكل هذا فى جو جديد تماما يختلف لحد كبير عاكان قائما قبل الثورة ، فى جو من الطمأنينة والمساواة ، والفرص الهائلة أمام الجاهير العاملة . ونحن نعرف جيدا ماقدمته لنا الاشتراكية . وباختصار ، فقد عاش الخاس وعملوا بشكل خلاق فى كل مراحل التطور السلمى لبلادنا . والرسائل التى أتلقاها من مواطنى تقول باعتزاز : لقد كنا أفقر من الآخرين ، ولكن حياتنا كانت حية وشيقة بدرجة أكبر.

إن أربعة عشر من بين كل خمسة عشر مواطنا ممن يعيشون في الاتحاد السوفيتي

اليوم ولدوا بعد الثورة. ومازال هناك من يحثنا على أن نتخلى عن الاشتراكية. فما الذى يدفع الشعب السوفيتى ، الذى نما وازداد قوة فى ظل الاشتراكية ، إلى التخلى عن هذا النظام؟ إننا لن نألوا جهدا لتطوير ودعم الاشتراكية. وأعتقد أن الحد الأدنى من إمكانيات النظام الجديد هو ما أمكن الاستفادة منه حتى الآن.

ولهذا السبب نجد اقتراحات غريبة _ بعضها حتى مخلص _ بأن نغير نظامنا الاجتماعي ونتجه إلى الأساليب والأشكال المميزة لتشكيل اجتماعي مختلف والذين يتقدمون بمثل هذه المقترحات لايدركون أن ذلك مستحيل حتى ولوكان هناك من يرغب في تحويل الاتحاد السوفيتي إلى الرأسمالية ولنفكر : كيف يمكن أن نوافق على أن ١٩١٧ كان خطأ ، وأن كل السنوات السبعين من حياتنا ، وعملنا ، وجهدنا ، ومعاركنا كانت كذلك خطأ تاما ، وأنناكنا نسير في « الاتجاه الخاطئ » ؟ كلا ، فإن نظرة دقيقة وغير متميزة لحقائق التاريخ تنتهي فقط إلى استنتاج واحد : إن الخيار الاشتراكي هو الذي نقل روسيا المتخلفة سابقا إلى « المكان الصحيح » _ المكان الذي يشغله الاتحاد السوفيتي الآن في تقدم البشرية .

وليس ثمة مايحملنا على أن نتحدث عن ثورة أكتوبر الاشتراكية بصوت خفيض، كما لوكنا خجلين منها . إن نجاحاتنا هائلة ولا مراء فيها . ولكننا نرى الماضى في مجموعه وبتعقيداته : ولا تحول أضخم إنجازاتنا بيننا وبين أن نرى التناقضات في تطور مجتمعنا ، وأخطاءنا وإهمالنا لواجباتنا . إن أيديولوجيتنا نفسها حاسمة وتورية بطبيعتها .

وعندما نبحث عن جذور مشاكل اليوم وصعوباتها فإننا نفعل ذلك لكى نفهم منشأها ونستخلص دروس حياتنا الحالية من أحداث تعود إلى الثلاثينيات.

والشيء الأهم بالنسبة لنا الآن في التاريخ السابق: هو أننا من خلال فهمه نصل إلى إدراك أصول البيريسترويكا. لقد تشكل تاريخنا تحت تأثير قوى لعوامل مصاحبة بيد أنه تاريخنا ، وتكمن فيه مصادر البيريسترويكا.

ولكن لماذا حدث كل ماجعل البيريسترويكا ضرورية ؟ ولماذا تأخرت ؟ ولماذا استمرت أساليب العمل القديمة فترة طويلة ؟ وكيف حدث التزمت العقائدى في وعينا الاجتماعي وفي النظرية ؟.

كل هذا يحتاج إلى تفسير. نحن نجد فى تحليلنا وشرحنا كثيرا من البراهين على أن الحزب والمجتمع قد أدركا أن العمليات السلبية تنمو. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الوعى بالحاجة إلى التغيير قد أفصح عن نفسه بشكل حاد أكثر من مرة . ولكن التغييرات لم تتواصل واتسمت بعدم الثبات تحت ثقل تراث الماضى بكل خصائصه السائدة .

وكان المؤتمر العشرون (٨) للحزب الشيوعي السوفيتي معلما هاما في تاريخنا . فلقد قدم إسهاما كبيرا لنظرية وممارسة البناء الاشتراكي . وخلال المؤتمر وبعده ، بذلت محاولة هامة لتحويل دفة تقدم البلاد ، ولإعطاء دفعة للتحرر من الجوانب السلبية للحياة الاجتماعية ـ السياسية التي ولدتها عبادة شخص ستالين .

وساعدت قرارات المؤتمر على مباشرة تدابير سياسية واقتصادية واجتاعية وأيديولوجية هامة . بيد أن الإمكانيات التى ظهرت لم تستغل بشكل كامل . ويجد ذلك تفسيره فى الأساليب الذاتية التى أقرتها القيادة فى عهد خروتشوف . وساد الارتجال الإدارة الاقتصادية . وجعلت أفكار وأعال القيادة العنيدة والمتغيرة ، المجتمع والحزب فى حالة محمومة . وأدت الوعود والتوقعات الطموحة والتى لاتستند إلى أساس ، أدت من جديد إلى انفصال الأقوال عن الأفعال .

ولهذا السبب ، فني المرحلة التالية ، التي كان معلمها الرئيسي اجتماع أكتوبر

⁽٨) عقد المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى السوفيتى من ١٤ ــ ٢٥ فبراير ١٩٥٦ ، ووافق المؤتمر على توجيهات الحطة الحمسية السادسة للتنمية الاقتصادية للبلاد للفترة ١٩٥٦ ـ ١٩٦٠ ، واكتشف مبدأ التعايش السلمى بين الدول ذات الأنظمة الاجتماعية المختلفة كما ينطبق على الفترة الحالية ، وأدان عبادة شخصية ستالين وآثارها .

1978 الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي (١) مكانت الخطوة الأولى تتمثل في التغلب على هذه التدابير المتطرفة ومقاومتها واتخذت سياسة ترمي إلى الاستقرار وكانت سياسة لها مايبررها تماما ولقيت مساندة الحزب والشعب وظهرت بعض النتائج الإيجابية وكانت القرارات التي صيغت وأقرت مدروسة ومعللة بصورة أفضل وكانت بداية الإصلاح الاقتصادي عام ١٩٥٦ (١٠٠) واجتماع مارس ١٩٦٥ الكامل للجنة المركزية المكرس للزراعة مبادرتين هامتين تهدفان إلى تغييرات إيجابية في الاقتصاد بيد أنها وهنتا بعد أن أعطنا تأثيرا هاما وإن كان مؤقتا .

وأدى جو الرضا عن الذات والعملية الطبيعية لتغيير القيادة إلى الركود ، وإلى إعاقة تقدم البلاد . وقد سبق لى أن وصفت ذلك . وفى نفس الوقت تطلب الوضع بدرجة أكبر قرارات هامة ودؤوبة لتحسين دولاب الإدارة الاقتصادية والاجتاعية .

فما هي الاستنتاجات التي استخلصناها من دروس التاريخ ؟.

أولا: لقد أثبت الاشتراكية كنظام اجتماعي أنها تملك إمكانيات هائلة لحل أعقد مشاكل التقدم الاجتماعي . ونحن على قناعة بقدرتها على تخليص نفسها من المآخذ ، وعلى مواصلة المزيد من الكشف عن إمكانياتها ، وعلى معالجة المشاكل الهامة الحالية للتقدم الاجتماعي التي تنشأ مع اقترابنا من القرن الحادي والعشرين .

وفى نفس الوقت ، فنحن ندرك أن تحسين الاشتراكية ليس عملية تلقائية ، ولكنه مهمة تحتاج إلى اهتمام كبير ، وتحليل صادق وغير متحيز للمشاكل ، ورفض

 ⁽٩) أعنى الاجتاع الكامل الذى عقد فى ١٤ أكتوبر ١٩٦٤ نيكيتا حروتشوف من واجباته كسكرتير أول
 للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى ، وانتخب ليونيد بريجنيف لهدا المنصب .

⁽١٠)كان الإصلاح الاقتصادى لعام ١٩٥٦ يهدف إلى تحسين دولات النشاط الاقتصادى فى الصناعة والبناء ، مع التأكيد على الربح .

حازم لكل ما أصبح باليا . وقد أصبحنا نرى أن التدابير المترددة لن تفيد فى هذا الخصوص . وعلينا أن نعمل على جهة عريضة ، بثبات ونشاط ، ودون أن نعجز عن اتخاذ أجرأ الخطوات .

وهناك استنتاج آخر ــ يعتبر فى رأيى أهم استنتاج ــ يتمثل فى أننا يجب أن نعتمد على مبادرة الجاهير وإبداعيتها ، وعلى المشاركة النشطة لأوسع أقسام السكان فى تنفيذ الاصلاحات المرسومة ، وعلى إشاعة الديموقراطية مرة أخرى .

ما الذي ألهمنا أن نبدأ البريسترويكا

إنه لمن الخطأ بل والضار أن ننظر إلى المجتمع الاشتراكى باعتباره شيئا جامدا لا يتغير، وأن نرى فى تحسينه جهدا لتكييف الواقع المعقد مع المفهومات والصيغ المقررة مرة وإلى الأبد. إن مفهومات الاشتراكية تواصل تطورها، ويجرى إثراؤها على الدوام مع وضع الخبرة التاريخية والظروف الموضوعية فى الاعتبار.

لقد تعلمنا على الدوام ، ومانزال نتعلم من موقف لينين الخلاق من نظرية وممارسة البناء الاشتراكى . ونحن نستخدم مناهجه العلمية ونستوعب منه فى تحليل الأوضاع الملموسة .

ومع استمرار البيريسترويكا ، فإننا ندرس مؤلفات لينين المرة بعد الأخرى ، وبخاصة مؤلفاته الأخيرة .

لقد قدمت لنا كلاسيكيات الماركسية اللينينية تعريفا للخصائص الجوهرية للاشتراكية . وتحدثت عن مراحلها للاشتراكية . وتحدثت عن مراحلها التي يمكن التنبؤ بها نظريا . ومهمتنا أن نتبين مايجب أن تكون عليه المرحلة الحالية . وسيكون علينا أن نمر بالفعل بهذه المرحلة ، لأن الكلاسيكيات تعلمنا المدخل وليس التكنيك .

وتواجهنا هذه المرحلة الجديدة بالحاجة إلى إعادة النظر في كثير من المسائل

النظرية والأفكار القائمة عن الاشتراكية ، معتمدين على تراث لينين ومناهجه . ومثل هذه المراجعة هامة للغاية حيث أنه لم يجر التمسك على الدوام بأفكار لينين فى السنوات التى أعقبت وفاته .

ودفعنا الوضع الخاص فى البلاد إلى قبول أشكال وأساليب للبناء الاشتراكى تتفق مع الظروف التاريخية . وقد جرى تمجيد هذه الأشكال وتقديسها وتحولت إلى عقيدة جامدة . ومن ثم كانت هذه الصورة العقيمة للاشتراكية ، والمركزية المبالغ فيها فى الإدارة ، وإهمال التنوع الفنى للمصالح البشرية ، والتهوين من الدور النشط الذى يلعبه الناس فى الحياة العامة واتجاهات المساواة الصريحة .

ولنأخذ نموذج الإدارة الاقتصادية . فالوضع التاريخي الخاص الذي تطور فيه الاتحاد السوفيتي ، وظروفنا الصعبة ، لا يمكن إلا وأن تؤثر على هذا النموذج . إن التهديد بالحرب ، ثم وقوع أكثر الحروب دموية ودمارا في التاريخ كان من الممكن أن يكون صعبا حتى بدونها ، ومحاولة إعادة التعمير فيما بعد الحرب ، كل ذلك أدى إلى نشأة المركزية الصارمة في الإدارة . ونتيجة لذلك تقلصت الأسس الديموقراطية لنظام الإدارة لدينا .

ولنعد الآن إلى كيف تطور هذا التناقض . عندما بدأت روسيا السوفيتية الفنية بناء مجتمع جديد ، كانت تقف وحدها ضد العالم الرأسمالى ، وتواجه الحاجة إلى التغلب السريع على التخلف الاقتصادى والتكنولوجي ، وتقيم صناعة حديثة عمليا من لاشيء . وقامت كذلك بنشاط لم يسبق له مثيل .

وكان علينا ، لكى نقوم بذلك ، أن نزيد بشكل حاد من نسبة المدخرات فى دخلنا القومى وخصص الجزء الأكبر من الأموال لتطوير الصناعة الثقيلة ، بما فى ذلك صناعة الدفاع . ولم نطرح على الإطلاق السؤال ، كم كلفتنا هذه الأولوية ، أو ظل فى أفضل الأحوال فى الخلفية . ولم تضن الدولة بأية نفقات ، وكان الشعب راغبا فى تقديم التضحيات من أجل تقدم بلاده السريع ، ومن أجل. قدراتها

الدفاعية ، واستقلالها وخيارها الاشتراكي .

وكان الغرض من نظام الإدارة الذى وضع ، هو أن يلبى هذه الأهداف . وكان ممركزا بشكل قاس . وخطط التكليفات حتى آخر التفاصيل . وحدد المهام بحزم ورصد أحوال الميزانية . وأنجز رسالته .

ومع ذلك ، فلا يمكننا أن نعزو مثل هذه الإدارة كلية إلى الظروف الموضوعية . فقد كانت هناك مقدمات خاطئة وقرارات ذاتية . وعلينا أن نضعها فى أذهاننا كذلك ونحن نقيم مشاكلنا اليوم . ومهاكان الأمر ، فقد بدأ نظام الإدارة الذى تشكل فى الثلاثينيات والاربعينيات يتناقض تدريجيا مع مطالب وظروف التقدم الاقتصادى . واستنفدت إمكانياته الإيجابية . وأصبح يشكل عقبة أكثر فأكثر ، وأدى إلى نشأة الدولاب الكابح الذى أنزل بناكثيرا من الأضرار فيما بعد . وكانت الأساليب التى تطلبتها الأوضاع الصعبة ماتزال تستخدم .

وهنا دفعت النزعة العقائدية إلى تطور اقتصاد « منهك » (١١) ، اكتسب قوة دفع كبيرة واستمر فى الوجود حتى منتصف الثمانينيات . وفى ذلك تكمن جذور « نظرة إجمالى الناتج » (١٢) التى سادت اقتصادنا حتى وقت قريب .

وفى هذه الظروف ظهر اتجاه متحيز لصالح دور العلاقات السلعية ـ النقدية وقانون القيمة فى ظل الاشتراكية . وغالبا ماقيل إنهما يتعارضان مع الاشتراكية وغريبان عليها . وارتبطكل هذا بالتقليل من شأن حساب الربح والخسارة ، وأدى إلى الفوضى فى تحديد الأسعار ، وإلى تجاهل دورة النقود .

وفى الظروف الجديدة بدأ الأساس الديموقراطي الضيق القائم للإدارة يفرز أثرا

⁽۱۱) الاقتصاد 8 المنهك » ــ أمر مظاهر الإدارة الشاملة للاقتصاد حيث يتحقق النمو غالبا من خلال بناء مصانع ووحدات انتاجية جديدة وتوظيف عال أكثر، مما يؤدى إلى زيادة تكاليف الإنتاج، دون أى زيادة فى الإنتاجية .

⁽١٢) « نظرة إجمالى الربح » ــ التخطيط والإنتاج غير المتوازن الذى يؤكد على « وزن » و «كمية » المنتجات بدلا من تحسين جودتها وتعديل العرض ومن الطلب الحقيقي .

سلبيا شديدا. ولم يترك سوى مكانا محدودا لفكرة لينين فى الحكم الذاتى للجاهير العاملة. وعزلت الملكية العامة بالتدريج عن ملاكها الحقيقيين العال وكثيرا ما عانت هذه الملكية من النزعة الديوانية والمحلية ، وغدت أرضا بلا صاحب ، تفتقر إلى مالك حقيقى وظهرت أمارات متزايدة لاغتراب الإنسان عن ملكية كل الشعب ، والافتقار إلى التنسيق بين المصلحة العامة والمصالح الخاصة للشعب العامل . وكان هذا هو السبب الهام لما حدث فى المرحلة الجديدة حيث بدأ نظام الإدارة الاقتصادية الجديد يتحول من عامل تطوير إلى آلية كابحة عرقلت تقدم الاشتراكية .

وعندما يتحدث المرء عن الجانب السياسي للدولاب الكابح ، لا يمكنه أن يعجز عن رؤية تطور وضع مناقض : إذ لم يستطع الناس المتعلمون الموهوبون الملتزمون بالاشتراكية الاستفادة الكاملة من الإمكانيات الكامنة في الاشتراكية ، ومن حقهم في المشاركة الحقيقية في إدارة شئون الدولة . لقد كان العال والفلاحون والمثقفون يثلون ، بالطبع ، على الدوام في كافة هيئات السلطة والإدارة ، ولكنهم لم يجذبوا على الدوام إلى صنع واتخاذ القرارات بالدرجة اللازمة للتطور السليم للمجتمع على الدوام إلى صنع واتخاذ القرارات بالدرجة اللازمة للتطور السليم للمجتمع الاشتراكي . وكانت الجاهير مستعدة لبذل جهد سياسي أكثر نشاطا ، ولكن لم يكن ذلك متاحا ، رغم أن الاشتراكية تزداد قوة على وجه التحديد كلما أشركت أعدادا متزايدة دوما من الناس في النشاط السياسي .

وأدى الدولاب الكابح فى الاقتصاد ، بكل آثاره الاجتاعية والايديولوجية إلى بنى عامة تكبلها البيروقراطية ، وإلى اتساع البيروقراطية على كافة المستويات . واكتسبت هذه البيروقراطية نفوذا كبيرا للغاية فى كل شئون الدولة والشئون الإدارية وحتى الشئون العامة .

وغنى عن القول أن إفكار لينين القيمة عن الإدارة والحكم الذاتى ، وحساب الربح والخسارة وربط المصالح العامة بالمصالح الخاصة عجزت في هذه الظروف عن

أن تطبق وتطور بشكل سليم . وهذا ليس سوى مثال واحد للفكر الاجتاعى المتحجر المنفصل عن الواقع .

وضعت البيريسترويكا مهاما جديدة لسياستنا وفكرنا الاجتاعي. وتضمنت وضع حد لتحجر الفكر الاجتاعي من أجل إعطائه آفاقا أعرض ، والتغلب بشكل كامل على آثار هذا الاحتكار للنظرية ، والذي تميزت به فترة عبادة الشخصية . ففي هذه الفترة تحولت أشكال تطور المجتمع الاشتراكي التي ظهرت في ظروف صعبة إلى شيء مطلق بفعل سطوة ستالين واعتبرت أنها الأشكال الممكنة الوحيدة بالنسبة للاشتراكية .

ينبغى إجراء تغيير حاد فى الفكر السياسى والاجتماعى . وفى ذلك يجب أن نتعلم من لبنين . لقد كانت لديه قدرة نادرة على أن يحس فى الوقت المناسب بالحاجة إلى تغييرات جذرية ، وإلى إعادة تقييم القيم ، وإلى مراجعة التوجيهات النظرية والشعارات السياسية .

وإليكم مثالا صارخا للغاية ، فى أبريل ١٩١٧ ، عندما عاد لينين إلى روسيا ، لم يضع وقتا طويلا فى تقييم الوضع واتجاهات التطور وإمكانياته بدقة فى البلاد بعد ثورة فبراير (١٣) . ولم يحدد فقط بشكل سليم تكتيكات الحزب والسوفيتات الممكنة والوحيدة ، بل رسم أيضا مهمة استراتيجية جديدة ، مهمة إعداد الحزب والجاهير لثورة اشتراكية . وإلا لكانت المكتسبات التى تحققت بالإطاحة بالحكم المطلق قد تعرضت للضياع . ولم يكن مثل هذا التغير فى التكتيكات متوقعا حتى بالنسبة للكثير من البلاشقة المتمرسين . وهذا هو نوع الجدل فى التفكير السياسي الذى نتعلمه ونحن ننفذ البيريسترويكا .

وفى ذلك، الوقت وفيها بعد على السواء ، غالبا ماحدث أن كان الحزب بطيئا المستخصصة المستحص المستحصصة المستحصصة المستحص

للغاية فى فهم الأفكار الجديدة وكان من الصعب فى بعض الأحيان ، حتى لدى بعض الأشخاص الملتزمين بقضية الثورة أن يكشفوا عن سوء فهم لديهم . بيد أن لينين وزملاءه كانت لديهم القدرة على إقناع الناس ، وعلى شرح الأمور ، وعلى العودة المرة بعد المرة إلى نفس المسألة ، ليبعثوا الطاقة فى الآخرين ، وليكسبوا من خامرهم التردد أو الشك . ووجد لينين نفسه أن المسألة صعبة فى بعض الأحيان . وقد كتب فى إحدى رسائله بمرارة ذات مرة ، مشيرا إلى هؤلاء الذين عجزوا عن مواجهة المصاعب ، وكانوا يبحثون عن حياة مريحة فى الثورة : هناك أوقات عاصبة ، وقاسية للغاية فى بعض الأحيان ، ولكنى لن أقبل لأى سبب كان مبادلة أصغر جزء من هذه الفترة مقابل الحياة بكاملها فى صحبة أشخاص سطحيين وسوقيين .

وقد ذكرت مرات عديدة ، بالرجوع إلى لينين ، أنك إذا ما عالجت مسائل معينة دون أن ترى المنظور العام ، فسوف تستمر تتخبط فى هذا المنظور العام طول الوقت . ومنذ أن اتخذنا من هذا خطا مرشدا لنا ، منذ البداية الأولى للبيريسترويكا ، وبخاصة فى اجتماع يونيو ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى ، أولينا أهمية رئيسية للنظرة التصورية وقد سعينا بالطبع لأن نقلل من فوضى الأساليب . فلكى تحقق مكسبا هاما ، ليس من الضرورى على الإطلاق أن تبدأ بقلب الأمور ثم تبدأ بتصحيح كافة الأخطاء .

وثمة مهام جديدة ينبغى التصدى لها دون أن تكون لدينا إجابات جاهزة . كما لا توجد مثل هذه الإجابات اليوم . ولم يقدم لنا علماء الاجتماع بعد أى شىء متاسك . والاقتصاد السياسى للاشتراكية تعلق به مفهومات بالية ولم يعد يتمشى مع جدليات الحياة . وتتخلف الفلسفة وعلم الاجتماع كذلك عن متطلبات المارسة . كما يجب أن يخضع علم التاريخ لمراجعة هامة .

لقد أتاح المؤتمر السابع والعشرون للحزب الشيوعى السوفيتي والاجتاعات

الكاملة للجة المركزية فرصا جديدة للفكر الخلاق ، وأعطت دفعة قوية لتطوره . لا يمكن أن تكون هناك حركة ثورية بدون نظرية ثورية ــ إن هذا المبدأ الماركسي ملائم اليوم أكثر من أي وقت مضي .

البيريسترويكا ثورة

البيريسترويكا كلمة لها معان عديدة . ولكن إذا ماكان لنا أن نختار بين مترادفاتها العديدة واحدا يعبر عن جوهرها بدقة أكبر ، أمكننا أن نقول مايلى : إن البيريسترويكا ثورة . إن التسريع الحاسم للتنمية الاجتماعية ـ الاقتصادية والثقافية للمجتمع السوفيتي ، والذي يشمل تغييرات جذرية على الطريق نحو دولة جديدة نوعبا ، هو بدون شك مهمة ثورية .

وأعتقد أنه كان لديناكل الحق فى أن نعلن فى اجتماع يناير ١٩٨٧ الكامل: أن النهج الحالى ، فى جوهره ، وفى جرأته البلشفية . وفى اندفاعه الاجتماعى الانسانى ، هو تكلة مباشرة للإنجازات العظيمة التى بدأها الحزب اللينينى فى أيام أكتوبر ١٩١٧ . إنه ليس تكلة فحسب ، بل هو امتداد وتطوير للأفكار الأساسية للثورة . ويجب أن نضنى دينامية جديدة على اندفاع ثورة أكتوبر التاريخى ونواصل كل ما بدأته فى محتمعنا .

ونحن لانساوى البيريسترويكا ، بالطبع ، بثورة أكتوبر التى تعتبر نقطة انعطاف فى تاريخ دولتنا الذى يبلغ ألف عام ، والتى لايضاهيها شىء فى قوة تأثيرها على تطور البشرية . ومع ذلك ، فلماذا نتحدث فى العام السبعين لثورة أكتوبر عن ثورة جديدة ؟ .

وقد يساعد القياس التاريخي في الإجابة على هذا السؤال. فقد أشار لينين ذات مرة إلى أنه في فرنسا ، بلد الثورة البرجوازية الكلاسيكية ، تطلب الأمر ثلاث ثورات أخرى (١٨٣٠ ، ١٨٤٨ ، ١٨٧١) بعد ثورتها العظيمة ١٧٨٩ ــ

۱۷۹۳ ، لتحقيق أهدافها . وينطبق نفس الشيء على بريطانيا ، حيث تلت ثورة كرومويل عام ١٦٤٩ ، ثورة ١٦٨٨ – ١٦٨٩ المجيدة . ثم كان إصلاح ١٨٣٢ ضروريا لكى تستقر الطبقة الجديدة بشكل نهائى فى السلطة ـ البرجوازية . وفى ألمانيا كانت هناك ثورتان برجوازيتان ديموقراطيتان (١٨٤٨ و ١٩١٨) وفيما بينهما الإصلاح الكبير لستينيات القرن التاسع عشر الذى نفذه بسمارك «بالحديد والدم».

« ولم يحدث فى التاريخ إطلاقا «كاكتب لينين » ، أن كانت هناك ثورة من الممكن أن يلتى المرء فيها سلاحه ويستريح على إكليل الغار بعد النصر » . فلهاذا إذن ينبغى على الاشتراكية المدعوة إلى تنفيذ تغييرات اجتماعية ـ سياسية وثقافية أكثر عمقا فى تطور المجتمع من الرأسمالية ألا تمر بمراحل ثورية عديدة لكى تكشف عن قدرتها الكاملة وتتبلور فى النهاية كتشكيل جديد جذريا ؟ لقد كرر لينين الفكرة التالية أكثر من مرة : إن الاشتراكية قد تتضمن محاولات جديدة . ومن الممكن أن تكون كل منها كل محاولة أحادية الجانب من زاوية معينة ، ومن الممكن أن يكون لكل منها خصائصها الخاصة ، وينطبق ذلك على كافة البلدان .

وقد أوضحت الخبرة التاريخية أن المجتمع الاشتراكي ليس مؤمّنا ضد ظهور وتراكم اتجاهات الركود، ولا حتى ضد الأزمات الاجتماعية للقتصادية الكبرى. وهناك حاجة على وجه التحديد إلى تدابير ذات طابع ثورى للتغلب على الأزمة، أو على وضع ماقبل الأزمة. والشيء الأهم هنا هو أن الاشتراكية قادرة على التغييرات الثورية، لأنها دينامية بطبيعتها.

وفى ربيع ١٩٨٥ وضع الحزب هذه المهمة فى جدول الأعمال . وتطلبت خطورة المشاكل المتراكمة والناشئة ، والتأخير فى فهمها وحلها ، التصرف بطريقة ثورية وإعلان فحص ثورى للمجتمع .

والبيريسترويكا عملية ثورية لأنها قفزة إلى الأمام فى تطور الاشتراكية ، وفى تحقيق خصائصها الجوهرية . ولقد أدركنا منذ البداية أنه ليس لدينا وقت نضيعه .

ومن المهم للغاية ألا نبقى طويلا جدا عند خط البداية، وأن نتغلب على التلكؤ، وأن نخرج من مستنقع النزعة المحافظة ، وأن نحطم القصور الذاتى للركود . وذلك لا يمكن أن يتم بطريقة تطورية ، عن طريق إصلاحات متسللة تعوزها الشجاعة . وأقولها ببساطة : إنه ليس لدينا وقت للاسترخاء ، ولا ليوم واحد . وعلى العكس ، فعلينا يوما بعد يوم أن نضاعف جهدنا ، وأن نعزز وتيرته وكثافته . وعلينا أن نقاوم الضغوط ، أو ما يسميه رواد الفضاء ، بالأحمال الزائدة الكبيرة ، في المرحلة الأولى من إعادة البناء .

إن الثورة ينبغى تطويرها على الدوام. ولايجب أن يكون هناك وقت للانتظار ويكشف ماضينا عن ذلك. ومازلنا نشعر بآثار التباطؤ. ولذلك فنحن نحتاج الآن إلى شجاعة وجرأة مضاعفة، وإذا ما توقفنا ثانية، فسوف تزيد المشاكل، وعلى ذلك _ فإلى الأمام فقط!

إن التصرف بطريقة ثورية لايتضمن بالطبع اندفاعا متهورا . وهجات الفرسان بعيدة عن أن تكون مناسبة على الدوام . فالثورة تحكمها قوانين السياسة ، ومن الممكن . وينبغى تجنب تخطى مراحلها وتخطى أنفسنا . وتتمثل المهمة الآن فى خلق أساس للتقدم نحو حدود نوعية جديدة . وإلا فقد يتحول كل الأمر إلى فوضى وتشوه سمعة القضية العظيمة .

ووفقا لنظريتنا فإن الثورة تعنى البناء ، ولكنها تتضمن كذلك التدمير على الدوام . والثورة تحتاج إلى تدمير كل ماهو عتيق ، وراكد ، وكل مايعوق التقدم السريع . وبدون تدمير ، لا يمكنك أن تنظف الموقع لبناء جديد . وتعنى البيريسترويكا كذلك إزالة جذرية وحازمة للعقبات التى تعرقل التنمية الاجتاعية والاقتصادية ، ولأساليب إدارة الاقتصاد التى انقضى زمانها ولعقلية القوالب العقائدية . وتؤثر البيريسترويكا على مصالح كثير من الناس ، على مصالح المجتمع بأسره . ويثير التدمير ، بالطبع ، النزاعات ، وأحيانا الصدمات الضارية بين القديم

والجديد. وليس هناك قنابل تنفجر، أو رصاصا تتطاير، بالطبع، ولكن الذين يعترضون الطريق يقاومون. وكذلك فإن عدم التصرف، واللامبالاة، والكسل، وعدم الشعور بالمسئولية. وسوء الإدارة، كلها تشكل مقاومة أيضا.

وهذا شىء مفهوم . لقد ازداد جو مجتمعنا توترا مع تزايد جهد البيريسترويكا عمقا . وسمعنا بعض الناس يقولون : هل كان هناك مايدعو إلى بدء كل ذلك على الإطلاق ؟.

ولايقبل حتى بعض الناس كلمة «ثورة» عندما تعنى هذا الجهد. والبعض يرتعدون حتى للفظ «الإصلاح». بيد أن لينين لم يكن يخشى استخدام هذه الكلمة ، بل علم البلاشفة أنفسهم أن يسعوا إلى «الإصلاح» حيثًا احتاج الأمر إلى ذلك ، لمواصلة قضية الثورة في الظروف الجديدة. ونحن اليوم نحتاج إلى إصلاحات جذرية للتغيير الثورى.

وتتمثل إحدى علامات أى فترة ثورية فى تعارض واضح بدرجة أو أخرى بين المصالح الحيوية للمجتمع الذى تستعد طلائعه لتغييرات حيوية ، وبين المصالح العاجلة اليومية للناس والبيريسترويكا تضرب بشدة هؤلاء الذين اعتادوا العمل بالطريقة القديمة ولاتوجد لدينا أى معارضة سياسية ، ولكن هذا لايعنى أنه لاتوجد مواجهة مع اللين لا يقبلون البيريسترويكا ، لأسباب مختلفة وربماكان على كل امرئ أن يقدم تضحيات فى المرحلة الأولى من البيريسترويكا ، ولكن سيكون على البعض أن يتخلوا طواعية عن الامتيازات التى لايستحقونها والتى اكتسبوها بشكل غير مشروع ، وعن الحقوق التى عرقلت تقدمنا .

لقدكانت مسألة المصالح على الدوام مسألة رئيسية بالنسبة للحزب فى اللحظات الحرجة . وسيكون من المناسب أن نتذكركيف كافح لينين من أجل معاهدة صلح برست (١٤) فى عام ١٩١٨ المضطرب . كانت الحرب الأهلية تستعر . وفى هذه

⁽١٤) معاهدة صلح برست ــ معاهدة صلح بين روسيا السوفيتية وبلدان الاتفاق الرباعي (ألمانيا ، والنـمسا 😑

اللحظة أتى تهديد خطير من ألمانيا . ولهذا اقترح لينين توقيع معاهدة صلح معها .

وكانت شروط السلام التى وضعتها ألمانيا لنا بشكل متعجرف «مهينة وقذرة »كما وصفها لينين ، وكانت تعنى ضم بقعة واسعة من الأرض بسكانها الذين يبلغون ستة وخمسين مليونا . وبدا من المستحيل قبولها . ومع ذلك أصر لينين على معاهدة المصلح . وعارض حتى بعض أعضاء اللجنة المركزية ، وقالوا إن العمال كذلك يطالبون بردع الغزاة الألمان . ومع ذلك استمر لينين يدعو للسلام لأنه كان يسترشد بالمصالح الحيوية ، لا العاجلة ، مصالح الطبقة العاملة فى مجموعها ، والثورة ومستقبل الاشتراكية . ولحماية هذه المصالح ، احتاجت البلاد إلى التقاط الأنفاس قبل أن تتقدم إلى الأمام ، وأدرك قليلون ذلك فى هذا الوقت . وكان من السهل فيما بعد وفقط أن نقول بثقة وبوضوح إن لينين كان على صواب . وكان على صواب بالفعل ، لأنه كان يتطلع بعيدا ، ولم يضع ماهو مؤقت فوق ماهو جوهرى . وهكذا أنقلت الثورة .

ونفس الشيء مع البيريسترويكا. فهي تلبي المصالح الحيوية للشعب السوفيتي وتهدف إلى نقل المجتمع إلى حدود جديدة ورفعه إلى مستوى نوعي جديد. وسيكون علينا أن نقدم تضحيات ، لن تكون سهلة . إن العادات والأفكار القائمة تتحلل أمام أعيننا . واختفاء الأشياء المألوفة يثير الاحتجاج . ولاتريد النزعة المحافظة أن تستسلم ، بيد أن كل هذا يمكن بل ويجب التغلب عليه إذا ما أردنا أن نلبي المصالح الطويلة الأمد للمجتمع ولكل فرد .

لقد واجهنا بالفعل مسألة العلاقة بين المصالح العاجلة والطويلة الأمد عندما بدأنا نطبق تفتيش الجودة الحكومي (١٥٠). فلتحسين جودة المنتجات أنشأنا جهازا

المجر، وتركيا، وبلغاريا) وقعت في ٨ مارس ١٩١٨ في برست ليتوفسك. وقد ألغتها الحكومة السوفيتية في ١٣٠ نوفمبر ١٩١٨

⁽١٥) تفتيش الجودة الحكومى ــ نظام للرقابة على جودة المنتجات ، مستقل عن إدارة المؤسسة ، وخاضع للجنة التوحيد القياسي الحكومية للاتحاد السوفيتي . وقد أدخل هذا النظام في أول يناير ١٩٨٧ ، في ١٥٠٠ مؤسسة صناعية . وجرى التخطيط لمواصلة توسيعه .

مستقلا لضان أن تلبى المنتجات المعايير القائمة . وفى البداية انخفضت دخول كثير من العال ، ولكن المجتمع كان فى حاجة إلى تحسين الجودة ، ونظر العال إلى الإجراء الجديد بتفهم . ولم تكن هناك احتجاجات منهم . وعلى العكس يقول العال الآن : « إنه لشىء مشين أن تحصل على مالم تتكسبه » . وفى نفس الوقت ، فإنهم يريدون من المديرين ، والمهندسين ، والعاملين التكنيكيين أن يتخذوا نفس الموقف . وهكذا أصبح تفتيش الجودة الحكومي أرض اختبار للبيريسترويكا . لقد كشف عن مواقف الناس من العمل والاحتياطيات البشرية التي يمكن الاستفادة منها للبيريسترويكا . لقد أصبح تفتيش الجودة الحكومي ورقة اختبار تؤكد مرة أخرى أن الطبقة العاملة السوفيتية في مجموعها تؤيد تماما إعادة البناء ، وأنها على استعداد لتطويرها ، ولأن السوفيتية في المهارسة دورها كطبقة طليعية للمجتمع الاشتراكي .

إن البيريسترويكا ،كالثورة ، ليست شيئا يمكن أن تلهو به . وعليك أن تواصل العمل حتى النهاية ، وتحقق تقدماكل يوم حتى تشعر الجاهير بنتائجه ، وحتى يمكن للعملية أن تزداد قوة ماديا وروحيا على السواء .

وعندما نطلق على تدابيرنا أنها ثورية ، فإنما نعنى أنها بعيدة المدى ، وجذرية ، ولا تقبل مساومة ، وتؤثر على كل المجتمع من القمة حتى القاعدة . إنها تؤثر على كل مناحى الحياة وذلك بطريقة شاملة . ولا يعنى هذا تجميل مجتمعنا ، أو تضميد جروحه ، ولكن يتضمن شفاءه وتجديده تماما .

تعتبر السياسة دون شك أهم شيء فى أى عملية ثورية . ويصح ذلك بالطبع على البيريسترويكا . ولذلك فنحن نولى أولوية للتدابير السياسية ، والإشاعة الديموقراطية الحقيقية والواسعة ، وللنضال الحازم ضد الروتين وانتهاك القانون ، ولمشاركة الجاهير النشطة فى إدارة شئون البلاد . وكل ذلك يرتبط مباشرة بالمسألة الأساسية فى أى ثورة ، وهى مسألة السلطة .

ولن نغير السلطة السوفيتية ، بالطبع ، أو نتخلى عن مبادئها الرئيسية ، ولكننا

نعترف بالحاجة إلى تغييرات تدعم الاشتراكية وتجعلها أكثر دينامية ، وذات مغزى من الناحية السياسية . ولهذا السبب فلناكل الحق فى أن نصف خططنا من أجل إشاعة الديموقراطية الواسعة النطاق فى المجتمع السوفيتي بأنها برنامج للتغييرات فى نظامنا السياسي .

ومن ثم فعلينا _ إذا ما أردنا للبيريسترويكا النجاح _ أن نوجه كل عملنا إلى مهام وأساليب القيادة السياسية . وأهم عنصر فى نشاط منظات الحزب والعاملين فيه هو العمل السياسي بين الجاهير ، والتربية السياسية لجاهير العاملين ، ورفع مستوى نشاط الشعب السياسي . لقد برز إلى المقدمة من جديد المعنى الأصلى لمفهوم «الاشتراكية» باعتبارها ، فى المقام الأول ، حركة سياسية وأيديولوجية للجاهير ، حركة قاعدية تكن قوتها أساسا فى وعى ونشاط الإنسان .

إن الثورة ظاهرة لايضارعهاشيء. ونشاطنا اليومي ينبغي ألا يضارعه شيء ، كالثورة ، وينبغي أن يكون ثوريا. والبيريسترويكا تتطلب زعماء حزبيين قريبين للغاية من مثل لينين كبلشني ثوري . إن تحكّم الموظفين ، والروتين ، والاستعلاء ، والوصولية لاتتفق مع هذه المثل. ومن ناحية أخرى ، تبجل لدرجة كبيرة الشجاعة والمبادرة ، والمستويات الأيديولوجية العالية ، والنقاء المعنوى ، والاندفاع الدائم لمناقشة الأمور مع الناس ، والقدرة على الدفاع بحزم عن القيم الإنسانية للاشتراكية . إن الوضع الثوري يتطلب الحاس ، والإخلاص والتفاني . وهذا ماينطبق بشكل يناس على القادة . ومايزال أمامنا طريق طويل للتوصل إلى هذه المثل ، إن كثيرا من الناس مايزالون « في حالة تطور » ، أو بوضوح ، يتبنون موقف الترقب .

« ثمورة من أعملي » الحمورب والبيريسترويكا

هناك مصطلح فى العلوم التاريخية وكذلك فى المفردات السياسية: «ثورة من أعلى». وقد كان هناك عدد محدود من أمثال هذه الثورات فى التاريخ. ولكن يجب عدم الخلط بينها وبين «الانقلابات» وثورات القصور. إن مانعنيه هو التغييرات العميقة والثورية حقا التى يجرى تنفيذها بمبادرة من السلطات نفسها، والتي تطلبتها التغييرات الموضوعية فى الوضع وفى المزاج الاجتاعى.

وقد يبدو أن البيريسترويكا الحالية لايمكن أن يطلق عليها «ثورة من أعلى» حقا ، لقد بدأت حركة البيريسترويكا بمبادرة من الحزب الشيوعى ، والحزب يقودها . ولدى الحزب من القوة والجرأة مايكنى لوضع سياسة جديدة . كما برهن على أنه قادر على قيادة وخوض عملية تجديد المجتمع ، وقد بدأ الحزب المحاولة بتقويم نفسه . وتحدثت عن ذلك بصراحة فى اجتماعى مع نشطاء الحزب فى خاباروفسك ، فى صيف ١٩٨٦ . وقلت ، يجب أن نبدأ بأنفسنا ، وعلى كل فرد أن يتحمل المستولية : فى المكتب السياسى ، وفى الهيئات المحلية ، وفى منظات الحزب يتحمل المستولية : فى المكتب السياسى ، وفى الهيئات المحلية ، وفى منظات الحزب تقويم أنفسهم . والشىء الرئيسي أن يكون ضميرنا حيا . لقد اعتدنا على كثير من المارسات عندما لم تكن هناك صراحة . وينطبق ذلك على العناصر العادية وعلى كبار المستولين على السواء .

ولا أعنى بذلك أننا يجب أن نتملق الناس ، كما يفعل المرشحون فى بعض البلاد خلال الحملات الانتخابية . فشعبنا لايجب ذلك . ويجب أن يعرف الحقيقة ، ولا ينبغى على المرء أن يخشى من شعبه . والصراحة خاصية للاشتراكية . ولكن مايزال هناك بعض الناس ، فى المراتب العليا ، يتحدثون إلى الجميع عن الأخلاق

الاشتراكية ، ويتحدثون بشكل آخر مع أنفسهم ، أى ، بما يناسب أغراضهم الأنانية ، وهذا لايصلح .

وباختصار ، لقد بدأت محاولة إعادة البناء بالحزب وقيادته . وبدأنا من قمة الهرم واتجهنا إلى قاعدته . وعلى ذلك فإن مفهوم « الثورة من أعلى » لاينطبق تماما على البيريسترويكا . إنه يحتاج على الأقل إلى بعض التحفظات . نعم إن قيادة الحزب قد بدأتها . وصاغت أعلى هيئات الحزب والدولة البرنامج وأقرته . حقا إن البيريسترويكا ليست عملية تلقائية ولكنها عملية موجهة . وهذا ليس سوى جانب واحد من المسألة .

وماكان للبيريسترويكا أن تكون مهمة ثورية حقا، وماكان لها أن تكتسب نطاقها الحالى أو ماكان لها أن تتاح لها فرصة جادة فى النجاح ، إذا لم تكن قد وحّلت بين المبادرة من و أعلى و وبين حركة القاعدة ، وإذا لم تكن قد عبرت عن المصالح الرئيسية طويلة المدى لكافة جاهير الشعب ، وإذا لم تكن الجاهير قد اعتبرتها برنامجا لها ، وإستجابة لأفكارها واعترافا بمطالبها ، وإذا لم يكن الشعب قد أيدها بجاس وبشكل فعال .

إن طبيعة إعادة البناء نفسها تتضمن أن تمضى فى كل مكان عمل ، وفى كل أسرة عمل ، وفى نظام الإدارة بكامله ، وفى هيئات الحزب والدولة ، بما فى ذلك المكتب السياسى والحكومة . إن إعادة البناء تهم الجميع ، من الشيوعى العادى إلى سكرتير اللجنة المركزية ، ومن العامل فى الورشة حتى الوزير ، ومن المهندس حتى الأكاديمى . ومن الممكن أن نصل إلى نهاية ناجحة فقط إذا ماغدت جهدا على نطاق البلاد حقا . ولكن على أية حال ، ينبغى على كل امرئ أن يعمل بأمانة وبضمير حى ، وألا يضن بجهوده وقدراته . وسوف يشارك فى مثل هذه الحركة مزيد ومزيد من الناس .

وعندما يقترح موقف جاد ومدروس ، فسيلتي على الدوام مساندة الجاهير العاملة

وفهمها . وهذا بالضبط ماحاولنا التعرف على منواله طوال العامين والنصف عام الماضيين ، وربما لم نعبّر بعد عن أنفسنا بشكل كامل ، أو نوضح للشعب كل تعقيدات الوضع الذى وجدت البلاد نفسها فيه ، وما الذى يجب عمله . ولكننا قلنا أهم شيء ولقينا المساندة والترحيب استجابة لذلك .

وتبرز عناصر الضعف وعدم الثبات في كافة ماعرفنا من « الثورات من أعلى » في افتقاد مثل هذه المساندة من أسفل ، وإلى انعدام التفاهم والعمل الدؤوب مع الجاهير، ونتيجة لافتقاد كل هذه الأشياء كانت هناك الحاجة إلى درجة ما من الضغط القمعي من أعلى . وأدى ذلك إلى تشويهات في مجرى التغييرات ، ومن ثم إلى « تكاليفها » الاجتماعية – السياسية والمعنوية الباهظة .

وتتمثل السمة المميزة للبيريسترويكا وقوتها فى أنها تشكل فى نفس الوقت ثورة «من أعلى» و «من أسفل». وفى هذا تكن أهم الضانات التى يعول عليها لنجاحها ولأن تكون لارجعة فيها . وسنسعى بدأب لضهان أن تحافظ الجهير «الناس من أسفل» على كافة حقوقهم الديموقراطية ويتعلموا استخدامها بطريقة عادية وكفؤة ومسئولة . وتؤكد لنا الحياة بوضوح أن الناس عند المنعطفات الحادة للتاريخ ، وفى ظل الأوضاع الثورية ، يبدون قدرة ملحوظة على الإنصات ، والفهم والاستجابة إذا ماقيلت لهم الحقيقة . وهذه هى على وجه الدقة الطريقة التى تصرف بها لينين حتى فى أصعب اللحظات بعد ثورة أكتوبر وخلال الحرب الأهلية ، عندما ذهب إلى الناس وتحدث إليهم بصراحة . ولهذا السبب فن المهم للغاية أن تحتفظ البيريسترويكا بمستوى عال من النشاط السياسي ومن طاقة العمل بين الحهاهير .

وكثيرا مايقولون فى الغرب إن البيريسترويكا ستواجه المصاعب ، وأن هذا سوف يثير استياء جهاهيرنا العاملة . فما الذى يمكن أن أقوله ردا على ذلك ؟ ستكون هناك بالطبع صعوبات فى مثل هذه المهمة الكبيرة . وإذا ماصادفنا سخطا أو احتجاجا

مشروعا ، فسوف نبذل جهدا جادا لكى نتحقق ، فى المقام الأول ، من الأسباب التى تكن وراء ذلك ، ولا يمكن للحاس الإدارى أن يساعد فى مثل هذه الحالات . ويجب على هيئات السلطة والمنظات الاقتصادية والعامة أن تتعلم كيف تعمل حتى لا تعطى أية مبررات لمثل هذه المظاهر ، وحتى تحل فى الوقت المناسب المسائل التى قد تثير ردود الفعل هذه عندما تحدث . وإذا لم تحل السلطات المشاكل الخاصة التى تهم الناس ، فإنهم سيحاولون حلها بأنفسهم . وإذا كان الناس يواصلون الحديث فى الاجتاعات ويتوجهون إلى السلطات العليا ، ولكن الأخيرة تتجاهل الأمور ، فإن أفعالا غير عادية تبدأ تحدث فى القاعدة . وهذه نتيجة مباشرة للتقصير فى عملنا .

ولدينا فقط معيار واحد فى حالتنا: سوف ننصت إلى كل مايدعم الاشتراكية ونأخذه فى الاعتبار، فى الوقت الذى سنقاوم فيه الاتجاهات الغريبة على الاشتراكية. ولكن فى إطار العملية الديموقراطية، وأكرر ذلك بالنزعة الثورية، وعدم الانجراف بعيدا. هذا، ومن مبادئ الروح الثورية اللينينية الحقة، عدم التلاعب بالنزعة الثورية، وعدم الانجراف بعيدا وعدم الإطراء أو الإفراط فى الأساليب الإدارية.

وعندما يسألوننا عا إذا كنا ندفع الأمور أكثر مما يجب ، نجيب عليهم : كلا ، إننا لانفعل ذلك . فليس هناك بديل معقول للبيريسترويكا الثورية الدينامية . والبديل هو الركود المستمر . ويتوقف على نجاح البيريسترويكا مستقبل الاشتراكية ومستقبل السلام . والمخاطر شديدة للغاية . ويفرض علينا الزمن خيارا ثوريا وقد حسمناه . ولن نتراجع عن البيريسترويكا وإنما سنمضى فيها .

وعندما سألنى جيمى كارتر ، الذى النقيت به هذا الصيف « هل أنت واثق من نجاح جهودك للإصلاح الاقتصادى والسياسي في الاتحاد السوفيتي » ، أجبت :

« لقد بدأنا مهمة صعبة وكبيرة في المجالات السياسية والاقتصادية ،

والاجتماعية ، والروحية . والبيريسترويكا تهم كافة المجموعات فى المجتمع . وهذه ليست مهمة سهلة . لقد دخلنا مراحل معينة ، وربماكانت أهم مراحل إعادة البناء . لقد اقترحنا سياسة التغيير ونحن نرى أنها تجد ترحيبا من المجتمع ، ويجرى تنفيذها . وتبرز مشاكل عديدة بالطبع .

«لقد بدأ الغرب على الفور يتحدث عن نوع ما من المعارضة، بيد أن هذا لايشكل خطورة. لقد بدأنا إعادة بناء هامة. ونحن نعيد صياغة مواقفنا وتفكيرنا وكل طريقتنا في الحياة، ونستبعد القوالب الجامدة. وقد تغير جو المجتمع لدرجة كبيرة. لقد أديرت حركة المجتمع. إننا نحظى بمساندة ضخمة، وندفع الأمور إلى الأمام، اعتادا على هذه المساندة. وإذا لم نكن على ثقة بصحة هذه السياسة ماكنت أنا وزملائي قد اقترحناها.

« والآن لدينا خبرة العامين الأولين ، خبرة التنفيذ العملي لهذه السياسة ، وقد زادت ثقتنا في صحة مانقوم به لدرجة كبيرة . وسنتقدم على هذا الطريق مها بلغت صعوبته . وسنبلغ بعض الأهداف خلال وقت قصير . وسيستغرق تحقيق مهام أخرى سنوات عديدة . وهناك أهداف بعيدة كذلك . وسوف نندفع إلى الأمام »

إن الشعب السوفيتي على قناعة بأن البلاد ستصبح أكثر غنى وقوة نتيجة للبيريسترويكا . وسوف تتحسن الحياة . وهناك صعوبات ، وستكون هناك صعوبات كبيرة ، على طريق البيريسترويكا ، ونحن لانخنى ذلك . ولكننا سنتغلب عليها . ونحن واثقون من ذلك .



الفصهل السشاني

البيروسترويكا تحقق تفدّمًا الاستنتاجات الاولى

انقضى عامان ونصف عام منذ أن بدأت سياسة البيريسترويكا. ولدينا الآن مفهوم نظرى لها وبرنامج معين يجرى تطويرهما على الدوام ، وتوضيحها ، وإثراؤهما بأفكار ونظريات جديدة . وهذا مايتطلب جهدا إبداعيا ضخا من جانب قادة الحزب والدولة ، ويقتضى مناقشات مستفيضة . وبعد المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتي (۱) والاجتاعات العديدة الكاملة للجنة المركزية ، تجرى مناقشة قضايا ونهج البيريسترويكا بحاس فى كل قطاعات المجتمع السوفيتي . وقد وجد برنامج البيريسترويكا تعبيرا عنه بالفعل فى سلسلة من الأعال التشريعية التى وافق عليها البرلمان ـ السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتي .

ويسير جنبا إلى جنب مع ذلك العمل التطبيق اليومى لتنفيذ استراتيجية البيريسترويكا. وتراكمت لدينا خبرة معينة ، وإن كانت محدودة . وهناك نتائج أولية مشجعة ولكن هناك أخطاء وسوء تقديرات كذلك . ونحن نرى اليوم بوضوح أكبر إمكانياتنا ونقاط ضعفنا . ومازلنا على قناعة بأننا فى المرحلة الأولى . ومع ذلك ، فقد غدت البيريسترويكا بالفعل جزءا من حياتنا ، وتشمل جهاهير شعبنا . ومهذا المعنى فإنها بالفعل حقيقة واقعة .

⁽١) عقد المؤتمر السابع والعشرون للحزب الشيوعى السوفيتي من ٢٥ فبراير ــ ٦ مارس ١٩٨٦

أولاً المجتمع يبدأ في التحسرك كيف ببدأت الأمسور

حينا نتحدث عما فعلناه خلال العامين ونصف العام ، فعادة مانعني الزمن الذي سبق المؤتمر والذي تلاه على السواء.

وتحتل مؤتمرات الحزب الشيوعى السوفيتى مكانا خاصًا فى تاريخنا ، وهى ، فى الواقع بمثابة المعالم على طريقنا . وكان على المؤتمر السابع والعشرين لأسباب عديدة أن يقدم إجابات عن المسائل الأكثر إلحاحا فى حياة المجتمع السوفيتى . وحددت لائحة الحزب (٢) زمن انعقاده . وكان يجرى الإعداد للصياغة الجديدة لبرنامج الحزب (٣) ، كهاكانت توضع الخطط لفترة الخطة الخمسية الثانية عشرة وللفترة المنتهية عام ٢٠٠٠ . وتمثلت الصعوبة فى أنه قد بدأ إعداد التوجيهات السياسية للمؤتمر فى ظروف تغيرت بشكل مثير بعد اجتاعى مارس (٤) وأبريل ١٩٨٥ الكاملين للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى . وبدأت عمليات جديدة داخل الحزب نفسه وفى المجتمع بأسره على السواء .

ولم تكن عملية إدراك وفهم أفكار الاجتاع الكامل بالعملية السهلة. فقد ولدت أفكار جديدة فى المناقشات التى جرت فى كافة المستويات فى المكتب السياسى ، واللجنة المركزية ، وتنظيمات الحزب المحلية ، والأسرة العلمية ، وأسر العمل .

⁽٢) لائمة الحزب الشيوعي السوفيتي ـ قانون الحزب الأساسي الذي يحدد حقوق وواجبات أعضائه ، وهيكل الحزب التنظيمي ومبادئ الديموقراطية الداخلية في الحرب .

 ⁽٣) برنامج الحزب الشيوعى السوفيتى ـ وثيقة الحزب الأساسية التى تطرح أسسه النظرية والأيديولوجية ،
 ومبادئ نشاطه ، والأهداف التى يسعى إلى تحقيقها .

⁽٤) الاجتماع الكامل الخاص للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي الذي عقد في ١١ مارس ١٩٨٥ وانتخب ميخائيل جورياتشوف سكرتيرا عاما للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي .

وبدأت مناقشات حية ، وأحيانا ثار جدل حاد في وسائل الإعلام . وبدأ تقييم ماضى بلادنا بشكل انتقادى . وشارك آلاف الناس من العال والفلاحين والمثقفين بشغف في هذا الجدل في اجتماعات أسر العمل ، وفي الصحافة وفي رسائل إلى أعلى الهيئات الحزبية والحكومية ، احتوت على نقد ومقترحات . وجرى التعبير عن وجهات نظر مختلفة ، ومتعارضة بشكل مباشر أحيانا ، حول كثير من المسائل الحاصة ، وبدأ البحث بصراحة عن مخرج من الوضع القائم . ونحن نعتبر مثل هذا التعدد في الآراء طبيعيا ومفيدا على السواء . وأصبح من الواضح أن الإعداد للمؤتمر السابع والعشرين يجب أن يستند إلى نظرات جديدة ، رغم أنه لم يبق سوى أقل من عام على الوقت الذي تحدد لانعقاده .

وكان من الممكن تأجيل المؤتمر بالطبع . وجرى التعبير عن هذا الرأى بإصرار وقدمت حجج مقنعة . ولكننا شعرنا بأن مواقف فترة الركود التى أثرت فينا جميعا تقف خلف ذلك . وسادت فى النهاية وجهة النظر التى تتفق ، فى رأيى ، بدرجة أكبر ، مع الوضع – بأنه يجب علينا أن نعقد المؤتمر فى موعده ونجذب كافة العناصر السليمة فى المجتمع إلى المشاركة فى الإعداد له .

وتبنى المؤتمر السابع والعشرون قرارات على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لمستقبل الاتحاد السوفيتى. وصاغ الخطوط الموجهة لعمل الحزب من أجل تنفيذ مفهوم تسريع التنمية الاقتصادية والاجتاعية الذى قدمه اجتاع أبريل الكامل للجنة المركزية. نعم لقد كان مؤتمرا طرح فيه مندوبوه ، ليس فقط ، همومهم والحقائق ، وخططهم وتصميمهم على إعطاء دافع جديد وقوى لتطور الاشتراكية.

لقدكان مؤتمرا شجاعا . وتحدثنا بصراحة عن النواقص والأخطاء والصعوبات وأكدنا الإمكانيات التي لم تستغل للاشتراكية ، وتبنى المؤتمر خطة عمل تفصيلية طويلة المدى . وأصبح مؤتمر القرارات الاستراتيجية .

بيد أننا عجزنا أو لم نستطع على وجه الدقة أن ندرك بشكل كامل الطابع المثير للعمليات الجارية ونطاقها . وبإمكاننا الآن أن نرى الأمور بصورة أفضل ، ومن الواضح أنه كان علينا أن نواصل بحزم العمل الذى بدأناه فى الفترة السابقة على المؤتمر وفى المؤتمر نفسه ، وأن ندرس فى نفس الوقت بشكل أعمق المجتمع الذى نعيش فيه . ولكى نقوم بذلك ، كان علينا أن نعود إلى المصادر ، إلى الجذور ، وأن نقيم الماضى بشكل أفضل ، وأن نقرر أولوياتنا وطرق تحقيقها . وبدون فهم ذلك كان من المكن أن نضل طريقنا .

وحتى بعد مضى مايقرب من عام على المؤتمر السابع والعشرين استمر بعض الناس بين مختلف فئات المجتمع وفى الحزب نفسه يعتقدون بأن البيريسترويكا ليست سياسة طويلة المدى وإنما هى مجرد حملة أخرى . وأعاق العديد من المسئولين المحليين حركة الأنصار النشطين للبيريسترويكا فأخضعوهم للمراقبة وحذروا كثيرى المطالب بينهم : انتظروا أيها الرفاق ، لاتحدثوا جلبة ، وسيخمد كل شىء فى عام أو عامين . وكانوا يعتقدون بصدق أن كل شىء سيعود إلى نفس النقطة التى بدأ منها ، كها حدث أكثر من مرة قبل ذلك . وكان هناك كذلك المتشككون ذوو الأسلوب الخاص ممن يضحكون ضحكة خافتة فى ردهات المكاتب : لقد عشنا فترات عنافة ، وسنعيش هذه الفترة كذلك . كان القلق على مصير البيريسترويكا يزداد فى المجتمع : ألن تعود الأمور إلى نفس المجرى القديم ؟ .

وفى اجتاع يناير حللنا مع انتقاد أنفسنا أسباب الوضع المعقد والمتناقض. ولم نسع فقط إلى نقد الماضى وإدانة مسئول أو أكثر. فهل يكن جوهر الأمر فقط فى إدانة شخص ما ؟ إن ماكنا فى حاجة إليه هو تقييم الظواهر وتحليل العمليات والاتجاهات. وقد سعينا لأن نقوم بذلك. وأنا على يقين من أنه لوكان اجتماع يناير الكامل قد حصر نفسه فى نقد الماضى لماكان قد أنجز مهمته. إننا فى حاجة إلى الدروس والنقد لا من أجل تسوية الحسابات وإنما من أجل حاضرنا ومستقبلنا.

وإذا لم نكن فى اجتاع يناير الكامل قد اقترحنا برنامج عمل بناء ، إذا لم نكن قد قلنا الشيء الرئيسي _ ماالذى يجب عمله ، وماهى القوى الإضافية الواجب تنشيطها للقضاء على الدولاب الكابح ، وكيف يمكن إقامة دولاب تسريع فعّال _ لكان معنى ذلك أننا لم نحرز أى تقدم . وإذا كان الاجتاع الكامل لم يبين لنا الاتجاه الذى نتبعه ، وإذا لم يقترح تعميم الديموقراطية باعتبارها القوة المحركة الأساسية للبيريسترويكا ، لكان قد أصبح بلا أى جدوى .

كان تطوير الديموقراطية هو الفكرة الرئيسية لاجتاع يناير الكامل _ فيما يتعلق بطرق تحقيق مهام البيريسترويكا ، وحماية المجتمع من تكرار أخطاء الماضى . إنه الضمان الرئيسي لكي تصبح البيريسترويكا لارجعة فيها . وكلماكان هناك مزيد من الاشتراكية . هذه هي قناعتنا الراسخة ، ولن الديموقراطية . سيكون هناك مزيد من الاشتراكية . هذه هي قناعتنا الراسخة ، ولن نتخلي عنها . وسوف نطور الديموقراطية في الاقتصاد ، وفي السياسة ، وفي داخل الحزب نفسه . ويعتبر إبداع الجاهير القوة الحاسمة في البيريسترويكا . وليس هناك من قوة أخرى أعظم .

وأوضحت الشهور التى انقضت منذ الاجتماع الكامل أننا تصرفنا بشكل سليم . ويواجه جيلنا مهمة هائلة لإعادة بناء كل البلاد . وربما لانحل كل شيء ولكن سيكون لدينا الوقت لدفع عملية التسريع . وسنضع أسس البيريسترويكا . وأنا على يقين من أن كل المجتمع السوفيتي سينخرط في عملية البيريسترويكا .

ولكن حتى عندما يجرب الدولاب الديموقراطى الجديد، ويبدأ استخدام الروافع المعنوية بشكل كامل، لن تصير المهمة أيسر. وفى الحقيقة ، أعتقد أن كمية العمل ستزداد وسيغدو أكثر تعقيدا ، فن الواضح أنه لابد من تغيير أشكاله وأساليبه أكثر من مرة لأنه سيكون علينا أن نعمل فى ظروف سياسية ، واقتصادية ، ومعنوية ، وثقافية جديدة .

البيريسترويكا تكتسب قموة دافعة

آمل فى أن أكون قد نجحت جتى الآن فى أن أوضح لكم أن المجتمع السوفيتى قد بدأ فى التحرك ، وأنه ليس هناك مايوقفه . ولكننا لا نشجع التوقعات غير الواقعية . فبعض الناس يأملون فى أن يتغيركل شىء على الفور من تلقاء نفسه ، دون أن يحتاج الأمر إلى أى جهد خاص . وكثيرون يفكرون بهذه الطريقة : لقد ظهر قادة جدد ، وهكذا فإن كل شىء سيتغير الآن ، وسيكون كل شىء على مايرام . لا ، ومن الخطأ الاعتقاد بأنه من الآن فصاعدا ستكون الأمور سهلة مثل نزهة بالجياد أسفل التل . إننا على العكس مانزال نصعد التل ، وأمامنا طريق طويل علينا أن نقطعه قبل أن تكتسب البيريسترويكا قوة .

إن البيريسترويكا مازالت تحبو. وكل مافعلناه حتى الآن أننا شكلنا فقط دولاب التسريع. وحتى وقت قريب انهمكنا بدرجة أكبر فى التعرف على الأمور، وفى استكشاف المواقف وفى جمع الأفكار والتوصيات. وعلينا جميعا الآن أن نتقدم معا إلى الأمام. وإنها لمسألة أخرى تماما أن يكون لدى مختلف الناس أفكار مختلفة عن البيريسترويكا وعن الدور الذى يجب عليهم أن يلعبوه فيها.

وليس هناك كثير من المعارضين بصراحة للبيريسترويكا . ومع ذلك فهناك أناس يؤيدون التجديدات ولكنهم يعتقدون أن البيريسترويكا ينبغى ألا تمسهم ، لن تمس فقط إلا الذين فى القمة فى الأجهزة الحزبية والحكومية والاقتصادية وغيرها من القطاعات ، وزملاء العمل فى المصانع أو المزارع أو مواقع البناء بإيجاز أى شخص إلا هم . وفى حديث أجربته مع العال فى مصنع ف ل ف (٥) فندسة الراديو فى ريحا خلال زيارتى لجمهورية لاتفيا الاشتراكية السوفيتية رأيت من الضرورى أن أخبرهم بأن الصعوبات شىء له أهميته ، ولكن إذا ما اهتموا فقط بما يحدث « فى

⁽٥) ف ل ف _ مصنع للهندسة الكهربائية في لاتفيا .

القمة » ، ولم يستفيدوا من مواردهم الحاصة فسوف تتباطأ البيريسترويكا وتبدأ فى الدوران حول نفسها وتنتهى كإجراء تعوزه الحماسة .

وهناك أيضا أناس لايعرفون كيف يعملون بالطريقة الجديدة ، بمضمون البيريسترويكا . وعلينا أن نعلمهم وأن نساعدهم .

وهناك أيضا مشكلة التباطؤ، والقصور الذاتى. ولم يتم التخلص بعد من أسلوب انتظار التعليات من أعلى فى كل أمر، والاعتاد على قرارات المستوى الأعلى. وليس فى هذا مايدهش، إذ أن الأمور اعتادت أن تسير بهذه الطريقة من الورش حتى الوزارات، وما يزال لها تأثيرها إلى اليوم، حتى فى المراتب العليا من الإدارة. والمشكلة أن الناس زاد اعتيادهم على عدم التفكير والتصرف بطريقة مسئولة ومستقلة. وفى ذلك تكمن مشكلة كبيرة أخرى.

والمهمة الرئيسية أن نجعل المجتمع بكامله يشارك في عملية إعادة البناء فالاشتراكية في مجتمعنا تتطور وفق أسسها الخاصة . ونحن لانقترح ضرورة تنفيذ البيريسترويكا مع شعب مختلف ، وحزب آخر ، وعلم وأدب آخرين ، وما إلى ذلك . ليس الأمركذلك . إننا نقوم بتنفيذها معا ، من خلال جهد على نطاق البلاد . وينبغى الاستفادة فيه من كل قدراتنا الفكرية . ويمكننى أن أرى من خبرق الخاصة أننا جميعا نتغير من خلال مجرى البيريسترويكا . وسيكون من عدم الإنصاف أن ننكر على شخص ما حقه في ممارسة البيريسترويكا الخاصة به ، والتصرف بشكل مختلف اليوم عا فعل بالأمس . والانطلاق اليوم من إدراك الوضع والأهداف التي طرحها وقتنا .

ليست لدينا صيغ جاهزة

السياسة هي فن الممكن . وفيما وراء حدود الممكن تبدأ المغامرة . ولهذا السبب فإننا نقدر إمكانياتنا بعناية وترو واضعين ذلك في الاعتبار ونحن نرسم مهامنا . وقد ٧٣

علمتنا التجربة المريرة ألا نسبق أنفسنا على الطريق الذى اخترناه ، وإنما نأخذ في اعتبارنا الحقائق الواضحة لبلادنا .

وتكمن أكبر الصعوبات التي تعترض جهدنا من أجل إعادة البناء ، في تفكيرنا الذي تشكل خلال السنوات الماضية . وعلى كل منا ، بدءا من السكرتير العام للحزب حتى العامل في موقع الإنتاج ، أن يغير تفكيره ، وهذا أمر يمكن فهمه لأن الكثيرين منا تشكلوا كأفراد وعاشوا في ظروف كان النظام القديم فيها قائما . وعلينا أن نتغلب على نزعتنا المحافظة . إن غالبيتنا تتمسك بمبادئ أيديولوجية وسياسية سليمة . ولكن هناك مساحة كبيرة بين الموقف السليم وبين تحقيقه .

ويحدث فى بعض الأحيان أثناء مناقشة مسألة ما فى المكتب السياسى أن يبدو أننا توصلنا إلى استنتاجات هامة واتخذنا قرارات مبتكرة . ولكن عندما يصل الأمر إلى اختيار أساليب تنفيذها ، ننتهى إلى محاولة استخدام الأساليب القديمة لتحقيق مهام جديدة .

ونحن نسعى فى السياسة والأيديولوجية إلى بعث الروح الحية للينينية . إن للعقود العديدة التى تقيدنا فيها بالعقائد الجامدة ومداخل كتب القواعد ، كان لها أثرها ونحن نريد اليوم أن نحقق عملنا النظرى بروح خلاقة حقة . إنه لأمر صعب ، ولكن يجب أن نقوم به . ويبدو أن الفكر الخلاق يقوى .

ونحن ندرك أنه ليس هناك ضمان ضد الأخطاء، وأخطر الأخطاء ألا تفعل شيئا خوفا من ارتكاب الخطأ. ونحن نعرف من تجربتنا خطأ عدم فعل شيء. وكثير من متاعبنا تنبع من ذلك. وقد لاحظ معارضونا في الغرب هذا الضعف الذي اتضح بشكل خاص في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، وكانوا على وشك أن يلقوا بالاتحاد السوفيتي إلى «كومة نفايات التاريخ». ولكن قدّاسهم كان سابقا للأوان.

ويسرنى أن هناك فها متزايدا ، سواء داخل الحزب أو فى المجتمع بأسره ، بأننا بدأنا مسعى سياسيا ، واقتصاديا ، واجتماعيا ، وأيديولوجيا لم يسبق له مثيل . وإذا كان علينا أن ننفذ كل ماخططناه ، فعلينا أن ننفذ عملا سياسيا ، واقتصاديا ، واجتماعيا وأيديولوجيا لم يسبق له مثيل فى المجالين الداخلى والخارجى على السواء . إننا نتحمل قبل كل شيء مسئولية لم يسبق لها مثيل . ونحن ندرك الحاجة إلى جهود ضخمة وجريئة ، وبخاصة فى المرحلة الأولى .

هناك أشياء كثيرة غير معتادة فى بلادنا الآن: انتخاب المديرين فى المؤسسات والمكاتب، وتعدد المرشحين لانتخابات السوفيتات فى بعض الأحياء، والمشروعات المشتركة مع الشركات الأجنبية، والمصانع والوحدات والمزارع الجاعية والحكومية التى تمول نفسها، ورفع القيود عن المزارع التى تنتج منتجات غذائية للمؤسسات وإدارة هذه لها، واتساع النشاط التعاونى، وتشجيع النشاط الفردى فى الإنتاج صغير الحجم، والتجارة وإغلاق الوحدات غير المربحة والمصانع التى تعمل بخسارة، ومعاهد الأبحاث ومنشآت التعليم العالى التي لا تعمل بكفاءة. ولدينا الآن صحافة أكثر وضوحا، وتواصل جدلا صريحا حول كافة المسائل الحية المتعلقة بتقدمنا وبالبيريسترويكا. وكل هذا طبيعى وضرورى، رغم أن كل هذه الأشياء لا تتحقق بسهولة، كما لا يتيسر فهمها على الفور بين الجمهور على اتساعه أو بين أغضاء الحزب.

ولا أعتقد أن الفترة الماضية التى امتدت عامين ونصف عام كانت أصعب الفترات بالنسبة للحزب الشيوعى السوفيتى. ومع ذلك، فقد كانت من أكثر الفترات خطورة وتطلبت إحساسا عاليا بالمسئولية، ونضجا وإخلاصا للمثل العليا والأهداف السياسية. وقد يناسبنا أو لا يناسبنا اتجاه معين، ولكننا نحاول أن نرى الأشياء بروية وواقعية وبهذه الطريقة وحدها يمكننا أن نطرح سياسة ما على الشعب ونقدم له أهدافا يفهمها وتقوده إلى الأمام.

وكان يوجد لدى القيادة بالتأكيد بعض الخلافات فى الرأى حول كيفية النغلب على الركود وحول كيفية معالجة الأمور فى المستقبل. وليس فى ذلك مايثير الدهشة.

وعلى العكس ، فسيكون من الغريب ، وهذا أقل مايقال ، إذا لم تكن هناك مثل هذه الاختلافات ، وإذا ماكان كل فرد يفكر ويتحدث مثل الآخرين تماما . إن اختلاف الآراء يولد الفكر . ولكننا متحدون فها يتعلق بالأمر الأساسى . فنحن مجمعون في قناعتنا بأن البيريسترويكا لاغنى عنها لأنها حتمية حقا ، وبأنه ليس أمامنا من خيار آخر .

إن كل الشعب السوفيتى ، وكل الحزب ، بما فى ذلك لجنته المركزية ومكتبها السياسى ، والحكومة منخرطون جميعا فى عملية إعادة البناء . وفى هذا العمل الثورى نكتسب نحن أعضاء المكتب السياسى خبرة فى حل المشاكل التى تواجه مجتمعنا . ويحدث نفس الشىء فى الجمهوريات والمناطق وأسر العمل المشاركة فى البيريسترويكا . وفى حل المهام الجديدة تتعرض البلاد كلها لاختبار البيريسترويكا . والشىء الهام للغاية ، أن مناخ مجتمعنا نفسه قد تغير . وتجرى عملية إطلاق نشاط الشعب السوفيتى السياسى والاجتاعى . لقد غدا الناس أكثر جرأة وهم يبدون شعورا قويا بالواجب المدنى . لقد تراكم الكثير فى السنوات السابقة وهم يريدون التحدث عنه بصراحة .

وتنمو حدة هذا الوضع غير المعتاد وتتزايد. فلو أخبرنا شخص ما في أبريل ١٩٨٥ أنه سيكون لدينا بعد عامين مايحدث اليوم بالفعل ، لما صدقناه في الغالب ، أو لوجدنا ذلك أمرا غير مقبول. ولكن ماهي الحال بالفعل ؟ الحقيقة هي أن ماكنا نشيح بوجهنا عنه بالتأكيد أو ماكان غير واضح منذ عام مضي فقط لم يصبح فحسب موضوعا عاما للنقاش ، وإنما أصبح مكونا طبيعيا لحياتنا اليومية . إن المجتمع يتغير، وهو يتحرك بكامله .

ونحن لانعيش فى فترة عادية . والناس من الجيل الأكبر يقارنون الجو الثورى الحالى بجو السنوات القليلة الأولى بعد ثورة أكتوبر أو بأيام الحرب الوطنية العظمى . بيد أن جيلى يمكن أن يقارن ذلك بفترة انتعاش مابعد الحرب . إننا الآن أكثر

حصافة وواقعية بكثير. وهكذا فإن الحماس والتفانى الثورى اللذين بميزان بشكل متزايد المزاج السياسي للشعب السوفيتي قمان ومثمران لدرجة كبيرة.

وفى اجتماع يونيو ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية تحدثت عن خطر الساح بأن يتطور التناقض بين النشاط المتعاظم للجاهير وبين الشكل وبين الأساليب البالية القائمة فى نشاط الهيئات الحكومية ، والإدارية وحتى تنظيات الحزب . ومع ذلك ، فبإمكان المرء أن ينظر إلى هذا الوضع من زاوية مختلفة . فقد كان من الممكن أن يكون الأمر أسوأ بكثير إذا ماكانت سلبية الشعب وعجزه عن أن يكون فى مستوى احتياجات البيريسترويكا قد شكلا العقبة الرئيسية . ولحسن الحظ ، لم يكن الأمر كذلك . إن ضغط الجاهير العاملة وصراحتها يتصاعدان بل ويتخطيان يكن الأمر كذلك . إن ضغط الجاهير العاملة وصراحتها يتصاعدان بل ويتخطيان المعدل الفعلى لإعادة البناء .

لقد أصبحت الاتصالات المباشرة والرسائل هي « التغذية الخلفية » الهامة التي تربط القيادة السوفيتية بالجاهير. وتصل الرسائل إلى مكاتب تحرير الصحف والمجلات (ويجرى نشر الكثير منها) ، وتوجه إلى الحكومة ، والسوفيت الأعلى ، وعلى الأخص إلى اللجنة المركزية .

وها كم نقطة جديرة بالملاحظة . كانت هناك رسائل عديدة إلى كافة أنواع المؤسسات في أوقات سابقة ، ولكن ما تغير الآن هو طابع هذه الرسائل نفسها . والقليل منها من النوع الذي يطلق عليه « رجاوات شخصية » بطلب المساعدة في الحصول على شقة أو معاش ، أو في مساعدة شخص أدين خطأ ، أو إعادة شخص إلى مكانه في العمل . ورغم أنه ماتزال هناك بعض الرسائل من هذا النوع إلا أن ذلك لم يعد الغرض الأساسي في رسائل اليوم . فغالبيتها تتضمن أفكارا وتعبيرات عن الاهتام بمستقبل البلاد . ويبدوكها لو أن ماكان يُكبح بشكل مؤلم في سنوات عن الاهتام بمستقبل البلاد . ويبدوكها لو أن ماكان يُكبح بشكل مؤلم في سنوات الصمت والاغتراب الطويلة ، قد وجد أخيرا متنفسا . فالوضع الجديد يشجع الناس على مجرد صديق على الكلام . وهم يريدون أن يعرضوا أفكارهم ومشاكلهم ليس على مجرد صديق

أو قريب ، وإنما على قادة البلاد . وبعض الرسائل تموج حقا بالحماس .

وعندما قرأ الناشرون المخطوط الأصلى لهذا الكتاب ، طلبوا منى أن أستشهد بأبرز تلك الرسائل . وإليكم رسالة من أ . زيرنوف ، وهو عامل يبلغ من العمر ٣٣ عاما ويعيش فى جمهورية ياكوتسك ذات الحكم الذاتى ، فى الشرق الأقصى :

« رغم أننى لست عضوا بالحزب ، فإنى أعتبر من واجبى أن أكتب إليك وأشكرك لأنك أيقظت فينا نحن العال العاديين شعورا بالمسئولية المدنية . إن الشعب كان ينتظر هذه التغييرات . .

البيريسترويكا بالشك ليس لأنها تتعارض مع رغباتنا ـ كلا على الإطلاق ـ لقدكان للبيريسترويكا بالشك ليس لأنها تتعارض مع رغباتنا ـ كلا على الإطلاق ـ لقدكان الناس ببساطة يعرفون من خبرتهم المريرة أن الشعارات الجيدة كثيرا ما لا تتفق مع الواقع . ومع ذلك ، فسرعان ما أدركنا أن البيريسترويكا ليست حملة قصيرة المدى وإنما عملية ضرورية تاريخيا . والشيء الأهم أننا رأيناها تؤثر على كافة مجالات مجتمعنا .

. «لقد غلت حياتنا ذات معنى كبير بدرجة أكبر. وبدأ الناس يبدون اهتماما حقيقيا بالوضع فى البلاد ، ويتقدمون بالمقترحات حول كيفية تحسين العمل ، ويقدمون ملاحظات انتقادية . والآن تبدأ مناقشة مشاكل الإنتاج « الصعبة » تلقائيا فى أسر العمل . وإنه لما يحيرنا أن تكون منتجاتنا بمثل هذه النوعية الرديئة ! إننا نسرق أنفسنا .

وشكرا لكم . من الصعب أن تكتب وتعبر عن امتنانك لشخص لاتعرفه ، ولكننا ، من ناحية أخرى ، لا نشعر بالحرج من توجيه الشكر إلى طبيب عالجنا من مرض خطير . لقد عالجتنا من السلبية المدنية واللامبالاة ، وعلمتنا أن نثق فى قدراتنا ، وفى العدالة . وفى الديموقراطية . . . إن كثيرا من الناس لم يعتادوا أن يأخذوا الاجتاعات الكاملة للجنة المركزية أوحتى مؤتمرات الحزب بجدية ، أما الآن

فحتى ابنى الذى يبلغ من العمر سبع سنوات يناديني بصوت عال كلما رآك فى التليفزيون ، « ياأبتى ، تعال بسرعة ، إن جورباتشوف يتحدث » .

«إن المستقبل لنا . وفيها يتعلق بالأخطاء ، فليس هناك من هو معصوم من الخطأ . لقد كنا الرواد الأوائل ، ولم يكن هناك من نتعلم منه ، ولذلك ، فإننا نتعلم من أخطائنا » .

وإليكم رسالة من ليتوانيا. وقد وردت إلينا من ف. أ. بريكوفسكيس الذى كتبها بعد اجتماع يناير ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية :

« إِن قلبي يموج بانطباعات أود ببساطة أن أشارك فيها شخصا آخر. ولأول مرة منذ سنوات طويلة يمكننا أن نرى في قيادة الحزب والحكومة أناسا ذوى وجوه إنسانية بدلا من وجوه أبى الهول المتحجرة. وهذا وحده إنجاز عظيم.

« ماذا يرى الناس في سياستكم ؟ »

« لن أكذب عليك ، ياعزيزى ميخائيل سيرجيفيتش لأن ذلك يمكن أن يضر بقضيتنا المشتركة . وسأقول لك الحقيقة كاملة » .

« لن أتحدث عن الفئة صاحبة الامتيازات من المجتمع . فكل شيء واضح هنا . والكثيرون يودون أن يواصلوا حياتهم كما لوكانوا نياما تحت تأثير مخدر ، في بلد العسل واللبن » .

لا إننى أريد الحديث عن البروليتاريين ، هؤلاء الذين شرعت فى هذه البيريسترويكا من أجلهم ، ولسوء الحظ ، فليس لديهم فهم عميق لسياستك بينهم وماتزال ثقتهم فيها محدودة . ولكن ينبغى ألا يبدو هذا مثيرا للدهشة . فالعقول لا تفيق بسرعة بعد هذا الشتاء الطويل والرهيب . وستكون هذه عملية طويلة وصعبة » .

« ولكن كل شيء سيكون على مايرام في النهاية » .

« إنني كاثوليكي ورع . أذهب كل أحد إلى الكنيسة وأصلي كي لا يعاقب الله

العالم على خطايانا . وأنا أعرف أنك ملحد ، لكن جهودك قد أوضحت أن على بعض المؤمنين أن يتعلموا منك شيئا ما . وأود أن تعرف أننى أذهب إلى الكنيسة كل أحدمن التاسعة صباحا حتى الواحدة ظهرا ، وأصلى من أجلك ومن أجل أسرتك » .

والرسالة التالية من ب . دوبرفولسكى ، مدرس من كيشينيوف ، من جمهورية مولدانيا :

« إن علينا نحن الشباب أن نواصل قضية لينين ، القضية العظيمة للشعب السوفيتى . وإنك تقوم بمهمة ضخمة ، فنتأكد أنها لن تغدو مثل مهمة سيزيف . أرجو ألا تغضبك لهجة رسالتى : إنها صادرة عن الألم الذى يعتصرنى لأن بعض الناس لا يفهمون قرارات الحزب الأخيرة ولقاءاتك الشخصية مع الشعب . واسمح لى أن أخبرك صراحة أننى معك . وأنا أحيّى اجتاعاتكم مع الجهاهير العاملة والمناقشة الأمينة والصريحة لمشاكلنا ومتاعبنا . لكننى أرغب فقط فى أن تؤدى هذه المناقشات إلى نتيجة . فليس كل الناس يفهمون ويقبلون أسلوب عملكم اللينينى : العمل بين الشعب ، ومن أجل الشعب ، وباسم الشعب . وفى بعض الأحيان أدخل فى مناقشات حول هذه المسائل حتى يبح صوتى » .

«إن كثيرا من الناس – وأعنى الجيل الذى ولد فى الثلاثينيات ، والأربعينيات ، والخمسينيات – قد أصبحوا متحجرين . ولست خائفا من استخدام هذه الكلمة . فنى الاجتاعات يقولون جميعا نعم (وبعضهم الآن مسئولون صغار أو حتى كبار) . على أى شيء ؟ على كل شيء . إنهم يقولون نعم للتجديد . ويقولون نعم للبيريسترويكا . وهم مستعدون للبيريسترويكا . وهم يقولون على الدوام « نعم » و « نحن نريد » . وهم مستعدون لتعرية صدورهم تعبيرا عن الحاس . ولكن ماذا يعنى ذلك حقيقة ؟ إنه كذب . وقد حاولت أن أعثر على السبب . لماذا لا تصدقون رجلا لا يضن بحياته ، وصحته وأعصابه من أجلنا ؟ هل تعتقدون أنه من السهل إيقاظ بلد يضم عشرات الملايين ، كان يغط في سبات لعشرات السنين ؟ هل تعتقدون أن من السهل بعث روح المبادرة

فى وقت مازال فيه الكثيرون يبحثون غن معنى هذه الكلمة فى القاموس؟ هل تعتقدون أن من السهل دفعكم جميعا إلى الحركة ؟ ».

« إننى أتحدث إليك بأمانة عن مسائل تتعلق بالمبدأ . وأنا هنا اتحدبث باسم جيل كامل من الشباب السوفيت الذين تلقوا . تعلمها عاليا » .

وإليكم رسالة أخرى ، وهذه المرة من ج . فاردانيان الذي يعيش في جورجيا :

«قد تتذكرنى . فذات مرة ، حيناكنت لاتزال تعمل فى إقليم ستافروبول ، عقدت اجتماعا موسعا مع أول من طبقوا نظام الأجر على أساس القطعة والعقود الجاعية بين عال تشغيل الآلات الزراعية . وكنت أعمل فى ذلك الوقت كبير الاقتصاديين بالمزرعة الجماعية المسهاة «الطريق إلى الشيوعية » بحى الكسندروفسكى . وداربيننا حديث طويل ، وطرحت علينا أسئلة عديدة عن حياتنا ، وعن الشعور العام فى المزرعة » .

« إن كل مبادراتك سواء فى السياسه الخارجية أو الداخلية تلهمنى أنا وكل الشرفاء لأنها تتفق مع طموحاتنا واهتماماتنا . ومع ذلك فمن المؤلم أن أقول لك : ليس كل الناس متفقين معك » .

« ولا أستطيع أن ألومهم. وسأقولها بصراحة ، كما تود أنت: إن المشكلة تكمن فى القادة المحلين ، لقد تشكلوا على صورة القادة السابقين ومن الصعوبة الآن بمكان أن نعيد تشكيلهم ».

« ونحن ندرك أن الأمور التى تواجهك صعبة . ولكننا نتوسل إليك : لا تتراجع ولو خطوة واحدة إلى الخلف . وينبغى ألّا يكون هناك أدنى تغيير فى التفكير أو حتى أدنى تراجع . لا تلق بالا لهؤلاء الذين لا يتفقون معك . إن الشعب مبتهج وعلى استعداد لتقديم التضحيات من أجل الأهداف التى رسمتها . وهذا ما أردت أن أقوله لك » .

وأخيرا ، إليكم رسالة من ك . لاستا ، وهي سيدة من ليننجراد : «إن جميع من يقفون معك يجب أن يكافحوا ضد كل أشكال المارسات القديمة الكريهة ، مثل الروتين ، والفساد ، والامتثال ، والحنوع والحوف من السلطات القائمة . وهذا ، الآن ، هو واجب كل امرئ لا يريد العودة إلى الماضي . ويتعين على كل امرئ الآن العمل في موقعه كما تعملون أنتم ، دون أن يضن بأى جهد . إذ أن كل امرئ يمكنه أن يرى كم من الطاقة ، والوقت ، والقوة العاطفية والصحة يتطلبها منك العبء الهائل فوق طاقة البشر الذي يقع على كاهلك . والبناء صعب على الدوام ، ولكن الأصعب منه أن تبنى على موقع يجب أولا تنظيفه من القاذورات . وآمل أن يسهل الأمور قليلا بالنسبة لك إذا ما قلت لك : إن أعدادا ضخمة من الناس العاديين تقف إلى جانبك ، وتحبك وتهتم بك » .

وبإمكانى الاستشهاد بالرسائل بلا حدود . بيد أن هذا الكتاب بكامله لن يكون كافيا لها جميعا . وفي كثير من هذه الرسائل يكتب الناس عن كيف بدأت البيريسترويكا _ أو لم تبدأ _ في مصنعهم ، أو مزرعتهم الجاعية ، أو موقع الإنشاء ، أو في مكتبهم . وهم يخبرونني ما الذي يقومون به كي يصبحوا نشطين فيها ، ويحللون الأسباب الخاصة والعامة للصعوبات التي تنشأ على طريقهم .

وتشهد هذه الرسائل ـ وهناك منها الآلاف فوق الآلاف ـ على الثقة الكبيرة فى قيادة الحزب والحكومة . الثقة المستعادة ! وهذه قوة كبيرة ، ورصيد لايقدر . وما يستوقف المرء فى هذه الرسائل هو التفكير غير المقيد ، والدرجة العالية من الثقافة السياسية ، والرغبة العارمة فى الحياة والعمل بما يمليه الضمير .

ونحن فى المكتب السياسى نناقش هذه الرسائل ، ونجمعها فى فترات منتظمة . وهذا يساعد قيادة البلاد على أن تسبق مجرى الأحداث ، وعلى أن تقيّم سياستها بدقة وتعدّلها ، وأن تضع أساليب حديثة لتناول الأمور .

وهناك شيء واحد مشترك بين كافة الرسائل ــ هو التأييد غير المتحفظ والحاس

للبيريسترويكا. وحتى الأحكام الحادة والقاسية تجدها مشربة بالرغبة فى المساعدة على أن تمضى قدما. ومع ذلك ، فكما لاحظ القارئ مما سبق أن استشهدت به ، هناك أيضا إشارة قلق من أن يكون مصير البيريسترويكا هو نفس مصير إصلاحات الخمسينيات والستينيات وأن تخمد. والناس يحثوننا ألا نتراجع! لا خطوة واحدة إلى الخلف! وإنما أن نتحرك إلى الأمام ونواصل بشجاعة وتصميم أكبر!.

وباختصار ، يجب أن نكون قادرين ليس فقط على تعديل سياستنا بما يتفق ورد فعل الجاهير ، والطريقة التى تنعكس بها فى عقل الشعب ، ولكن يجب أن نضمن التغذية الخلفية ، بأن نشجع الناس على أن يقدموا لنا الأفكار ، والاقتراحات والنصح ، بما فى ذلك عن طريق الاتصال المباشر بهم .

والآن بدأ كل شخص يعتاد على الأمر. ولكن فى البداية كان هناك بعض الناس « المتحمسين » الذين حذروا من خطر أن يصاب جورباتشوف بـ « التسمم بالأكسجين » خلال أحاديثه فى الهواء الطلق مع الناس ، ومن خطر أن يقال له شىء لايلتى الترحيب ، شىء لا ينبغى أن يعرفه رجال الكريملين. وقد كان هناك بعض التعليقات. وربما لا يزال هناك بعض آخر ، بأن الاجتماعات المباشرة غير الرسمية ، ليست سوى محاولة لخطب ود الشعب. ولدى ، طبعا ، رأى آخر عكسى ومختلف حول هذا الموضوع. فليست هناك تلميحات وتوصيات وتحذيرات أكثر قيمة مما تحصل عليه مباشرة من الشعب.

وبشكل عام ، أصبح الناس أكثر اقترابا منا فى مثل هذه الاجتماعات . فكيف كان الأمر قبل ذلك ؟ كان يمكن أن نطرح سؤالا على شخص ما ولكنه كان يظل صامتا ، ربما نتيجة للخوف أو عدم الثقة . وحقا ، كان هناك بعض الديماجوجية : ماذا يفكرون فيه ... هناك فى موسكو ؟ هذا أمر سينىء ، وليس بحسن . ولكن لم تكن هناك مقترحات . أما الآن فتبدأ على الدوام مناقشة جادة ومثيرة للاهتمام . وأصبح العمال والفلاحون أكثر تفاؤلا ، وكان المثقفون والمهنيون

يتحدثون بطريقة آمرة ومطالبة . ولكن الأصوات العالية قد هدأت بعض الشيء وتحذر من التدخل في مناقشة جادة وبناءة . وحينها يتدخلون بالفعل يقاطعهم الناس .

لقد تحدثت بالفعل عن الانطباع الذي خرجت به من اجتاع مع أناس فى ساحة أكتوبر فى كراسنودار فى صيف ١٩٨٦ . كم كانت مناقشة واقعية ، وكم من مشاكل طرحها الناس! وقد سعدت حقا برؤيتهم يساندون خط اللجنة المركزية بمثل هذا الحاس . ثم أدركت كم يشعر الناس بالمرارة ، وكم لديهم من المقترحات والتوصيات لقادتهم .

لم أكن أنوى إلقاء خطاب فى منطقة كوبان (٢) (عاصمتها كراسنودار) وذهبت إلى هناك لمجرد إلقاء نظرة على كيفية سير الأمور ولكى أرى بأم عيني كيف يجرى تنفيذ تجربة اقتصادية ذات أهمية قومية للقد بدأ حى بأكمله يعمل على أساس مبدأ التحريل الذاتى وتغطية التكاليف ذاتيا وبعد مناقشات عديدة ، وجدت من الضرورى أن أخطب فيهم . وأعتقد أن ماقلته برهن على فائدته بالنسبة للمناطق الأخرى من بلادنا كذلك ، إذ كانت تدفعه وقائع الحياة نفسها . إن المشاورات والاجتاعات مع الشعب لا غنى عنها حقا . وليس بإمكان المرء أن يتوصل إلى الكثير بالأوام .

إن الخبرة التى اكتسبناها بالفعل فى تنفيذ البيريسترويكا تبرز مرة أخرى فكرة لينن القائلة بأن الثورات مدرسة عظيمة وذات فعالية كبيرة للتعليم والتنوير السياسى للجاهير. والبيريسترويكا ثورة ، بل إنها أكثر الثورات سلمية وديموقراطية . وفى حدود العملية الديموقراطية سنتقدم للتغلب على المواقف الخاطئة التى نصادفها والتى سوف نصادفها فى مجرى هذا التجديد للمجتمع . بل للتغلب حتى على المقاومة

⁽٦) كوبان ــ منطقة فى القسم الغربي من شمال القوقاز ينحدر القسم الأكبر من سكانها من القوازق الذين استقروا من جديد هناك منذ بضع قرون .

الأكثر صراحة وسفورا . وليست لدينا أية مجموعة ذات شأن من السكان لاتتفق مصالحها الطويلة المدى مع البيريسترويكا .

والصعوبات التي نواجهها في عملية إشاعة الديموقراطية هي من صنعنا لدرجة كبيرة. إننا جميعا نتاج لعصرنا ، ولنموذج معين من الأشياء والعادات . ولذلك فنحن نقول بأن علينا جميعا أن نغير أنفسنا ، بما في ذلك من هم في المكتب السياسي ، وفي الحكومة ، وفي المراتب العليا الأخرى للقيادة . ويعمل البعض على تنفيذ ذلك بسهولة وسرعة ، بينا يجد آخرون الأمر صعبا ويطلبون إعفاءهم أو نقلهم إلى وظائف أخرى .

ويبدى الناس رأيا في التخلص من لامبالاتهم السابقة وفي المشاركة بشكل كامل في الحياة العامة . ويتجلى ذلك في أشكال مختلفة من التعبير . فالبعض يلتى خطبا قاسية في الاجتاعات ، بينها ينظم آخرون اجتاعات ومواكب جاهيرية . وبشكل عام ، فإن العملية الديموقراطية لا تستبعد إمكانية مثل هذا النشاط القاعدى . لقد تخطينا بالفعل الأزمنة التي كانت فيها مثل هذه الأمور تثير خوف المسئولين وتؤدى إلى مخطورات إدارية . ولا تتوفر لدينا بعد ، أخلاق كافية للنقاش . فأحيانا يقاطع شخص ما يجلس بين الجمهور متحدثا يقف على المنصة ، ويميل البعض في مقالاتهم إلى تسوية حسابات قديمة مع الآخرين ، أو يلصقون بهم نعوتا كريهة . ولكن هناك إدراكا متزايدا باطراد بأن الديموقراطية لاتتفق مع التنظيم البيروقراطي الصارم المفرط للحياة الاجتاعية . وبطبيعة الحال ، لا يمكن لأى مجتمع يحترم نفسه ، أن يسمح بذلك . فالديموقراطية تتضمن كذلك القانون والنظام ، وتنطلب المراعاة الأكثر صراحة فلقوانين من جانب السلطات والمنظات وكذلك من جانب كافة المواطنين .

مزيد من الضوء على الجلاسنوست

لعل المناخ الجديد يتضح بحيوية أكبر فى الجلاسنوست. فنحن نريد مزيدا من العلانية بشأن المسائل العامة فى كافة مجالات الحياة. ولابد أن يعرف الناس ماهو جيد، وماهو ردىء، بغية الإكثار من الجيد ومكافحة الردىء. وهكذا ينبغى أن تكون الأمور فى ظل الاشتراكية.

ومن المهم أن ندرك كل ماهو إيجابى وبناء ، ونستخدمه ، ونجعل منه رصيدا لكل الشعب ، ولكل الحزب ، حتى يمكن استخدام بواكير الموقف الجديد في ظروف البيريسترويكا .

إن الحقيقة هي الشيء الرئيسي . لقد قال لينين : « مزيدا من الضوء ! فليعرف الحزب كل شيء ! » . ونحن في حاجة ، أكثر من أي وقت مضى ، ألا تكون هناك أركان مظلمة يظهر فيها العفن من جديد ، ويتراكم عليها كل مابدأنا نناضل ضده بحزم . ولهذا السبب يجب أن يكون هناك مزيد من الضوء .

وتقدم الجلاسنوست اليوم مثالا حيا لجو روحى ومعنوى موات وطبيعى فى المجتمع ، يجعل بإمكان الناس أن يفهموا بشكل أفضل ما الذى حدث لنا فى الماضى ، وما الذى يحدث الآن ، وما الذى نسعى إليه ، وماهى خططنا ، وأن يشاركوا بوعى ، على أساس هذا الفهم ، فى جهد إعادة البناء .

إن إشاعة الديموقراطية فى جو المجتمع والتغييرات الاجتاعية والاقتصادية ، تكتسب قوة دفع لدرجة كبيرة ، بفضل تطور الجلاسنوست . وغنى عن القول إن سياسة الحزب هى أساس هذه العملية . ومع ذلك ، فلن تبدأ الأمور فى التغير إذا لم عارس النهج السياسي بطريقة مفهومة للجاهير . ولابد أن يعرف الشعب الحياة بكل تناقضاتها وتعقيداتها . ويجب أن يكون لدى الجاهير العاملة معلومات كاملة وصادقة عن المنجزات والعقبات ، وعما يعترض سبيل التقدم ويعرقله .

وقد يقال إن الناس قد تطور لديهم إحساس بميزات الجلاسنوست . ولا يعود

ذلك فحسب إلى رغبتهم الطبيعية فى أن يعرفوا مايجرى ومن يعمل بجد. فهم يزدادون اقتناعا بأن الجلاسنوست هى شكل فعال للرقابة العامة على نشاط كافة الهيئات الحكومية، دون استثناء، ورافعة قوية لتصحيح النواقص والعيوب. ونتيجة لذلك بدأت القدرة المعنوية لمجتمعنا تتحرك. وبدأ العقل والضمير يستردان الأرض من السلبية واللامبالاة التي كانت تعتصر الأفئدة. ولا يكنى بالطبع، أن تعرف وتقول الحقيقة. فالشيء الرئيسي هو أن تتصرف على أساس معرفة الحقيقة وفهمها.

لقد بدأنا ندرك ضرورة أن نتعلم التغلب على التناقض الراسخ بين الواقع وبين السياسة المعلنة . وهذا التحول الهام فى المجال المعنوى هو الذى يشكل المضمون والجوهر العاطني للثورات الاشتراكية الحالية فى مجتمعنا .

لقد بدأنا نعد القوانين التى تضمن الجلاسنوست. وتهدف هذه القوانين إلى ضهان أكبر علانية ممكنة فى عمل الحكومة والمنظات الجاهيرية وتمكين الجاهير العاملة من التعبير عن رأيها ، بدون خوف ، فى أى مسألة فى الحياة الاجتاعية أو نشاط الحكومة .

عند بدء عملية إعادة البناء ، اعتمدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتي على قوتين حقيقيتين جبارتين للجان الحزب ووسائل الإعلام الجاهيرى . ويمكنني حتى القول بأن الحزب ماكان يستطيع أن يصل إلى مستوى النقاش الحالى عن كل مجموعة قضايا البيريسترويكا وعملية البيريسترويكا ضخمة للغاية ، ومتناقضة للجناء الم تشارك فيها وسائل الإعلام الجاهيرى بنشاط ، وبطريقة مناسبة ، بعد اجتاع أبريل ١٩٨٥ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتي مباشرة .

وتقدر اللجنة المركزية بدرجة كبيرة الإسهام الذى قدمته وسائل الإعلام إلى البيريسترويكا . فما السبب فى ذلك ؟ لأن كل شىء يتوقف على الشعب . والناس فى

طليعة النضال ، والبيريسترويكا تتطور من خلالهم . ولهذا السبب فإن الطريقة التي يفكر بها الناس ، ومستوى وعيهم وموقفهم المدنى تعتبركلها ذات أهمية حاسمة .

إن مجتمعنا الاشتراكي الذي سار بحزم في طريق التجديد الديموقراطي ، له مصلحة حيوية في المشاركة النشطة لكل مواطن لكل عامل ، وكل فلاح جاعي ، وكل عالم ، وكل مهني في مناقشة خططنا وتنفيذها على السواء . وتلعب وسائل الإعلام الجاهيري ، وستستمر تلعب ، دورا هائلا في ذلك . إنها ليست ، بالطبع ، القنوات الوحيدة للتعبير عن إرادة الشعب ، ولعكس آرائه ، وأمزجته ، ولكنها أكثر منابر الجلاسنوست تمثيلا وقوة . والحزب يريد من كل مواطن أن يعبر عن رأيه بثقة من على هذا المنبر ، وينبغي لصوت المواطنين ألا يعلن فقط في المناقشات عن رأيه بثقة من على هذا المنبر ، وينبغي لصوت المواطنين ألا يعلن فقط في المناقشات التي تجرى في البلاد وإنما عليه أن يكون كذلك ضامنا للرقابة الديموقراطية على صحة القرارات وتوافقها مع مصالح الجاهير واحتياجاتها ، وفي المرحلة اللاحقة ، على إنجاز هذه القرارات .

وتنعكس عملية إشاعة الديموقراطية الحالية ليس فقط في المطبوعات ، ولكنها تؤثر بصورة متزايدة على نشاط وسائل الإعلام الجاهيري . وبالتدريج يذوب الجمود وتكشف صحفنا ، ومجلاتنا ، والإذاعة والتليفزيون عن موضوعات جديدة وتتناولها . وأحد علامات إشاعة النشاط والحيوية بشكل عام هو أن صحافتنا تفضل بشكل متزايد الحوار عن الحديث الفردي . وتخلي التقارير الرسمية مكانها للمقابلات ، والحوار ، ومناقشات المائدة المستديرة ، والمناقشات الخاصة برسائل القراء . حقا ، إن هناك في بعض الأحيان اتجاها للحد من عدد الكتاب المشاركين إلى مابين ثلاثة وخمسة أشخاص وهذا ليس سوى عجرفة مهنية . فن المفيد بدرجة أكبر تنويع المشاركين في الكتابة حتى يعبر كافة المواطنين عن آرائهم ، وحتى يقول كل مواطن كلمته ، وحتى يتم تمثيل التعددية الاشتراكية ، كما هي ، في كل يقول كل مواطن كلمته ، وحتى يتم تمثيل التعددية الاشتراكية ، كما هي ، في كل مطبوع ينشر . ومن المؤكد أنه لشيء حسن عندما يحدد كاتب محترف موقفه . ومع ذلك ، فإن مايثير اهتماما أكبر أن نقرأ حوارا ومقابلات مع العال وسكرتيري لجان ذلك ، فإن مايثير اهتماما أكبر أن نقرأ حوارا ومقابلات مع العال وسكرتيري بحان

الحزب فى الأحياء ، ورؤساء المزارع الجماعية ، والعلماء ، والشخصيات الثقافية . فهم حملة أفكار حية . أو فلنأخذ الرسائل ــ يالها من وثائق رائعة ! إنها مثيرة حقا .

ومع ذلك ، فلا يحب كل الناس الأسلوب الجديد. ويصح ذلك على وجه الخصوص بالنسبة لمن لم يتعودوا على الحياة والعمل فى ظروف الجلاسنوست والنقد المتحرر ، والذين لايستطيعون ولا يريدون أن يقوموا بذلك . إنهم هؤلاء الذين يعلنون سخطهم على وسائل الإعلام الجاهيرى ، ويطالبون حتى أحيانا بتقييد الجلاسنوست وكبحها .

ونحن لانعتبر أمرا سلبيا وجود مناقشات حول ما إذا لم يكن هناك كثير من النقد ، وما إذا كنا نحتاج إلى مثل هذه الصراحة الواسعة ، وإذا ما كان لإشاعة الديموقراطية آثار غير مرغوب فيها . وتكشف هذه المناقشات ، بأى حال ، عن الاهتمام باستقرار مجتمعنا . ومن الممكن إغراق الديموقراطية والجلاسنوست في العبارات البلاغية وتشويه معناهما . هناك أناس يبدو وكأنهم مع التجديدات ، ولكن عندما يحين موعد العمل يضعون كافة أنواع الشروط والتحفظات أمام تطوير الديموقراطية والنقد والجلاسنوست .

ولم تعد المسألة هي ما إذا كانت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي ستواصل سياسة الجلاسنوست من خلال الصحافة وغيرها من وسائل الإعلام الجاهيري وبالمشاركة النشطة للمواطنين. إننا نحتاج إلى الجلاسنوست كما نحتاج إلى الهواء.

وأود أن أؤكد مرة أخرى على أن سياسة توسيع الجلاسنوست وتطوير النقد والنقد الذاتى ، بدلا من التلاعب بالديموقراطية ، هى مسألة مبدأ بالنسبة لحزبنا . ونحن نعتبر تطوير الجلاسنوست طريقة لتراكم الآراء والأفكار المتنوعة المختلفة التى تعكس مصالح كافة الفئات ، وكل المهن والحرف فى المجتمع السوفيتى . ولن يكون فى مقدورنا أن نتقدم ما لم نتأكد إلى أى مدى تستجيب سياستنا للنقد وبخاصة النقد

من أسفل ، وما لم نكافح النطورات السلبية ونمنعها ، ونستجيب للمعلومات من أسفل . ولا يمكنني تصور الديموقراطية بدون كل ذلك .

ومن ناحية أخرى ، فإن طابع النقد ومعاييره تتغير هي الأخرى في ظروف إعادة البناء ، وإشاعة الديموقراطية . والنقد أولا وقبل كل شيء هو المسئولية ، وكلما كان النقد أكثر حدة ، كلما وجب أن يكون مسئولا بدرجة أكبر ، لأن كل مقال حول موضوع اجتماعي ليس فقط تعبيرا عن الذات بواسطة شخص معين أو انعكاس لعقد شخص ما أو طموحاته ، ولكنه أمر ذو أهمية عامة ، وإشاعة الديموقراطية تعني إدخال تصحيحات هامة على العلاقة بين من ينتقدون وبين من يوجه إليهم النقد . وينبغي أن تكون علاقات مشاركة تقوم على المصلحة المتبادلة . والحوار هو الأكثر مناسبة في مثل هذه الحالات ، بينما لايسمح بتاتا بكافة أنواع التعالى في إلقاء المحاضرات والدروس وبشكل خاص لهجة قاعات المحاكم . ويمكننا أن نعثر على هذا التعالى حتى في مقالات كتاب محترمون ومحترفون : فلا يحق لأحد إصدار حكم نهائى .

وهناك أمر واحد واضح: إن النقد يجب أن يرتكز على الحقيقة على الدوام، ويتوقف ذلك على حيوية ضمير الكاتب والمحرر، وعلى شعوره بالمسئولية أمام الشعب.

ويجب أن تغدو الصحافة أكثر فعالية . يجب ألا تتغافل عن المتسكعين ، والساعين وراء المنفعة والانتهازيين ، ومن يقمعون النقد والديماجوجيين ، وينبغى أن تساعد بنشاط أكبر الذين يعملون بتفان من أجل البيريسترويكا . ويتوقف الكثير هنا على لجان الحزب المحلية . فإذا ما أعادت لجنة الحزب تنظيم عملها ، فستفعل الصحافة ذلك أيضا .

وأود أن أؤكد على أن الصحافة توحد الشعب وتعبثه بدلاً من تقسيم صفوفه وتوليد الاستياء ، والافتقار إلى الثقة . وتجديد المجتمع يعنى كذلك السعى لتأكيد كرامة الإنسان ، ونبله وشرفه . ويمكن للنقد أن يكون أداة فعالة للبيريسترويكا فقط

إذا ما استند إلى الحقيقة المطلقة والاهتمام الدقيق بالعدالة .

ويشكل الدفاع عن القيم الأساسية للاشتراكية تقليدا لصحافتنا. فأى حقيقة ، سواء كانت مسألة راهنة أو حدثا مؤسفا من الماضى ، قد تصبح مادة لتحليل الصحافة . وأى قيم تدافع عنها ، فالأمر الأهم فيها هو ما إذا كان مصير الشعب ومستقبله يهمك أم لا . وهكذا يحدث أحيانا أن يطرح كاتب حقيقة مثيرة وملحة في الصحيفة ويبدأ في الرقص حولها ، ويفرض على الآخرين أفكاره ومشاربه . وفي رأبي ، ينبغي أن نرحب بأى حديث صريح وأمين حتى ولو أثار الشكوك . ولكن إذا ما حاول أن يلبسنا ثوب شخص آخر ، فحذار ! إن الجلاسنوست تهدف إلى تدعيم مجتمعنا . ولدينا الكثير لنؤكده . ولا يمكن أن يرتاب في ذلك إلا أولئك الذين تحول الديموقراطية الاشتراكية ومطالبنا الخاصة بالمسئولية في ذلك إلا أولئك الذين تحول الديموقراطية الاشتراكية ومطالبنا الخاصة بالمسئولية مصالح الشعب .

وهذا ليس بالطبع دعوة لفرض حظر على النقد أو للتحول إلى أنصاف الحقائق أو الكف عن التحليل النقدى. إن مصالح تعميق الديموقراطية الاشتراكية وتعزيز النضج السياسي للشعب ، يتطلب استخداما أكمل لوسائل الإعلام الجاهيري لمناقشة المسائل العامة والمتعلقة بالدولة ، ولتوسيع الرقابة بواسطة الشعب ، والسعى النشط لمزيد من المسئولية ، ومن أجل انضباط أقوى في العمل ومراعاة للقانون والنظام الاشتراكي ، ومقاومة انتهاكات المبادئ الاجتماعية والمعايير الأخلاقية لطريقة الحياة السوفيتية . إننا نسعى إلى تنظيم هذا العمل بطريقة على وسائل الإعلام الجهاهيري من أن تتصرف كقوة حرة ، متحدة ومرنة على نطاق البلاد ، قوة قادرة على أن تحل على الفور أكثر الأحداث والمشاكل إلحاحا .

والجلاسنوست ، والنقد والنقد الذاتى ليست مجرد حملة جديدة . لقد أعلنت وينبغى أن تصبح قاعدة لطريقة الحياة السوفيتية . ولايمكن أن يحدث أى تغيير

جذرى بدونها . ولا توجد ديموقراطية ولايمكن أن توجد بدون الجلاسنوست ، كها لاتوجد اشتراكية اليوم ، ولايمكن أن توجد بدون ديموقراطية .

ولايزال هناك عدد محدود إلى حد ما من المسئولين يواصلون الاستجابة بانزعاج لنقد وسائل الإعلام ويقيّمون المقالات أو ما يقال فى الإذاعات من زاوية الحس الشخصى ، والتجربة الماضية ، والتفسير الخاطئ لمصالح المجتمع ، أو لايفهمون ببساطة دور الصحافة فى المجتمع الاشتراكى اليوم . ويحاولون أحيانا تخويف النقاد بتحذيرهم من رد الفعل المحتمل من قبل الغرب على مقال نقدى . وهم يقولون إن الغرب شغوف لأن يسمع نقدنا لأنفسنا لكى يستخدمه ضدنا ، ولتشويه سمعة طريقة الحياة الاشتراكية . ولا أستطيع أن أقول شيئا محددا عن الآخرين ، ولكننى لا أخشى النقد . إن الاستعراض النقدى لتجربتنا علامة على القوة ، وليس الضعف ومثل هذه النظرة تتفق مع مبادئ الأيديولوجية الاشتراكية .

ولكن يوجد كذلك أسلوب «هادئ » آخر لقمع أو تجنب النقد ، عندما يوافق المسئولون علنا عليه ، بل ويرحبون به ويعدون باتخاذ التدابير الفعالة . ولكنهم فى الواقع العملى لايكونون متعجلين لاستخلاص الاستنتاجات العملية . ويأملون بأن ينتهى كل شيء بالكلام ، « ويغوصون فى الرمال » ، ولن يتذكر أحد خطاياهم بعد ذلك . والشيء الهام بالنسبة لمثل هؤلاء الناس أن يندموا فى الوقت المناسب .

اسمحوا لى فقط أن أكرر ماقلته فى اجتماع يناير الكامل: إن الموقف من النقد هو مؤشر هام لموقف الشخص من البيريسترويكا ، ومن كل ماهو جديد يحدث فى مجتمعنا .

وسنبذل كل مافى وسعنا لنمنع أى فرد من قمع النقد أو تجنبه . إن النقد دواء مر المذاق ولكن حتى الأمراض التى تصيب المجتمع تجعل منه ضرورة حتمية : فأنت تقطب وجهك ولكنك تبلعه . والذين يعتقدون بأننا نحتاج فقط إلى جرعات

من النقد فى فترات معينة مخطئون. والذين يميلون إلى الاعتقاد بأن الركود قد تم التغلب عليه تماما ولا داعى للانزعاج مخطئون بالمثل. إن إضعاف النقد سوف يضرحها بالبيريسترويكا.

البيريسترويكا والمثقفون

أيد المثقفون إعادة البناء بجاس. وسأسمح لنفسى باستطراد واحد هنا. إن المثقفين المخلصين للقيم الاشتراكية ، والذين يشكلون جزءا عضويا من المجتمع السوفيتي ، لديهم إحساس عميق بالوطنية ، ويمثلون إنجازنا العظيم ، وربما الفريد ، ورأسمالنا الروحى الذي لايقدر بثمن . ولمثقفينا تاريخ شاق . فالعديد من المثقفين ، بما في ذلك ذوى العقلية الديموقراطية ، الذين هاجموا النظام القيصرى ، بل وحتى كافحوا ضده . قد أرعبتهم الثورة واكتسحتهم موجة الهجرة البيضاء (٧) إلى الخارج ، حيث قدموا مواهبهم ومعرفتهم للآخرين . وكانت هذه خسارة كبيرة لمجتمعنا السوفيتي القليل الخبرة .

وعانى المثقفون كثيرا ، بما فيهم المثقفون فى الحزب البلشنى ، وأنزلت بهم فى بعض الأحيان خسائر لاتعوض بسبب انتهاكات الشرعية الاشتراكية وأعمال القمع فى الثلاثينيات . وكان ذلك أيضا ضربة قاصمة لقدرة البلاد الثقافية .

ومع ذلك واصل المثقفون السوفيت تكوينهم ونموهم ، وكانوا مرآة تعكس القوانين الموضوعية التى تحكم تطور الاشتراكية واحتياجاتها الحيوية . وقد حولت الثورة الثقافية (٨) اللينينية في النهاية بلادنا شبه الجاهلة والأمية ببساطة إلى بلد من أكثر البلاد تعلما في العالم .

⁽٧) الهجرة البيضاء ــ اصطلاح عام يطلق على كل من ترك روسيا بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ وخلال الحرب الأهلية ١٩١٧ ــ ١٩٢١ . وحارب قسم كبير منهم بنشاط ضد الحكومة السوفيتية فى الحرب الأهلية وشاركوا فى نشاطات تخريبية ضد الجمهورية السوفيتية . وحصل كثير من المهاجرين فيما بعد على المواطنة السوفيتية وعاد بعضهم إلى وطنهم .

 ⁽٨) الثورة الثقافية _ القضاء على الأمية في الاتحاد السوفيتي في العشرينيات والثلاثينيات واستيعاب الجهاهير =

ومع ذلك فقد تشكل فى فترة الركود وضع متناقض عجز فيه مجتمعنا عن أن يستخدم قدراته الثقافية والإبداعية الهائلة . ومرة أخرى يعود السبب فى ذلك إلى إبطاء تطور الديموقراطية بشكل مصطنع . ولم تعجز كافة أشكال الخطر ، والخوف من الجديد ، ومن النظرات الخلاقة ، من أن يكون لها أثرها .

وأتذكر اجتماعا فى يونيو ١٩٨٦ مع العاملين فى جهاز اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى. وكان الاجتماع يتعلق بالبيريسترويكا. وكان على أن أطلب منهم أن يتبنوا أسلوبا جديدا فى العمل مع المثقفين. لقد آن الأوان لوقف إصدار الأوامر، لأن ذلك ضار وغير مسموح به. وقد رحب المثقفون بكل قلوبهم ببرنامج التجديد الديموقراطى للمجتمع.

وعقدت مؤتمرات الاتحادات الإبداعية (٩) لمنتجى الأفلام ، والكتاب ، والفنانين ، والمؤلفين الموسيقيين ، والمعاربين ، والشخصيات المسرحية والصحفيين . وتميزت هذه المؤتمرات بمناقشات حادة . وأيدت كافة المؤتمرات البيريسترويكا بإخلاص . وانتقد المشاركون فيها أنفسهم بشدة . ولم ينتخب كبار مسئولى الاتحاد السابقين للهيئات القيادية ، كما لم ينتخب الصاخبون ، وانتخب بدلا منهم أشخاص بارزون ذوو نفوذ ليرأسوا الاتحادات .

وقلت لمن وجدوا المناقشات حادة للغاية : إن عليهم ألا يندهشوا أو يمتعضوا، وإن هذه المؤتمرات يجب أن تقبل كظواهر معتادة، رغم أنها جديدة. إن إشاعة الديموقراطية تجرى في كل مكان، وتكتسب أشكالا حادة في بعض الأحيان. وقد عارض بعضهم، وقالوا : إنه سيكون من الصعب العمل في جو يجد فيه كل شخص أنه فيلسوف نفسه، والسلطة الأولى على نفسه، ويعتقد أنه

الشعبية العريضة للثقافة الحديثة.

⁽٩) الاتحادات الإبداعية _ جمعيات اختيارية للمثقفين توحد الكتاب ، والمهندسين ، والمؤلفين الموسيقيين ، والممثلين ، والفنانين ، والصحفيين ، ومنتجى الأفلام ، الخ .

وحده على حق . وأجبت : إنه سيكون من الأسوأ كثيرا أن نتعامل مع مثقفين سلبيين ، ومع اللامبالاة والسخرية .

إن الانفجارات العاطفية هي جزء محتوم من أي مسعى معقد. وكانت تلك هي الحال في الأزمنة الثورية . واليوم يبدو وكأننا ندخل مدرسة الديموقراطية من جديد ونحن نتعلم . ومازلنا نفتقر إلى الثقافة السياسية . ولايوجد لدينا حتى الصبر لكي نسمع أصدقاءنا . وكل هذا سوف يمضى بالتأكيد . وسوف نستوعب هذا العلم أيضا . ولابد من مناقشة أكثر المسائل الشائكة مع الاحترام الواجب لبعضنا البعض . وحتى أكثر وجهات النظر تطرفا تحوى شيئا قيما وعقليا ، لأن الشخص الذي يدافع عنها بإخلاص ويهتم بالقضية المشتركة بطريقته الخاصة يعكس بعض الجوانب الواقعية للحياة . وهذا لايمثل بالنسبة لنا صراعا طبقيا عدائيا . إنه سعى وفقاش حول كيفية مواصلة جهد إعادة البناء وجعل تقدمنا راسخا ولا رجعة فيه . وفاذا فأنا لا أرى أي تضارب حاد في الجدل العنيف ، وفي مقارعة الآراء . إنه شيء عادى .

لقد ظهرت في الحقيقية بين الكُتّاب أوهام جاعية وعدم تسامح فيها يتعلق بالعلانية الجديدة. وجاء وقت زاد فيه الانفعال في الأوساط الأدبية. ونقلنا إليهم رأى اللجنة المركزية ، القائل بأنها ستكون آسفة للغاية إذا ماتشاجر المثقفون في مجال الفن والمجال الإبداعي بدلا من تعزيز وحدتهم. وبدأ أفراد منهم يستخدمون العلانية ، والصراحة وإشاعة الديموقراطية لتسوية حسابات قديمة والانتقام للنقد. وأسوأ مايمكن أن يحدث هو أن يسمح المثقفون الإبداعيون لأنفسهم ، في هذه الأزمنة الثورية ، بأن يغرقوا في التوافه ، وأن يعطوا فرصة للمطامح الشخصية وليستنفدوا طاقاتهم في الكلمات الرئانة عديمة المعنى بدلا من المسعى الخلاق. وحثت اللجنة المركزية الكُتّاب على أن يسموا فوق عواطفهم ، وعاداتهم المريحة وقوالبهم الجامدة . وقلنا لهم ، ارتقوا بأنفسكم وفكروا في الشعب والمجتمع .

فليشعر المثقفون بالمسئولية وليتجلى ذلك فى اتحاداتهم الإبداعية ، مهتمين ، فى المقام الأول بتطور المجتمع روحيا .

والمثقفون متشربون بشعور المسئولية المدنية ، وقد تحملوا بجاس نصيبا أكبر من جهد إعادة البناء. إن مثقفينا ، جنبا إلى جنب مع الحزب ، قد بدأوا التغيير إن موقفهم المفعم بالروح العامة يتجلى بقوة متزايدة ، ولنا مصلحة راسخة في هذا ، ونثني على كل صوره – الطريقة التي شاركوا بها في الجهد بعد أبريل ١٩٨٥ ، وحاسهم ورغبتهم في مساعدة إعادة بناء المجتمع – ونحن نأمل أن يتواصل إسهام المثقفين هذا . إنهم يرتفعون إلى مستوى جديد للتفكير والمسئولية . وأن خطهم يتفق مع المسار السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي ومع مصالح الشعب .

ثانيا _ السياسية الاقتصادية والاجتاعية الجديدة في العمل كيف تتطور البيريسترويكا في الاقتصاد ؟.

يجب أن أقول صراحة إن كل جهودنا نحو تغيير بنية الاقتصاد القومى ، وتحويله إلى مسار التنمية المكثفة ، وتسريع التقدم العلمى والتكنولوجي قد حثت بدرجة زائدة الإلحاح على الحاجة إلى إصلاح جذرى للدولاب الاقتصادى وإلى إعادة بناء كل نظام الإدارة الاقتصادية .

والاشتراكية ، والملكية العامة التى ترتكز عليها ، تقدمان إمكانيات غير محدودة ، من الناحية الفعلية للعمليات الاقتصادية التقدمية . ولهذا السبب ، يجب علينا ، مع ذلك ، أن نجد فى كل مرة الأشكال الأكثر فعالية للملكية الاشتراكية ولتنظيم الاقتصاد . ومما له أهمية قصوى فى هذا الخصوص أن يكون الشعب السيد الحقيق للإنتاج ، بدلا من أن يكون سيدا بالإسم فقط ، لأنه بدون ذلك ، لن يهتم العال ــ الأفراد أو أسر العمل ــ ولا يمكن أن يهتموا بالنتائج النهائية لعملهم .

إن فكرة لينين المتعلقة بإيجاد أكثر الأشكال فعالية وحداثة لدمج الملكية العامة

مع المصلحة الشخصية تشكل أساس كل مساعينا ، وكل مفهومنا لتحويل الإدارة الاقتصادية جذريا .

الإصلاح الاقتصادى: اجتماع يونيو ١٩٨٥ الكامل للجنة المركزية للحنزب الشيوعي السوفيتي

عند تنفيذ إصلاح اقتصادى جذرى، كان من المهم أن نحول دون تكرار الأخطاء الماضية التى انتهت فى الخمسينيات والستينيات إلى فشل محاولاتنا لتغيير نظام الإدارة الاقتصادية . وفى نفس الوقت ، برهنت هذه المحاولات أنها غير كاملة ، وغير ثابتة لأنها أكدت مسائل معينة ، بينا تجاهلت مسائل أخرى . وإذا ما تحدثنا بصراحة ، فلم تكن الحلول التى قدمت حينذاك حلولا جذرية ، وإنما كانت تدابير جزئية ، كثيرا ما فاتها جوهر الأمور .

ويمكنى القول بأن مفهوم الاصلاح الاقتصادى ، الذى تقدمنا به إلى اجتاع يونيو الكامل ، ذو طبيعة شاملة . إنه ينهض بأعباء التغييرات الجوهرية فى كل مجال بما فى ذلك تحويل المؤسسات إلى الحساب الاقتصادى الكامل ، وتحويل جذرى لإدارة الاقتصاد المركزية ، وتغييرات جوهرية فى التخطيط ، وإصلاح نظام تكوين الأسعار ، والدولاب المالى والائتانى ، وإعادة بناء العلاقات الاقتصادية الخارجية . كما ينهض كذلك بأعباء إقامة بنى تنظيمية جديدة للإدارة والتطوير الشامل للأسس الديموقراطية للإدارة ، والتطبيق الواسع لمبادئ الإدارة .

وهناك منطق داخلى فى كل عملية معقدة ، ويعكس العلاقات الداخلية بين تدابير معينة ، وبين خطوات ملموسة معينة . وقد طرح أمامنا سؤال طبيعى : من أين نبدأ ؟ وماهى نقطة البدء فى إعادة بناء الإدارة ؟ .

وفي اقتصادنا المخطط ، قد يبدو منطقيا ، عند أول نظرة ، أن نبدأ إعادة

البناء من المركز ، وأن نحدد بنية ووظائف الهيئات الاقتصادية المركزية ، ثم ننتقل إلى مستوى الإدارة المتوسط ، ثم فى النهاية ، إلى المؤسسات والاتحادات ، باعتبارها المستوى الأول . وقد يبدو هذا صحيحا من وجهة نظر المنطق المجرد ، بيد أن الواقع والخبرة المتراكمة قد أملت نظرة مختلفة ومنطقا مغايرا : إذ ينبغى أن نبدأ بالمؤسسات والاتحادات الحلقة الرئيسية فى السلسلة الاقتصادية . علينا أن نبدأ بإيجاد النموذج الاقتصادى الأكثر فعالية لها ، ثم نخلق الظروف الاقتصادية المثلى ، ونوسع ونعزز حقوقها ، وعلى هذا الأساس فقط ندخل تغييرات جوهرية فى نشاط كافة المراتب العليا للإدارة الاقتصادية .

وعندما حددنا هذا التتابع فى جهد إعادة البناء كنا نضع فى الاعتبار أن العمليات الاقتصادية الأساسية تجرى هناك، فى المؤسسات والاتحادات، وأن القيم المادية تخلق نها، وأن الأفكار العلمية والتكنولوجية تتجسد هناك. وتعطى أسرة العمل شكلا ملموسا للعلاقات الاقتصادية والاجتاعية، كما تتشابك فى عملها (أسرة العمل) المصالح الشخصية، والجاعية، والاجتاعية للناس. وتحدد أسرة العمل لدرجة كبيرة الجو الاجتاعي والسياسي على نطاق البلاد.

ووضعنا في اعتبارنا كذلك خبرتنا السابقة ، حيث لم تنجح المحاولات المتكررة لإصلاح مستويات الإدارة العليا دون مساندة من أسفل بسبب المقاومة العنيدة من جهاز الإدارة ، الذى لم يكن يرغب في أن يتخلى عن حقوقه وامتيازاته العديدة . وقد صادفنا أخيرا هذه المقاومة ، ومانزال نصادفها الآن . وفي ذلك أيضا ، كما في كافة مجالات إعادة البناء الأخرى ، علينا أن نربط ما يأتي من أعلى مع الحركة من أسفل ، أي ، إعطاء جهد إعادة البناء طبيعة ديموقراطية عميقة .

ماهو العيب الرئيسي في الجهاز الاقتصادي القديم ؟

إنه فى المقام الأول الافتقار إلى الحافز الداخلي للتطور الذاتى ، حقا ، إنه من خلال نظام مؤشرات الخطة ، تتلقى المؤسسة التكليفات والموارد . وتغطى كافة

النفقات عمليا ، ويضمن بيع المنتجات فى الأساس ثم وهو الأهم ، فإن دخول الموظفين لاتعتمد على النتائج النهائية لعمل أسرة العمل : إنجاز التزامات العقود ، وجودة المنتج والأرباح. ومثل هذا الدولاب يمكن أن ينتج عملا ذا نوعية متوسطة أو حتى رديئة ، سواء راق ذلك لنا أم لا . فكيف يمكن أن يتقدم الاقتصاد إذا ما خلق ظروفا تفضيلية للمؤسسات المتخلفة وإذا ما عاقب أكثرها تقدما ؟.

لم يعد بإمكاننا أن ندير شئوننا بهذه الطريقة . وينبغى على الدولاب الاقتصادى الجديد أن يصلح الأمور . يجب أن يصبح رافعة قوية ، وقوة باعثة على الحيوية لأداء الجودة الواسع الحيلة . ويجب أن تنطلق كل مؤسسة من مطالب اجتماعية حقة لتحدد خطط الإنتاج والبيع لنفسها . ويجب أن ترتكز هذه الخطط لا على تكليفات تفصيلية عديدة تضعها الهيئات الأعلى ، وإنما على أوامر مباشرة تضعها المنظات الحكومية ومؤسسات الحساب الذاتى وشركات التجارة لمنتجات معينة ذات كمية وجودة مناسبة . ويجب أن توضع المؤسسات في ظروف تمكنها من تشجيع المنافسة الاقتصادية من أجل أفضل تلبية لطلبات المستهلك ، كما يجب أن تعتمد دخول الموظفين بشكل حازم على نتائج الإنتاج النهائية ، على الأرباح .

وقد أدخلنا كل هذه المبادئ للإدارة الاقتصادية وأشكالها الخاصة فى مشروع القانون الخاص بمؤسسات الدولة (الاتحادات) الذى جرت مناقشته على نطاق البلاد فى أسر العمل ، وفى اجتماعات العمال والنقابات المحلية وفى وسائل الإعلام . وقد أثار مشروع القانون اهتمام كل الشعب . وشعر الناس أن هناك حاجة إلى رأيهم . وقامت مجموعة خاصة من المسئولين الحكوميين ، والعلماء ، وممثلي مختلف هيئات الدولة بدراسة المقترحات ، والتعديلات ، والإضافات المقدمة . وأدخل فى المشروع كل ماهو عقلي ومقبول وجرى تحسينه بدرجة كبيرة .

كان الهدف من معظم التصحيحات توسيع حقوق أسرة العمل . وكان المطلب العام ألاّ نتراجع تحت تأثير القصور الذاتى ، وإنما أن نواصل السير بحزم . وشعرنا أن

القانون الجديد لاينبغى أن يثقل بتعليات عديدة يمكن أن تضعفه وتوقفه . وتبنى السوفيت الأعلى القانون الذى سيصبح سارى المفعول فى أول يناير ١٩٨٨ .

حقا ، لقد نشرت الصحافة بعض مقترحات كانت خارجة على نظامنا . فكان هناك رأى ، مثلا ، يقول بأن علينا أن نتوقف عن الاقتصاد المخطط ونسمح بالبطالة . إنه ليس بإمكاننا أن نسمح بذلك ، لأننا نهدف إلى تدعيم الاشتراكية ، وليس إلى استبدالها بنظام آخر . وما يقدمه لنا الغرب ، من اقتصاد مختلف ، غير مقبول لنا . ونحن على يقين من أننا إذا ما استخدمنا حقا إمكانيات الاشتراكية ، وإذا ما أخذنا في اعتبارنا تماما المصالح البشرية وامتخدمنا مزايا الاقتصاد المخطط ، لأمكن للاشتراكية أن تحقق أكثر من الرأسمالية بكثير .

ونحن نولى أهمية أساسية للقانون الخاص بمؤسسات الدولة فى إصلاحنا الاقتصادى. ونعتبره مقياسا لخطواتنا وتدابيرنا الأخرى، التى ننظر إليها من وجهة نظر مدى اتفاقها بشكل كامل مع هذا القانون وإسهامها فى تنفيذه العملى.

ومن أجل التحضير للاجتاع الكامل ، أمضى المكتب السياسي شهورا عديدة يدرس نتائج التحليل الشامل والموضوعي تماما لنشاط مجلس وزراء الاتحاد السوفيتي، والجوسبلان (١٠)، والجوسناب (١١)، والمينفين (١٢)، والجوسبانك (١٣)، والوزارات والإدارات الاقتصادية وهيئات الإدارة الصناعية، ووضعت مشاريع قوانين علية للتحكم في عمل الهيئات المركزية لجعلها (ووظائفها الرسمية) تتفق تماما مع القانون الخاص بمؤسسات الدولة ، وألا تتناقض معها بأي حال ، وقد نوقشت في

⁽١٠) جوسبلان (لجنة التخطيط الحكومية للاتحاد السوفيتي) ــ هيئة حكومية مسئولة عن التخطيط الطويل المدى والجارى للتنمية الاقتصادية والاجتماعية للبلاد والرقابة على إنجار الخطط .

⁽١١) جوسناب ــ لجنة الدولة للاتحاد السوفيتي للإمداد المادى والتكنيكي . وهي هيئة حكومية .

⁽١٣) مينفينـــ وزارة المالية للاتحاد السوفيني .

⁽١٣) جوسبانك ــ بنك الدولة للاتحاد السوفيتي . البنك الرئيسي في البلاد .

الاجتماع الكامل ، ووضعت في صورتها النهائية ، وأقرت ، ودخلت حيز التطبيق .

إن اجتماع يونيو الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي ، وقراراته ، و « المواد الأساسية لإعادة البناء الجذري للإدارة الاقتصادية » التي أقرها تكمل في الواقع بناء نموذج حديث للاقتصاد الاشتراكي يلبي تحدى المرحلة الحالية من التطور الوطني .

إن الاجتماع الكامل ودورة السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتي التي أعقبته ، قد طورا وعززا سياسة مشاركة الشعب النشطة في العمليات الاقتصادية والإنتاجية ، وربطا بشكل وثيق بين مصالح الدولة ومصالح الفرد وأسرة العمل ، وجعلا الجاهير العاملة السوفيتية هي السيد الحقيقي .

ومايزال لدينا بالطبع ، أشياء لابد من تكلتها ، أو ربما إعادة عملها . وليس بإمكان أى مجتمع استبدال أى نظام للإدارة الاقتصادية في يوم وليلة ، بنظام مختلف وأكثر تقدما ، كما لوكان حيلة ميكانيكية ما . وسيكون علينا أن نكيف دولابا ديناميا ومرنا وحساسا للتغييرات في الإنتاج وقادرا على أن نخضع للتحديث بشكل دائم ، ويقبل ماهو متقدم ويرفض ما انقضى زمانه . ويتمثل التحدى الرئيسي في وقف الاعتقاد بأنه مادامت القرارات قد اتخذت ، فستكون على الدوام ملائمة في شكلها القائم .

وعندما وضعنا برنامجا لإصلاح اقتصادى جذرى أرسينا الأسس لهجوم واسع النطاق ، هذه المرة في كل مجالات عملية تسريع وتوسيع إعادة البناء . وتوفر القرارات التى اتخذت المستلزمات الاقتصادية والتنظيمية للتوصل إلى أهداف الخطة الحمسية الحالية والأهداف البعيدة المدى حتى عام ٢٠٠٠ . والمهمة التى في متناولنا الآن هي أن نشغل الجهاز الجديد للإدارة الاقتصادية بكامل طاقته وبكفاءة ودون تأخير .

وربما كانت اللحظة الحالية هي أحرج اللحظات في إعادة بناء الاقتصاد

والإدارة . لقد بدأت مرحلة العمل البناء . والآن ينبغى ترجمة كل شيء إلى واقع . ويجب التركيز الآن على أن ننفذ بالفعل ماكثفنا جهودنا من أجله ــ وهذه هي السمة المميزة للوضع الراهن .

نحو الحساب الاقتصادى الكامل

إن جوهر مانخطط لعمله فى جميع أنحاء البلاد يتمثل فى أن نستبدل بأساليب يهيمن عليها الطابع الإدارى أساليب يهيمن عليها الطابع الاقتصادى فى الأساس. ومن الواضح تماما للقيادة السوفيتية أنه لابد وأن يكون لدينا حساب اقتصادى كامل.

حقا إن هناك بعض العقبات . واثنتان منها على الأقل كبيرتان . العقبة الأولى أنه يتعين علينا أن نفعل ذلك فى إطار الخطة الخمسية المعتمدة بالفعل ، أى نجعله متفقا معها . ولهذا الجانب الخاص أثر خطير على عملية الانتقال . إذن فما الذى يجب علينا عمله فى النهاية : هل نتمسك بالخطة الخمسية أو نسحبها ؟ هناك جواب واحد على هذا السؤال : يجب أن نحقق أهداف الخطة الخمسية ا إنها فترة خمسية صعبة للغاية : إذ تجرى فيها أبحاث طموحة واسعة ، وتغييرات هيكلية كبيرة ، كما يجرى حل كثير من المسائل الاجتاعية ، وإلى جانب ذلك ، يجب إدخال الكثير من المحانع : التجديدات خلال هذه الفترة . إنها أوقات صعبة ومرهقة بالنسبة لمديرى المصانع : فلديهم عبء ثقيل من المشاكل التي تراكمت وعليهم فى نفس الوقت أن ينتقلوا إلى النويل الذاتى .

والعقبة الأخرى هي أن بعضا من المكونات الأكثر أهمية لدولاب الإدارة الجديد، ليس جاهزا بعد ولن يوضع موضع التنفيذ على الفور. وسيحتاج إلى عامين أو ثلاثة لإعداد إصلاح تكوين الأسعار وإصلاح دولاب المال والائتمان، ومن خمس إلى ست سنوات للانتقال إلى تجارة الجملة في وسائل الإنتاج. وماتزال

أمامنا أمور كثيرة يجب أن نحسمها بخصوص تحديد وظائف الوزارات ، وإعادة تنظيم الإدارة الإقليمية ، وتقليص العاملين .

وعلى ذلك فستكون لدينا فترة انتقال معقدة للغاية ، تتعايش خلالها كل من الدواليب القديمة وهذه التى أدخلت حديثا . بيد أن الحساب الاقتصادى الكامل سيطبق دون تأخير . وسنتابع هذا المسار بنشاط مكتسبين الخبرة العملية . وسوف نجرب ونختبر كل شيء .

وكلما قابلت أناسا يعملون فى الصناعة ، أو حتى فى وزارات ، أقول لهم : لا تحجموا ، ابحثوا عن الأشياء وجربوها . إن الشعب لديه من الحكمة الكبيرة والشعور الحاد بالمسئولية ما يمكنكم _ بل ويوجب عليكم _ أن تتصرفوا بجرأة وثقة . حسنا ، لنفترض أننا ارتكبنا أخطاء . فهاذا إذن ؟ من الأفضل أن نصححها بدلا من الحلوس والانتظار .

مفهوم جديد للمركزية

فى مجرى البيريسترويكا يتشكل مفهوم جديد للمركزية الديموقراطية . ومن المهم أن نحافظ على توازن سليم لجانبيها ، واضعين فى اعتبارنا أنه فى المراحل المختلفة ستلقى الأضواء على جوانب مختلفة .

والوضع الآن هوكما يلى : هناك كثير من الناس يدعون إلى تقوية المركزية . إن بيانات الميزانية ، والنسب ، والحاجة إلى أن تتطابق الدخول مع مجموع السلع وحجم الحدمات ، والسياسات الهيكلية ، ونفقات الدولة ، والدفاع - كل هذه الأمور تتطلب مركزية حازمة . ويجب أن تشعر كل جمهورياتنا وكافة شعوبنا أنهم يعيشون في ظروف متكافئة ، ولديهم فرص متساوية للتطور . وفي ذلك يكمن ضان استقرار المجتمع السوفيتي . ولهذا السبب فنحن لانريد أن نضعف من دور المركز ، لأننا لو فعلنا ذلك فسوف نفقد ميزات الاقتصاد المخطط .

وفى نفس الوقت ، لا يعجز المرء عن أن يرى أن السلطات المركزية محملة أكثر مما يجب بأعمال صغيرة . ولسوف نحررها من الواجبات الحالية لأنها بالقيام بها ، تفوت عليها الأمور الاستراتيجية .

ويعود الكثير مما انتقدناه بحق فى اجتماعى يناير ويونيو الكاملين ، فى المقام الأول ، إلى لامبالاة فى المركز : فليس فى مقدوره أن يشعر بالاتجاهات الخطرة فى الوقت المناسب ، وأخفق فى إيجاد الحلول للمشاكل الجديدة ، الخ . وأكرر أنكل إعادة تنظيم للجهاز المركزى ووظائفه ستكون فى جميع مراحلها متفقة بدقة مع قانون مؤسسات الدولة . والمركزية فى ظروف البيريسترويكا لا علاقة لها بالتنظيم البيروقراطى للحياة المتعددة الوجوه للإنتاج ، وللأسر العلمية ، وأسر التصميم . وعلينا مع ذلك أن نفرق بين وظائف المركز والمحليات ، وأن نغير جوهر عمل الوزارات ، وأغراضها .

إننا نعتزم إشاعة الديموقراطية فى التخطيط . وهذا يعنى أن وضع الخطط الفعلية وليست الإسمية _ سيبدأ داخل المؤسسات وأسر العمل . فهى التى ستخطط إنتاج منتجاتها ، على أساس الحاجات الاجتاعية التى تعبر عنها أرقام الخطة والعقود الحكومية ، وعلى صلات العقود الاقتصادية المباشرة مع المستهلكين .

وسيكون على لجنة تخطيط الدولة أن تكف عن التنظيم التفصيلي والرقابة اليومية على عمل الوزارات والإدارات ، وسيكون على الأخيرة أن تفعل نفس الشيء بالنسبة للمؤسسات . وسيجرى تنظيم نشاط المؤسسات (ميزانيات الأجور ، وتوزيع الأرباح ، والمدفوعات إلى الميزانية ، الخ) وفقا للقواعد الاقتصادية بعيدة المدى ، وسيكون ذلك في الواقع تنظيما ذاتيا .

ونحن نستهدف توسيع العلانية في كل مراحل التخطيط ، وإدخال المناقشة الواسعة للمشاكل الحكومية والإقليمية الاجتماعية ، والاقتصادية ، والعلمية ،

والتكنولوجية ، والبيئية . وسوف يطبق مبدأ التغيرية فى نظام التخطيط بهدف العثور على الحلول المثلى .

وبشكل متميز عن الأسلوب السابق ، سوف تراقب الأجهزة المركزية المؤسسات في عدد محدود من المناطق _ في إنجاز الطلبيات الحكومية ، والأرباح ، وإنتاجية العمل ، والمؤشرات العامة للتقدم العلمي والتكنولوجي والمجال الاجتاعي . إن إنجاز المؤسسات لالتزامات التعاقد وللطلبيات الحكومية بالنسبة للمنتجات الأكثر أهمية ، وأنماط العمل والحدمات يغدو معيارا هاما لنشاط المؤسسات . وسيقلص تركيب وحجم الطلبيات الحكومية بالتدريج مع تشجيع السوق لما فيه مصلحة الصلات المباشرة المتزايدة بين المنتجين والمستهلكين . وعندما نكتسب الخبرة اللازمة . سنضع الطلبيات الحكومية على أساس تنافسي ، مطبقين مبدأ المباراة ، أو المنافسة الاشتراكية .

وسيخضع نظام الإمدادات المادية والتكنيكية لتغيرات جذرية. وسيكون التركيز على الانتقال من تكوين الأموال إلى التوزيع الممركز للموارد، إلى تجارة الجملة.

وباختصار ، فسوف ترتبط مزايا التخطيط بصورة متزايدة بالعوامل الحافزة للسوق الاشتراكي . ولكن كل ذلك سيحدث في خلال المجرى الرئيسي للأهداف الاشتراكية ومبادئ الإدارة .

إن توسيع حقوق الاستقلال الاقتصادى للمؤسسات ، وتغيير وظائف الإدارات القطاعية والاقتصادية المركزية ، والانتقال فى الإدارة من الأساليب ذات الطابع الاقتصادى الغالب يتطلب تغييرات الإدارى الغالب إلى الأساليب ذات الطابع الاقتصادى الغالب يتطلب تغييرات جذرية فى البنية الإدارية .

وفيها مضى ، غالبا ما صاحب تحسين الإدارة إقامة عناصر تنظيمية جديدة ، مما أدى إلى تضخم الجهاز ، إلى أن أصبح كبير الحجم ، يصعب التعامل معه ،

وبيروقراطيا. ونحن ندرك أن معدلات إعادة البناء الاقتصادى تعوق منها بدرجة غير قليلة ضخامة الجهاز الإدارى وكفاءته غير الكافية. ولذلك فإننا ننوى أن نجرى تخفيضات كبيرة فى الجهاز الإدارى ، وسوف نبسط بنيته ، عند الضرورة ، ونوسع الوزارات القطاعية . ولدينا بالفعل بعض الخبرة فى القيام بذلك . وعلى سبيل المثال ، فلقد كانت الزراعة وتصنيع منتجاتها تديرها فى بلادنا سبع وزارات وإدارات اتحادية . وقد دمجنا كل هذه الإدارات فى الجوساجرو بروم (١٤) . وفى نفس الوقت خفضنا العاملين الإداريين بها إلى النصف تقريبا . وفى حالة أخرى ، اخترنا تكبير بعض الوزارات عن طريق إدماجها . وهكذا سوف نتصرف فى المستقبل ، على أن نأخذ كل حالة وفقا لخصائصها الفردية .

ومن الواضح الآن لكل امرئ أنه فى ظل النطاق الحالى للاقتصاد ، لا يمكن لأى جهاز وزارى أو إدارى ، مهاكانت كفاءته ، أن يأخذ على عاتقه حل كل مسألة بشكل مطلق ، كما لا يمكنه أن يحل محل فكر ومبادرة أسر العمل . إن إعادة توزيع الحقوق بين الإدارات المركزية والمؤسسات لا تسير بشكل سلس . فجهاز الوزارات والوزراء أنفسهم غير راغبين فى أن يكفوا عن عادة إقرار الأمور الصغيرة بأنفسهم . وأى إنهم معتادون على هذا الأسلوب ، الذى يجعل الأمور أسهل كثيرا بالنسبة لهم . وأى تحويل للحقوق من المركز إلى المحليات ، مؤلم بشكل عام ، رغم أن ضرورة ذلك ، كما أكرر ، واضحة للجميع ، لكل من الوزارات والعاملين . وهم يدركون أن هذا العمل يفيد القضية ، ولكن رغم ذلك ، توضع المصالح الديوانية الضيقة ومصالح بعض التجمعات فى بعض الأحيان فوق مصالح المجتمع والشعب .

وهناك طريق آخر لإتقان الإدارة الاقتصادية . وتبين التجربة أن هناك إمكانية للتوصل إلى الكفاءة القصوى فى نقاط التقاء الصناعات . بيد أن توقعنا أن يكون فى مقدور لجنة الدولة للتخطيط متابعة كافة العلاقات فها بين القطاعات واختيار

⁽١٤) جوساجرو بروم (اللجنة الحكومية الزراعية الصناعية للاتحاد السوفيتي) ــ الهيئة المركزية للإدارة الحكومية للمجمع الزراعي الصناعي في البلاد ، التي تشكلت عام ١٩٨٥ .

أفضل بديل، يعنى التعلق بالأوهام. فالوزارات فى وضع لايسمح لها حتى بأن تقوم بذلك. وهذا ما دعا إلى أن ندرج فى جدول الأعال مسألة إقامة هيئات تدير المجمعات الاقتصادية الكبيرة. وكما نرى، فإن نظام الإدارة سيخضع لتغييرات ضخمة. ونحن ننوى أن نتصرف بحزم، ولكن بطريقة متوازنة كذلك، وبدون ضجة لا لزوم لها.

الهدف: المستويات التكنولوجية العالمية

فى الوقت الذى نعيد بناء نشاطنا التخطيطى والاقتصادى ونوسع حقوق المؤسسات قمنا كذلك بمعالجة مسائل التقدم العلمى والتكنولوجى. وكانت تقدم للفروع التى تحتل مركز الصدارة فى هذا التقدم مساندة مائية ومادية إضافية. ومن أجل هذه الغاية رسمنا برنامجا قوميا صارما ، وخصصنا الأموال اللازمة.

وسوف نجدد ، خلال فترة الخطة الخمسية الثانية عشرة (١٥) ، الجزء الأكبر من الأصول الثابتة في صناعة آلات الإنتاج . وستكون الأموال المرصودة لهذه الأغراض حوالي ضعف ما أنفق في السنوات الخمس السابقة .

وقد كشف تحليل أداء الصناعة عن أخطاء في سياسة الاستثار. ولقد كانت سياستنا لسنوات عديدة أن نبني مزيدا من المؤسسات. واستوعب بناء الورش والمبانى الإدارية أموالا ضخمة. وفي غضون ذلك ، ظلت المؤسسات القائمة عند المستوى التكنولوجي نفسه. وإذا ماجرى بالطبع استخدام جيد لكل مايتوفر في ورديتين أوثلاث ، لأمكن تلبية أهداف الخطة الخمسية الثانية عشرة باستخدام المعدات القائمة. بيد أن المعدات العتيقة تجرنا بطريقة أو بأخرى إلى الخلف ، لأنها ستعنى أننا لن نكون قادرين على إنتاج منتجات حديثة. ولذا يجب التخلى عن الآلات القديمة . ولهذا السبب فإننا نغير لدرجة كبيرة سياستنا الاستثارية والهيكلية .

⁽١٥) فترة الخطة الحمسية الثانية عشرة ــ فترة التنمية الحمسية الحالية (١٩٨٦ - ١٩٩٠).

في عام ١٩٨٣ قمت بزيارة مصنع «زيل» (١٦). وكان ذلك في وقت الإعدادات النشطة لتحديث هذا المصنع ، الذي يعتبر واحدا من أهم المشاريع في صناعة السيارات السوفيتية. وفي عام ١٩٨٥ زرت مصنع «زيل» ثانية ، وسألت كيف تقدم التحديث . واتضح أن المعالم الرئيسية قد انتقلت إلى المستوى التكنولوجي المتوسط ، بالاعتاد على معدات صنعت قبل ذلك بخمس أو سبع سنوات . ولذلك ، ماكان بإمكان المرء أن يتوقع تقدما هاما في التكنولوجيا . وبالإضافة إلى ذلك ، سيحتاج الأمر إلى قوة عمل أكبر . إن التركيز على التكنولوجيا التي انقضي زمانها لايؤدي إلى تكثيف كبير في الإنتاج ، إنه يعزز فقط التباطؤ في التنفيذ . ومع اتضاح ذلك ، تقدمت أسرة المصنع بخطة أخرى أكثر تقدما . ولكنها لم تجد مساندة وتوقف العمل بها ، وقد ساندنا قرار أسرة المصنع بالرجوع إلى هذه الخطة لتحديث زيل . ورسمت خطة جديدة لتجديد معدات المصنع ، وهي تنفذ بشكل ناجح . وستصبح مصانع خطة حديدة لتجديد معدات المصنع ، وهي تنفذ بشكل ناجح . وستصبح مصانع

وبشكل عام ، فإن التغييرات الكبيرة فى التكنولوجيا وفى المعدات تستغرق وقتا طويلا . وكما نقول ، « إن موسكو لم تبن فى يوم واحد » . وإذا ما بدأنا مهمة حسم كل شىء دفعة واحدة ، لكان علينا تحديث الإنتاج باستخدام معدات عتيقة ، انقضى زمانها . ولكان هذا يعادل عدم إحراز أى تقدم .

عندئذ ألقينا نظرة على المعدات لدينا . وبحثنا ما إذا كانت تتمشى مع المستويات العالمية . واكتشفنا أن جزءا صغيرا منها هو فقط الذى على هذا المستوى . وفرض الاستنتاج نفسه : فبدلا من الاحتفاظ بتخلفنا التكنولوجي لسنوات عديدة ، سيكون من الأفضل أن نخوض آلام تطوير معدات جديدة من حين لآخر ، رغم أن التجديدات في بناء الآلات ، تفتح الطريق نحو أحدث التكنولوجيات . وهذا التجديدات في بناء الآلات ، تفتح الطريق نحو أحدث التكنولوجيات . وهذا «الحين » لا يتضمن بالضرورة مستقبلا بعيدا . كلا ، إن التحديث الهيكلي لصناعة

⁽١٦) زيل ــ مصانع أ. أ. ليجاتشوف للسيارات في موسكو.

بناء آلات الإنتاج فى الاتحاد السوفيتى يجب أن يرتبط بجهود هائلة لتحويل القدرة العلمية إلى قيمة جيدة . وهذه هى ألح المهام وأكثرها حيوية بالنسبة لنا ، بل إنها المهمة ذات الأولوية الأولى . وقد وجدنا أنفسنا فى هذا الوضع تكنولوجيا لأننا أسأنا تقدير قدرتنا العلمية واعتمدنا بدرجة كبيرة على الارتباطات الخارجية .

وفى رأيى ، لقد قبلنا سياسة الانفراج بآمال مشرقة للغاية ، وقد أقول بثقة كبيرة جدا . واعتقد الكثيرون أنها ستكون بغير رجعة وستفتح إمكانيات بلا حدود ، وعلى الأخص لتوسيع التجارة والعلاقات الاقتصادية مع الغرب . بل إننا توقفنا عن بعض أبحاثنا وتطوراتنا التكنولوجية ، متطلعين إلى تقسيم العمل الدولى ، ومعتقدين بأنه قد يكون من الأفيد شراء بعض الآلات من الخارج عن إنتاجها فى الداخل . ولكن ما الذى حدث فى الواقع ؟ لقد تعرضنا لعقاب شديد نتيجة سذاجتنا . وجاءت فترة من الحظر والمقاطعة ، والتحريم ، والقيود ، وتخويف من يتاجرون معنا الخ . وتوقع بعض الساسة الغربيين ، حتى فى العلانية ، انهيار النظام السوفيتى . ولكن عبثا كانوا يأملون .

لقد خلصنا بالتأكيد إلى الاستنتاجات اللازمة ، وبدأنا الأبحاث والتطوير اللازمين وإنتاج ما اقترحنا ذات يوم شراءه ، وبذلك ستكون الشركات الغربية هي الحاسرة في النهاية . ومن المصادفة أن كل هذه الضجة حول الحظر والقيود لم تكن على ما أعتقد موجهة فقط ضد الاتحاد السوفيتي ، وإنما كذلك ، ولدرجة كبيرة ، ضد الشركات غير الأمريكية المنافسة .

وبشكل عام . لقد ساعدت « العقوبات » و « أعال الحظر » الأمريكية وغيرها من القيود على توضيح الأمور لدرجة كبيرة . وكما يقولون ، فإن لكل سحابة إطارا فضيا . لقد استخلصنا الدروس من القرارات التى اتخذتها الولايات المتحدة وبعض البلدان الغربية برفض بيع التكنولوجيا المتقدمة للاتحاد السوفيتي . وربما كان هذا هو السبب فيما نمر به الآن من ازدهار حقيقى في مجالات علم المعلومات ، وتكنولوجيا

الحاسبات ، وغيرها من مجالات العلوم والتكنولوجيا .

لقد قررنا أن نضع نهاية حاسمة لـ «كارثة الاستيراد» كما يسميها المسئولون الاقتصاديون لدينا. ومن أجل هذه الغاية ، فإننا نحشد قدراتنا الكبيرة في العلوم والهندسة الميكانيكية.

وإنه لمن التناقض أن كثيرا من منجزات العلماء السوفيت قد طبقت فى الغرب بأسرع مما طبقت فى بلادنا ، ومثال ذلك ، خطوط نقل الحركة الدوارة وقد تباطأنا أيضا فى حالة أخرى . فقد كنا أول من اخترع سباكة الصلب المستمرة . فماذا عاد علينا من هذا الاختراع؟ . إن ثمانين فى الماثة من الصلب الذى تنتجه بعض البلدان الآن تجرى سباكته بأسلوبنا بينا يتم ذلك بدرجة أقل فى بلادنا . فالمسافة طويلة فى بلادنا . فالمسافة طويلة فى بلادنا بين الاكتشاف العلمى وتطبيقه فى الإنتاج . وهذا ما يمكن الصناعيين الأجانب المغامرين من تحقيق الأرباح من وراء أفكارنا . ومثل هذا وضع لا يناسبنا طبعا . ولابد أن تكون هناك معاملة بالمثل فى المبادلات . ومن الواضح أن الوضع لابد أن يتغير . وقد تغير أخيرا فعلا .

ويبذل الآن جهد كبير لبعث النشاط في التقدم العلمي والتكنولوجي. ونقوم بتنفيذ برامج هادفة ، ونحث أسر العمل وعلماء الاقتصاد وغيرهم على العمل بطريقة خلاقة ، وقد نظمنا ٢٢ بحثا بين القطاعات ومجمعات تكنولوجية تحت قيادة علماء كبار. وتتمثل الأولوية اليوم ، كما قلت ، في تطوير الهندسة الميكانيكية السوفيتية . وقد اقترح اجتماع يونيو ١٩٨٦ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي برنامجا للتحديث الجذري في الهندسة الميكانيكية . وحدد هدفا لم يسبق له مثيل في تاريخ الصناعة السوفيتية ، وهو التوصل في السنوات الست أو السبع التالية الى المستويات العالمية فيا يتعلق بالآلات والمعدات والأدوات الرئيسية . وتقرر تركيز الاهتمام على بناء الآلات ، وصناعة الأدوات ، والإلكترونيات ، والهندسة الكهرباثية . كما يجرى كذلك تحديث صناعة الحديد والصلب والصناعات الكهرباثية ، وعلى نطاق واسع .

إن الأمانى التي لاتقوم على أساس ، عمل خطير للغاية . ومع ذلك ، فكل التغييرات الجارية واعدة للغاية . لقد زرت أخيرا مدينة زلينوجراد التي لاتبعد كثيرا عن موسكو ، حيث تتركز بعض منظات ومؤسسات الأبحاث الخاصة بالصناعة الإلكترونية . وقد سرنى أن أسمع العلماء والمتخصصين يقولون إننا في عدد من المجالات لانزحف وراء الولايات المتحدة أو حتى نسير معها في نفس المستوى وإنما نسبقها في بعض النواحي . وهكذا برهنت العجرفة التكنولوجية للغرب على أنها ذات فائدة لنا . والمهمة الآن ، التي لانقل صعوبة ، هي أن نترجم هذه النتائج إلى عمارسة .

النسيج الحي للبيسريسترويكما

تتضمن البيريسترويكا نطاقا هائلا من المشاكل والمهام المتباينة المرتبطة بما ورثناه مها سبق عن الماضى، وبما ينبغى عمله الآن، وعلى الفور، وبما لايزال ينتظرنا. ورغم أننى أخاطر بتكرار أن قلته، فإنى أود أن أقدم للقارئ صورة متعددة الألوان للبيريسترويكا، وأدعوه إلى النظر فى مشكال (۱۷) الحياة اليومية حيث يتشكل النسيح الحى لمستقبلنا. إننا نعد الجاهير لتغييرات جذرية. ويتضمن ذلك ضرورة إعداد الظروف الاقتصادية والنفسية اللازمة ، لأنه ليس من السهل تحطيم العادات القديمة والتخلى عن مفاهيم الأشكال الاجتاعية التي فرضت نفسها فى ظروف تاريخية معينة.

ومانزال نسمع الاتهامات توجه إلى الأفراد المستقيمين. انظروا إلى هؤلاء الذين يشيرون بأصابعهم فى سخط إلى الفوضى، وإلى النواقص والأخطاء. وإذا بدأ شخص ما يفعل شيئا ذا شأن ولكنه غير عادى، تصايح هؤلاء الاشتراكيون الزائفون، بأنه إنما يقوض أسس الاشتراكية! وهذه أيضا من وقائع

⁽١٧) المشكال : أداة تحتوى على قطع متحركة من الزجاج الملون ما أن تنغير أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية المختلفة الألوان .

البيريسترويكا . فعلينا أن نحاول بصبر مع أمثال هؤلاء المكافحين من أجل اشتراكية «نقية » ، مثالية ، غير ملطخة فى شكلها المجرد ، لنبرهن على أنها اشتراكية لا صلة لها بالحياة الواقعية ! .

لم يكن لينين أبدا على قناعة بأن الطريق إلى الاشتراكية سيكون مستقيا وكان يعرف كيف يغير الشعارات عندما تتطلب الحياة ذلك . كما أنه لم يكن على الإطلاق عبدا للقرارات إذا مااتخذت . ولم يكن يخشى أن يحفز نشاط العمل الفردى عندما تكون الدولة والقطاع العام ضعيفين . واليوم ، فى مجرى جهد إعادة البناء ، يخشى بعض الأفراد من التدابير التى يجرى تنفيذها لتطوير التعاونيات ، وحفز نشاط العمل الفردى ، والعقود والتمويل الذاتى ، وهم قلقون من أننا نضعف «الأسس» وننشئ ملاكا صغارا . وهم يشعرون بأننا بتطبيقنا لمختلف أشكال العقود قد نقوض المزارع الجاعية . ولكن ماذا عن حقيقة أن المتاجر تفتقر إلى السلع ؟ هذا ما يجب أن نخدر منه ، بدلا من أن نتصايح فى ذعر «النجدة ، فالاشتراكية فى خطر!»

ونحن على قناعة بأن ربط المصالح الشخصية بالاشتراكية لايزال يشكل المشكلة الرئيسية. ونحن نشير، بالطبع، إلى المصالح الشخصية بمعناها الواسع، وليس بمجرد المعنى المادى. إن مانحتاج إليه ليس الاشتراكية «النقية» المذهبية المخترعة، وإنما الاشتراكية اللينينية الحقة. ولقد كان لينين واضحا بهذا الخصوص وحيث أننا قد طورنا الصناعة والطاقة بدرجة هائلة، فليس هناك مانخشى منه. واعتمادا على هذه القوة، يمكننا أن ننفذ التحويلات الاشتراكية بطريقة مخططة. وهذا هو العمل الاشتراكي الحقيق. كان هذا صحيحا آنذاك وهو أكثر صحة الآن، لأن بمعمعنا اليوم قوى اقتصاديا وسياسيا. ولم يفقد لينين على الإطلاق رؤية الحالة الواقعية للأمور، وكان يسترشد بمصالح الجماهير العاملة.

وإننى لعلى قناعة بأن أكثر الأشكال فعالية لتنظيم الإنتاج على أساس الحساب الاقتصادى الكامل ستقوى بشكل أسرع في المجمع الزراعي الصناعي . فمن ناحية ،

توجد لدى مزارعنا الجماعية تقاليد راسخة . ومن ناحية أخرى ، فإن جماهير الريف مقدامة وواسعة الحيلة . ويتطلب كل ذلك حركة ومرونة أعلى عند تطبيق الحساب الاقتصادى ، والاكتفاء الذاتى والتحويل الذاتى .

لقد برهن العقد الجماعي (١٨) على نجاحه في الزراعة من وجهة نظر تنظيم العمل وعائده . وقد أنشئ الآن نظام العقد الأسرى(١٩) ، والنتائج الأولى مشجعة .

وفى أوائل أغسطس ١٩٨٧ كنت فى حى راسين خارج موسكو، حيث تحدثت مع أعضاء فريق يعمل على أساس تعاقدى ويطبق تكنولوجيا مكثفة لخمس سنوات ، كانوا يزرعون البطاطس ، وفى العام الماضى حققوا هم الخمسة أرباحا ضخمة للمزرعة الحكومية . وهكذا تحدث أشياء مذهلة عندما يأخذ الناس على عاتقهم مسئولية كل شيء . فالنتائج تكون مختلفة تماما ، ويصعب تقييم الناس فى بعض الأحيان . إن العمل يتغير ، كما يتغير الموقف منه كذلك .

إن الفرد فى مجتمعنا يريد أن يكون جزءا من كل شىء. وهذا شىء طيب. إنه لا يحب الأوضاع التى لا يؤخذ رأيه فيها ، والتى ينظر إليه فيها كمجرد قوة عمل ، ولا تقدر صفاته البشرية والمدنية. إن العقد الجاعى وما يرتبط به من ديموقراطية هو على وجه التحديد ، مايدعم إحساس الشخص بأنه مواطن وسيد.

واليوم ، توجد لدينا مزارع جماعية كبيرة وسوفخوزات (٢٠) في كثير من المناطق الزراعية . وقد نظمت فرق عمل ، وأقسام ومجمعات كبيرة . وهي إلى حد ما منفصلة عن الأرض وهذا مايؤثر على النتائج النهائية . وعلينا اليوم أن نضمن ربطا أكثر قوة ومباشرة لمصالح الأفراد من خلال العقود الجماعية ، والأسرية وعقود

⁽١٨) العقد الجاعى ــ أسلوب للعمل يقوم فريق من العال فى ظله بتنفيذ بعض العمل بكامله فى ظل عقد مع إدارة مؤسسة أو مع أى تنظيم آخر . وفى هذه الحالة يتوقف مايدفع لكل عامل فى العريق مباشرة على كفاءته فى العمل .

⁽١٩) العقد الأسرى _ عقد جماعي ترتبط به أسرة .

⁽٢٠) المزرعة الجاعية ــ مزرعة تعاونية . السوفخوز ــ مزرعة حكومية .

الإيجار فى إطار هذه المزارع الجاعية والحكومية . وعندئذ سنربط مزايا الاقتصاد الجاعى الكبير بالمصالح الفردية . وهذا هو مانحتاج إليه على وجه الدقة . وإذا ما تصرفنا بهذه الطريقة لأمكننا تحقيق قفزات تثير الإعجاب فى حل مشكلة المواد الغذائية خلال عامين أو ثلاثة .

وإذا أغفلت المصالح الشخصية ، فلن تؤدى جهودنا إلى شيء ، وفقط ، سيتعرض المجتمع للخسارة . ولهذا السبب من الضرورى مراعاة توازن المصالح ، ونحن نقوم بذلك من خلال الدولاب الاقتصادى الجديد ، ومن خلال مزيد من الديموقراطية ، ومن خلال جو العلانية ، ومن خلال مشاركة الجاهير في كافة جوانب إعادة البناء .

إن أول ماينبغى ضانه هو جو يشجع جهود إعادة البناء ويجعل الفرد مسئولا ونشطا اجتاعيا . وهذا هو مناخ العلانية ومناقشة كافة الأمور ، وحتى أصعبها ، مع الشعب ، لكى نحلها جميعا معا . ومن أجل التوصل إلى ذلك فإننا نحتاج إلى مشاركة جاهيرية حقة فى الإدارة . ولهذا السبب فإننا نقول إن إشاعة الديموقراطية هى حجر الزاوية فى جهد إعادة البناء . وقد طبقت على نحو سليم أشكال مثل دولاب الإدارة الجديد . وانتخاب المديرين ، وإقامة مجالس لأسر العمل على مستوى فرق العمل ، وورش المصانع والمؤسسات . ويتضح من مثال أسر العمل فى المزارع التعاقدية والتى تديرها الأسرة كيف افتقد شعبنا دور المالكين . إنهم لايريدون فحسب أن يكسبوا المزيد ، وهو أمر مفهوم تماما ، ولكنهم يريدون أن يؤدوا عملهم بأمانة . وهم يريدون أن يكسبوا من الدولة لا أن يسرقوها . وهذه الرغبة تتفق تماما مع الروح الاشتراكية . ولذلك يجب ألا تكون هناك أية قيود ـ فما يكسبه المرء يجب أن يحصل على مالم

السياسة الاجتماعية لإعادة البناء

إننا ننطلق من الافتراض القائل بأن السياسة الاجتاعية القوية التي أعلنها المؤتمر السابع والعشرون للحزب الشيوعي السوفيتي هي وحدها التي يمكن أن تضمن النجاح للبيريسترويكا. فينبغي رفع مستويات المعيشة ، وتحسين ظروف السكن ، وإنتاج مزيد من المواد الغذائية وتحسين جودة السلع ، ومواصلة تطوير خدمات الصحة العامة ، وتحقيق إصلاح المدارس الثانوية والعليا ، كما ينبغي حل كثير من المشاكل الاجتاعية الأخرى .

وعندما عالج اجتماع يونيو الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى عام ١٩٨٧ المهام الحالية والطويلة الأمد ، أولى اهتماما خاصا للمسائل المتعلقة بزيادة إنتاج المواد الغذائية والسلع الاستهلاكية والتوسع فى بناء المساكن .

ويجرى تنفيذ تدابير واسعة النطاق. فنحن نبنى مساكن أكثر. وهذه بالنسبة لنا ، مهمة على نطاق البلاد. وسوف نستثمر أموالا أكبر فى حلها. فلابد أن نساعد الناس فى الحصول على مساكن أكثر وأفضل ، فى المناطق الحضرية والريفية على السواء.

ولابد أن تتوفر للناس نوعية حياة طيبة . وإذا ما حلت هذه المشكلة استقرت أسرة العمل والناس يقدرون بدرجة أكبر التغييرات التى تجرى فى مدنهم أو قراهم ، وفى الإنتاج ، وفى ظروف العمل ، وفى طبيعة العمل ذاته أكثر من تقديرهم لسرعة زيادة الأجور .

ولا يمكن التسامح بشكل خاص مع السلبية الحالية للزعماء الذين يعجزون عن الاستفادة من الفرص المتاحة لحل المشاكل الاجتماعية . ويرجع ذلك ، من ناحية إلى العادة القديمة لمعالجة هذه المسائل على أساس ما يسمى بمبدأ المتبقى ، عندما يخصص فقط ما يبقى ، بعد تلبية حاجات الإنتاج ، للأغراض الاجتماعية . ومن ناحية أخرى ، يرجع إلى كونه نتيجة لسيكولوجية التبعية ، التى ضربت بجذورها

عميقا . إن الحساب الاقتصادى والتمويل الذاتى يضعان حدا لكل ذلك . ويدعو الدولاب الاقتصادى نفسه إلى معالجة نشطة ، ومعقولة ، وجريئة ، وإلى التصرف بطريقة المالك .

وإنجازاتنا فى التعليم معروفة للجميع . إنها تثير الإعجاب عند مقارنتها بأكثر البلدان تطورا . ومع ذلك فإننا ننفذ إصلاح المدرسة . فما الذى دعانا إلى فعل ذلك؟ قبل كل شىء ، المطالب الجديدة التى يفرضها المجتمع الحديث على الناس ، وإلى جانب ذلك ، فقد أثرت ظواهر الركود فى مجتمعنا على النظام التعليمى كذلك : وكان فى التعليم أيضا مظاهر الرضى عن النفس فى النتائج التى تم التوصل إليها ، مما أثر بشكل مباشر على كل شىء آخر .

والآن ، بعد مناقشة على نطاق البلاد ، تبنينا برنامجا لتحويل جذرى للمدارس الثانوية والعليا ، ويتمثل الاتجاه الرئيسي لجهودنا في تدريب الشباب على العمل في المستقبل بهدف تلبية احتياجات التقدم العلمي والتكنولوجي والتخلص من كل ما هو ثانوي الأهمية ويعطى للناس القليل بعد الأعباء التي لا لزوم لها . كما يجرى تحسين التعليم الإنساني للشباب ، الذي يهدف إلى تربية سليمة وتحصيل مستويات ثقافية مناسبة . وتولى الكليات والمدارس الثانوية الاهتام بالحث على أساليب التعليم والتربية الخلاقة وغرس المبادرة والاستقلال في أسر المدارس الثانوية والعليا . وهو الأهم – بلوغ وتتطلب المهام الجديدة إعادة بناء الأساس المادي ، كما يتطلب – وهو الأهم – بلوغ المدرسين مستوى جديدا في عملهم . وسيجد من يرتقون بمهاراتهم التشجيع المادي المناسب . وتلقي هذه البرامج المسائدة المالية اللازمة ، ويمضى تنفيذها قدما .

وتجرى حاليا على نطاق البلاد مناقشة الخطوط التوجهية لتحسين الخدمات الصحية العامة للبلاد . وعندما تنهى المناقشة ستخضع الخطوط التوجهية لدراسة دقيقة من جانب اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتي والحكومة ثم السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتي . وسيحتاج هذا المشروع الشامل إلى استثارات ضخمة

وجهود كبيرة . وقد وفرنا الموارد المالية والمادية لمرحلته الأولى ، التي سيجرى تنفيذها في السنوات المتبقية من فترة الخطة الخمسية الثانية عشرة وخلال فترة الخطة الخمسية الثالثة عشر .

إن تكثيف الإنتاج الاجتاعى يوحى بموقف جديد من العالة الكفؤة ويتطلب إعادة تجميع قوة العمل. وفي الوقت الذي نعمل فيه في هذا الاتجاه ، علينا أن نتفحص بدقة كيف ينفذ مبدأ العدالة الاجتاعية . وقد شكلت المارسة الواسعة النطاق للمساواة واحدا من التشوهات الرئيسية خلال العقود القليلة الماضية ، وأدت إلى تطوير مواقف الاتكالية والنزعة الاستهلاكية وإلى تفشى فلسفة ضيقة الأفق من نوع : «إن الأمر لا يخصنا ، فليتحمل الرؤساء المتاعب» .

وقد صاغ المؤتمر السابع والعشرون للحزب الشيوعى السوفيتى مشكلة العدالة الاجتاعية . الاجتاعية فيما يلى : فى ظل الاشتراكية يعتبر العمل أساس العدالة الاجتاعية . ويحول والعمل وحده يحدد مكان المواطن الحقيقي فى المجتمع ، ووضعه الاجتاعى . ويحول ذلك دون أى مظهر من مظاهر المساواة .

إن المواقف المرتبطة بالمساواة تبرز على نحو غير متوقع من حين لآخر حتى في هذه الأيام. وقد فهم بعض المواطنين الدعوة إلى العدالة الاجتاعية على أنها «مساواة بين كل الناس». بيد أن المجتمع يطالب بدأب أن يترجم مبدأ الاشتراكية بحزم إلى إلحياة. وفي كلمات أخرى ، فإن ما نقدره أكثر من غيره هو إسهام المواطن في شئون البلاد. وعلينا أن نشجع الكفاءة في الإنتاج وموهبة الكاتب ، أو العالم أو أى مواطن مستقيم يعمل بجد. ونحن نريد أن نكون واضحين تماما فيما يتعلق بهذه النقطة: إن الاشتراكية لاعلاقة لها بالمساواة. والاشتراكية لا يمكن أن تضمن ظروف الحياة والاستملاك وفقا للمبدأ ، «من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجته» إذ سيكون ذلك في ظل الشيوعية. أما الاشتراكية فلها معيار آخر لتوزيع المزايا الاجتاعية ، «من كل حسب عمله.» فليس هناك استغلال

إنسان لإنسان ، وليس هناك تقسيم إلى أغنياء وفقراء . إلى أصحاب ملايين ومعوزين . وكل الشعوب متساوية بين متساويين ، والوظائف مضمونة لكل الناس ، ولدينا تعليم ثانوى وعال بالمجان ، وخدمات طبية مجانية ، ونوفر للمواطنين حياة كريمة في شيخوختهم . وهذا هو التجسيد للعدالة الاجتاعية في ظل الاشتراكية .

واليوم ، حين تكون العدالة الاجتاعية هي القضية المطروحة في بلادنا ، يقال الكثير عن المزايا والامتيازات التي يحصل عليها الأفراد ومجموعات الأفراد . إن لدينا مزايا وامتيازات أقرتها الدولة ، وتمنح على أساس كمية ونوعية العمل المفيد اجتاعيا ، مثال ذلك ، أننا نولى رعاية خاصة لعلمائنا البارزين وأكاديميينا وكتابنا . وتمنح الألقاب الشرفية للأشخاص مقابل إسهامهم البارز في البناء الاشتراكي . وهكذا يحظي أبطال العمل الاشتراكي ، والعلماء الحائزون على جوائز والشخصيات وهكذا يحظي أبطال العمل الاشتراكي ، والعلماء الحائزون على جوائز والشخصيات الثقافية بمزايا إضافية معينة . وهناك أيضا مزايا معينة لأشخاص في الصناعات المختلفة ولمن يعملون في مناطق مختلفة (وفي المقام الأول ، في المناطق الشمالية والبعيدة) ولرجال القوات المسلحة والدبلوماسيين الخ . وأعتقد أن لهذا الأسلوب ما يبرره . لأنه في مصلحة المجتمع في مجموعه . كما يرتكز أيضا على أهمية وحجم إسهام المواطن .

ولكن إذا ماكانت هناك امتيازات لم تقرها الدولة ، وإنما أقرها لأنفسهم بعض من يسيئون استخدام سلطاتهم الرسمية ، فنحن نحظر هذه الامتيازات باعتبارها شيئا غير مقبول .

وهناك جانب آخر للقضية . إن كثيرا من تنظياتنا ، ومعاهدنا ، ومؤسساتنا تدير مرافق للخدمات . وعمليا في كل مكان يعمل نظام عام لتوريد الأغذية في المؤسسات الكبرى . وبالإضافة إلى ذلك ، تتحمل المؤسسات في معظم الحالات نفقات الحفاظ على التنظيات العامة لتوريد الأغذية . ويتم ذلك بالاشتراك بين

الإدارة واللجنة النقابية مما يترتب عليه أن تكون تكلفة الوجبات أقل.

وتوجد فى بلادنا شبكة واسعة من المنشآت الطبية التى توفر خدمات الرعاية الصحية للناس فى أماكن عملهم. وهى لا تضم فقط عيادات خارجية ، وإنما دور لقضاء الإجازات ومراكز لتحسين الصحة بعد ساعات العمل تقع بالقرب من المؤسسة أو فى مناطق الاستجام والمنتجعات الصحية . وتدير كثير من المؤسسات متاجرها الحاصة ، وخدمات تقديم الطعام ، ومنشئات لصناعة الملابس ، وما إلى ذلك ، ويمكنك القول ، بأنها مجالات خدمات حقيقية تابعة لهذه المؤسسات .

ويتحقق هذا ، ليس فقط للمؤسسات الصناعية . بل مثلا ، توجد لدى أكاديمية العلوم ، واتحاد الكتاب ، والتنظيات الأخرى من هذا القبيل ، مراكز صحية ، وفنادق للاجازات ، ومستوطنات سكنية للصيف . ويوجد لدى النقابات (وتعتبر من أغنى المنظمات في بلادنا) ولدى منظات الحزب والسوفيتات مثل هذه الخدمات كذلك .

وبالتأكيد ، فإن وجود مثل هذه الأشكال من الخدمات يمكن أن يولد ، بل إنه يولد بالفعل المشاكل ، وبخاصة عندما تكون نوعية الخدمات التي تقدم لمجموع السكان أقل كثيرا منها في المنظات والمؤسسات سالفة الذكر . وتنتقد الجاهير العاملة بالطبع مثل هذه المظواهر . وينبغي حل هذه المسائل في مجرى مواصلة تنفيذ البرامج التي تبنيناها .

وسنواصل بحزم النضال ضد السكر وإدمان الكحوليات. وهذا الشر الاجتاعى قد ضرب بجذور عميقة فى مجتمعنا لقرون وأصبح عادة سيئة. ومن ثم فليس من السهل مقاومتها. بيد أن المجتمع ناضج لتحول جذرى فى هذه الناحية فقد زاد سوء استخدام الكحوليات، وبخاصة فى العقدين الماضيين بمعدل ينذر بالحطر ويهدد مستقبل البلاد ذاته. وتذكرنا الجاهير العاملة على الدوام بالحاجة إلى تكثيف جهودنا لمقاومة هذا الشر. ويطالب البعض حتى بتحريمها على نطاق البلاد.

ولكننا ندرك أنه من غير المستحسن تطبيق التحريم على نطاق الدولة . ونحن نجيب : إذا ما أردتم فطبقوا التحريم في أسرتكم ، أو منطقتكم أو حيّكم . ولقد قررت الجاهير العاملة ، في آلاف القرى والمستوطنات ، وفي الاجتماعات العامة أن تضع حدا لبيع واستخدام المشروبات الكحولية . وتتواصل الحملة . لقد انحفض معدل استهلاك الكحوليات بالنسبة للفرد إلى النصف خلال العامين الماضيين . ومع ذلك فتر الحماس وتوقف هذا التقدم . إنه من المستحيل حل هذه المسألة بالإجراءات الإدارية وحدها . وأنجع الطرق للتخلص من بلاء مثل إدمان الخمور هو تطوير مجالات الترفيه ، واللياقة البدنية ، والنشاط الرياضي والثقافي الجماهيري ، ومواصلة إشاعة الديموقواطية في حياة المجتمع في مجموعه .

ثالثا ـ على طريق إشاعة الديموقراطية

احتياطينا الرئيسي

إن إحدى المهام السياسية الأولى لجهود إعادة البناء ، إن لم تكن الأساسية ، تتمثل فى إحياء وتعزيز الشعور بالمسئولية عن مصير البلاد فى الشعب السوفيتى . فما زال للاغتراب الذى نتج عن ضعف الروابط بين الدولة والهيئات الاقتصادية ، وبين أسر العمل والعال العاديين ، والذى نتج عن سوء تقدير دورهم فى تطور المجتمع الاشتراكى ، ما زال له أثره المزعج .

إن العامل البشرى بمعناه الأوسع يشكل الأولوية الرئيسية بالنسبة لنا . ونحن نفعل كل ما فى وسعنا لكى يلعب دوره ، وفى المقام الأول ، عن طريق تعزيز قوى المدفع الاجتماعي لكل خططنا . وكل ما أريد إضافته هو أننا نعمل من أجل توازن بين الجانبين ـ الاقتصاد والمجال الاجتماعي ـ وإذا ما تم تجاهل مصالح هذا الأخير لصالح معدلات التنمية الاقتصادية وحدها ، تلاشي الاهتمام بنتائج العمل الأمر الذي يؤثر على إنتاجية العمل ويضعف الاقتصاد . ومن ناحية أخرى ، لا يجب بناء الجمال الاجتماعي بطريقة تضعف الأساس ، لأنه حينئذ تتقوض إمكانية نفس التنمية الاجتماعية الدينامية . ولذلك يتعين علينا التزام الاعتدال الذي يعزز التنمية الاجتماعية الاقتصادية المتجانسة . فالعلاقة بين هذين الجانين ليست علاقة ساكنة ، وإنما تتغير على الدوام . واليوم تدفع السياسة الاجتماعية إلى المقدمة .

ويحتل الجانب المعنوى أهمية بالغة . فإذا لم ننشط بشكل فعال القيم الاشتراكية والمناخ الاشتراكي في أسر العمل وفي المجتمع في مجموعه ، فسوف نعجز عن مواصلة حركة إعادة البناء . وبإمكاننا أن نقترح السياسات الصحيحة والميكانيزمات الفعالة ، ولكننا لن نحقق أى شيء ما لم يتحسن المجتمع من خلال تعزيز القيم المعنوية للاشتراكية ، وفي المقام الأول ، العدالة الاجتماعية ، والتوزيع وفقا لناتج العمل ،

والانضباط المتسق ، والقوانين ، واللوائح ، ومتطلبات الجميع .

ونحن ننشط أيضا العامل البشرى عن طريق تحسين نظام الإدارة ، ودولابها . فما هو الحساب الاقتصادى من هذه الزاوية ؟ إنه ليس فقط حقوق أسرة العمل ، وإنما مسئوليتها كذلك . وإذا ما قلنا بأنك ستعيش حسب عملك فهذا يعنى أننا نعطى الناس المسئولية عن مستقبلهم . وتطور أسرة العمل بالطبع رغبة متبادلة بأن يكون لها حق إدارة مؤسساتها وتسيير عملية العمل ، اللذين تحدد نتائجها دخول أسرة العمل وحياتها . وهنا ، أيضا ، نجد جانبين لعملية واحدة . وفى كلات أخرى ، يرتبط الحساب الاقتصادى بالإدارة الذاتية باستقلال أسر العمل .

إننا نتبنى رأيا آخر عن العلاقة بين إدارة رجل واحد وبين مشاركة أسر العمل فى معالجة مهام الإنتاج . وهذه قضية موضوعية . ولن يكون هناك تقدم دون مشاركة العمال فى الإدارة من خلال ميكانيزمات مناسبة ـ على مستوى فرق العمل ، وورش المصانع ، ووحدات الإنتاج والمصانع المتكاملة . وزيادة على ذلك ، فإن أسرة العمل يجب أن يكون لها الحق فى انتخاب مديرها . ويحصل الأخير على حق إدارة الرجل الواحد نيابة عن أسرة العمل ، موحدا الجميع بقوة إرادته .

ويعتبر انتخاب المديرين الاقتصاديين ديموقراطية مباشرة في العمل وكان الناس فزعين من ذلك في البداية ، مدعين أننا ذهبنا بعيدا للغاية ، وأن الأمور يمكن أن تصل إلى نهاية سيئة بيد أن من يفكرون بهذه الطريقة ينسون النقطة الأساسية ، وهي أن التفكير الصائب يسود دا ثما . إن مصالح الجاعة ، وهو أسلوب لتغطية مصالح بعضهم البعض ، سوف يتم الإحساس بها في مكان ما . بيد أن كل امرئ في الأساس يريد أن يرأس فريق عمله ، أو ورشته ، أو مؤسسته ، أو مزرعته الجاعية أو الحكومية ، مديرون أذكياء يعتمد عليهم ، وقادرون على القيادة ، وعلى فتح أو الحكومية ، مديرون أذكياء يعتمد عليهم ، وقادرون على القيادة ، وعلى فتح أقلق لتحسين الإنتاج والحياة . ويدرك شعبنا هذا . وهو لا يحتاج بالتأكيد إلى إدارة ضعيفة . إنه يريد أناسا موهوبين ، متروين ، ومع ذلك متشددين بطريقة مناسبة .

والناس يريدون أن يروا مواقف متغيرة ، من جانب مديرى الوحدة الإنتاجية ، والمشرفين على الورش والمراقبين والملاحظين . والناس يتوقعون قدوة خلقية ويتوقعونها على الأخص من رؤسائهم . وهناك العديد من الأمثلة من هذا القبيل . وحيثًا يوجد مدير جيد ، يوجد النجاح . فهو يرعى الناس . وكل امرئ يريد التحدث معه . وهو لا يحتاج لأن يرفع صوته عندما يعطى الأوامر . وقد يبدو عاديا تماما ، ولكنه يرى كل شيء ويمكن أن يوضحه . ومن المهم للغاية أن يكون قادرا على شرح الوضع . وسيوافق الناس على الانتظار إذا عرفوا السبب في أن بعض مطالبهم لا يمكن أن تلى مباشرة بشكل كامل .

ونحن نبعث النشاط كذلك فى العامل البشرى بمساعدة مزيد من التدابير الديموقراطية ، والعمل الأيديولوجى الأفضل ، ومناخ معنوى أكثر صحية فى المجتمع . لقد بات كل امرئ يدرك بشكل كامل الطابع الحاسم لهذه المرحلة . وهناك حاجة إلى جهود كبيرة إذا ما أريد للبيريسترويكا أن تنتصر على هؤلاء الذين ما يزالون يقيسون حجمها ، أو يرون الأوضاع الحالية مناسبة لهم .

ولا يمكن ازالة الأفكار الروتينية العديدة بضربة واحدة . والعادات النفسية التي غرست خلال السنين لا يمكن إلغاؤها بأى مرسوم ، وحتى أقوى المراسيم . وللأسف ، فإن علينا أن نخلص أنفسنا تماما من الأشكال البالية للعمل مع الناس ، والأشكال المتعلقة باتجاهنا نحو الحملات الأيديولوجية والثرثرة الطنانة . ونحن نحتاج هنا إلى نضال طويل ومكثف ، نضال ضد الروتين ، والأبهة التي لا مبرر لها ، والشعارات المجردة ، وتكرار عبارات التباهى المتسم بالغرور . والشيء الهام هو ألا نسمح للبيروقراطية والشكلية بأن تقيد المصادر الواهبة للحياة في مبادرات الشعب .

وعند أحاديثي مع الناس في الشارع أو في أماكن العمل أسمع على الدوام: «الكل هنا يؤيد البيريسترويكا. » وأنا مقتنع بإخلاص وصدق بهذه الكلمات ، ومع

ذلك أجيب كل مرة بأن أهم شيء يواجهنا الآن هو أن نقلل الكلام عن البيريسترويكا وأن نعمل الكثير من أجلها . إن ما نحتاج إليه هو مزيد من النظام ، والضمير الحي ، واحترام بعضنا البعض ، ومزيد من الأمانة . يجب علينا أن نتبع ما يمليه علينا ضميرنا . وإنه لشيء طيب أن يدرك الناس ذلك ، فضلا عن أنهم يرحبون به بعقولهم وقلوبهم . وهذا شيء هام للغاية . إن لدينا سياسة ، ولدينا حكومة مكافحة من أجل هذه السياسة ، وشعبا يساندها . وهذا هو الأمر الأهم . وكل ما عداه يهون أمره ، وسوف تمضي حملات إعادة البناء قدما وتعطى نتائجها . والانطباع الرئيسي الذي خرجت به من لقاءاتي الشخصية مع المواطنين السوفيت هو أنهم يحسون بعمق بالمعنى السياسي والأخلاق للبيريسترويكا .

الالتزام بالقانون ـ عنصر لا غنى عنه في إشاعة الديموقراطية

يعتبر الانتزام بالقانون مسألة مبدأ بالنسبة لنا ، وقد نظرنا إلى المسألة نظرة واسعة ومبدئية . فلا يمكن أن يكون هناك التزام بالقانون بدون ديموقراطية . وفى نفس الوقت لا يمكن للديموقراطية أن توجد وتتطور دون حكم القانون ، لأن القانون يهدف إلى حاية المجتمع من سوء استخدام السلطة ويضمن للمواطنين ومنظاتهم وأسر العمل حقوقهم وحرياتهم . ولهذا السبب ، فقد اتخذنا موقفا حازما من هذه المسألة . ونحن نعرف من تجربتنا الخاصة ماذا يحدث عندما تكون هناك انحرافات عن هذه المبادئ .

منذ البداية الأولى للحكم السوفيتى أولى لينين والحزب أهمية فائقة للمحافظة على القانون وتعزيزه . وهذا أمر طبيعى ، بالطبع ، لأن الواقع السياسى لنشأة مجتمع جديد كان يتطلب ذلك: فقد كان علينا أن نعزز نظام الحكم الجديد، ونلغى الملكية الفردية لوسائل الإنتاج ، ونؤم الأرض ، ونمكن الجاهير العاملة من الرقابة على الإنتاج ، ونحمى مصالح العال والفلاحين من الثورة المضادة . كان يتعين تبرير كل

ذلك ، وإعطاؤه الطابع الرسمى فى القوانين ، وإلا لكانت العملية الثورية قد واجهت الفوضى ولكان من المستحيل تعزيز مكتسباتنا ، وضمان العمل الطبيعى لنظام الحكم السوفيتى واقرار مبادئ جديدة فى الحياة العامة .

وأنجزت مراسيم الحكومة السوفيتية هذا الغرض ، فقد أعلنت منذ البداية الأولى أن الشرعية «مبدأ » أساسى يوجه حياة المجتمع فى الاتحاد السوفيتى . وأعلنت مهمة تشجيع مشاركة ملايين الجاهير العاملة فى إدارة بلادهم وتعليمهم ، كما قال لينين ، « أن يكافحوا من أجل حقوقهم » . وانطلقت هذه الفكرة فى الدستور السوفيتى الأول لعام ١٩١٨ وفى القرار اللاحق «حول الالتزام الصارم بالقوانين » والذى أصدره مؤتمر السوفيتات فى عموم روسيا .

وبعد الحرب الأهلية ، ازداد العمل التشريعي كثافة . وكان يهدف رسميا إلى تقنين التحولات الاشتراكية . وأصبحت القوانين ووظائف الهيئات المسئولة عن مراعاة القانون وتنفيذ العدالة أداة هامة في بناء الدولة الجديدة وإضفاء الشرعية على كل ما تم التوصل إليه نتيجة للنشاط الاقتصادي ، والاجتماعي ، والثقافي وغيره . وروعي بصراحة مبدأ لينين القائل بضرورة وجود مجموعة واحدة من القوانين لكل البلاد ، وبأننا « لا يجب أن نتزحزح قيد أنملة عن قوانيننا » .

غير أنه ينبغى أن نشير إلى الفترة التى نطلق عليها فترة عبادة الشخصية . فقد أثرت على قوانيننا وتوجهها ، وبشكل خاص ، على التقيد بها . وكذلك أدى التأكيد على المركزية الصارمة والإدارة بواسطة الأوامر ، ووجود عدد ضخم من التعليمات والقيود الإدارية ، أدى إلى التقليل من دور القانون . فأدى ذلك فى مراحل معينة إلى حكم تعسنى ، وإلى عدم الخضوع للقانون ، مما لا علاقة له بمبادئ الاشتراكية أو ببنود دستور ١٩٣٦ . ويعتبر ستالين وزملاؤه القريبون منه مسئولين عن تلك الأساليب لحكم البلاد . وأية محاولات لتبرير عدم الخضوع للقانون بالاحتياجات السياسية أو التوتر الدولى أو التفاقم المزعوم للصراع الطبقى فى البلاد

هى محاولات خاطئة . إن انتهاك القانون كانت له آثار فاجعة لايمكننا أن ننساها أو نصفح عنها . وقد قيّم المؤتمر العشرون للحزب هذه الفترة تقييما قاسيا للغاية .

ووجد ذلك انعكاسا له فى التشريع . واستعيدت مبادئ الديموقراطية . وجرى تعزيز القانون والنظام ونفذ تقنين التشريع . وبدأت ممارسة مناقشة مشاريع القوانين وغيرها من المسائل الهامة على نطاق البلاد . وخلال ربع القرن الأخير شارك ملايين الناس فى مناقشة حوالى ثلاثين مشروع قانون وطنيا هاما وأعربوا عن رأيهم فى هذه المشاريع ، واقترحوا تعديلات وإضافات .

ولكن ، ارتبطت فترة لاحقة من الركود بالتراخى فى تنفيذ القانون . وظهرت من جديد عناصر السلوك التعسنى وانتهاك القانون ، بما فى ذلك من جانب بعض القادة . إن المحاكم ، ومكاتب الادعاء ، وغيرها من الهيئات التى كانت مكلفة بحاية النظام ، ومقاومة إساءة استخدام السلطة غالبا ما كانت تحكمها الظروف ، وتجد نفسها فى مركز تابع تدفع ثمن موقفها المبدئى فى النضال ضد منتهكى القانون . وغدت حالات الفساد متكررة الحدوث أكثر فى جهاز تنفيذ القانون نفسه .

والآن وقد بدأنا البيريسترويكا ، وقررنا أن نصنى الظواهر السلبية للماضى ونعطى حافزا جديدا لتطور الديموقراطية الاشتراكية ، رأينا الحاجة إلى تحول بعيد المدى فى كل من مجالات تشريعنا ، وكمال الشرعية الاشتراكية فى مجموعها . وألتى الضوء على هذه الحاجة أيضا التغييرات الجذرية فى دولاب الإدارة الاقتصادية والتنمية الاجتماعية . وهذا جزء لا يتجزأ من إشاعة الديموقراطية فى كافة جوانب مجتمعنا . إن التدابير التى نتخذها فى مجال التشريع والقانون تغدو سندا فى عملية إعادة البناء . وضى نقوم بهذا العمل فى إطار الإصلاحات فى المجالات الاقتصادية ، والاجتماعية والثقافية ، واضعين فى اعتبارنا رغبات الجاهير العاملة ، ونتاثج استطلاعات الرأى العامل .

وتتطلب البيريسترويكا قدرا أكبر من التنظيم فى المجتمع ، وانضباطا واعيا

للمواطنين. وسأضع الأمركما يلى: كلما زادت إعادة البناء عمقا ، كلما كان من الواجب تنفيذ مبادئ الاشتراكية بثبات وصرامة أكبر، والالتزام بقواعد الحياة فى المجتمع الاشتراكي الواردة فى الدستور والقوانين.

وتحدد البيريسترويكا مطالب أعلى فيا يتعلق بمحتوى القوانين التشريعية ذاتها . فالقانون يجب أن يحمى بحزم مصالح المجتمع ، ويحرّم ماقد يضر بالمصالح القومية . وهذه بديهية . ولكن القانون إذ يحدد هذا الإطار الصارم مطالب كذلك بأن يتيح فرصة لمبادرة المواطنين ، وأسر العمل وتنظياتهم . وينبغى أن تقدم كل مساندة وتشجيع للنشاط والمبادرة التي تتطور في إطار القانون . لقد فقدنا الكثير ونحن نحاول تجديد كافة حقوق المؤسسات في مختلف التعليات . وفي الحقيقة ، فقد افترض أن أي مشروع تخطى تلك التعليات ينبغى النظر إليه باعتباره غير مقبول . وفي نفس ألى مشروع تخطى تلك التعليات ينبغى النظر إليه باعتباره غير مقبول . وفي نفس الوقت ، فقد أوضحت التجربة أن ما نحتاج إليه ليس التنظيم التشريعي الكامل المؤاهر الحياة الاجتاعية المتباينة ، وإنما الترشيد السليم ، والرعاية والمساندة الدائمة للعامل ، ولقوة العمل ، ولكافة أشكال المبادرة الشعبية . وعلينا أن نلتزم بصراحة بالمبدأ القائل : بأن كل ما لا يحرمه القانون مباح .

لقد تم إقرار مجموعة كاملة من القوانين التشريعية الهامة بالفعل في مسار البيريسترويكا. وتشمل قانون المؤسسة الحكومية (الاتحاد)، والقوانين الخاصة بتغيير نظام إدارة المجمع الزراعي الصناعي (٢١)، وإصلاح المدرسة، والعمل الفردي، ومقاومة الدخول غير المشروعة، وتعاطي الكحوليات وإدمان المخدرات. كما صدرت قوانين لتحسين الصحة وحاية البيئة، ولتعزيز رعاية الأمومة والطفولة.

ونحن نولى اهتماما خاصا لتعزيز ضمانات حقوق وحريات الشعب السوفيتي . ومراسيم هيئة رئاسة السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتي تجعل من قمع النقد أمرا يعاقب

⁽٢١) المجمع الزراعى الصناعى للاتحاد السوفيتى ــ وحدة هيكلية للاقتصاد القومى تضم فروعا تعمل في إنتاج المنتجات الزراعية وتصنيعها ، ونقلها ، وتخزينها ، وبيعها .

عليه القانون ، وتقر التدابير للتعويض عن الحسائر التى لحقت بالمواطنين نتيجة الأعمال غير المشروعة للحكومة والهيئات العامة والمسئولين . كما تم إقرار قانون حول الإجراءات التى تتبع عند رفع الأمر إلى المحكمة ضد أى أعمال مخالفة للقانون يرتكبها المسئولون ويكون فيها إجحاف بحقوق المواطنين . كذلك نص القانون الذى أقره السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتى في يونيو ١٩٨٧ رسميا على إخضاع المسائل الهامة في الحياة السياسية للمناقشة العامة على نطاق البلاد .

وفى نفس الوقت فنحن ندرك أن إعادة البناء ستستمر تتطلب مزيدا ومزيدا من المخطوات الجديدة فى مجال التشريع والقانون والنظام . إن التقنين الكامل للتشريع يتقدم فى جدول الأعمال . إذ ينبغى أن يعالج المهام الجديدة مثل دعم الكفاءة الاقتصادية ، وانتهاج سياسة اجتماعية قوية ، والكشف عن قدرة كافة مؤسسات الديموقراطية الاشتراكية ، وفى كلمات أخرى ، ينبغى أن يمهد الطريق إلى الحكم الذاتى بواسطة الشعب .

وينبغى إدخال تغييرات هامة على قانون الانتخاب. وقد ساعدت تجاربنا خلال الحملة الانتخابية في يونيو ١٩٨٧ على تحديد أكثر دقة لكيفية معالجة هذه المشكلة المعقدة إلى حدّ ما . ويجرى العمل الآن في أشكال تشريعية ترتبط بإعادة بناء نظام إدارة الاقتصاد القومي ، وبإعطاء دور أكبر للهيئات المحلية لسلطة الدولة ، واضعين في الاعتبار أن هناك حوالى ٣٠،٠٠٠ قانون قومي يعمل بها في اقتصادنا . ويحتاج الكثير منها إلى تغييرات أساسية ، وغالبا ماتحتاج ببساطة إلى إلغاء . وقد ألغيت آلاف منها بالفعل بعد تطبيق قانون المؤسسة الحكومية .

وبعد المؤتمرات الأخيرة ، تقدمت النقابات والكومسومول (٢٢) باقتراحات الإعداد مشاريع قوانين حول العمل المنظم والشباب . ويجرى الإعداد لمشروعات

⁽۲۲) الكومسومول هو رابطة الشباب الشيوعى اللينيني فى عموم الاتحاد ، وهو منظمة عامة نشطة للشباب السوفيتي تأسست عام ١٩١٨ .

قوانين خاصة بالعمل ، وبالنشاط التعاوني ، وبتوسيع نطاق المسائل التي تقرر في اجتماعات أسر العمل ، وبحجم معاشات العمال والعاملين الإداريين والفلاحين الحجاعيين ، وبمستويات جودة المنتجات .

وسيكون علينا أن نبذل كثيرا من الجهد لإحداث تعديلات في تغييرات على القانون الجنائي لدينا. وينبغي أن يكون متلائما تماما مع المرحلة الحالية من نضوج المجتمع السوفيتي. وسوف يتم إكمال هذا القسم الهام من عملنا في مجال التشريع والقانون في إطار التحول الهائل المرتبط بإعادة البناء وإشاعة الديموقراطية.

ومن الأهمية بمكان تعزيز دور المحاكم كهيئة انتخابية وثيقة الصلة بالسكان ، وضان استقلال القضاة ، ومراعاة أكثر المبادئ الديموقراطية صرامة في الإجراءات القانونية ، والموضوعية ، والانتخاب القائم على المنافسة ، والعلانية . وتخدم نفس الأهداف الإجراءات التي اتخذت أخيرا لتعزيز إشراف مكتب الإدعاء على الالتزام الصارم والمنسق بالقوانين ، وتوسيع وظائف التحكيم الحكومي في تسوية المنازعات الاقتصادية ، وتعديل الخدمات القضائية في الاقتصاد القومي ، وتطوير الثقافة القانونية للجمهور .

وفى كلمات أخرى ، فإن العمل يمضى على نطاق واسع ، بهدف تعزيز الأسس القانونية للاشتراكية . إن القانون والشرعية ليسا مجرد عنصرين متلازمين لتعميق ديموقراطيتنا وتسريع التقدم الاجتماعى . إنهما أداتان للعمل فى إعادة البناء وضمان يعول عليه فى عدم إمكانية الرجوع فيها .

البيريسترويكا والسوفيتات

والآن حيث يجرى تنفيذ البيريسترويكا وتطوير الديموقراطية ، أضيف بعد جديد إلى مسألة الربط بين قيادة الحزب السياسية وبين دور هيئات الدولة ، والنقابات والمنظات العامة الأخرى . فثلا ، لنأخذ السوفيتات عندنا . لقد أجبرتنا

البيريسترويكا على أن نوضح الدور الذى يجب أن تلعبه هذه السوفيتات فى الإصلاح الجارى. ولا يمكن أن تكون هناك أى إشاعة للديموقراطية فى الوقت الذى لاتشارك فيه السوفيتات فى العملية ولا يتعرض وضعها ونشاطها للتحولات الثورية.

والسوفيتات في روسيا ظاهرة فريدة في تاريخ السياسة العالمية . إنها ثمرة المشاركة المباشرة الخلاقة للجاهير العاملة . وربما يعرف قليل من الناس في الغرب أن فكرة السوفيتات ذاتها ، وقد أعقبتها مباشرة الخطوات التنظيمية الأولى ، بدأ التفكير فيها قبل ثورة أكتوبر ١٩١٧ بوقت طويل ـ في ١٩٠٥ . وفي أعقاب ثورة فبراير ١٩١٧ التي أطاحت بالحكم القيصرى ، تطورت السوفيتات إلى أجهزة للسلطة في جميع التي أطاحت بالحكم أن سلطاتها كانت محدودة لأنها تعايشت مع الحكومة المؤقتة (٢٣٠) . وقد شكلت بالطبع الأساس السياسي للجمهورية الجديدة التي ظهرت في أكتوبر ١٩١٧ . وقد أطلق على بلادنا منذ ذلك الحين الجمهورية السوفيتية .

ولو لم تكن هناك سوفيتات ، ماكنا قدكسبنا الحرب الأهلية . ولو لم تكن هناك سوفيتات ، ماكنا قد نجحنا فى حشد ملايين الناس ، وعلى الأخص العال والفلاحين ، فى مثل هذا البلد الواسع . ولو لم تكن هناك سوفيتات ماكان قد تحقق شىء من السياسة الاقتصادية الجديدة (٢٤) . وتكن سلطاتها الحقيقية فى حقيقة

⁽٣٣) الحكومة المؤقتة هي الجهاز المركزي لسلطة البرجوازية _كبار الملاك في روسيا _ الذي تشكل بعد ثورة فبراير. وقد قامت في الفترة من ٢ (١٥) مارس إلى ٢٥ أكتوبر (٧ نوفمبر) ١٩١٧.

⁽٢٤) السياسة الاقتصادية الجديدة (نيب) ـ كانت سياسة اقتصادية وضعها لينين وطبقها في ١٩٢١. وتمثل مضمومها الرئيسي في استبدال و البرودراز فيورستكا ، أو مصادرة الأغذية من الفلاحين من أجل احتياجات المدن والجيش خلال الحرب الأهلية ، وعندماكان وجود الدولة السوفيئية ذاته يتعرض لحظر قاتل ، وذلك أداء له والضريبة النوعية ، حيث كان يدفع الفلاح قسيا معينا من إنتاجه كضريبة وكان الهدف العاجل من النيب هو التبادل بين المدينة والريف على أساس العلاقات السلعية النقدية مما يؤدى إلى سرعة تطبيع الإنتاج والوضع الغذائي في البلاد . وكان لابد من تقديم تنازلات للشركات الأجنبية . ولكن هذا الجانب لم يقدر له التطور . وسمح كذلك ح

أنها ، منذ أن أقامتها الجاهير ، عبرت عن مصالح الجاهير العاملة وقامت بالدفاع عنها . وكانت السمة والسر الكامنين وراء انتشارها السريع ، بل التلقائى فى جميع أنحاء البلاد ، هما أنهاكانت تتخذ القرارات وتنفذها بإرادتها فى الوقت الذى كانت فيه موضع رعاية الجاهير ، وتحت الرقابة المباشرة لكل من يهمهم تحركاتها . وكانت طريقا فريدا وكفؤا للجمع بين الديموقراطية المباشرة والديموقراطية الممثيلية .

ومع ذلك، فعندما دفع إلى الوجود نظام الاقتصاد بالأوامر فى الإدارة، كانت السوفيتات قد دفعت إلى الحلف بشكل ما . وتقرر عدد غير قليل من المسائل دون مشاركتها ،أو ترك دون حسم ليتحول إلى مشاكل . وقلل هذا من هيبة السوفيتات . ومنذ هذه اللحظة بدأ تطور الديموقراطية الاشتراكية يتباطأ ، وظهرت أمارات تشير إلى أن الجاهير العاملة قد أبعدت عن حقها الدستورى فى المشاركة بشكل مباشر فى شئون الدولة . وكنتيجة لذلك ، أضعف بشكل خطير مبدأ الثورة الاشتراكية بأن السلطة لايجب أن تكون فقط للجاهير العاملة ، وإنما تسوسها أيضا الجاهير العاملة .

ويجب أن نعترف أنه في هذه الظروف بدأ كثير من المديرين الاقتصاديين معاملة المطالب والتوصيات المشروعة للسوفيتات بدون الاحترام اللائق. وبدا أن كل شخص يدرك _ ولم ينكر أي امرئ رسميا ذلك _ أن على السوفيتات المحلية أن تكون مسئولة تماما عن مناطقها الحاصة في كافة المسائل المتعلقة بالتنمية وأن عليها أن تلبي الحاجات اليومية للشعب. بيد أن القدرات الحقيقية للسوفيتات ، بالمقارنة بقدرات الهيئات الاقتصادية ، لم تجعلها في وضع يسمح لها بإنجاز هذه الوظائف. وكان بمقدور المديرين والجهاز الإداري في العديد من المؤسسات ، وبخاصة في المؤسسات الكبيرة ، أن يتجاهلوا المطالب الملحة والعادلة المقدمة من السوفيتات لبناء المساكن ، ومرافق تنقية الهواء والماء ، والارتقاء بالبرامج الاجتاعية والثقافية ،

بالمؤسسات الحاصة في الإنتاج الصغير ومبيعات التجزئة . وتحولت المؤسسات إلى نظام الحساب الاقتصادى . لقد كانوا يتصورون النيب كفترة انتقالية طويلة نسبيا ، يجرى الإعداد خلالها بالتدريج للتحول الاشتراكي للمجتمع ويبدأ تنفيذه .

وتطوير شبكة النقل العام ، وتوفير وسائل ترفيه أفضل في مناطقهم ، الخ .

ولا يمكننا القول بأن الجاهير العاملة والهيئات الحزبية كانت غير مهتمة على الإطلاق. فقد بذلت محاولات لعلاج الوضع وتغيير النظام القائم. ولكن كانت هذه المحاولات ضعيفة للغاية. وهو مايرجع بدرجة كبيرة لأسباب موضوعية وذاتية. وفي السنوات الخمس عشرة الأخيرة اتخذ أربعة عشر قرارا بخصوص تحسين نشاط السوفيتات. ورغم أنها كانت قررات طيبة ، فإن الأوضاع لم تتحرك من مكانها ، لأن البيئة الاقتصادية والسياسية والأيديولوجية للدولاب الكابح قاومت تماما إعطاء دور أكبر للسوفيتات ، التي كانت في الأساس الهيئات التي تجسد الديموقراطية والعلانية الواسعتين.

وبإمكاننا أن نرى الآن جيدا أنه نتيجة لانتشار أساليب الإدارة والإشراف لاقتصاد الأوامر، في الوقت الذي سادت فيه المواقف البيروقراطية في كثير من مجالات العمل الحكومي والعام، قل استخدامنا لقدرات السوفيتات على إفادة الشعب. إن الدور المضمحل للسوفيتات أدى إلى نشأة مانرى فيه استبدالا لوظائف ونشاط الحكومة والهيئات الإدارية.

وأدت الاستعاضة عن السوفيتات بهيئات الحزب ، أدت بدورها ، إلى التأثير الشديد على العمل السياسي والحزبي . وعندما وجه المسئولون الحزبيون جهودهم نحو الشئون الاقتصادية والإدارية ، تم تجنيد الكوادر من بين المهنين الأكفاء ، رغم أنهم غالبا ماكانوا مفتقدين للمهارة والتجربة في مسائل القيادة . وباختصار ، ظهر خطأ في عمل الجهاز الديموقراطي الذي يدين بوجوده لثورتنا الاشتراكية .

وهكذا واجهنا فى سعينا المستمر نحو إعادة البناء ، مهمة ضخمة ألا وهى الحاجة إلى إحياء دور السوفيتات بشكل كامل باعتبارها هيئات السلطة السياسية وأساس الديموقراطية الاشتراكية ونحن الآن نجدد بشكل كامل هيبة وسلطات السوفيتات ،

ونخلق الشروط اللازمة لقيامها بعمل خلاق كفء وناضج فى ظل ظروف البيريسترويكا .

لقد دعا اجتماع يناير ١٩٨٧ الكامل لجان الحزب إلى الالتزام بخط دعم دور السوفيتات ، وتجنب التدخل فى شئونها . ومن المهم كذلك أن يعمل رؤساء السوفيتات والعاملون فيها بكل قوة من أجل اجتثاث القصور الذاتى والتغلب على عادتهم بالتطلع إلى شخص ما على الدوام وانتظار الأوامر من أعلى . إن القوانين التى أقرت حديثا حول دور السوفيتات فى مرحلة إعادة البناء تشجع المواقف الديموقراطية من جانب السوفيتات وهيئاتها التنفيذية عندما تعمل . ويجب أن يكون محور نشاطها هو توثيق صلاتها مع الشعب . وتتيح القوانين الجديدة للسوفيتات أن تنظم عملها بطريقة تسمح لها بأن تصبح الهيئات الحقيقية للحكم الشعبي . لقد أنبطت إليها حقوق واسعة لتنسق وتمارس الرقابة على نشاط كافة المؤسسات والمنظات فى مناطقها الخاصة .

وهذه ليست سوى الخطوات المحدودة الأولى فى استعادة الطبيعة الثورية الديموقراطية للسوفيتات. وسيقوم المؤتمر الحزبى القادم لكل الاتحاد (٢٥) بدراسة واتخاذ القرارات المناسبة بشأن إصلاح النظام الانتخابى وعمل السوفيتات، على كافة المستويات: وتجرى الاستعدادات جيدا لطرح المقترحات اللازمة. ومن السابق لأوانه تقييمها، بيد أن أهيتها الكبيرة واضحة _ إنها تهدف إلى تعزيز الديموقراطية الشعبية.

 ⁽۲۰) سيعقد الاجتاع الموسع (الكونفرنس) التاسع عشر للحزب الشيوعى السوفيتى فى عموم الاتحاد .
 فى موسكو ، فى ۲۸ يونيو ۱۹۸۸ ، وفقا لقرار اجتاع يونيو ۱۹۸۷ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى .

المدور الجديد للنقابات

إن ماتضطلع به بلادنا وما تعالجه من مسائل يتضمن إعادة تقييم دور النقابات في الشئون الاجتاعية .

وينبغى أن نقول أولا وقبل كل شيء إن نقاباتنا تمثل قوة هائلة ، فلا يمكن وضع قانون للعمل مالم يصدق عليه المجلس المركزى لنقابات عموم الاتحاد (٢٦٠). وبالنسبة لكافة المسائل المتعلقة بقوانين العمل ، ووضعها موضع التنفيذ ، وحاية حقوق الجاهير العاملة ، فإن للنقابات الكلمة الأخيرة . وإذا ماقام مدير بفصل عامل دون طلب موافقة النقابة تقوم المحكمة أوتوماتيكيا باتخاذ قرار بعدم شرعية هذا الفصل دون أية مداولات ، طالما أن النقابة لم تجر استشارتها . وأخذ رأيها ، ولا يجرى تقديم أي خطة تنمية اقتصادية ، لعام أو لخمسة أعوام ، للسوفيت الأعلى ، مالم توافق عليها النقابات . وعندما تكون الخطط في دور الإعداد ، تشارك النقابات كذلك على مختلف المستويات .

إن التأمين الاجتماعي ، وإدارة المصحات ومنتجعات الاستجام ، والسياحة ، والتربية البدنية والرياضية ، والترفيه واستجام الأطفال ، هي جميعا مسئولية النقابات . وبالتالي فإنها تمتلك سلطة حقيقية . ولكن للأسف ، كان هناك نشاط نقابي أقل في السنوات القليلة الماضية . وفي بعض القضايا ، تخلت النقابات عن حقوقها للمديرين الاقتصاديين ، في الوقت الذي لم تكن تحظى ببعض حقوقها بالفعالية الكاملة .

وهكذا ، فعندما بدأنا إعادة البناء ، رأينا عمل النقابات لايمكن اعتباره مرضيا . وخلال رحلتي إلى منطقة كوبان ، وجهت اللوم إلى قادة النقابات لتسترهم على المديرين ، والذهاب أحيانا إلى حد التصرف وفق هواهم . وسألتهم ألم يحن

⁽٢٦) المجلس المركزى لنقابات العال لكل الاتحاد الجهاز الإدارى لنقابات العال السوفيتية فيما بين انعقاد مؤتمرها .

الوقت لاتخاذ موقف مبدئي ، والدفاع عن مصالح الجاهير العاملة ؟.

والدور الجديد للنقابات فى ظروف البيريسترويكا ينبغى أن يشمل أساسا إعطاء توجه اجتماعى أقوى للقرارات الاقتصادية ، ومعادلة التجاوزات التكنوقراطية التي انتشرت فى الاقتصاد فى السنوات القليلة الأخيرة . ويعنى أن تكون النقابات أكثر نشاطا فى صياغة الأجزاء الاجتماعية من الخطط الاقتصادية . وإذا مالزم ، التقدم بمقترحاتها البديلة والدفاع عنها .

وينبغى على اللجان النقابية أن تكون ذات أنياب ، وألا تكون شريكا طبّعا للإدارة . ولكن يبدو أن المنظات النقابية قد اعتادت على ظروف العمل الرديئة فى بعض المؤسسات ، وعلى تدهور الخدمة الصحية ، وغرف الدواليب الأدنى من المستوى . بيد أن النقابات السوفيتية لها حق الرقابة على استجابة الإدارة لعقود العمل ، والحق فى انتقاد الإدارة ، وحتى الحق فى المطالبة باستبعاد المدير الذى يعجز عن الاستجابة للمصالح المشروعة للجاهير العاملة ، من منصبه .

وسيكون من الخطأ الاعتقاد بأن الجهاهير العاملة لاتحتاج إلى أية حهاية فى ظل الاشتراكية . إذ تنبغى حهايتها حتى بدرجة أكبر ، لأن الاشتراكية نظام للجهاهير العاملة . ومن ثم تكون المسئولية الهائلة للنقابات . إن المجتمع السوفيتى بكامله له مصلحة حيوية فى أن تقوم النقابات بدور أكثر حيوية .

الشباب والبيريسترويكا

يتيح الشباب السوفيتي إمكانية هائلة لجهود إعادة البناء. فالجيل الشاب هو الذي سيعيش ويعمل في المجتمع الذي أعيد تشكيله. ولذلك فمن الطبيعي أن يصبح لعمل الشباب ، ودراسته ووقت فراغه ، الأولوية . ويبحث الشباب عن مكان له في العالم . إنها فترة صعبة في حياة المرء . وهي فترة تقويمية فيما يتعلق بأسرته ومهاراته المهنية وآرائه السياسية والمدنية ، إنه يدخل عالمه كفرد . ولهذا السبب ينبغي

إيلاء أكبر قدر من الاهتمام للشباب والكومسومول (رابطة الشباب الشيوعي).

وقد رتبنا الأمور بحيث لاتعالج أى مشكلة هامة للشباب دون أن يؤخذ رأى الكومسومول فى الاعتبار. وهذا لايعنى أننا نمالئ الكومسومول. كلا ، على الإطلاق. إن علينا أن نعزز مسئوليته بشكل كبير. وليس هناك ما يمكن أن يكون له تأثيره الفعال على تكوين جيل الشباب ، وعلى قدرته على أن يأخذ حاضر البلاد ومستقبلها بين يديه ، مثل الثقة فيه وإشراكه فى العملية السياسية والاقتصادية الحقيقية . إن تدليل الشباب أو زيادة التبسط معهم أو تملقهم لن يؤدى إلى النتائج المرجوة . ينبغى أن تتاح الفرصة للكومسومول والشباب لكى يكشفوا حقا عن المرجوة . وينبغى أن يتحرر الشباب من شبه الوصاية والإشراف ، وينبغى أن نعلمهم بتحميلهم المشؤلية وبالثقة فى مساعيهم الحقيقية .

لقد دعا اجتاع يناير ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي زعماء الحزب إلى إيلاء مزيد من الاهتام بعمل الشباب، وإلى صقلهم الأيديولوجي والمعنوى. إن اللهجة التعليمية والصارمة أمر غير محتمل في العمل مع الشباب، ومهاكانت الأسباب _ كعدم الثقة في نضوج تطلعات الشباب وأعاله، والحذر الأولى الشديد والرغبة في تسهيل الأمور لأبناء المرء منا _ فلا يمكننا أن نوافق على مثل هذا الموقف. وهناك مجالان أساسيان في حياة الشباب وعمله. فأولا، عليهم أن يستوعبوا كل ترسانة الطرق إلى الديموقراطية والاستقلال ويتنفسوا طاقة شبابهم في إشاعة الديموقراطية على كافة المستويات، وأن يكونوا نشطين في المساعي الاجتاعية. فبدون ذلك، يستحيل على الإطلاق أي تشريع وأي تقدم. فعلى كل الاجتاعية. فبدون ذلك، يستحيل على الإطلاق أي تشريع وأي تقدم. فعلى كل شاب أن يشعر بأنه يشارك في كل مايدور في البلاد. وثانيا، ينبغي أن يكون الجيل الشاب مستعدا للمشاركة في التحديث الواسع لاقتصادنا، وفي المقام الأول من خلال تعميم استخدام الحاسبات، وإدخال تكنولوجيات ومواد جديدة. إن التجديد الفكري وإثراء المجتمع هو ما نتوقعه من الشباب.

ويواجه الشباب مشاكل اجتاعية معقدة. وكثير من المسئولين يدعونهم إلى التوجه إلى العمل ، ولنقل مثلا ، في مواقع البناء ، ولكنهم سرعان ماينسونهم عندما يتعلق الأمر بالمسائل الاجتاعية . وليست هذه هي الطريقة التي يجب التصرف بها . إننا نؤيد فكرة قانون للشباب لايكرر الفرضيات العامة المتعلقة بكافة المواطنين السوفيت ولكنه يعالج المشاكل والحقوق والواجبات الخاصة بالشباب . ومثل هذا القانون يجب أن يحدد في عبارات أكثر تحديدا مجالات التفاعل بين الكومسومول وهيئات الدولة ، والنقابات وغيرها من المنظات في حدود مايتعلق الأمر بعمل الشباب ودراساته وحياته اليومية ووقت فراغه . وينبغي أن يعزز القانون مسئولية الوزارات والإدارات الحكومية في حل المشاكل المتعلقة بالشباب .

لقد أثار مؤتمر الكومسومول (۲۷) الذى انعقد عام ١٩٨٧ استجابة عريضة على نطاق البلاد. وكشف عن أن أعضاء الكومسومول يعون مسئوليتهم نحو بلادنا وشعبنا، وأنهم متعطشون للمشاركة بدور إيجابي فى عملية التجديد الاجتاعى. وقد راقنى مناخ العناية الفائقة فى المؤتمر. وربما لم تخالجنى قبل ذلك مثل هذه الرغبة الشديدة فى المشاركة فى المناقشة كما حدث فى المؤتمر. وكانت هناك صلة حية مع الحضور المتحمسين الذين شحنوا كل امرئ بطاقتهم.

وهناك مايدعو إلى الاعتقاد بأن شبابنا يرحب من كل قلبه بالتغييرات الثورية ، التي بدأت في البلاد ، وبأنهم على استعداد لتطويرها بطاقتهم الثورية واخلاصهم المتحمس .

المرأة والأسسرة

يتحتم على بلادنا اليوم إشراك المرأة بنشاط أكثر فعالية فى إدارة الاقتصاد ، وفى التطور الثقافى والحياة العامة . ولهذا الغرض أقيمت مجالس للمرأة فى جميع أنحاء البلاد .

⁽٢٧) عقد المؤتمر العشرون للكومسومول في أبريل ١٩٨٧.

وطرح اجتماع يناير الكامل كذلك مسألة إعداد عدد أكبر من النساء للمناصب الإدارية ، وبخاصة أن ملايين النساء يعملن فى مجالات الصحة ، والتعليم والثقافة ، والعلوم . ويستخدم كثير من النساء ، كذلك فى الصناعات الاستهلاكية والتجارة والخدمات أيضا .

وغالبا ماينظر إلى درجة تحرير المرأة ، كمقياس للحكم على المستوى الاجتاعى والسياسي للمجتمع . لقد وضعت الدولة السوفيتية حدا للتمييز ضد المرأة الذي كان سائدا في روسيا القيصرية بتصميم ودون مساومة . وكسبت المرأة مكانة اجتاعية يضمنها القانون وتتساوى مع مكانة الرجال . ونحن نفخر بما قدمته الحكومة السوفيتية للمرأة : نفس الحق في العمل كالرجل ، والأجر المتساوى للعمل المتساوى والضمان الاجتاعي . وأتيحت للمرأة كل فرصة للحصول على التعليم ، ولبناء مستقبلها ، وللمشاركة في النشاط الاجتاعي والسياسي . وبدون إسهام المرأة وعملها المتفانى ماكان بمقدورنا أن نبني مجتمعا جديدا أو نكسب الحرب ضد الفاشية .

ولكن طوال سنوات تاريخنا البطولى والشاق عجزنا عن أن نولى اهتماما لحقوق المرأة الخاصة ، واحتياجاتها الناشئة عن دورها كأم وربة منزل ووظيفتها التعليمية التى لاغنى عنها بالنسبة للأطفال . إن المرأة إذ تعمل فى مجال البحث العلمى ، وفى مواقع البناء ، وفى الإنتاج والحدمات ، وتشارك فى النشاط الإبداعى ، لم يعد لديها وقت للقيام بواجباتها اليومية فى المنزل – العمل المنزلى ، وتربية الأطفال ، وإقامة جو أسرى طيب . لقد اكتشفنا أن كثيرا من مشاكلنا _ فى سلوك الأطفال والشباب ، وفى معنوياتنا، وثقافتنا وفى الإنتاج _ تعود جزئيا إلى تدهور العلاقات الأسرية ، والموقف المراخى من المسئوليات الأسرية . وهذه نتيجة متناقضة لرغبتنا المخلصة والمبررة سياسيا لمساواة المرأة بالرجل فى كل شيء ، والآن ، فى مجرى والمبررة سياسيا لمساواة المرأة بالرجل فى كل شيء ، والآن ، فى مجرى البيريسترويكا ، بدأنا نتغلب على هذا الوضع . ولهذا السبب فإننا نجرى الآن مناقشات حادة فى الصحافة ، وفى المنظات العامة ، وفى العمل والمنزل ، مخصوص مناقشات حادة فى الصحافة ، وفى المنظات العامة ، وفى العمل والمنزل ، مخصوص مسألة ما يجب أن نفعله لنسهل على المرأة العودة إلى رسالتها النسائية البحتة .

وهناك مشكلة أخرى هى استخدام المرأة فى الوظائف الشاقة الضارة بصحتها . وهذا هو تراث الحرب التى فقدنا فيها أعدادا ضخمة من الرجال ، والتى خلفت لنا نقصا حادا فى اليد العاملة فى كل مكان ، فى كافة مجالات الإنتاج . لقد بدأنا الآن نعالج هذه المشكلة بشكل جاد .

وإحدى المهام الاجتاعية والأكثر إلحاحا بالنسبة لنا وهي مهمة هامة كذلك في الحملة ضد المسكرات _ تتمثل في تحسين صحة الأسرة وتعزز دورها في المجتمع . ونحن نتوقع أن تكون مجالس المرأة نشطة للغاية وأن تأخذ زمام المبادرة . إنها قد شبت لتوها عن المطوق ويمكنها أن تحقق الكثير ، لأنه لاتوجد منظمة أخرى تشارك عن قرب في الحياة الخاصة ومشاكل المرأة كها تفعل هذه المجالس .

إن مواصلة إشاعة الديموقراطية فى المجتمع، وهو مايعتبر محور وضان البيريسترويكا مستحيل دون تعزيز دور المرأة، ودون مشاركتها النشطة والخاصة، ودون التزامها بكل جهودنا الإصلاحية. وأنا على قناعة بأن دور المرأة فى مجتمعنا سينمو باطراد.

اتحاد الأمم الاشتراكية ـ تشكيل فريد

إننا نعيش في بلد متعدد القوميات . وهذا عامل من عوامل قوته أكثر مما هو من عوامل ضعفه أو تفككه . كانت روسيا القيصرية تسمى بسجن الشعوب . وقد قضت الثورة الاشتراكية على القهر القومي وانعدام المساواة . وضمنت التقدم الاقتصادي والفكري والثقافي لكافة الأمم والقوميات . وفيا مضى امتلكت الأم المتخلفة صناعة متقدمة وبنية اجتماعية حديثة . وارتفعت إلى مستوى الثقافة الحديثة رغم أن بعضا منها لم يكن لديه قبل ذلك أبجدية خاصة به . وأى شخص غير متحيز لابد له وأن يعترف بأن حزبنا قد نفذ قدرا هائلا من العمل وقام بتحويل الوضع . مما ترتب عليه إثراء المجتمع السوفيتي والحضارة العالمية بشكل عام .

وقد أسهمت كافة الأمم والقوميات التي تقطن بلادنا في تكوين وتطوير وطننا

الاشتراكي. ودافعت معا عن حريته، واستقلاله، ومكتسباته الاشتراكية ضد غزوات أعدائه. وإذا لم تكن المسألة القومية قد حلت من حيث المبدأ ، ماكانت لدى الاتحاد السوفيتي على الإطلاق القدرة الاجتماعية ، والثقافية ، والاقتصادية ، والدفاعية التي يمتلكها اليوم. وماكان لدولتنا أن تبتى إذا لم تشكل الجمهوريات أسرة تقوم على الأخوّة والتعاون والاحترام والمساعدة المتبادلة.

غيرأن كل هذا لايعنى ، أن العمليات القومية خالية من المشاكل . فالتناقضات تلازم أى تطور . وهى تحدث هنا كذلك . وقد اعتدنا ، للأسف ، أن نؤكد على انجازاتنا الكبيرة حقا فى حل المشكلة القومية ، وقيَّمنا الوضع بعبارات فضفاضة . لكن هاهى ذى الحياة الواقعية بكل تنوعها ومصاعبها .

ويبدو الجدل هكذا: إن نمو المستويات التعليمية والثقافية ، إلى جانب تحديث الاقتصاد ، يؤدى إلى ظهور المثقفين فى كل أمة ، وإلى نمو الوعى الذاتى القومى ونمو اهتمام الأمة الطبيعى بجذورها التاريخية . وهذا أمر راثع . وكان هذا مطمح الثوريين من مختلف القوميات ممن أعدوا لثورتنا ، والذين بدأوا يبنون مجتمعا جديدا على أنقاض الامبراطورية الروسية . ويحدث أحيانا فى العملية أن ينزلق قطاع معين من الناس إلى النزعة القومية ، وتظهر الآراء القومية الضيقة والمنافسة والغرور القومى .

ولكن ليس هذاكل مافى الأمر. فالشيء الأهم يتمثل فى التغيرات التى تحدث فى المجتمع الذى يحل فيه جيل محل جيل ، وينبغى أن يتعلم كل جيل جديد كيف يعيش فى دولة متعددة الأجناس ، الأمر الذى لايحدث بسهولة . فالاشتراكية التى ساعدت كل أمة على أن تنشر أجنحتها ، تملك كافة الظروف لحل المشاكل القومية على أساس المساواة والتعاون . ومن المهم أن نعمل بروح المبادئ الاشتراكية ، متذكرين أن الأجيال الجديدة لاتعرف حتى فى الغالب كيف وصلت أممها إلى مثل مذه المستويات . ولم يخبرهم أحدكيف كانت الأممية تعمل فى صالحهم ، ولكم من السنين .

وعلى عكس خلفية النزاعات القومية ، التي لم تترك حتى أكثر بلدان العالم تقدما يقدم الاتحاد السوفيتي مثالا فريدا حقا في تاريخ الحضارة البشرية. وتلك هي ثمرات السياسة القومية التي وضعها لينين. ولكن كم كان الأمر صعبا في البداية ، وكم كانت شاقة بدرجة لاتصدق تلك الخطوات الأولى في بناء دولة متناسقة متعددة الأجناس. ولعبت الأمة الروسية دورا بارزا في حل المسألة القومية. ومرت كثير من الشعوب بنوع من النهضة أو التنوير في ظل السياسة القومية اللينينية ، وفي فترة قصيرة جدا من الوقت. وعندما يستجيب شخص ما لذلك بغروره القومي ، وينسحب إلى داخل نفسه ، ثم يحاول نقل قيمه الخاصة على أنها قيم مطلقة ، فإن ذلك أمر غير سليم ولا يمكن قبوله. ويغدو ذلك موضع مناقشات حية وشاملة في المجتمع السوفيتي.

وتعتبركل ثقافة قومية ثروة لا يمكن التفريط فيها . بيد أن الاهتام الصحيح بكل ماهو قيّم في كل ثقافة قومية لا يجب أن ينحدر إلى محاولات الانغلاق عن العمليات الموضوعية للتفاعل والتقارب . وإنه لمن الخطير كذلك أن يفتقر موقف ممثلي أحد القوميات إلى احترام ممثلي قومية أخرى . لقد قضيت سنوات عديدة في شهال القوقاز ، وهي منطقة تقطنها مجموعة من القوميات المتعددة ، ولا يقتصر الوضع هناك على أن كل مدينة أو مستوطنة أو قرية جبلية هناك يقطنها أناس من قوميات مختلفة ، بل ينطبق ذلك على المنطقة كلها . ويتضمن تاريخ شهال القوقاز صفحات عديدة كثيبة ، ولكن في سنوات الحكم السوفيتي تغير الوضع جذريا ، وأنا لن عديدة كثيبة ، ولكن في سنوات الحكم السوفيتي تغير الوضع جذريا ، وأنا لن أضفى طابعا مثاليا على الوضع ، ولكن العلاقات بين القوميات التي تقطن هذه المنطقة المتعددة الأجناس تتميز بمواقف الاحترام ، والتعاون ، والتقارب ، والوحدة . وأنا أعرف من خبرتي الشخصية أن سكان المرتفعات شديدو الاستجابة المصداقة ، ولكنهم في نفس الوقت حساسون للغاية لأي مظهر من مظاهر الغطرسة نحوهم . ويمكنني أن أتذكر أن منطقة كراتشايفو - تشيركاسيا ذات الحكم اللذاتي ـ وهي جزء من إقليم ستافروبول ـ يقطنها كراتشايفون ، وشركس ، وروس ،

وأبازنيون ، ونوجيون ، وأوستانيون ، ويونانيون ، وممثلو قوميات أخرى ، وأنهم يعيشون جميعا فى وفاق مع بعضهم البعض . ويعود ذلك إلى المساواة والموقف العادل من حل مشاكلهم من واقع حياتهم . وعندماكان يحدث فى بعض الأحيان انحراف عن هذه المبادئ ، كان الثمن غاليا على الدوام . وداخل هذه المنطقة الصغيرة ذات الحكم الذاتي تجرى المحافظة على ثقافات كل القوميات وتطويرها . إن تقاليدهم محل رعاية ، كا ينشر أدبهم بلغاتهم القومية . وهذا لا يباعد بينهم ، وإنما بالأحرى يقربهم من بعضهم البعض . وليس بكاف أن تعلن المساواة بين الأمم ، فلابد من كفالة معرفة كافة الجاعات العرقية لأسلوب حياة هادفة .

وأود أن أقول مرة أخرى إنه إذا ماظهرت ظواهر سلبية فى هذا المجال الحساس للغاية للعلاقات البشرية ، فإنها لاتظهر من تلقاء نفسها ، وإنما كنتيجة للروتين ، وعدم الاهتمام مجقوق الناس المشروعة . وهناك أحيانا مناقشات حادة حول تطور اللغات العرقية فى هذا البلد . فما الذى يمكن أن يقال فى هذا الموضوع ؟ حتى أصغر الأعراق لايمكن أن ينكر عليها الحق فى لغتها القومية الخاصة . ومع ذلك فهذه هى الثقافة البشرية فى تنوعها اليوم ، بلغاتها ، وزيها ، وطقوسها ، ومظاهرها العديدة . وهذه هى ثروتنا المشتركة . فكيف يمكن تجاهلها ؟ وكيف يسمح المرء بالتقليل من قدرها ؟ .

ولكننا فى نفس الوقت ، فى بلدنا الفسيح المتعدد الأجناس لا يمكننا أن نستغنى عن وسيلة مشتركة للاتصال . وأصبحت اللغة الروسية بالطبع تقوم بإنجاز هذا الدور . وكل فرد يحتاج لهذه اللغة ، وقد حدد التاريخ نفسه أن تتطور العملية الموضوعية للاتصال على أساس لغة أكبر الأمم . وعلى سبيل المثال ، فرغم أن ممثلى العديد من المجموعات العرقية التقوا معا فى الولايات المتحدة ، أصبحت الإنجليزية لغتهم المشتركة . وكان هذا على مايبدو اختياراً طبيعيا . وبإمكان المرء أن يتصور ما الذى كان يحدث إذا ما تحدث أفراد كل أمة انتقلت إلى الولايات المتحدة بلغتهم الذى كان يحدث إذا ما تحدث أفراد كل أمة انتقلت إلى الولايات المتحدة بلغتهم

الخاصة فقط ، ورفضوا تعلم اللغة الإنجليزية ! وينطبق نفس الشيء على هذا البلد ، حيث برهن الشعب الروسي بكل تاريخه أن لديه قدرة هائلة على النزعة الأممية ، وعلى احترام الشعوب الأخرى والنوايا الطيبة نحوها . وأوضحت التجربة أنه لابد من دراسة لغتين (بالإضافة إلى لغة أجنبية) ـ اللغة الأم واللغة الروسية ـ لكي تتصل المجموعات العرقية ببعضها البعض .

إن أية محاولات لتغذية الأحقاد على أسس قومية عرقية ، لا يمكن إلا أن تؤدى إلى التعقيد في البحث عن حلول معقولة , ونحن لسنا بصدد تجنب هذه المشاكل أو غيرها مما قد ينشأ . ولكنا سنتصدى لها جميعا في إطار العملية الديموقراطية عاملين على تعزيز الأممية لدى شعوبنا .

وقد علمنا لينين أن نبدى أقصى حذر وبراعة فى المسألة القومية ، ولايمكن ولايجب أن يكون هناك أية بماذج مقولبة هنا . هناك شيء واحد واضح : عندما تلتق المصالح الأساسية للأم ، وعندما يشكل مبدأ المساواة فى كل شيء عصب العلاقات بين الشعوب _ وهذا على وجه الدقة هو واقع الأمر فى المجتمع السوفيتى _ يمكن عندئذ تسوية أية مشاكل أو سوء تفاهم ينشأ ، حتى فى الأوضاع الصعبة . وهناك بالطبع عدد محدود من الناس فى الغرب ، وفى الشرق كذلك ، يودون أن يقوضوا الصداقة والوحدة بين شعوب الاتحاد السوفيتى . بيد أن هذا أمر مختلف يقوضوا الصداقة والوحدة بين شعوب الاتحاد السوفيتى . بيد أن هذا أمر مختلف بماما ، فهنا يقف القانون السوفيتى يقظا ، يحمى منجزات السياسة القومية اللينينية .

وانطلاقا من هذه المواقف، سنظل ملتزمين بحزم بمبادئنا. ينبغى احترام المشاعر القومية للناس، ولا يمكن تجاهلها. بيد أن المزايدة عليها تعنى انعدام المسئولية السياسية، إذا لم تكن تعنى جريمة. ومن تقاليد حزبنا أن يقاوم أية مظاهر لضيق الأفق القومى والشوفينية، والطائفية، والصهيونية، ومعاداة السامية، في أى شكل يجرى التعبير عنها. وسنبق ملتزمين بهذا التقليد. وتبين كل خبرتنا أن المواقف القومية يمكن مواجهتها بفعالية عن طريق الأممية الثابتة، والتربية الأممية.

وعندما ألتق بالناس خلال جولاتى فى الجمهوريات والمناطق القومية للاتحاد السوفيتى ، أرى بنفسى المرة بعد المرة أنهم يدركون ويفخرون بأن أممهم تنتمى لأسرة دولية كبيرة واحدة ، وأنهم جزء لايتجزأ من دولة عظمى وواسعة تلعب مثل هذا الدور الهام فى تقدم البشرية . وهذا على وجه الدقة ما تعنيه الوطنية السوفيتية . وسوف نواصل دعم الاتحاد والأخوة بين الأمم الحرة فى بلد حر .

النفوذ والثقبة

شملت البيريسترويكا كل مجالات المجتمع . وتتطور عملية البيريسترويكا عن طريق حل المشاكل والتغلب على الصعوبات . ويعمل الحزب كمبادر ومولد للأفكار ، وكقوة منظمة ومرشدة ، بل أقول أيضا كضامن للبيريسترويكا من أجل مصالح تعزيز الاشتراكية ، ومصالح الشعب العامل . لقد أخذ الحزب على عاتقه مسئولية تاريخية حقة . وقد قال لينين في عام ١٩١٧ : «إننا وقد بدأنا الثورة ، علينا أن نمضى إلى نهاية الطريق » . وينطبق نفس الشيء على البيريسترويكا : فسوف يمضى الحزب فيها إلى نهاية الطريق .

وينمو نفوذ الحزب والثقة فيه . ورغم أننا لا نزال في مرحلة الانتقال من حالة نوعية إلى أخرى ، فإن هيئات الحزب تحاول ألا تأخذ على عاتقها واجبات التنظيات الاقتصادية والإدارية . وهذا أمر ليس باليسير أبدا . ويتراءى لنا مثل هذا الطريق الذى خبرناه ـ مارسوا ضغط الحزب والخطة سوف تنجز! بيد أن هدف الحزب عتلف : إنه في المقام الأول ، تحليل العمليات نظريا ، والإحساس بالنقاط الحرجة في تطور التناقضات في الوقت المناسب ، وإدخال التصحيحات في الاستراتيجية والتكتيكات ، ورسم السياسة وتحديد أساليب وأشكال تحقيقها واختيار العاملين وقضعهم في أماكنهم ، وتوفير الظروف التنظيمية والأيديولوجية على السواء للبيريسترويكا . وبمقدور الحزب وحده أن يفعل كل هذا .

إن الإدارة والشئون الاقتصادية هي مهمة الحكومة والمنظات الأخرى المسئولة

عن هذه الأمور. وهذه النظرة لم تنشأ من فراغ ، وإنما دفعت إليها التجربة وبجب على الحزب أن يقوموا بمهامهم. وعندما لا يحدث ذلك يتضح أن قيادة الحزب ونشاطه الأيديولوجي وعمله مع الكوادر غير كاف .

لقد تطور مجتمعنا تاريخيا بطريقة جعلت كل ما يحدث داخل الحزب يجد انعكاسه في حياة بلادنا. والمعارضة الرسمية غير قائمة في بلادنا. وهذا مايلتي مسئولية أكبر على الحزب الشيوعي السوفيتي باعتباره الحزب الحاكم. ولهذا السبب فإننا نعتبر مواصلة تطوير الديموقراطية الداخلية في الحزب، وتدعيم مبدأ القيادة الحجاعية في العمل، ومزيدا من العلانية في الحزب، كذلك، ذات أولوية عليا. وتطلب اللجنة المركزية بأن يكون من ينتخبون للمناصب العليا متواضعين، ومهذبين، وأمناء، وغير متسامحين حيال المداهنة والتملق. ولا يمكن أن يكون في الحزب من هو فوق النقد أو من ليس له حق النقد.

وكان واضحا لنا أن علينا ان نبدأ بتغيير تفكيرنا وعقليتنا ، وتنظيم طراز وأساليب عملنا ، وأن علينا أن نبدأ بالناس ، وفي المحل الأول بالمديرين .

لقد بدأنا بتصميم كبير نسير فى الطريق الهادف إلى دعم الأشخاص الواسعى الحيلة ، الذين يفكرون ، والديناميون والقادرون على تقييم وضع ما بنظرة انتقادية ذاتية ، وعلى التخلص من الشكلية والمواقف الجامدة فى العمل ، ويجدون حلولا جديدة غير جامدة ، الأشخاص الذين يمكنهم ، ويريدون ، أن يتحركوا إلى الأمام بجرأة والذين يعرفون كيف يصلون إلى النجاح . وقد أعطت البيريسترويكا لمثل هؤلاء الناس مكانا كبيرا لنشاطهم الخلاق .

وليست هناك حاجة ، بالطبع ، لتغيير العاملين بشكل كامل . كما أن هذا غير ممكن فى الواقع . ومن الممكن أن تكون هناك ، بالطبع ، بعض التغييرات فى العاملين فى المستويات العليا والوسطى وعلى مستوى مؤسسة واحدة كذلك . إننا فى

حاجة إلى قوى جديدة وهذا ما يحدث بالفعل فى الحقيقة . وإلى جانب ذلك ، هناك أيضا عملية طبيعية تفصح عن نفسها : فبعض الناس وصلوا بالفعل إلى نهاية خدمتهم ، وبعضهم لم يعد ببساطة من القوة بحيث يتحمل عبء مسئولية جديدة . وهذا أمر مفهوم ، فليس هناك مايدعو إلى المبالغة الحادة فيها يتعلق بالوضع .

إن لكل فترة مطالبها الخاصة ، وأناسها المتقدمين ، وطرقها الخاصة لتناول الأمور . والقادرون على إعادة تنظيم أنفسهم ، واتباع طرق جديدة فى العمل السياسي والتنظيمي والأيديولوجي ، سيعملون وسيحظون بمساندة الجهاهير العاملة وتنظيات الحزب . وغالبية كوادرنا مستعدة لذلك ، ولو بطرق مختلفة : فسيقبل بعضهم المطالب الجديدة بسرعة أكبر ، بينها قد يفكر غيرهم أكثر من مرة . ونحن من حيث المبدأ ننطلق من افتراض أن غالبيتهم قادرون على حل مشاكل البيريسترويكا . ومع ذلك فليس بإمكاننا أن نتحمل وضعا يستمر فيه فعل كل شيء بالطريقة القديمة ، بدون تسريع ، أي بدون أن نزيد من سرعتنا .

وتتطلب البيريسترويكا كفاءة ونزعة مهنية عالية ، ولا يمكننا أن نستغنى عن التدريب الحديث والشامل ، دون معرفة دقيقة في مجالات الإنتاج ، والعلم ، والتكنولوجيا ، والإدارة ، والاقتصاد ، وفي تنظيم العمل وحوافز العمل ، وعلم الاجتاع ، وعلم النفس . وباختصار ، يجب أن نحرك أكبر قدر من طاقة البلاد الفكرية ، ونزيد بشكل أساسي من كفاءتها الحلاقة .

وأود أن أؤكد مرة أخرى أهمية نشاط الحزب فى المجال النظرى. فهناك قدر كبير من العمل يجرى فى هذا المجال كذلك ولكننا نسعى فى هذا المجال أيضا إلى ديموقراطية أكبر ولن نسمح باحتكار شخص واحد أو مجموعة من الأشخاص. وتدعو اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى كافة القوى الحلاقة فى الحزب والمجتمع لأن تشارك فى هذا العمل. وإذا ما سمحنا لكل شىء بأن يأتى من

المركز، أو من شخص واحد أو مجموعة من الأشخاص، وهذا أسوأ، فن المحتمل أن ننزلق إلى تفكير متحجر. وسيكون ذلك ضربة قاتلة لبرنامج البيريسترويكا، وبالتالى، لتطور المجتمع. ويعرف تاريخ الحزب الشيوعى السوفيتي بعض الدروس المؤسفة والمريرة في هذا الخصوص. وليس بإمكانك أن تحصر دور علم الاجتماع والقوى الخلاقة في الحزب في التعليق على قرارات أو خطب الأفراد في المناصب العليا. لقد اخترنا موقفا آخر وسوف نتصرف بما يتمشى مع مبادئ لينين، وتقاليد لينين.

رابعا الغرب والبيريسترويكا

إننا نهتم على الدوام بالطريقة التى ينظر بها إلى البيريسترويكا خارج البلاد ، وبخاصة فى الغرب . ولا يعود ذلك إلى مجرد حب الاستطلاع ، وإنما إلى أنه واجبنا كسياسيين . فنحن نرى أن عملية إعادة البناء تثير اهتماما متزايدا ليس فقط لأنها مثار اهتمام فى حد ذاتها ، وإنما لأنها تتعلق بمصير أمة كبيرة . إن إعادة البناء فى بلادنا تعتبر بحق حدثا له آثار دولية كبيرة . وقد كتبت إحدى الصحف فى أوروبا الغربية تقول : «إن ما يحدث فى الاتحاد السوفيتي يهم العالم أجمع » .

وينبغى أن أشير أولا إلى أن الاهتام الحقيق بالبيريسترويكا بين الغالبية الساحقة من الناس فى العالم أجمع يصاحبه تفاؤل ورغبة مخلصة بأن تكلل التغييرات التى بدأت فى الاتحاد السوفيتى بالنجاح. ويتوقع العالم الكثير من البيريسترويكا ويأمل أن تؤثر بشكل إيجابى على مجرى التطورات العالمية والعلاقات الدولية فى مجموعها.

وفيما يتعلق بالدوائر الرسمية وغالبية وسائل الإعلام الجاهيرى فى الغرب، كانت هناك فى البداية قناعة محدودة للغاية بإمكانية الإصلاحات التى أعلناها فى أبريل ١٩٥٥. وكثرت الملاحظات الساخرة: إنه مجرد تغيير فى الفرق، كما يقولون، وهكذا تسرع الفرقة الجديدة إلى طرح مفهوماتها وبرامجها. وزعموا أن الروس شعب عاطنى اعتاد أن يقوم الزعماء الجدد بإلقاء مسئولية النواقص على الزعماء السابقين، بينما يظل كل شىء على حاله. ومع مضى الوقت، كما يقولون، سيذوى النقد وينسون الالتزامات الجديدة.

بيد أن وجهة النظر هذه لم تدم طويلا. وأصبح من الواضح تماما أن إعادة البناء حقيقة تاريخية وأنها تزداد قوة. وبعد اجتاع يناير ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي لم يعد بالإمكان إنكار حقيقة أن هذا البلد قد دخل بالفعل فترة من الإصلاحات الجريئة والبعيدة المدى.

بل إن الحوافز الجديدة أصبحت أكثر وضوحا في التعليقات على اجتاع يونيو المحامل للجنة المركزية . وبدأوا يقولون بأن مدى ونطاق الإصلاحات المقترحة في الإدارة الاقتصادية فاقت تنبؤات معظم المختصين بالدراسات السوفيتية . ونحن نرى أن الكثيرين في الغرب لم يتوقعوا مثل هذه المناقشة الصريحة والعميقة ، ومثل هذه التدابير البناءة الواسعة النطاق . ويبدو أن نعت «منتصف الطريق » الذي استخدم لوصف نشاطنا حتى يونيو ، قد أصبح باليا عند وصف قرارات اجتاع يونيو الكامل ودورة السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتي . لقد ذهبنا بعيدا خارج « داثرة الطباشير » التي حصر فيها الغرب إمكانياتنا ونوايانا ، وحتى قبل بعيدا خارج « داثرة الطباشير » التي حصر فيها الغرب إمكانياتنا ونوايانا ، وحتى قبل الاجتاع الكامل ، كانت هناك ثروة من الأقوال عن أن « حملة جورباتشوف من أجل الإصلاحات » تفقد قوة اندفاعها .

والآن يتحدثون عن « ثورة ثانية » ، وعن الطبيعة التي لا رجعة فيها لإعادة البناء ، وعن قيامنا « بقفزة جديدة » على أساس إصلاحات اقتصادية وقانونية أقرت أخيرا . وبشكل عام ، فإن لديهم الآن الحق فى أن يشعروا بأهمية اجتماع يونيو الكامل لعملية إعادة البناء . وهكذا أصبح من الضرورى حتى بدرجة أكبر تحديد موقف من إعادة البناء . وهم ينتقدوننا على معدل مسيرة إعادة البناء . لأننا في غاية التباطؤ ، فى رأى « اليسار » ، ولأننا نسير بقفزات كبيرة للغاية ، فى رأى « اليسار » ، ولأننا نسير بقفزات كبيرة للغاية ، فى رأى « اليسار » . ولأننا نسير بقفزات كبيرة للغاية ، فى رأى اليمين » . ولكن يبدو أنهم جميعا متفقون على أن القيادة السوفيتية تنفذ الإصلاحات بشكل جاد .

ويريد المراقبون الأجانب الوقوف على نتائج إعادة البناء ، بالنسبة للاتحاد السوفيتى والعالم ، إذا ما استمرت العملية . وهم يريدون أن يعرفوا ما قد يناسب الغرب بشكل أفضل : نجاح البيريسترويكا أو فشلها ؟ .

ومن الواضح ، أن هناك إجابات عديدة على هذه الأسئلة . ويقول كثير من المتخصصين الأكفاء: إن التنمية الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع السوفيتي يمكن

زيادة سرعتها ، وأن النجاح فى الحركة الحالية من أجل إعادة البناء سيكون له آثار دولية إيجابية . وهم يقولون بحق : إن الأسرة العالمية يمكنها أن تستفيد فقط من نمو رفاهية الشعب السوفيتي ومواصلة تقدم الديموقراطية . إن نطاق ومدى البرامج الاجتاعية والاقتصادية التي ينفذها الاتحاد السوفيتي تدل على سياسته الخارجية السلمية وتقدم ضهانات مادية لها . ومن ثم أبعث بهذه الرسالة إلى قادة الدول الغربية ـ لا تخشوا البيريسترويكا ، ولا تجعلوا منها موضوع حرب نفسية ، بل الأحرى طوروها من خلال دولاب العلاقات الاقتصادية والمبادلات الثقافية والإنسانية ، وخذوا بجدية المبادرات السوفيتية لنزع السلاح وتحسين الوضع الدولى ، واسعوا إلى اتفاقات حول هذه المسائل .

وإذا ما تركنا جانبا كثيرا من التقييمات والتقديرات التى نراها قابلة للنقاش ، فإننا بشكل عام نعتبر هذا الموقف موقفا واقعيا ونرحب بتوجهه البناء فى الغالب . إنه يتلاءم مع الحركة الرامية إلى تحسين العلاقات الدولية ، ويعكس المشاعر العامة .

ويبدى بعض السياسيين بعد نظر فى الاعتراف بأن الغرب قد يرتكب خطأ تاريخياً إذا لم يستجب لرسالة موسكو الإيجابية . وإذا لم يتخلص من الآراء الخاطئة عن الاتحاد السوفيتي ومن الأثقال التي خلقها بنفسه .

بيد أن هناك فكرة مختلفة تماما يجرى تطويرها بنشاط فى وسائل الإعلام والمناقشات السياسية فى الغرب فا تزال تبذل محاولات لتشويه سمعة سياستنا ونوايانا وكانت هناك تنبؤات متشائمة ومخاوف بخصوص دينامية السياسة الخارجية واللداخلية ويوضح ذلك مرة أخرى، مدى قوة القصور الذاتى للحرب الباردة، ومدى عمق جذور معاداة السوفيت فى دوائر معينة وإذا ما انتهت الأمور إلى مناقشات مدرسية وإلى تمرين فى الدعاية فمن الممكن للمرء أن يتجاهلها وفى الحقيقة فستبرهن التجربة تماما أين تكمن الحقيقة . بيد أن المسألة هى أن ذلك

يعطى فرصة لتخويف الناس بفكرة أن تؤدى البيريسترويكا كما يزعمون إلى تنامى القدرة العسكرية والاقتصادية للاتحاد السوفيتى. وبالتالى إلى تزايد «الخطر السوفيتى.» وإذا كان الأمر كذلك، فيجب النظر إلى العلاقات مع الاتحاد السوفيتى فى إطار الفشل المحتمل للبيريسترويكا، ويجب أن يكون الهدف العام هو عرقلتها وإحباطها تمشيا مع المبدأ الذى يستخدمه أعداء السوفيت المحمومون: «كلما ساءت الأمور بالنسبة للاتحاد السوفيتى، كلما كان ذلك أفضل بالنسبة للغرب».

ولا تحاول الدوائر اليمينية المتطرفة للغاية إخفاء مواقفها المعادية للبيريسترويكا ، لأنها تبرهن على خطأ الرأى القائل بأنه لا يوجد فى الاشتراكية شىء تقدمه لالعالم الحر». وبالنسبة لهؤلاء الناس ، يعتبر رفض المبدأ الجامد البائى عن « عدم التحرك الاجتماعى » السوفيتي معادلا لكارثة أيديولوجية ، لأنه سيكون عليهم عندئذ أن يراجعوا كلية مبدأ معاداة السوفيت والتوجهات السياسية الناجمة عنه . وسوف تتبدد أسطورة « الخطر السوفيتي » الذى ينشأ كما يزعمون من حقيقة أن الاتحاد السوفيتي ، لعجزه عن التغلب على مصاعبه الداخلية ، يبدأ فى التوسع .

وقد حاولوا حتى تشويه سمعة العلانية وإشاعة الديموقراطية . فمثلا ، يرسلون بأخبار زائفة من الاتحاد السوفيتي ، مستشهدين بالصحافة السوفيتية ، كمصدر رئيسي ولكن سرعان ما يتضح أن لاشيء من هذا القبيل قد نشر في المطبوعات السوفيتية : وهم بفعلهم هذا يهدفون إلى استفزازنا لتقييد العلانية واحتوائها والتخلي عن إشاعة الديموقراطية ، وليجعلونا نثور على وسائل إعلامنا . وهدفهم هو وقف العمليات الكامنة في البيريسترويكا والتي لا يمكن تصورها دون العلانية وإشاعة الديموقراطية .

وقد بذلت جهود متزايدة لبذر الشكوك بين مواطنينا حول صواب البيريسترويكا ، ومحاولات لتخويفهم من الصعوبات وإثارة توقعات غير واقعية . وهـم يأملون في أن ينشروا عدم الثقة في شعبنا نحو القيادة ، وفي إثارة بعض

القادة ضد آخرين ، وتقسيم صفوف الحزب والمجتمع .

ويحاول بعض السياسيين ووسائل الإعلام ، وبخاصة فى الولايات المتحدة ، تصوير البيريسترويكا كحركة من أجل «الانفتاح» مبعثها ضغوط الغرب ، الذين وبالطبع ، لا يسع المرء إلا أن يعترف بقدرات مسئولى الدعاية فى الغرب ، الذين نجحوا للغاية فى مباراتهم الكلامية عن الديموقراطية . ولكننا سنقتنع بالطبيعة الديموقراطية للمجتمعات الغربية عندما يبدأ عالها وموظفوها فى انتخاب أصحاب المصانع ووحدات الإنتاج ورؤساء البنوك الخ . وعندما توجه وسائل الإعلام لديها وابلا من النقد المنتظم ضد الاحتكارات والبنوك ورؤسائها ، وتبدأ فى مناقشة العمليات الحقيقية الكامنة فى بلدان الغرب ، بدلا من أن يقتصر دورها على الانغاس فى مناقشات عديمة الجدوى ولا نهاية لها مع الشخصيات السياسية .

ويقول بعض منتقدى إصلاحاتنا إن وجود ظواهر مؤلمة فى مجرى البيريسترويكا أمر محتوم . وهم يتنبأون بحدوث التضخم ، والبطالة ، وتزايد التمايز الاجتاعى ، أى ، العلل ، التى تزخر بها المجتمعات الغربية ، أو يقولون بأن اللجنة المركزية تجد معارضة قوية بين مسئولى الحزب والحكومة ، أو يقولون بأن جيشنا ضد إعادة المبناء ، وإن الدك . ج . ب (٢٨) لم يقل كلمته بعد . إنهم على استعداد لادعاء أى شيء للتوصل إلى أهدافهم .

ولكن يجب أن أقول لمعارضينا بعض أشياء تثبط هممهم : إن أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية متفقون جميعا اليوم في الرأى أكثر من أى وقت مضى ، وليس هناك ما يجعل هذا الاجماع يهتز. وسواء في الجيش ، أو في لجنة أمن الدولة ، أو في أية إدارة حكومية أخرى ، فإن الحزب يمارس أعلى سلطة ولديه صوت حاسم سياسيا . وقد تعزز الاندفاع نحو البيريسترويكا فقط من موقع الحزب ، فأضاف بعداً جديداً لدوره المعنوى والسياسي في المجتمع والدولة .

⁽٢٨) ك . ج . ب ــ بجنة أمن الدولة التابعة لحكومة الاتحاد السوفيتي .

ومع ذلك ، فسأقول ، إحقاقا للحق ، إن كفاءة المراقبين الغربيين ترى بشكل صائب الطبيعة الاشتراكية لتحولاتنا ، وأنها تهدف إلى دعم الاشتراكية . ولكن أولئك الذين يحاولون أن يخيفوا الرأى العام فى الغرب من البيريسترويكا إنما يخشون فعلا من نجاحها ، وإن يكن فقط لأن هذا النجاح يحبط فرص استخدام «الخطر السوفيتي ، كمصدر للذعر ، وتعتيم الصورة الحقيقية لبلادنا «بصورة العدو» الغريبة والقبيحة ، ويحبط كذلك مواصلة سباق التسلح العديم المعنى تحت شعارات دياجوجية وتكوين ثروات منه .

وإذا ما تحققت خططنا التنموية بنجاح حقا ، فكيف سيمكنهم خداع الناس بإخبارهم أن الاشتراكية ليست نظاما مفع ابالحيوية وقادرا على أن يعطى لمواطنيه الغذاء والملبس ؟ إن الفكرة القائلة بأن بلادنا «امبراطورية الشر» وبأن ثورة أكتوبر خطأ تاريخي فاضح ، وبأن فترة ما بعد الثورة خط متعرج في التاريخ ، تتناثر الآن أشلاء . وهذا النوع من البيريسترويكا لا يلائم بالفعل بعض الناس .

وقد كتبت المجلة الألمانية الغربية «شتيرن»، إنهم يحاولون اليوم بشكل متهور الإفتراء على الاصلاحات الحالية في الاتحاد السوفيتي وتلطيخ سمعتها. وهم إذ يقولون ذلك فإنهم في الواقع إنما يدعمون فقط النظام السوفيتي. إن الكرملين يريد شيئا واحداً _أن يجعل النظام أكثر كفاءة ، ولكن ، يا إلهي ، إذا ماكانت الحركة ضد الفساد وسوء الإدارة ، وإذا ماكان المزيد من حرية الفكر يدعان النظام الشيوعي ، فإنه طبقا لهذا المنطق عندئذ ، ستكون الديموقواطية هي الوسط الغذائي الأفضل للماركسية «اللينينية»! وأود أن أضيف بضع كلمات لهذا الاقتباس البليغ . إذا ماكانت الاشتراكية في الحقيقة لا تتفق كلية مع الديموقراطية والكفاءة الاقتصادية ، كما يقول معارضوها ، فلن يكون لديهم ما يقلقهم على المستقبل وعلى أرباحهم .

وإذا ما انتقدنا أنفسنا بطريقه لم ينتقدنا بها أحد على الإطلاق ، فى الغرب أو

الشرق أو فى أى مكان آخر، فذلك يرجع إلى أننا أقوياء ولانخشى على مستقبلنا. وسوف نصمد فى مواجهة هذه الانتقادات، وسيصمد الحزب والشعب. ولكن عندما تعطى إصلاحاتنا النتائج المتوقعة، فإن نقاد الاشتراكية عليهم أن يجتازوا كذلك مرحلة «بيريسترويكا».

لقد وضعناهم فى مأزق ، لأننا نعرف نواقصنا أفضل كثيرا ونكتب ونتحلث عنها بإخلاص وكفاءة أكثر منهم . وهكذا سيكف الناس فى الغرب بالتدريج عن تصديق كل الهراء الذى يقال لهم عن الاتحاد السوفيتى . وكل هذا يجعل من الصعب تطوير الثقة فى سياسة البلدان الغربية .

فى مناقشاتى مع الأمريكيين ومع أناس من بلدان الغرب الأخرى ، كنت أتساءل بشكل قاطع على الدوام إذا ماكانوا يريدون أن يكون لدى الاتحاد السوفيتى الفرصة لتوجيه مزيد من الموارد لتنميته الاقتصادية والاجتاعية عن طريق تخفيضات فى إنفاقه العسكرى . أو هل يريد الغرب ، فى مقابل ذلك ، أن يجهد الاتحاد السوفيتى اقتصاديا بتسريع سباق التسلح لكى يحبط العمل الهائل الذى بدأناه ويجبر القيادة السوفيتية على تخصيص موارد أكثر فأكثر للأغراض غير المنتجة ، للتسلح ؟ القيادة السوفيتي على التركيز كلية على وهل تنتهى الفكرة كلها حقا إلى إجبار الاتحاد السوفيتي على التركيز كلية على المشاكل الداخلية ، وبذلك يسمح للغرب بالسيطرة على بقية العالم ؟ .

ولكن هناك جانبا آخر لهذه المسألة . فالذين يأملون فى إجهاد الاتحاد السوفيتى يبدون فى غاية التجاسر بالنسبة لرفاهيتهم الاقتصادية الخاصة . ومهاكانت الولايات المتحدة غنية فبإمكانها أيضا أن تسىء التصرف بإنفاقها ثلث تريليون دولار فى العام على التسلح . إن الزيادة فى الإنفاق على الأسلحة يطلق العنان لزيادات فى عجز الميزانية . والولايات المتحدة اليوم تقترض ثلثى ما تنفقه على التسلح . والدين الاتحادى للولايات المتحدة ، هو فى الحقيقة دين البنتاجون ، ولابد أن تقوم بتسديده أجيال عديدة من الأمريكيين . ولابد من وضع نهاية لهذا الخيط فى مكان

ما . ولكن على أية حال ، إنه أمر يخص الأمريكمين وحدهم .

أحيانا يتكون لدى انطباع بأن بعض السياسيين الأمريكيين بينا يمتدحون نظامهم الرأسمالى ، وديموقراطيتهم ، فإنهم ليسوا متأكدين رغم ذلك من أيها ، ويخشون المنافسة مع الاتحاد السوفيتى فى ظروف السلام . ويرغمهم هذا على الإصرار على الاحتفاظ بآلة الحرب ، وتغذية التوترات ، الخ . وأشعر أن بعض المراقبين ميكتبون ، عند قراءة هذه السطور ، أن جورياتشوف ، للأسف ، ليست لديه معرفة طيبة بالديموقراطية الغربية . واأسفاه ، إننى أعرف شيئا أو شيئين ، ولكن ذلك يكفى بأية حال لكى تكون لدى ثقة قوية فى الديموقراطية الاشتراكية والنزعة الإنسانية الاشتراكية .

وسوف نحل المسائل التي نناقشها بأمانة ، وسنصل إلى الأهداف التي رسمناها . إن نزعة شعبنا يجب أن تؤخذ كذلك في الاعتبار . فإذا كان قد اشتعل حاسة ، إن جاز التعبير ، وألتي بثقل مشاعره الوطنية في المعركة ، فإنه عندئذ لن يدخر وسعا في إنجاز أهدافه ، وسيفعل المعجزات من أجل ذلك . والاتحاد السوفيتي بلد واسع غني بمعادنه وقواه العاملة الماهرة وموارده العلمية الضخمة وكل العال تقريبا لديهم تعليم ثانوى كامل . ولهذا لا تتعجلوا بأن تلقوا بنا إلى «كومة نفايات التاريخ » ، وفقط تدفع هذه الفكرة الشعب السوفيتي إلى الابتسام .

فى محادثاتى مع وفد من مجلس النواب الأمريكى فى أبريل الماضى ، قلت إن تنفيذ خططنا للتجديد لا يشكل خطرا _ سواء سياسيا أو اقتصاديا ، أو أى خطر آخر ـ على الشعب الأمريكى ، أو على أى بلد . وقلت نفس الشيء فى الكرملين فى خطابى إلى المشاركين فى منتدى « من أجل عالم خال من الأسلحة النووية وبقاء البشرية » : نحن نود أن يفهمنا غيرنا ، ونأمل بأن تعترف الأسرة العالمية بأنه هناك من هو بحاجة لأن يكون خاسرا وسيكسب العالم كله من رغبتنا فى جعل بلادنا أفضل .

وهكذا ، فلا الاتحاد السوفيتى ، ولا البيريسترويكا يشكلان أى خطر على أى أحد، إلا أن يكون عملنا مثالا لكل من يجده مقبولا . ونحن نتهم المرة بعد المرة ، بأننا نريد أن نغرس الشيوعية فى جمع أنحاء العالم . ياله من هراء . إن الأمر لم يكن ليهمنا لو صدرت هذه الاتهامات عن أناس لا تساورهم الشكوك كثيرا فيا يكتبون من أجل كسب معاشهم . ولكن نفس الاتهامات يرددها ، حتى يومنا هذا ، وعلنا رجال دولة مسئولون كما يبدو . وقد عجبت كثيرا أن أسمعها بعد عامين من بدء البيريسترويكا من سياسى تعودت احترامه . واستفسرت منه ، لماذا ؟ إننا نعرف مبادئ ترومان ، وأيزنهاور ، وريجان . ولكن أحدا لم يسمع عن أية بيانات من جانبنا عن الخرس ، الهيمنة « الشيوعية » . وقد قال لينين إننا نحن الدولة الاشتراكية سنؤثر على التطورات العالمية أساسا من خلال منجزاتنا الاقتصادية .

وسيبين نجاح البيريسترويكا أن الاشتراكية ليست قادرة فحسب على الاضطلاع بالمهمة التاريخية ، مهمة التوصل إلى قم التقدم العلمى والتكنولوجى ، وإنما في استطاعتها أيضا أن تتناولها بأقصى قدر من الكفاءة الاجتاعية والمعنوية ، عن طريق أساليب الديموقراطية ، من أجل الشعب وبفضل جهوده ، وذكائه ، ومهاراته ، ومواهبه ، ووعيه وإدراكه لمستوليته تجاه الشعوب الأخرى .

وسيكشف نجاح البيريسترويكا تماما عن ضيق الأفق الطبق وأنانية القوى التي تحكم الغرب في هذه الأيام ، القوى التي تتمسك بالنزعة العسكرية وبسباق التسلح ، والتي تبحث عن «أعداء» في جميع أنحاء العالم.

وسوف يساعد نجاح البيريسترويكا البلدان النامية على أن تجد طرقا للتوصل إلى التحديث الاقتصادى والاجتماعى دون حاجة إلى تقديم تنازلات للاستعار الجديد أو أن تلتى بنفسها فى مرجل الرأسمالية .

وسيكون نجاح البيريسترويكا آخر حجة فى النزاع التاريخي حول أى نظام هو أكثر اتساقا مع مصالح الشعب . إن التخلص من السمات التي ظهرت فى الظروف

الصعبة ، سيكسب صورة الاتحاد السوفيتي جاذبية جديدة ، وسيكون التجسيد الحي للمزايا الكامنة في النظام الاشتراكي . وستكسب مثل الاشتراكية العليا قوة دافعة .

لقد تحققت فى أكثر من مناسبة من أن من يتحدثون معى من الغربيين يفهمون ذلك تماما . لقد قال لى سياسى غربى ، ليس شيوعيا بأية حال : «إذا فعلتم ما تعتقدونه ، فسيكون لذلك نتائج خيالية ، نتائج عالمية حقا » .

وربما لا يكون من السهل على قارئ أجنبى أن يدرك كثيرا من صعوباتنا. وهذا أمر طبيعى : فكل شعب وكل بلد له حياته الخاصة ، وقوانينه الخاصة ، وآماله ومفهوماته الخاطئة الخاصة ، ومثله العليا الخاصة . ومثل هذا التنوع رائع . إنه يحتاج إلى تطويره بدلا من كبحه . وأنا من جانبى أشمئز من محاولات بعض السياسيين تعليم الآخرين كيف يعيشون وأية سياسة يتبعون . إنهم ينطلقون من الافتراض المتعجرف بأن الحياة والسياسة فى بلدهم إنما هى مثال ونموذج للحرية ، والديموقراطية ، والنشاط الاقتصادى ، والمستوى الاجتماعى . وأعتقد أنه سيكون من الأكثر ديموقراطية بكثير أن يفترضوا أن البلدان الأخرى يمكنها ألا توافق على وجهة النظر هذه . فني عالمنا المعقد والمضطرب من المستحيل أن يقاس كل شىء بمقياس المرء الخاص . إن محاولات فرض الآراء من موقع القوة ، وكذلك محاولات خطيرة ، فهى تثير الرأى العام ، وبالتالى تعوق التقدم ذلك ، فإن هذه المحاولات خطيرة ، فهى تثير الرأى العام ، وبالتالى تعوق التقدم نحو السلام والتعاون .

والفهم الصحيح للبيريسترويكا هو أيضا مفتاح لفهم السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي . والحقيقة المنبثقة من البيريسترويكا تتفق ومصالح السلام العالمي والأمن الدولى . وإننا إذ نطالب الغرب بإخضاع عملنا لدراسة مسئولة وأمينة وغير متحيزة لا ننطلق من مصالحنا الخاصة وحدها . إن العجز عن إدراك جوهر البيريسترويكا

وعدم الرغبة فى ذلك يكونان إما نقطة بداية لمفهومات خاطئة عن نوايانا فى المعترك العالمي ، وإما أنه محاولة أخرى للإبقاء على عدم الثقة وتعميقها فى العلاقات بين البلدان والشعوب .

والصلة العضوية بين كل من السياسة الخارجية والداخلية لكل دولة وثيقة للغاية ، وذات معنى على وجه الخصوص فى اللحظات الحاسمة . وأى تغير فى السياسة الداخلية يقود بالضرورة إلى تغييرات فى الموقف من المسائل الدولية . ولهذا السبب ، يصبح اتساق نشاطنا الآن فى ظروف البيريسترويكا ، فى الداخل وفى المعترك الدولى أكثر وضوحا ، وملموسا بدرجة أكبر من أى وقت مضى . والمفهوم الجديد للسياسة الخارجية السوفيتية ، وخطوطها التوجيهية ونشاطاتها العملية هى جميعا امتداد عاجل لفلسفة وبرنامج وممارسة إعادة البناء .

إن عملية البيريسترويكا فى الاتحاد السوفيتى تتبح فرصا جديدة للتعاون الدولى . ويتنبأ المراقبون غير المتحيزين بنمو نصيب الاتحاد السوفيتى فى الاقتصاد العالمي وزيادة الحيوية فى الصلات الخارجية الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية ، بما فى ذلك الصلات التي يحرص عليها من خلال المنظات الاقتصادية الدولية .

ونحن نقول للجميع بصراحة ليسمعوا: إننا نحتاج إلى سلم وطيد كى نركز على تنمية مجتمعنا ولكى نضطلع بمهام تحسين حياة الشعب السوفيتى. ورسمنا خططا طويلة المدى وجوهرية. ولهذا السبب ينبغى أن يدرك كل امرئ، بما فى ذلك شركاؤنا ومنافسونا فى الغرب، أن سياستنا الدولية لبناء عالم خال من الأسلحة النووية ومن العنف، والتى تؤكد المعايير الحضارية فى العلاقات بين الدول، جوهرية وجديرة بالثقة على حد سواء مع المبادئ التى تقوم عليها.

الباب الشانى النفكيرالجديد والعالم



الفصل الشالث كيف نرى عالم السيوم ؟

أين نقف

لقد بدأنا البيريسترويكا فى وضع يتزايد فيه التوتر الدولى. وكان انفراج السبعينيات قد أوقف فى الواقع. ولم تجد نداءاتنا من أجل السلام أية استجابة فى الدوائر الحاكمة للغرب. وكانت السياسة الخارجية السوفيتية تكبح. وكان سباق التسلح يستعر من جديد. وكان خطر الحرب يتزايد.

وعند التأكيد على كيفية التوصل إلى تحول نحو الأفضل ، كان على المرء أن يسأل الأسئلة التالية . لماذا يحدث ذلك ؟ من أى مفترق يقترب العالم فى تطوره ؟ ولكى نجيب على ذلك كان علينا أن نلتى بنظرة واقعية وحصيفة على صورة العالم على اتساعه ، وأن نتحرر من قوة العادة فى تفكيرنا . وكما نقول فى روسيا ، ننظر إلى الأمور « بنظرة جديدة » .

ماذا يشبه هذا العالم الذى نعيش فيه جميعا ، عالم الأجيال الحالية من البشرية ؟ إنه متنوع ، ومتباين ودينامى ومشرب باتجاهات متعارضة وتناقضات حادة . إنه عالم تحولات اجتماعية جوهرية ، وثورة علمية وتكنولوجية شاملة ، ومشاكل عالمية تتدهور – مشاكل تتعلق بالبيئة ، وبالموارد الطبيعية الخ – وتغيرات جذرية فى تكنولوجيا المعلومات . إنه عالم توجد فيه إمكانيات لم يسمع من قبل عنها للتطور والتقدم جنبا إلى جنب مع الفقر المدقع ، والتخلف ، ومعالم العصور الوسطى . إنه عالم حافل بـ « مجالات توتر » ضخمة .

كل شيء كان أكثر بساطة بدرجة كبيرة منذ عدة سنوات خلت. فقد كان هناك دول عديدة تحدد مصالحها وتوازنها إذا استطاعت ذلك ، وتلجأ إلى الحرب إذا مافشلت. وبنيت العلاقات الدولية على أساس توازن مصالح هذه الدول

العديدة . هذا مجال لواحدة ، وذاك لأخرى ، وما يزال هناك مجال لثالثة . ولكن لنلق نظرة على ماحدث طوال الأربعين عاما التي تلت الحرب العالمية الثانية حتى وقتنا الحاضر.

تشمل الخريطة السياسية للعالم اليوم المجموعة الضخمة للبلدان الاشتراكية التي قطعت طريقا طويلا في تطورها التقدمي عبر تاريخ ليس بطويل ، والامتداد الواسع للدول الرأسمالية المتطورة بمصالحها الخاصة ، وبتاريخها الخاص ، ومشاغلها ومشاكلها ، والمحيط المترامي من بلدان العالم الثالث الذي ظهر في الثلاثين أو الأربعين عاما الماضية عندما حصلت عشرات من بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية على استقلالها .

ويبدو من الواضح أن كل مجموعة من الدول وكل بلد له مصالحه الخاصة . ومن وجهة نظر المنطق الأولى ، ينبغى أن تجد كل هذه المصالح انعكاسا معقولا في السياسة العالمية . بيد أن الأمر ليس كذلك . لقد قلت أكثر من مره لمن تحدثوا معى من البلدان الرأسمالية : ينبغى أن نرى الوقائع ونأخذها في اعتبارنا _ فهناك عالم الرأسمالية وعالم الاشتراكية ، كما أن هناك عالما ضمخ للبلدان النامية . والأخير هو موطن لملايين الناس . ولكافة البلدان مشاكلها . ولكن البلدان النامية لديها مشاكل أكثر مائة مرة من الدول الأخرى ، وينبغى أخذ ذلك في الاعتبار . ولهذه البلدان مصالحها الوطنية الخاصة . لقد كانت مستعمرات لعقود كثيرة ، وكافحت بعناد من أجل تحررها . وبعد أن كسبت استقلالها ، تريد أن تحسن حياة شعوبها ، وتستخدم مواردها كما تريد ، وتبنى اقتصادا وثقافة مستقلين .

فهل هناك أمل فى بناء علاقات دولية طبيعية وعادلة ، تنطلق كلية ، من مصالح الاتحاد السوفيتى ، مثلا ، أو الولايات المتحدة أو بريطانيا أو اليابان ؟ كلا ! إن هناك حاجة إلى توازن المصالح . وفى وقتنا الحاضر لايوجد مثل هذا التوازن . لأن الأغنياء الآن يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقراً . ومع ذلك ،

فالعمليات التي يمكن أن تهز نظام العلاقات الدولية بأسره تختمر في العالم الثالث.

ليس بإمكان أحد أن يوقف عالم الاشتراكية أو العالم النامى أو عالم الرأسمالية المتطورة . ولكن هناك رأيا يقول . بأن الاشتراكية حدث عارض فى التاريخ ، وأن الوقت لن يطول قبل أن يلتى بها فى كومة النفايات . عندئذ يمكن ترويض العالم الثالث وتعود كافة الأمور إلى مجراها الطبيعى ، ويكون الرخاء ممكنا من جديد على حساب الآخرين . إن الهروب إلى الماضى ليس إجابة على تحديات المستقبل ، لكونه مجرد مغامرة ترتكز على الخوف وعدم الثقة بالنفس .

ونحن لم نشهد من جديد فقط واقع العالم المتعدد الألوان والمتعدد الأبعاد . ولم نقيم فقط اختلاف المصالح بين الدول منفردة . لقد رأينا القضية الرئيسية ــ الاتجاه المتعاظم نحو الاعتاد المتبادل بين دول المجتمع العالمي . وهذه هي جدليات التطور اليوم . فالعالم ــ المتناقض ، والمتنوع اجتماعيا وسياسيا ، ولكنه مع ذلك مترابط ومتكامل لدرجة كبيرة ــ يتشكل بصعوبات كبيرة ، كما لوكان يتحسس طريقه من خلال الصراع بين الأضداد .

وهناك حقيقة أخرى في عصرنا لاتقل وضوحا هي ظهور وتفاقم مايسمي بالقضايا العالمية التي غدت كذلك حيوية بالنسبة لمصائر الحضارة. وأعنى بذلك قضايا المحافظة على الطبيعة ، والوضع الحرج للبيئة ، وتلوث الجو والمحيطات ، وموارد كوكبنا التقليدية ، التي اتضح أنها ليست بلا حدود . وأعنى الأمراض القديمة والجديدة البغيضة ومشاغل البشرية العامة : كيف نضع حداً للمجاعة والفقر في مناطق واسعة من الأرض ؟ وأعنى العمل الذكي المشترك في استكشاف الفضاء الخارجي والمحيط العالمي واستخدام المعرفة التي نحصل عليها لصالح البشرية .

ويمكنني أن أقول الكثير عما نقوم به على المستوى القومي فى بلادنا للمساعدة على حل هذه المشاكل . وقد لمستها إلى حد ما عندما ناقشت البيريسترويكا .

وسوف نبذل في هذا المجال كل مايتعلق بنا .

بيد أنه ليس في مقدور الاتحاد السوفيتي وحده أن يحل كل هذه القضايا . ونحن لانخجل من تكرار ذلك ، وندعو إلى التعاون الدولى . ونقول بكامل المسئولية ، مستبعدين الاعتبارات الزائفة « للمكانة » ، فكلنا في عالم اليوم نزداد اعتمادا على بعضنا البعض ونصبح بشكل متزايد ضروريين لبعضنا البعض . ولما كانت هذه الوقائع موجودة في العالم ، ولما كنا نعرف أننا في هذا العالم ، بشكل عام ، نرتبط الآن بنفس المصير ، لأننا نعيش على نفس الكوكب ، ونستخدم نفس الموارد ، ونرى أنها ليست بلا حدود ويلزم إنقاذها ، وإن الطبيعة والبيئة تعتاجان إلى الحفاظ عليها ، فإن هذا الواقع يهمنا جميعا . وهكذا تصبح الضرورة ملحة بدرجة أكبر لاتخاذ اجراءات دولية فعالة وعادلة وميكانيزمات يكن أن تضمن الاستخدام الأرشد لموارد كوكبنا باعتبارها ملكا لكل البشرية .

وفى ذلك نرى الاعتماد المتبادل بيننا ، وتكامل العالم ، والحاجة الملحة لتعبئة جهود البشرية من أجل المحافظة على نفسها ، ومن أجل مصلحتها اليوم ، وغدا وفى كافة الأوقات .

وأخيرا وليس آخرا ، هناك حقيقة أخرى ينبغى أن نعترف بها . فالبشرية بعد أن دخلت العصر النووى حيث تستخدم طاقة الذرة للأغراض العسكرية ، قد فقلت أبديتها . وفي الماضي ، كانت هناك حروب ، وحروب مخيفة قضت على أرواح ملايين وملايين من النفوس البشرية ، وحولت المدن والقرى إلى خرائب ورماد ودمرت بلدانا وثقافات بأكملها ، بيد أن استمرار البشرية لم يتهدد . وعلى النقيض الآن ، إذا ما اندلعت حرب نووية ، فسوف يمحى كل شيء حى من على وجه الأرض .

بل إن ماهو مستحيل منطقيا ، وهو أن البشرية يمكن إفناؤها عده مرات ، قد أصبح الآن ممكنا تقنيا . لقد أصبحت الترسانات النووية القائمة من الضخامة

بحيث يوجد لكل فرد من سكان الأرض شحنة قادرة على حرق منطقة هائلة حتى تحيلها رماداً. واليوم ، باستطاعة مجرد غواصة استراتيجية واحدة أن تحمل طاقة تدميرية تعادل عدة حروب مثل الحرب العالمية الثانية. وثمة عشرات من مثل هذه الغواصات.

إن سباق التسلح ، شأنه شأن الحرب النووية ، لا يمكن كسبه . إن مواصلة مثل هذا السباق على الأرض ، ومده إلى الفضاء ، سيعجلان من تراكم الأسلحة النووية وتحديثها ، الأمر الذى يحدث فعلا بمعدل محموم . ويمكن أن يصل الوضع العالمي إلى نقطة لا يعود فيها الأمر يعتمد على السياسيين وإنما يصبح أسير الصدفة . وكل منا يواجه الحاجة لأن يتعلم كيف يعيش في سلام في هذا العالم ، الحاجة لأن يصوغ طريقة جديدة للتفكير ، لأن الظروف اليوم تختلف تماما عاكانت عليه حتى منذ ثلاثة أو أربعة عقود مضت .

وأصبح الوقت ملائما للتخلى عن تلك الآراء فى السياسة الخارجية التى تتأثر بوجهة النظر الامبريالية . وليس فى استطاعة كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة أن يفرض إرادته على الآخرين . وقد يكون ممكنا اتخاذ اجراءات للقمع ، أو الرشوة ، أو التحطيم ، أو التفجير ، ولكن ذلك لفترة معينة فقط . ومن وجهة نظر السياسة الطويلة الأمد ، سياسة الأوقات الحاسمة ، فلن يكون فى مقدور أحد أن يخضع الآخرين . ولهذا السبب يبتى شيء واحد ، وهو علاقات المساواة ، وينبغى أن يدرك كل منا ذلك . وإلى جانب الحقائق السالفة الذكر للأسلحة النووية ، والبيئة ، والثورة العلمية والتكنولوجية ، وعلم المعلومات ، فإن ذلك يفرض علينا أن نحترم بعضنا بعضا ، بل وكل كائن حى .

هذا هو عالمنا المعقد وإن لم يكن بغير أمل. ونحن نؤمن بالرأى القائل بأنه يمكن حل كل شيء ولكن يجب على كل منا أن يعيد التفكير فى دوره فى هذا العالم ويتصرف على نحو يتسم بالمسئولية.

التفكير السياسي الجديد

خلال العامين والنصف التي انقضت منذ أبريل ١٩٨٥ ، اجتزنا طريقا طويلا في فهم الوضع العالمي وطرق تغييره إلى الأفضل. وسوف أكتب أيضا عن التحركات العملية التي قمنا بها بهدف تحسين المناخ العالمي جذريا. ولكن لنتناول الآن النقطة الأهم.

بعد أن تبنينا في المؤتمر السابع والعشرين مفهوم العالم المتناقض ولكنه مترابط ومعتمد على بعضه ، ومتكامل في جوهره ، بدأنا نبني سياستنا الخارجية على هذا الأساس . وتأكيدا ، ستبقى الخلافات قائمة مع الآخرين فيا يتعلق بنظامنا الاجهاعي وآرائنا الأيديولوجية ، والدينية ، وطريقة حياتنا . ولكن هل يجب أن نتبارز بسبها ؟ ألن يكون من الأسلم أن نتخطى الأشياء التي تفصل بيننا من أجل المصالح البشرية ، من أجل الحياة على الأرض ؟ لقد حسمنا خيارنا ، مؤكدين نظرة سياسية جديدة سواء عن طريق البيانات الملزمة أو الأعمال والأفعال المعينة .

لقد تعب الناس من التوتر والمواجهة. وهم يفضلون البحث عن عالم أكثر أمنا وضمانا ، عالم يحتفظ فيه كل فرد بآرائه الفلسفية والسياسية والأيديولوجية وبطريقته في الحياة.

إننا ننظر إلى ما يحدث بعيون مفتوحة . ونرى أن القوالب الجامدة تستمر وأن وجهة النظر القديمة قد ضربت بجذورها عميقا ، لتغذى النزعة العسكرية والطموحات الإمبريالية التى ـ وفق منطقها ـ تعتبر البلدان الأخرى أهدافا لأنشطتها السياسية وغيرها ، وتحرم من حق الخيار المستقل والسياسة الخارجية المستقلة .

ونحن لانقترح تقديم أية أساليب ممعنة فى تطرفها وجذريتها لحل المشاكل الإقليمية المختلفة ، رغم أن مثل هذه الأساليب ضرورية أيضا فى بعض الحالات . ونحن لانريد معالجة الشئون الدولية بطريقة تؤدى إلى تصعيد المواجهة . وفى الوقت الذي لانقر فيه طابع العلاقات الحالية بين الغرب والبلدان النامية ، فإننا لانحث

على تقويضها . ونحن على قناعة بأن هذه العلاقات يجب تحويلها بتخليصها من الاستعار الجديد ، الذى يختلف عن الاستعار القديم فقط فى أن دولاب استغلاله أكثر تعقيدا . وهناك حاجة إلى ظروف يمكن فيها للبلدان النامية أن تكون سيدة مواردها الطبيعية والبشرية ، وأن تستخدمها من أجل مصلحة الآخرين .

ينبغى أن يستند تطبيع العلاقات الدولية في المجالات الاقتصادية ، والإعلامية ، والبيئية ، على التدويل الواسع . والغرب يفضل ، بكل الدلائل ، أن يحتفظ بالأمور في داخل الأسرة ، أى في إطار «الدول السبع»، أو «الدول الخمس» ، أو ماشابه ذلك . وربما يفسر ذلك محاولات تشويه سمعة الأمم المتحدة . فهم يزعمون مثلا أن الأمم المتحدة تفقد معناها وأنها تتفكك تقريبا . ويقال هذا اليوم ، حيث تحدث تغييرات كثيرة للغاية في عالم مشبع بمصالح مختلفة لدول عديدة وحيث يعتبر العثور على توازن لهذه المصالح مسألة لها الأولوية . وفي هذه المطوف ، يكون دور الأمم المتحدة بخبرتها في تنظيم التعاون الدولي أكثر أهمية من أي وقت مضي .

صحيح أن جهود الأمم المتحدة لم تكن ناجحة على الدوام. بيد أن هذه المنظمة ، فى رأيى ، هى المحفل الأكثر مناسبة للبحث عن توازن المصالح بين الدول ، وهو الأمر الجوهرى لاستقرار العالم .

وأنا أدرك أن كل شيء لا يمكن أن يتغير بين عشية وضحاها . وأدرك كذلك أننا والغرب سيكون لنا على الدوام نظرات مختلفة للأوضاع المختلفة . وكما سبق أن قلت بالفعل ، فإن بلدان العالم اليوم تشبه مجموعة من متسلق الجبال يربطها معا حبل لتسلق هذه الجبال . وليس أمامهم سوى أن يتسلقوا معا نحو قة الجبل أو يسقطوا معا في الهاوية ، ولكى نحول دون الكارثة فعلى الزعماء السياسيين أن يرتفعوا فوق مصالحهم الضيقة ويدركوا مأساوية الوضع الحاضر. ولهذا السبب فهناك حاجة

ملحة للغاية لفهم جديد للوضع وعناصره المتداخلة.

لم يعد بالإمكان رسم سياسة على أساس مفترضات عام ١٩٤٧ ، ومبدأ ترومان وخطاب تشرشل فى فولتون . فمن الضرورى أن نفكر ونتصرف بطريقة جديدة . والأكثر من ذلك أن التاريخ لايمكن أن ينتظر ، والناس لايمكنهم أن يتحملوا إضاعة الوقت . وقد يكون الوقت متأخرا للغاية غدا ، وقد لايأتي مابعد الغد .

والمبدأ الأساسى للنظرة السياسية الجديدة بسيط للغاية : إن الحرب النووية لا يمكن أن تكون وسيلة للتوصل إلى أهداف سياسية ، أو اقتصادية ، أو أيديولوجية ، أو أية أهداف أخرى . وهذا الاستنتاج ثورى حقا ، لأنه يعنى استبعاد الأفكار التقليدية للحرب والسلام . إن الوظيفة السياسية للحرب كانت على الدوام تبريرا للحرب ، تفسيرا «عقليا» لها . ولكن الحرب النووية عديمة المعنى ، إنها غير عقلانية . فلن يكون هناك منتصرون أو منهزمون فى نزاع نووى عالمى : فالحضارة العالمية سوف تفنى بشكل محتوم . إنها انتحار ، وليست حربا بالمعنى التقليدى الكلمة .

ولكن التكنولوجيا العسكرية قد تطورت لدرجة أنه حتى الحرب غير النووية يمكن مقارنتها الآن بالحرب النووية من حيث أثرها التدميرى . ولهذا السبب فإنه من المنطق أن ندخل فى مقولتنا عن الحروب النووية هذا «الشكل الآخر» من الصدام المسلح بين القوتين العظميين أيضا .

وبذلك ، فقد ظهر وضع مختلف تماما . لقد تشكلت خلال القرون ، بل خلال الآف السنين طريقة للتفكير وطريقة للسلوك ، تستندان إلى استخدام القوة فى السياسة العالمية . ويبدو أنهما قد ضربتا بجذورهما كأنهما شيء لا يتزعزع . واليوم فقدنا كل الأسس المعقولة . إن القول المأثور لكلاوزوفيتز بأن الحرب استمرار للسياسة ولكن بوسائل أخرى ، والذى كان قولا كلاسيكيا فى زمانه ، قد انقضى زمانه بالتأكيد . وأصبح الآن محفوظا فى المكتبات . ولأول مرة فى التاريخ غدا احتياجا

حيويا وضع السياسة الدولية على أساس معايير معنوية وأخلاقية مشتركة لكل البشرية ، وكذا إضفاء الطابع الإنساني على العلاقات الدولية .

وتنبع من استحالة الحل العسكرى _ أى النووى _ للخلافات الدولية جدلية جديدة للقوة والأمن . فلم يعد من الممكن ضمان الأمن بالوسائل العسكرية _ سواء باستخدام الأسلحة أو الردع ، أو بمواصلة اتقان «السيف» و «الدرع» . ومحاولات التوصل إلى تفوق عسكرى منافية للعقل . والآن تبذل مثل هذه المحاولات فى الفضاء . وإنها لمفارقة عجيبة تسبب فى استمرارها الدور المتضخم الذى يلعبه العسكريون فى السياسة . وقد أصبح سباق التسلح من وجهة نظر الأمن أمرا سخيفا لأن منطقه نفسه يؤدى إلى إشاعة الاضطراب فى العلاقات الدولية وإلى نزاع سخيفا لأن منطقه نفسه يؤدى إلى إشاعة الاضطراب فى العلاقات الدولية وإلى نزاع نووى فى النهاية . إن سباق التسلح إذ يحوّل موارد ضخمة بعيدا عن أولويات أخرى ، فإنه يخفض من مستوى الأمن ، ويضعفه . إنه فى حد ذاته عدو للسلام . ولى عصرنا يمكن ضمان الأمن الحقيق والمتكافئ عن طريق الحفض الدائم لمستوى التوازن عصرنا يمكن ضمان الأمن الحقيق والمتكافئ عن طريق الحفض الدائم لمستوى التوازن الدمار الشامل .

وربما يخيف ذلك بعض الناس. ويتساءلون ، « ما الذى سيتم مع التجمع العسكرى الصناعى عند ثلث ؟ وهو الذى ترتبط به وظائف وأجور عدد كبير من الناس. وقد جرى تحليل هذه المسألة بشكل خاص فى واحد من أحدث مؤلفات ف. ليونتيف ، الحائز على جائزة نوبل. وقد برهن على أن حجج العسكريين خاوية من وجهة نظر اقتصادية. وإليكم ما اعتقده: وأقول بداية بأن كل وظيفة فى التجمع العسكرى الصناعى تكلف مثلين أو ثلاثة أمثال مثيلتها فى الصناعة المدنية. ولذا يمكن إقامة ثلاث وظائف بدلا منها. وثانيا ، فإلى اليوم نجد أن قطاعات الاقتصاد العسكرى ترتبط بالاقتصاد المدنى ، وتعمل الكثير له. وهكذا ، فلتكن هذه نقطة بداية للاستفادة من إمكانياته للأغراض السلمية. وثالثا ، يمكن للاتحاد

السوفيتى والولايات المتحدة أن يتفقا على برنامج ضخم مشترك ، يعبئ مواردنا وقدراتنا العلمية والفكرية من أجل حل أكثر المشاكل تباينا من أجل مصلحة البشرية .

وتدعو النظرة السياسية الجديدة إلى الاعتراف ببديهية بسيطة أخرى: إن الأمن لا يتجزأ. فإما أن يكون أمنا متكافئا للجميع أو لايكون على الإطلاق. والأساس الصلب الوحيد للأمن هو الاعتراف بمصالح كافة الشعوب والبلدان، وبالمساواة بينها في الشئون الدولية، وأمن كل بلد يجب أن يرتبط بأمن كل أعضاء المجتمع الدولى. فهل يكون من مصلحة الولايات المتحدة، مثلا، أن يجد الاتحاد السوفيتي نفسه في وضع يعتبر بموجبه أنه أقل أمنا من الولايات المتحدة ؟ أو هل يمكن أن نستفيد من وضع معاكس ؟ يمكنني أن أقول بحزم إننا لانفضل ذلك. وهكذا يجب أن يصبح الخصوم شركاء وأن يبدأوا في البحث معا عن طريق للتوصل إلى الأمن العالمي.

ونستطيع أن نرى العلامات الأولى للتفكير الجديد فى العديد من البلدان ، وفى عنتلف فئات المجتمع . وهذا أمر طبيعى تماما ، لأنه الطريق إلى الاتفاقات ذات المنفعة المتبادلة والحلول الوسط المتبادلة على أساس المصلحة المشتركة العليا _ تجنب الكارثة النووية _ وبالتالى ، لاينبغى أن يكون هناك أى سعى لأمن طرف على حساب الآخرين .

والنظرة الجديدة تؤثر بقوة مماثلة على طابع المبادئ العسكرية .. إنها يجب أن تكون بحزم مبادئ للدفاع . ويرتبط ذلك بالأفكار الجديدة أو الجديدة نسبيا مثل الكفاية المعقولة للتسلح ، والدفاع غير العدوانى ، وإزالة عدم التوازن ، وعدم التماثل فى مختلف أنواع القوات المسلحة ، وفصل القوات الهجومية للحلفين ، وهكذا وما إلى ذلك (۱) .

⁽١) لقديدأت بلدان أوروبا الاشتراكية تسير بحزم في هذا الطريق في ٢٩ مايو ١٩٨٧ ، في برلين تبني =

ويرتكز الأمن العالمي في عصرنا على الاعتراف بحق كل شعب في اختيار طريقه الحناص للتطور الاجتاعي ، وعلى التخلي عن التدخل في الشئون الداخلية للدول الأخرى ، وعلى احترام الآخرين احتراما مقترنا بنظرة انتقادية ذاتية موضوعية لمجتمع كل منهم . وقد يختار الشعب الرأسمالية أو الاشتراكية . وهذا حقه السيادي ، ولا يمكن للشعوب ولا ينبغي لها أن تشكل حياتها وفقا لنموذج الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتي . ومن ثم ، ينبغي أن تكون المواقف السياسية خالية من التعصب الأيديولوجي .

ولاينبغى أن تنقل الخلافات الأيديولوجية إلى مجال العلاقات بين الدول، كما لا يجب أن تخضع السياسة الخارجية لها ، لأن الأيديولوجيات يمكن أن تتباعد ، بينما تبقى المصلحة في البقاء وفي تجنب الحرب مصلحة عالمية وسامية .

وعلى قدم المساواة مع الخطر النووى ، تبحث طريقة التفكير الجديد حل مشاكل عالمية أخرى ، بما فيها مشاكل التنمية الاقتصادية والبيئة ، كشرط لاغنى عنه لضمان سلم عادل ووطيد . والتفكير بطريقة جديدة يعنى كذلك رؤية الصلة المباشرة بين نزع السلاح والتنمية .

ونحن نؤيد تدويل الجهود من أجل تحويل نزع السلاح إلى عامل للتنمية . وفي

اجتماع اللجنة الاستشارية السياسية وثيقة ذات أهمية مبدئية : وحول المبدأ العسكرى للبلدان الأعضاء في معاهدة وارسو » . وتطرح الوثيقة جوهر الطابع الدفاعي البحت لهذا المبدأ ، وتقول : و لن نبدأ على الإطلاق ، وفي أي ظروف ، حربا ضد أية دولة أو أي تحالف من الدول مالم نتعرض أنفسنا لهجوم مسلح . ولن نكون على الإطلاق البادثين باستخدام الأسلحة النووية . وليست لنا أية مطالب إقليمية حيال أي دولة سواء في أوروبا أو خارجها . ولاتنظر البلدان الأعضاء في معاهدة وارسو إلى أية دولة أو شعب كعدو : وهي على استعداد لبناء العلاقات مع البلدان دون استثناء على أساس المراعاة المتبادلة لصالح الأمن والتعايش السلمي » . ولاتسعى بلدان معاهدة وارسو إلى أن يكون لديها من القوات المسلحة والأسلحة أكثر مما هو ضروري لأغراض الدفاع . وسوف تتمسك بحزم بمبدأ الكفاية في حاية أمنها . وقد اقترحت على بلدان حلف الأطلنطي بأن يجلسوا جميعا معا ويقارنوا المبادئ العسكرية للمتحالفين لكي يفهموا بصورة أفضل نوايا بعضهم البعض . وكان الرد على هذا العسكرية للمتحالفين لكي يفهموا بصورة أفضل نوايا بعضهم البعض . وكان الرد على هذا الاعتراح بالصمت .

رسالة إلى الاجتماع الدولى الموسع حول هذا الموضوع فى نيويورك فى أواخر أغسطس ١٩٨٧ كتبت : « إن تنفيذ المبدأ الأساسى « نزع السلاح من أجل التنمية » يمكن بل يجب أن يجشد البشرية ، وييسر تكوين وعى عالمى » .

إن بيان دلهى حول مبادئ عالم خال من الأسلحة النووية ومن العنف ، الذى وقعه راجيف غاندى ، رئيس جمهورية الهند، ووقعته معه فى نوفهبر١٩٨٦، يحوى كلمات أود أن أنوه بها هنا أيضا : « فى العصر النووى ، ينبغى على البشرية أن تطور طريقة جديدة للتفكير السياسى ، مفهوما جديدا للعالم يوفر ضهانات يعول عليها لبقاء البشرية . إن الناس يريدون أن يعيشوا فى عالم أكثر أمنا وعدلا . والبشرية تستحق مصيرا أفضل من بقائها رهينة للرعب النووى واليأس . ولابد من تغيير الوضع العالمى القائم وبناء عالم خال من الأسلحة النووية ، وخال من العنف ، والكراهية والخوف والشك » .

وهناك دلاثل جادة على أن طريقة التفكير الجديد أخذت تتشكل ، وأن الناس بدأوا يدركون أية حافة يقترب منها العالم . بيد أن هذه العملية صعبة للغاية ، والشيء الأكثر صعوبة هو أن نضمن انعكاس هذا الفهم في أعمال صانعي السياسة ، وفي عقولهم . ولكنني أعتقد بأن العقلية السياسية الجديدة ستشق طريقها ، لأنها قد ولدت من وقائع عصرنا .

طريقنا إلى نظرة جديدة

نحن لا ندعى بأننا قادرون على تعليم الآخرين . وبعد أن سمعنا تعليمات لاحصر لها من غيرنا ، خلصنا إلى نتيجة مفادها أن هذه تسلية عديمة الجدوى . فالحياة نفسها تعلم الناس أولا أن يفكروا بطريقة جديدة . وقد توصلنا بأنفسنا وبالتدريج إلى ذلك ، واستوعبناه خطوة خطوة ، وأعدنا النظر في آرائنا المعتادة حول مشاكل الحرب والسلام ، وحول العلاقات بين النظامين ، وفكرنا في مشاكل العالم .

كان طريقا طويلا. فمنذ مايزيد على ثلاثين عاما مضت ، توصل المؤتمر العشرين إلى استنتاج هام ، إلى نتيجة أن حربا عالمية جديدة ليست أمرا محتوما وأن من الممكن تجنبها . وكان ذلك يتضمن أنه ليس من المستطاع فقط تأجيل النزاع المقبل وإطالة أمد الفترة السلمية ، بل إن أى أزمة دولية يمكن تسويتها بوسائل سلمية . وأعلن حزبنا قناعته بإمكانية وضرورة إزالة خطر الحرب في حد ذاته ، وإلغاء الحرب من تاريخ البشرية . كما أعلن عندثذ أن الحرب ليست بأية حال شرطا لاغنى عنه للثورات الاجتماعية . ونقح مبدأ التعايش السلمى ، واضعين في الاعتبار التغيرات التي جاءت مها الحرب العالمية الثانية .

وفى سنوات الانفراج حاولنا ملء هذا المبدأ بمحتوى محدد على أساس الحوار والتعاون الدولى المتكافئ. وشهدت تلك السنوات توقيع عدد من المعاهدات الهامة التي أكملت فترة « مابعد الحرب » فى أوربا ، وتحسنا فى العلاقات السوفيتية الأمريكية أثر على الوضع العالمي بأكمله.

إن منطق الانفراج ذاته قد دفع إليه الإدراك المتزايد بأن الحرب النووية لايمكن كسبها ، وانطلاقا من هذه الحقيقة ، أعلنا منذ خمس سنين مضت للعالم أجمع أننا لن نكون البادئين باستخدام الأسلحة النووية .

وتم التوصل إلى نقطة تحول بعيدة المدى فى المفهومات فى اجتماع أبريل ١٩٨٥ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى، والمؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى السيوفيتى. وكان ذلك ، على وجه التحديد، تحولا نحو طريقة جديدة للتفكير السياسى ، إلى أفكار جديدة عن العلاقة بين المبادئ الطبقية والمبادئ المشتركة للبشرية فى العالم الحديث.

والطريقة الجديدة فى التفكير ليست ارتجالا ، ولاتدريبا عقليا ، إنها نتيجة تفكير جاد فى وقائع عالم اليوم ، وإدراكاً ، بأن الموقف المسئول بالنسبة للسياسة يتطلب إقامة الدليل العلمى عليه ، وأن بعض الفرضيات التى بدت راسخة قبل ذلك

ينبغى التخلى عنها. هذا وتكلفنا غاليا النظرة المتحيزة ، والقرارات المتعلقة بها من أجل أهداف عابرة ، والابتعاد عن التحليل العلمي الدقيق للوضع .

ويمكن القول بأننا أدركنا العقلية الجديدة من خلال المعاناة ، واستمددنا الإلهام من لينين ، وعند التوجه إليه ، « وقراءة » مؤلفاته فى كل مرة بطريقة جديدة ، يدهش المرء لقدرته على النفاذ إلى جدور الأشياء ، وعلى رؤية أكثر جدليات العمليات العالمية تعقيدا . إن لينين باعتباره زعيم حزب البروليتاريا ، وقد أقام الدليل نظريا وسياسيا على المهام الثورية للأخيرة ، أمكنه أن يرى أبعد ، أمكنه أن يتخطى الحدود التى فرضتها مصالحها الطبقية . وقد تحدث أكثر من مرة عن أولوية المصالح المشتركة لكل البشرية على المصالح الطبقية . والآن فقط بدأنا نفهم كل عمق ومغزى هذه الأفكار . إنها هى التي تغذى فلسفتنا عن العلاقات الدولية ، وطريقة التفكير الحديدة .

وقد يقول قائل بأن الفلاسفة ورجال الدين عبر التاريخ قد تناولوا أفكار القيم الإنسانية «الخالدة». حقا ، لقد كان الأمر كذلك ، ولكنها كانت عندئذ «تأملات مدرسية» انتهت لأن تكون حلما طوباويا . وفي الثمانينيات ، ونحن نقترب من نهاية هذا القرن المثير ، ينبغي أن تعترف البشرية بالضرورة الحيوية للقيم البشرية ، وأولويتها .

ومنذ أمد بعيد ، كانت المصالح الطبقية حجر الزاوية في كل من السياسة الخارجية والداخلية . وغني عن القول ، إنها كقاعدة ، كانت تقدم رسميا على أنها مصالح البلاد أو الدولة أو التحالف ، وكانت تغلف بإشارات إلى « الرفاهية العامة » أو الدوافع الدينية . ولكن الماركسيين وعددا كبيرا غيرهم من الناس المتزنين على قناعة بأن سياسة أى دولة أو تحالف من الدول إنما تحددها ، في التحليل النهائي ، مصالح القوى الاجتاعية السياسية السائدة . وقد أدت الصدامات الحادة بين هذه المصالح في المجال الدولي إلى نزاعات مسلحة وحروب طوال التاريخ . وطذا السبب

فإن السجل السياسي للبشرية هو لدرجة كبيرة سجل الحروب. واليوم يقودنا هذا المنوال مباشرة إلى الهاوية النووية إننا ـ كل البشرية ـ في قارب واحد، وليس بإمكاننا إلا أن نغرق أو ننجو معا، ولهذا السبب فإن محادثات نزع السلاح ليست مباراة يمكن أن يكسبها جانب واحد. يجب أن يكسب الجميع، أو يواجه الجميع الخسارة.

إن عصب طريقة التفكير الجديدة يتمثل فى الاعتراف بأولوية القيم البشرية ، أو لكى نكون أكثر دقة ، ببقاء البشرية .

وقد يبدو غريبا لبعض الناس أن يضع الشيوعيون تأكيدا قويا على المصالح والقيم البشرية . حقا إن النظرة ذات الدافع الطبقي إلى كافة ظواهر الحياة الاجتاعية هي من أبجديات الماركسية . واليوم تتقابل مثل هذه النظرة بشكل كامل مع وقائع المجتمع القائم على الطبقات ، المجتمع ذي المصالح الطبقية المتعارضة ، وكذلك مع وقائع الحياة الدولية الزاخرة كذلك بالنزاعات . وحتى وقت قريب جداكان الصراع الطبقي ومازال هو محور التطور الاجتماعي ، وهو مايزال كذلك في البلدان المنقسمة الموطبق ومازال هو معور التطور الاجتماعي ، وهو مايزال كذلك في البلدان المنقسمة إلى طبقات . ونتيجة لذلك ، فقد سادت الفلسفة الماركسية – فيما يتعلق بالمسائل الأساسية للحياة الاجتماعية – مدخل ذو طابع طبقى . وكان ينظر إلى الأفكار الإنسانية على أنها الوظيفة والنتيجة لنضال الطبقة العاملة – الطبقة الأخيرة ، التي إذ تحرر نفسها ، تحرر المجتمع بكامله من العداوات الطبقية .

واليوم ، مع ظهور أسلحة الدمار بالجملة ، أى الدمار الشامل ، ظهر حد موضوعى للمواجهة الطبقية فى المعترك الدولى : خطر الدمار الشامل . ولأول مرة على الإطلاق .ظهرت مصلحة بشرية مشتركة ، حقيقية وليست تأملية وبعيدة _ لإنقاذ البشرية من الكارثة .

وأدخلت تغييرات بروح النظرة الجديدة فى الصياغة الجديدة لبرنامج الحزب الشيوعى السوفيتي التي أقرها المؤتمر السابع والعشرون للحزب . ورأينا ، على وجه

الخصوص ، أنه لم يعد بالإمكان الاحتفاظ فيها بتعريف التعايش السلمى بين الدول ذات الأنظمة الاجتماعية المختلفة «كشكل خاص للصراع الطبقي».

وكان ثمة اعتقاد سائد بأن مصدر الحروب العالمية يكمن في التناقضات بين النظامين الاجتاعيين. وقبل ١٩١٧ كان هناك نظام واحد فقط في العالم الرأسمالية ولكن هذا النظام لم يحل دون الحرب العالمية بين الدول التي تنتمي إليه. وكانت هناك حروب أخرى كذلك. والعكس بالعكس، فخلال الحرب العالمية الثانية ، حاربت البلدان التي تمثل أنظمة مختلفة في ائتلاف واحد ضد الفاشية وسحقتها في نهاية الأمر. لقد تغلبت المصلحة المشتركة لكافة الشعوب والدول أمام الخطر الفاشي على الخلافات الاجتماعية السياسية بينها ووفرت أساسا لائتلاف « فوق الأنظمة » معاد للفاشية . ومعنى ذلك اليوم أيضا ، أنه في مواجهة خطر أكثر سوء السطيع الدول المنتمية إلى أنظمة اجتماعية مختلفة ، بل يجب عليها أن تتعاون مع بعضها البعض باسم السلام .

وعندما طورنا فلسفتنا للسلام ، تبنينا نظرة جديدة تقوم على الترابط بين الحرب والثورة ، فنى الماضى ، غالبا ماكانت الحرب تعمل على تفجير الثورة . وقد يتذكر المرء كوميون باريس الذى جاء كصدى للحرب الفرنسية البروسية ، أو ثورة ١٩٠٥ الروسية التى فجرتها الحرب الروسية اليابانية . وقد أثارت الحرب العالمية الأولى عاصفة ثورية حقة بلغت أوجها فى ثورة أكتوبر فى بلادنا . وأثارت الحرب العالمية الثانية موجة جديدة من الثورات فى شرق أوربا وآسيا ، وكذلك ثورات عارمة معادية للاستعار .

وساعد كل هذا على تعزيز المنطق الماركسى اللينيني القائل بأن الأمبريالية تولد بشكل محتوم مواجهات مسلحة هامة ، في الوقت الذي تخلق فيه هذه المواجهات بالطبع «كتلة حرجة» من السخط الاجتماعي ووضعا ثوريا في عدد من البلدان . ومن ثم كان التنبؤ الذي تمسكنا به طويلا في بلادنا : إن الحرب العالمية الثالثة ، إذا

ما أشعلتها الامبريالية ، ستؤدى إلى اضطرابات اجتاعية جديدة ، ستقضى على النظام الرأسمالي تماما ، وهذا سيؤدى إلى سلام عالمي .

وعندما تغيرت الظروف جذريا بحيث أصبحت النتيجة الوحيدة للحرب النووية يمكن أن تكون الدمار الشامل ، خلصنا إلى استنتاج بخصوص انتفاء العلاقة السببية بين الحرب والثورة . « وتطابقت » آفاق التقدم الاجتاعي مع آفاق تجنب الحرب النووية . وفي المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي « فصلنا » بوضوح فكرتي الحرب والثورة ، مستبعدين من الصياغة الجديدة لبرنامج الحزب العبارتين التاليتين : « فإذا ماغامر المعتدون الإمبرياليون رغم ذلك ببدء حرب عالمية جديدة ، فلن تحتمل الشعوب أكثر من ذلك نظاما يجرهم إلى حروب مدمرة . وسيكتسحون فلن تحتمل الشعوب أكثر من ذلك نظاما يجرهم إلى حروب مدمرة . وسيكتسحون عالمية ويدفنونها » . وقد استبعد هذا النص الذي يعترف نظريا بإمكانية حرب عالمية جديدة ، اعتباره لايتفق مع وقائع العصر النووي .

إن المنافسة الاقتصادية ، والسياسية ، والأيديولوجية بين البلدان الرأسمالية والاشتراكية أمر محتوم . ومع ذلك ، يمكن ويجب الإبقاء عليها فى إطار المنافسة السلمية التى تقتضى التعاون بالضرورة . وعلى التاريخ أن يصدر حكمه حول مزايا كل نظام بعينه . وسوف يصنف كل شيء . فليقرر كل بلد أى نظام وأية أيديولوجية أفضل . فليتقرر ذلك عن طريق المنافسة السلمية ، وليبرهن كل نظام على قدرته على تلبية حاجات ومصالح الإنسان . إن دول وشعوب الأرض مختلفون للغاية ، وإنه لأمر طيب بالفعل أنهم كذلك . وهذا حافز على المنافسة . وهذا المفهوم للوحدة الجدلية بين الأضداد يتفق مع مفهوم التعايش السلمى .

هذه هي، بشكل عام ، المراحل الرئيسية لانتقالنا إلى فلسفة جديدة للسلام ولفهم الجدليات الجديدة للمصالح والمبادئ الطبقية والإنسانية المشتركة في حقبتنا الحديثة.

فهل يعني ذلك أننا قد تخلينا عن التحليل الطبق لأسباب الخطر النووي وغيره

من المشاكل العالمية ؟ كلا. وسيكون من الخطأ تجاهل عدم التجانس الطبق بين القوى التى تعمل فى المعترك الدولى وعلى مشارف تحقيق كافة المهام الأخرى للبشرية.

ونحن ندرك مدى قوة مواقع الجانب العدوانى والعسكرى من الطبقة الحاكمة في البلدان الرأسمالية الكبرى. إنهم يستمدون دعمهم الرئيسي من التجمع العسكرى الصناعي القوى الذي تكن مصالحه في طبيعة النظام الرأسمالي نفسه والذي يعتصر أرباحا ضخمة من إنتاج الأسلحة على حساب دافع الضرائب. ولكي يجعل الشعب يصدق بأن كل هذه الأموال لاتنفق عبثا ، ينبغي إقناعهم بوجود «عدو خارجي » يرغب في أن يعتدى على رفاهيتهم و « مصالحهم الوطنية » بشكل عام . ومن ثم كانت سياسة القوة المتهورة وغير المسئولة . فكيف يمكن أن يكون هذا الاعتاد الكامل على القوة ممكنا في عصرنا النووى حيث التكديس القائم للأسلحة أصبح ضخا لدرجة أن جزءا صغيرا من هذه الأسلحة يمكن أن يفني البشرية بسهولة ؟

وهذا هو على وجه التحديد مانسميه بعقلية « الحرب الباردة » المشئومة . غير أن هذه العقلية ، مع ذلك ، لاتزال راسخة الجذور فى المصالح الاقتصادية الملموسة لاحتكارات السلاح وفى التأثير الذى يمارسه الجيش على السياسة والذى يرفض أن يتخلى عن موقفه المتميز ، ويمارسه أيضا الجهاز البيروقراطى الذى يخدم النزعة العسكرية .

وقد يتساءل المرء لماذا نحتفظ بأسلحتنا وقواتنا المسلحة ونعمل على تحديثها . بإمكانى أن أقدم إجابة دقيقة على ذلك باعتبارى رئيسا لمجلس الدفاع للاتحاد السوفيتى . فمنذ ثورة أكتوبر ونحن تحت تهديد دائم باحتال العدوان . وحاولوا أن تضعوا أنفسكم في مكاننا ، واحكموا بأنفسكم . ولنستعرض الأحداث معا : حرب أهلية شاركت فيها قوات أجنبية ، تدخل من جانب أربع عشرة دولة ، حصار اقتصادى ، وحجر صحى ، عدم اعتراف دبلوماسى (من قبل الولايات المتحدة

حتى ١٩٣٣) استفزازات عسكرية فى الشرق ، وأخيرا ، حرب دموية مدمرة ضد الفاشية جاءت من الغرب . وهل باستطاعتنا أن ننسى الخططات لهجوم ذرى على الاتحاد السوفيتى من جانب العسكريين الأمريكيين ومجلس الأمن القومى بالولايات المتحدة . ونحن نسأل أيضا عن السبب فى أن الغرب كان أول من أقام تحالفا عسكريا ، حلف شهال الأطلنطى ، وكان على الدوام أول من طور أنظمة أسلحة جديدة . أو لماذا لاترغب الإدارة الأمريكية القائمة فى وقف تجارب الأسلحة النووية ، وماهو السبب فى أنها تدفع الأمريكيين لتبديد مبالغ هائلة على برنامج حرب النجوم ؟ هذه ليست أسئلة عديمة الجدوى . فهل يمكن تصنيف كل هذه الحقائق على أنها طموحات سلمية ؟ ومرة أخرى أكرر : حاولوا أن تضعوا أنفسكم فى مكاننا لتروا كيف يكون رد فعلكم ..

من أجل كل ذلك ، نحن مستعدون بإخلاص لنزع السلاح ، ولكن فقط على أساس عادل من الأمن المتكافئ ، ومن أجل التعاون على جبهة عريضة للغاية . ومع ذلك ، فإننا إذ نأخذ في الاعتبار دروس الماضي المريرة ، لا يمكننا أن نتخذ خطوات هامة من جانب واحد خوفا من أن يكون في ذلك إغراء للمدافعين عن « المصالح الوطنية العالمية » . وكما نرى ، فإن أهم شيء نفعله الآن هو أن ندفع بدولاب المحافظة على ذات البشرية إلى الحركة ، وندعم إمكانية السلام ، والعقل والنوايا الطببة .

«ید موسکو»

ربما كانت أكثر عبارة تكررت بشكل مبتذل قالها زعيم سوفيتي في الغرب هي الصيحة التي أطلقها نيكيتا خروتشوف: «سوف ندفنكم !» وهي صيحة لابد من تفسيرها للقراء الأجانب بأنه جرت لدينا في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات مناقشات حادة بين خبراء الزراعة والعلماء وصفت بتهكم مرير بأنها مناقشة «عمن سيدفن الآخر». إن صيحة خروتشوف ، المستعارة من هذه المناقشات ، كانت غير

مناسبة من كافة الوجوه ، ولكن يجب النظر إليها فى إطاركل خطابه . ولاينبغى أن تؤخذ حرفيا . لقد كان يصف المنافسة بين النظامين ، وأراد أن يبين أن الاشتراكية لاتخشى أن تقارن بالرأسمالية ، وأن المستقبل ملك للاشتراكية . لقد كان خروتشوف رجلا عاطفيا ، وأضعف من حاسه كثيرا أن جهوده المخلصة ومقترحاته الحاصة بتحسين الوضع الدولى اصطدمت بجدار سميك من عدم الفهم والعناد .

واسمحوا لى أن أقول لكم ، هذه المرة من تجربتى الحاصة ، بأنه لكى تتفاوض مع الغرب حول مشاكل نزع السلاح ، يجب أن يتحلى المرء بصبر لايصدق ، لأن المصالح الاقتصادية تتدخل على الدوام . وربما يجب أن نضيف أيضا أننا إذا ماحكمنا فى الاتحاد السوفيتى على سياسة دولة أخرى بتصريحات مفردة لزعائها ، لكان قد حان الوقت منذ أمد بعيد لبدء القتال . بيد أن ذلك لايحدث . ولذلك يجب أن يكف الناس فى الغرب عن استغلال بضع كلات قالها شخص لم يعد بين الأحياء ، وعليهم ألا يسوقوها باعتبارها وجهة نظر .

أما فيما يتعلق بكتاب البيت الأبيض عن الاقتباسات الغامضة التي يشير إليها الغرب ، والتي تتناول « مبدأ » لينين لفرض الشيوعية في جميع أنحاء العالم وخطط إخضاع كل أوربا ، فيجب أن أقول إن مثل هذا المبدأ لم يفكر فيه إطلاقا ماركس أو لينين أو أى من الزعماء السوفيت . ومايسمي بـ « الاقتباسات » التي يستخدمها كبار المتحدثين هي ثمرة تزييف فج أو هي جهل في أفضل الأحوال .

وهذا ما أريد أن أقوله عن « يد موسكو » المشئومة . ووفقا للنظرية الماركسية ، فإن المستقبل هو ملك لمجتمع لايوجد به استغلال الإنسان للإنسان ولا يوجد به قهر قومى أو عرق . ولكن لكل أمة الحق فى أن تقرر ما إذا كانت هذه المبادئ مناسبة لها وما إذا كانت تريد تبنيها فى إعادة بناء حياتها . وإذا ما أرادت ، فإنها هى التى ستقرر السرعة والشكل اللذين ستؤدى بها ذلك .

« إن البروليتاريا الظافرة لايمكنها أن تفرض على أية أمة أخرى مثلها الأعلى عن

الحياة السعيدة دون أن تلحق ضررا بانتصارها الخاص». هذه العبارة التي قالها ماركس هي تحديد دقيق لموقفنا من كل أنواع « تصدير الثورة » و « الثورة » كما يقول لينين « تنضج عندما يدرك ملايين الناس أنه لم يعد بوسعهم أن يعيشوا بالطريقة القديمة » وهي « تنضج في عملية التطور التاريخي وتتحطم عندما ينشأ ترابط معين للظروف الداخلية والخارجية » وأية محاولات « لتفصيل » ثورة أو تحديد تاريخ لها أدانها لينين باعتبارها « شعوذة » .

وتقول النظرية التى نطلق عليها الاشتراكية العلمية : إن المجتمع البشرى بمر بمراحل معينة فى تطوره . كان هناك المجتمع البدائى ، ثم نظام ملاك العبيد ، ثم الإقطاع . وأخلى الإقطاع مكانه للرأسمالية وشهد القرن العشرون مولد المجتمع الاشتراكى . ونحن على قناعة بأن هذه الخطوات طبيعية على سلم تاريخى واحد وهذا هو التطور المحتوم للعالم . فليعتقد الغرب أن الرأسمالية أرقى إنجازا للمدنية ، فن حقهم أن يعتقدوا ذلك . ونحن ببساطة لا نتفق مع هذا . وليقرر التاريخ أينا على حقه م

تظهر الثورات وحركات التحرر على التربة الوطنية . وهى تنشأ عندما يصبح الفقر واضطهاد الجاهير أمرا غير محتمل ، وعندما تمتهن الكرامة الوطنية ، وعندما ينكر على الأمة حقها فى أن تقرر مصيرها بنفسها . وإذا ماهبت الجاهير للنضال ، فهذا يعنى أن حقوقها الحيوية قد قمعت . وأن مطامح شخص آخر أو ١ يد موسكو ، لاعلاقة لها بذلك . وباختصار ، فإن هذه الأسطورة كذبة ماكرة .

المغنزي الدولي للتضكير الجديد

إننا لانعتبر التفكير الجديد شيئا ثابتا مرة وإلى الأبد . ونحن لانعتقد أننا قد عثرنا على الحقيقة النهائية التي يبقى على الآخرين مجرد أن يقبلوها أو يرفضوها ، أى يتخذوا موقفا قد نسميه خاطئا . إن الأمر ليس كذلك . والتفكير الجديد ، بالنسبة لنا كذلك ، هو عملية نواصل خلالها أن نتعلم ونكتسب خبرات جديدة دوما . وقد قال

لينين إن سبعين ماركسيا قد لا يكفون لتحليل كافة العمليات المترابطة في الاقتصاد العالمي . ومنذ ذلك الوقت أصبح العالم أكثر تعقيدا بكثير . إن تطوير طريقة جديدة في التفكير تحتاج إلى حوار ليس فقط مع الذين يؤمنون بنفس الآراء ، وإنماكذلك مع الذين يفكرون بشكل مختلف ويمثلون نظاما فلسفيا وسياسيا يختلف عن نظامنا . إذ أنهم يحملون كذلك خبرة تاريخية ، وثقافية ، وتقاليد شعوبهم ، وهم يشكلون جزءا من التطور العالمي ، ويحق لهم أن يدافعوا عن آرائهم الخاصة وأن يقوموا بدور نشط في السياسة العالمية . وأنا على قناعة بأن سياسي اليوم يجب أن يعوا القدرة الفكرية للبلدان والشعوب الأخرى ، وإلا سيكون مصير نشاطهم إلى النزعة الإقليمية وإلى نظرة قومية ضيقة إن لم يكن ماهو أسوأ .

ولهذا السبب ، فإننا مع إجراء حوار واسع ، ومقارعة الآراء والجدل والنقاش . فهذا يحفز الفكر ويحول دون وقوع الناس فى روتين التفكير التقليدى . ومع ذلك ، فالشىء الرئيسى هو أن ذلك يساعد على تدويل طريقة التفكير الجديدة .

إن الحوار بين الناس « من مختلف العوالم » ، بين الناس من مختلف مشارب الحياة ومن مختلف الآراء ، هام للغاية . وإذا ماكان الاهتام المشترك بمستقبل البشرية يوحدهم ، فإن المشاحنات والحلافات العديدة بينهم لن تحول بينهم وبين إيجاد نقاط للاتصال والاتفاق حول المسائل الأساسية . وهذا مثال طيب للعالم بأسره .

وبإمكان المرء أن يرى ذلك بوضوح خاصة خلال اجتاعات العلماء ، والكتاب ، والشخصيات الثقافية , فالإخلاص والكفاءة يميزان اهتامهم وقلقهم على مستقبل العالم ، وعلى مصير الإنسان وقدرته ، وكذلك قوتهم المعنوية ومعاناتهم من أجل الذين مازالوا يعيشون فى ظروف غير ملائمة للإنسان , وهذا شىء هام للغابة فى عصر يكشف فيه العلم وذكاء البشرية عن أكثر الأسرار غموضا فى الطبيعة والحياة ، ويحدد بالفعل مجرى التاريخ . ولذلك يمكننى القول بأن الحوار الحى وغير

الرسمى بين السياسيين والعلماء والشخصيات الثقافية ضرورة ملحة .

إن الاجتاعات مع أمثال هؤلاء الناس لاتثرى فقط نظرية وفلسفة المء ، بل إنها قد أثّرت أيضا على التحركات والقرارات السياسية التى كان لابد من اتخاذها فى السنوات الأخيرة . وأتذكر جيدا اجتاعى فى نوفير ١٩٨٥ مع وفد من مؤتمر الحاثزين على جائزة نوبل - جورج وولد (الولايات المتحدة) ، تبوكنيبنبرج وسوزان جابرييل (هولندا) ، اليوسى انجلاندر (النمسا) والكسندر بروخوروف (الاتحاد السوفيتى) . وحضر هذا الاجتاع العالمان الأكاديميان أناتولى ألكسندروف ويفجينى فيليخوف . وجرت مناقشاتنا قبل وقت قصير من ذهابى إلى جنيف لأول اجتاع لى فيليخوف . وجرت مناقشاتنا قبل وقت قصير من ذهابى إلى جنيف لأول اجتاع لى مئاقشات جادة للغاية حول الآثار المكنة لاستخدام الأسلحة النووية ، وأهمية حظر مناقشات جادة للغاية حول الآثار المكنة لاستخدام الأسلحة النووية ، وأهمية حظر التجارب النووية ، ومخاطر عسكرة الفضاء . واتفقنا على ضرورة ربط الجهود من أجل الأمن من خلال نزع السلاح بالجهود المبذولة من أجل ضمان ظروف الحياة اللائقة بالإنسان .

وأذكر أن الحائزين على جائزة نوبل قالوا إن صيانة السلام تتطلب اليوم شجاعة أكبر من تلك التي يتطلبها الإعداد للحرب. وأعطى هذا اللقاء السند المعنوى للمواقف التي خططنا لاتخاذها في الاجتاع مع رئيس الولايات المتحدة.

ولنأخذ مثالا آخر. في محفل موسكو الدولى «من أجل عالم خالٍ من الأسلحة النووية ومن أجل بقاء البشرية » _ الذي يعتبر لقاء لم يسبق له مثيل من حيث عدد المشاركين فيه وسلطانهم _ أتيحت لى فرصة للإحساس بأمزجة صفوة فكرية دولية وسماع أفكارها . وأثارت مناقشاتي معهم انطباعا قويا لدي . وقد ناقشت نتائج المؤتمر مع زملافي في المكتب السياسي وقررنا تقديم حل وسط رئيسي جديد _ أي فض ملف ركيافيك وفصل مشكلة الصواريخ المتوسطة المدى في أوربا عن المسائل الأخرى .

وإليكم مثال ثالث. لقد مدّد الاتحاد السوفيتي مرارا قراره من جانب واحد بوقف مؤقت للتفجيرات النووية. وعلى أن أقول إن ذلك كان نتيجة لدراسة جادة لنداءات عديدة وجهت إلى القيادة السوفيتية من مختلف المثقفين في بلدان أخرى. لقد أخذنا همومهم وحججهم بجدية لأننا أدركنا أن السياسة المسئولة يجب أن تأخذ في الاعتبار رأى ما يمكن أن نسميه بالجانب الأكثر تأثيرا في الرأى العام. وأعتقد أن السياسة التي لاتبدى الاهتام بمستقبل البشرية _ ويجب أن يكون هذا الاهتام العلامة المميزة لأى مثقف حقيقى _ هي سياسة غير أخلاقية وغير جديرة بالاحترام.

وقد ترك محفل إيسيك _ كولسك ، وهو المحفل الذى حضرته شخصيات ثقافية عالمية مرموقة بدعوة من الكاتب السوفيتي جنكيز إيتاتوف _ ترك انطباعا عميقا فيها يتعلق بالنظرة الجديدة . ولقد التقيت بهم . وكانت الفكرة الرئيسية لمناقشتنا هي الإنسانية والسياسة ، والجانب المعنوى والفكرى للنشاط السياسي في العصر النووى . وقلت في هذا اللقاء : إن الأمم قد تعلمت من مآسيها السابقة واستجمعت شجاعتها وصنعت أفكارها ، وتغلبت على الصعاب والمشاق والحسائر ، ونهضت ثانية وانطلقت إلى الأمام ، واختار كل منها طريقه الخاص . فما الذي سيحدث إذا ما أخفقنا في إبعاد الخطر النووى الذي يحوم فوق وطننا المشترك ؟ أخشى أن نكون غير قادرين على تصحيح خطأ من هذا القبيل . وتلك هي مهمتنا الأكثر أهمية . ولهذا السبب ينبغي أن توضع القدرة الفكرية والمعنوية للثقافة العالمية في خدمة السياسة .

لقد بدأ «أطباء العالم من أجل تجنب الحرب النووية» يمارسون تأثيرا هائلا على الرأى العام العالمي خلال فترة قصيرة نسبيا من الزمن. وقد بدأ هذه الحركة البروفسور الأمريكي برناردلون والأكاديمي السوفيتي يفجيني تشازوف. والتحق بالحركة عشرات الآلاف من أطباء الأمريكتين، وأوروبا، وآسيا، وأفريقيا، واستراليا. وقد سبق أن التقيت بالبروفسور لون من قبل، ولكني التقيت هذه المرة بكل زعماء الحركة بعد مؤتمر في موسكو. ومن المستحيل تجاهل ما يقوله هؤلاء الناس. إن ما يقومون به يستحق قدراً كبيراً من الاحترام. لأن ما يقولونه وما يفعلونه

تحفز إليها معرفة دقيقة ورغبة عارمة فى تحذير البشرية من الخطر المحدق بها. وفى ضوء حججهم والمعطيات العلمية الدقيقة التى تتوفر لديهم ، لا يبدو أن هناك مكانا للانهاك فى المناقشات السياسية . فليس لأى سياسى جاد ، الحق فى

تجاهل استنتاجاتهم أو إهمال أفكارهم التي ينقلون بها الرأى العام العالمي مرحلة إلى الأمام .

وفيما يتعلق بالقيادة السوفيتية، ينبغى أن أقول: إننا تواقون لمعرفة رأى (وحتى نقد) كافة أنواع الناس فى عالمنا اليوم. ونحن فى اتصالاتنا معهم، نختبر إمكانية طريقة التفكير الجديدة وواقعية سياستنا. والآن فأى تماثل، وأحيانا التطابق فى الآراء اللذان نكتشفها خلال هذه الاتصالات يوفران لنا دليلا يمكننا من أن نرى أن طرق معالجتنا الجديدة تتبع نفس المنهج الذى اتبعه الجانب المخلص التفكير من البشرية.

ومن الطبيعى بالنسبة لى كشيوعى أن أظل باستمرار على اتصال بممثلى الحركة الشيوعية فى البلدان الأجنبية . وقد تغير الكثير فى هذه الاتصالات فى السنوات الأخيرة . إننا نبتعد عن الدبلوماسية بين الأحزاب ، وهى الدبلوماسية التى تغلف الحقيقة بغلاف حلو المذاق أو تعالجها بأساطير أيوب ، وهذا أسوأ حالا .

وليس مها ما يعتقده معارضو الشيوعية ، فقد نشأت الشيوعية ووجدت من أجل صالح الإنسان وحريته ، ولكى تدافع عن حقوقه الحقيقية ، وعن العدالة على الأرض . وللشيوعية قدرة هائلة على النزعة الإنسانية . ولهذا السبب فإن نظرتنا العالمية المشتركة ، والأفكار والتقيهات والاعتبارات والنقد النافع الذى نتبادله مع أصدقائنا هى أمور لاغنى عنها. وهي تساعد على تطوير طريقة جديدة في التفكير وعلى أن نطبق سياسيا الثروة الفنية للخبرة الدولية التي تعكس مصالح الجاهير العاملة ومشاعرها .

ونحن ننظر إلى العلاقات الدولية المكثفة بين العلماء، والشخصيات الثقافية،

والمثقفين بشكل عام ، وحركاتهم المهنية ، على أنها محاولة لجذب خبرة القوى فى الأمم والشعوب إلى صفوفهم ، ومساعدتهم على فهم العالم المعاصر والتعبير عن رأيهم حول مستقبله لكى يحولوا دون الكارثة النهائية .

وينطبق ذلك ، ليس فقط ، على نزع السلاح ، وتجريد المواقف الفردية والمجتمع نفسه من الطابع العسكرى ، بل ينطبق أيضا على مشاكل ذات اهتام مشترك للبشرية كالخطر البيئي ، وآفاق الطاقة والموارد ، والرعاية الصحية ، والمتعليم ، والمواد الغذائية ، ونمو السكان ، والمعلومات ، والهجوم الاعلامي الخ . ونجد نقاط اتصال عديدة للغاية وأشياء مفيدة كثيرة للغاية ، وذلك من خلال تبادل الآراء مع رجال العلم والثقافة وأفراد الشعب ذوى النفوذ حول كل هذه المسائل .

وأود أن أقول: إنه قد أصبح محتوما على الساسة وممثلى العلوم والثقافة أن يلتقوا ويواصلوا تبادل الآراء ــ ويبدو أن ذلك لابد وأن يصبح شيئا طبيعيا يودونه فى الظروف الحالية.

لقد تحدثت أخيرا مع كاتب أمريكي لا تيني بارز هو جابريل جارسيا ماركيز. إنه عقل كبير حقا. ومدى تفكيره عالمي : وقراءة مجرد كتاب واحد من كتبه يكشف عن ذلك . وهكذا اتضح أن المرء أثناء حديثه عن إعادة البناء التي تجرى في الاتحاد السوفيتي يستطيع أن يتطبق إلى أي مشكلة دولية أو اجتاعية في عصرنا . إذ أن كل العالم يحتاج لإعادة البناء ، أي ، إلى تغير نوعي وتطور تقدمي . إن رأى رجل من طراز ماركيز ذو أهمية بدرجة كبيرة . وذلك لأنه على وجه التحديد يعكس أفكار واهتامات ومشاعر الملايين ـ البيض ، والسود ، والصفر ، وكل الناس على الأرض ـ إنه ملهم فعلا . وهذا يعني أن ما بدأنا عمله في الداخل قد يكون مفيدا للشعوب الأخرى كذلك .

ونحن نرحب بما تمارسه الحركات العامة المتباينة والعديدة ــ الحركات النقابية ، أو النسائية، أو البيئية، أو المعادية للحرب ــ من تأثير مباشر على السياسة

الدولية ، هذا التأثير الذي زادكثيرا في السنوات القليلة الماضية . إنها تغزو بمطالبها الملحة ، وشعورها بالمسئولية ، ماكان ذات يوم مجال الدبلوماسية فقط .

وإنه لمن الصواب أن يحصل الناس على أهم المعلومات عن نوايا رجال الدولة . الذين يتوقف عليهم بالفعل مجرى الأحداث فى المجالات الرئيسية للحياة الدولية . وقد التقيت بوفد من الاتحاد العالمي للنقابات . وهو أكبر مركز نقابي ، يجمع خلفه مئات الملايين من الجاهير العاملة من بلدان عديدة فى العالم . وسلمني الوفد وثيقة المؤتمر النقابي العالمي الحادي عشر مع نداء موجه إلى وإلى الرئيس الأمريكي . وتكن أهمية هذه الوثيقة في رأيي فى أنها تمثل إرادة الطبقة العاملة ، وتعكس المصلحة المشتركة للبشرية فى قيام سلم آمن . وقد أقنعتني هذه الوثيقة هي والحديث الصريح الذي أجريته مع الزعماء النقابيين أن الرسالة التاريخية للطبقة العاملة بوصفها متحدثا حمن خلال مصالحها الخاصة باسم مصالح كل التطور بوصفها متحدثا حمن خلال مصالحها الخاصة باسم مصالح كل التطور الاجتاعي ، ما تزال تنبض بالحياة ، حتى فى الآونة الحاضرة ، حيث تغيرت الظروف جذريا للغاية .

ولقد هزنى بعمق مؤتمر المرأة العالمي الذي اجتمع في موسكو في يونيو ١٩٨٧ . وقد طُلب إلى أن أتحدث فيه . وكان المؤتمر غير عادى من حيث تمثيله _ إذ ضم ممثلات لأكثر من ١٥٠ دولة . وقد أحسست عندما سمعت المندوبات يتحدثن وعندما تحدثت إليهن ، بإحاطتهن المثيرة للإعجاب بما يجرى في العالم . حقا إن النساء اللاتي يتمثل قدرهن الطبيعي في الحفاظ على الجنس البشرى واستمراره ، هن خير نصير لفكرة السلام في التفاني والتجرد عن الهوى . لقد كسبت كثيرا من حضور هذا المؤتمر سواء عاطفيا أو سياسيا .

وفى كل يوم ، أتلقى عشرات الخطابات والرسائل والبرقيات من جميع أنحاء العالم ــ من ساسة ، وشخصيات عامة ، وعمد ، وأعضاء برلمانات ، ورجال أعال ، وغالبيتها من أناس عاديين ، وأزواج ، وكذلك عائلات وأطفال ونداءات

جاعية . وبعضها يهزنى فعلا ، إذ يتضمن أشعارا ، ورسوما ، وهدايا تذكارية صغيرة ومصنوعة باليد ، ودبلومات من المدارس والمجموعات والنوادى . بل وأيضا صلوات ودعوات . وخلف كل هذه المشاعر والافكار الإنسانية المتباينة . يوجد القلق على مستقبل السلام ، والأمل فى أن تكون البشرية جديرة بشيء أفضل من الحياة فى ظل التهديد بالكارثة النووية .

ومهاكنت مشغولا ، فإننى أحاول قدر جهدى أن أجيب على هذه الرسائل . وأهم ما تبينه هذه الرسائل والنداءات هو الثقة فى الاتحاد السوفيتى وفى سياستنا الحالية . ونحن نعتز بهذه الثقة وسنبذل كل ما فى وسعنا لنكون على مستواها بأعمالنا سواء فى الداخل أو فى الشئون الدولية .

إن مثل هذا الاتصال بالناس من جميع أنحاء العالم يعزز قناعتى بأن آفاق الحضارة ليست بلا أمل ، حيث أن أفضل العقول وشرفاء الناس يفكرون ويقلقون على حاضرها ومستقبلها . وهم على استعداد لتكريس مواهبهم ، ومعارفهم ، ووقتهم ، وطاقتهم العاطفية للمحافظة على هذا العالم وبناء عالم أفضل وأكثر عدالة . وهكذا فنى الوقت الذى نبنى فيه سياستنا على التفكير الجديد ، لا نرى أن نحصر أنفسنا فى الأفكار التى اعتدنا عليها وفى اللغة السياسية التى عرفت عنا ولا توجد لدينا أية نوايا من أى نوع لتحويل كل الناس إلى الماركسية . إن التفكير السياسي الجديد بإمكانه ، بل وعليه ، أن يستوعب تجارب كافة الشعوب وأن يضمن الإثراء والتأثير المتبادلين لمختلف التقاليد الثقافية .

من أجل سياسة خارجية صريحة وأمينة

تسعى القيادة السوفيتية لتناول الشئون الخارجية بطريقة جديدة . وأول ما يجب أن أذكره فى هذا الإطار هو الحوار . فمن الصعوبة بمكان أن يتحدث المرء عن التوصل إلى تفاهم متبادل بدونه . ومنذ أن اقتنعنا بمبادئ التفكير الجديد جعلنا من الحوار أداتنا الأساسية لاختبارها فى المارسة الدولية . وبإلاضافة إلى ذلك ، فعن

طريق الحوار نتأكد من مدى واقعية أفكارنا ومبادراتنا وأعالنا الدولية ، ونحن نشير بارتياح إلى أن هذه الكلمة ، رغم أنها على خلاف البيريسترويكا ، ليست من أصل روسى ، فقد ضربت بجذورها عميقا فى المفردات الدبلوماسية فى السنوات الأخيرة . وبدأ الحوار السياسى نفسه يلعب دوراً أكبر أهمية فى العلاقات الدولية أكثر من أى وقت مضى .

وخلال العامين ونصف العام ، لشغلى منصب السكرتير العام ، أجريت ما لا يقل عن ١٥٠ لقاء وحديثا مع رؤساء دول وحكومات ، وزعماء برلمانات وأحزاب شيوعية ، واشتراكيين ديموقراطيين ، وليبراليين ، ومحافظين – ومع سياسيين وشخصيات عامة على مستويات مختلفة في أوروبا ، والأمريكتين ، وآسيا ، وأفريقيا . وأصبح ذلك أيضا ممارسة طبيعية لكثير من زملائي في القيادة السوفيتية . إنها مدرسة عظيمة لنا ، وأعتقد أن مثل هذا الحوار مفيد لكل من يتحدثون معى كذلك . إنه يساعد على تشكيل ودعم العلاقات الدولية المتحضرة والضرورية تماما للعالم الحديث .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإننا نريد أن نعود إلى المعنى الحقيقى الأصلى للكلمات التى نستخدمها فى العلاقات الدولية . وعندما نعلن عن التزامنا بسياسة أمينة وصريحة ، فنحن نعنى بالفعل الأمانة ، والاحترام ، والإخلاص ، ونحن نتبع هذه المبادئ فى أعالنا وهذه المبادئ ليست بجديدة فى حد ذاتها _ فقد ورثناها عن لينين . والشىء الجديد هو أننا نحاول تحريرها من الغموض الذى انتشركثيرا فى العالم الحديث . والشىء الجديد كذلك هو أن الوضع الحالى يجعلها إلزامية للجميع .

وكحقيقة ، فقد استبعدناكل تناقض بين ما نقوله لمحدثينا الأجانب خلف أبواب مغلقة وبين ما نصرح به ونفعله علنا . ويجب أن أعترف بأننى لست مع مثل هذه الدبلوماسية المبهمة التى تعجز عن طريقها أن تفهم فى النهاية ما الذى أراد شريكك قوله خلال اللقاء أو فى تبادل الرسائل . فأنا مع السياسة الصريحة التى تؤدى بالفعل

إلى نتيجة ما . ويجب ألا تكون السياسة ذات وجهين ، لأن قدرة السياسة على التنبؤ شرط لا غنى عنه للاستقرار الدولى . ينبغى أن يكون هناك مزيد من الضوء ومزيد من العلانية فى الشئون الدولية ، وأن تكون المناورات التكتيكية والتلاعب الكلامى أقل . فلم يعد باستطاعة أحد خداع الآخرين . وأنا أواصل تكرار ذلك لمن أتحدث إليهم فى الغرب . إن ما نحتاجه من الزعماء اليوم هو تقييم صائب للوقائع ، وعقل صاف ، وإحساس متزايد بالمسئولية . أى أننا بحاجة إلى سياسة جادة بدلا من اللعب فى السياسة ، أو التلاعب فى السياسة ، أو التلاعب فى السياسة .

وأعتقد أن الأسلوب الجديد في العلاقات الدولية يتضمن توسيع إطارها خارج حدود العملية الدبلوماسية البحتة . لقد أصبحت البرلمانات تشارك بنشاط متزايد في العلاقات الدولية إلى جانب الحكومات ، وهذا تطور مشجع . إن هذا يشير إلى اتجاه نحو مزيد من الديموقراطية في العلاقات الدولية . إن غزو الرأى العام والمنظات الدولية والوطنية لهذا المجال على نطاق واسع هو من علامات عصرنا ، وبالمثل فإن دبلوماسية المواطن ، والجمهور ، وهي طريقة للتوجه إلى الشعوب مباشرة ، تصبح وسيلة مناسبة للعلاقات بين الدول .

ليست هناك خدعة فى استخدام دبلوماسية المواطن. ونحن ننطلق فقط من إدراك أن كل عبء سباق التسلح ، ناهيك عن النتائج المحتملة للنزاعات الدولية ، يقع على عاتق كل الشعوب . ونحن نريد أن يكون موقف الاتحاد السوفيتي معروفا لشعوب العالم .

وعند هذه النقطة ، ينبغى أن أتناول المسألة الآنية والحادة للعلاقة بين السياسة والدعاية . لقد كانت الاستجابة لمبادراتنا فى السياسة الحارجية فى الغالب هى : هذه دعاية ! » ويجب أن نعترف أن مقترحات السياسة الخارجية فى هذا العصر ، عصر الإعلام الجاهيرى ، والاهتام الجاهيرى بالمشاكل الدولية تواكبها الدعاية على عصر الإعلام أب أن «تؤثر» . فالزعماء الأمريكيون ، على سبيل المثال ، يبدأون الدوام . إذ يجب أن «تؤثر» . فالزعماء الأمريكيون ، على سبيل المثال ، يبدأون

بالإعلام عن تحركاتهم الدولية التي ينوون القيام بها قبل أن يعلنوها رسميا بوقت طويل، ويقدمونها على الدوام على أنها «هامة»، و « تاريخية »، و « حاسمة »، الخ. بيد أن الشيء المهم في النهاية هو الطابع والغرض الحقيقي للمقترحات: وما إذا كان الهدف منها أن توضع بالفعل موضع التطبيق، وما إذا كانت واقعية، وما إذا كانت تأخذ في اعتبارها مصالح كافة الأطراف المعنية أو ما إذا كانت دعاية الغرض منها هو مجرد إثارة الاضطراب. ولذلك يمكنني أن أعلن بشعور كامل بالمسئولية بأن كل مبادراتنا جادة، وأنها، إذا ما استشهدنا بلينين، «شعارات للعمل» وليست «شعارات للدعاية».

وعند هذه النقطة يمكنني أن أكرر بوجدان صاف ما سبق أن قلته لمجلة «تايم» في أغسطس ١٩٨٥ . ومع ذلك ، إذا لم يروا سوى الدعاية في كل ما نفعله ، فلإذا لا يستجيبون له وفقا للمبدأ القائل «العين بالعين»؟ لقد أوقفنا التفجيرات النووية . فلإذا لم يستطع الأمريكيون أن يقوموا بنفس الشيء ويتبعوا ذلك «بضربة دعائية» أخرى بإيقاف ، مثلا ، أحد صواريخهم الاستراتيجية الجديدة ؟ وقد نستجيب بنفس نوع «الدعاية» ، وهكذا دواليك . وقد يحار المرء عمن سوف يخسر من هذا النوع من المنافسة «الدعائية» ؟ .

إن عامين ونصف العام ليست بالفترة الزمنية الطويلة إلى حد ما . وإذا حكمنا بكل الدلائل ، فإن الفترة التى نتحدث عنها قد برهنت على أنها مليئة بالشىء الكثير . فما هو الشىء الرئيسى فيها ؟ قد يقول بعض الناس إن التفكير السياسى الجديد ما يزال يشق طريقه فى السياسة العالمية بصعوبة . وهذا صحيح . وقد يقول البعض إن القصور الذاتى لطريقة التفكير القديمة ما يزال أقوى من الاتجاهات الجديدة . وهذا صحيح أيضا . ومع ذلك فالشىء الرئيسى هو أن العمل الصعب المتعلق بتجهيز الأرض لإعادة تشكيل العلاقات الدولية قد تم القيام به . ونحن نعتقد أن العالم سيتغير نحو الأفضل . وهو يتغير فعلا .



الفصرل الرابع إعادة البناء في الايخاد السوڤيتى والعالم الاشتراكي

يتمثل جوهر مبدئنا الأممى فى : اتخاذ قرارات هادفة وهامة فى الداخل ، وتقدير ما يعنيه ذلك بالنسبة للاشتراكية فى مجموعها بعناية . وغنى عن القول ، بأنه لايمكن لأى بلد اشتراكى أن يتحرك إلى الإمام بنجاح وبإيقاع صحى دون التفاهم والتضامن ، والتعاون المتبادل المثمر مع البلدان الشقيقة الأخرى ، بل ودون عون منها فى بعض الأحيان .

حول الاشتراكية الحقة

عندما بدأنا السير على طريق البيريسترويكا ، انطلقنا من الفرضية القائلة بأن إعادة البناء بدأت تعمل ، وسوف تواصل العمل . إن تدعيم الاشتراكية في محموعها في عملية إعادة البناء هذه قضية الشعب السوفيتي بأسره . ويهدف إلى النهوض بمجتمعنا إلى مستوى نوعي جديد . وهذه هي النقطة الأولى .

والنقطة الثانية هي أن كلا من النهج الذي اخترناه والحاجة إلى تسريع خطانا جعلانا ننظر إلى كيفية تطوير التعاون مع البلدان الاشتراكية الأخرى في إطار تاريخي عريض. والنتيجة المترتبة على ذلك _ وقد توصلت جميع الأحزاب الشقيقة إليها _ هي ضرورة إضفاء دينامية أكبر على تعاوننا ، وإن هذا المجال بدوره جاهز لنوع من إعادة البناء . وارتكزت أفكارنا ، ومبادراتنا فيها بعد على ما يلى :

أصبحت الاشتراكية ، طوال عقود ما بعد الحرب ، تشكيلا دوليا قويا وعاملا هاما فى السياسة العالمية . ويعمل الآن شكل اشتراكى من الاقتصاد فى مجموعة كبيرة من البلدان . وقد وضعت الأسس لتقسيم دولى اشتراكى للعمل . واكتسبت

المنظات المتعددة الأطراف للدول الاشتراكية خبرة متنوعة من النشاط. واتخذ التبادل الثقافي والعلمي أبعادا واسعة. ولا يعني هذا ، بالطبع ، أن تطور الاشتراكية العالمية سار بنجاح على الدوام.

لقد اختلف المستوى الاقتصادى الأولى للبلدان التى سارت فى طريق التطور الاشتراكى اختلافا كبيرا . بل حتى اليوم نجده بعيدا عن أن يكون متطابقا . ويشكل ذلك واحدة من الصعوبات أمام تحقيق الإمكانات الشاملة للاشتراكية وأمام إتقان دواليب تكاملها .

لقد مرت الاشتراكية بمراحل تطور معقدة . فنى العقود الأولى بعد الحرب ، كان الاتحاد السوفيتى وحده هو الذى لديه خبرة ما فى بناء المجتمع الجديد . وكان عليه أن يكون مسئولا عن كل مايحدث ، سواء كان طيبا أم رديئا . وكان طابع العلاقات الاقتصادية مع البلدان الاشتراكية الأخرى يتمشى أيضا مع ذلك . فقد تطورت هذه العلاقات مع التركيز على إمدادات المواد الخام والوقود السوفيتية وعلى معونة الاتحاد السوفيتى فى بناء الصناعات الأساسية . وفى مجال بناء الدولة ، كذلك ، اعتمدت الدول الاشتراكية الشقيقة لدرجة كبيرة على النموذج السوفيتى . وكان هذا حتميا إلى حد ما . وكان الإصرار على فرض « النموذج السوفيتى » يشوه هذه الضرورة الموضوعية لذلك الوقت . ومها يكن فإن خبرة الدولة الاشتراكية الأولى ومساعدتها قد عززت بشكل عام جهود البلدان الأخرى لبناء مجتمع جديد .

بيد أن ذلك لم يحدث دون خسائر ، وبالأحرى خسائر جسيمة . فاعتادا على الخبرة السوفيتية عجزت بعض البلدان بالتالى عن أن تدرس خصوصياتها . والأمر الأسوأ أن بعض المنظرين السوفيت وبخاصة زعائنا العمليين الذين تصرفوا باعتبارهم الحراس الوحيدين للحقيقة قد أعطوا مسحة أيديولوجية للنظرة الجامدة . فدون أن يأخذوا في اعتبارهم جدة المشاكل والسات الخاصة للبلدان الاشتراكية المختلفة ، أبدوا الشكوك في بعض الأحيان حيال مواقف هذه البلدان من مشاكل معينة .

ومن ناحية أخرى ، نمت فى عدد من البلدان الاشتراكية اتجاهات نحو نوع من الانغلاق ، مما أدى إلى نشأة تقديرات وأنشطة ذاتية . وبالإضافة إلى ذلك ، كانت البلدان الاشتراكية ، منذ مولدها ، هدفا لضغط شديد من جانب الإمبريالية . ضغط سياسى ، وعسكرى ، واقتصادى ، وأيديولوجي .

وأدى كل هذا في بعض الحالات إلى عمليات موضوعية معينة ، وإلى ظهور مشاكل لم تلاحظها الأحزاب الحاكمة والقيادات في الوقت المناسب . وفيا يتعلق بأصدقائنا في البلدان الاشتراكية ، فعادة ما كانوا يلزمون الصمت ، حتى عندما يلاحظون شيئا يثير الاهتمام . كانت الصراحة تواجه بالغضب ، ومن الممكن أن ريساء فهمها » . ومرت بعض البلدان الاشتراكية بأزمات خطيرة في تطورها . وكانت تلك هي الحال ، مثلا ، في المجر عام ١٩٥٦ ، وفي تشيكوسلوفاكيا عام من هذه الأزمات سماته الخاصة . وعولجت بطرق مختلفة . ولكن الحقيقة أنه لم من هذه الأزمات سماته الخاصة . وعولجت بطرق مختلفة . ولكن الحقيقة أنه لم تحدث عودة إلى النظام القديم في أي من البلدان الاشتراكية . وأود أن أشير هنا إلى أنه لا ينبغي إلقاء اللوم على الإشتراكية عن مصاعب وتعقيدات تطور البلدان الاشتراكية ، وإنما يقع اللوم أساسا على الحسابات الخاطئة للأحزاب الحاكمة . الاشتراكية ، وإنما يقع اللوم أساسا على الحسابات الخاطئة للأحزاب الحاكمة . ويمكن بالطبع أن « يعود الفضل » للغرب كذلك ، لمساعدته ، من خلال محاولاته الله والعنيدة لتقويض تطور الدول الاشتراكية .

وخلال تجارب شاقة ، وأحيانا مريرة ، حشدت البلدان الاشتراكية خبرتها في تنفيذ التحولات الاشتراكية . إن ممارسات الأحزاب الشيوعية الحاكمة ، وكذلك مساهماتها النظرية قد أثرت بالتدريج فكرة أكمل وأكثر تحديدا عن الأساليب والمطرق والوسائل اللازمة لتحويل اشتراكي للمجتمع . إن ماركس ، وانجلز ، ولينين ، الذين أقاموا الدليل نظريا على المبادئ التي قام عليها مفهوم الاشتراكية ، لم يسعوا إلى إعطاء صورة مفصلة للمجتمع المقبل . وهذا ما يستحيل عمله بشكل عام . فقد اكتسبت هذه الصورة حدودها العامة ، وما تزال في طور التكوين نتيجة

العمل الثورى الخلاق لكافة الدول الاشتراكية .

وكانت هناك كذلك فترات خطيرة فى العلاقات بين البلدان الاشتراكية . وكان من الخطير على وجه الخصوص تقويض علاقات الاتحاد السوفيتى الأخوية مع يوغوسلافيا ، ومع جمهورية الصين الشعبية ، ومع ألبانيا . وبشكل عام كانت هناك دروس مريرة كافية . ولكن الشيوعيين تعلموا . ومانزال نتعلم حتى اليوم .

وبشكل عام فإن إحدى ميزات الاشتراكية هي قدرتها على التعلم. تعلم كيف تحل المشاكل التي تطرحها الحياة . تعلم كيف تتجنب الأزمات التي يحاول معارضونا أن يخلقوها ويستخدموها ضدنا . تعلم كيف تقاوم محاولات تقسيم العالم الاشتراكي وتحريض بعض البلدان ضد الأخرى . تعلم كيف تحول دون النزاعات في المصالح بين الدول الاشتراكية المختلفة ، عن طريق تنسيق هذه المصالح وإيجاد حلول مقبولة بشكل متبادل لأعقد المشاكل .

فإلى أى شيء توصلت الاشتراكية العالمية بحلول منتصف الثمانينيات؟ الآن يمكننا القول فى أمان : إن النظام الاشتراكي قد استقر بشكل راسخ فى مجموعة كبيرة من البلدان ، وإن القدرة الاقتصادية للبلدان الاشتراكية تتزايد باطراد ، وإن قيمها الثقافية والروحية هي قيم معنوية لدرجة عميقة وتشرف الشعوب .

ولكن فى هذه الحالة قد يسأل سائل : إذا كان كل شىء على مايرام ، فلماذا تثير البيريسترويكا اهتماما كبيرا فيما يتعلق بالعلاقات مع البلدان الاشتراكية ؟ حسنا ، إنه سؤال مشروع .

وبشكل عام ، فإن الجواب بسيط للغاية : لقد انتهت المرحلة الأولى لنشأة الاشتراكية العالمية وتطورها ، بيد أن أشكال العلاقات التي أقيمت في ذلك الوقت ظلت بالفعل دون تغيير. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن عمليات النمو السلبية في هذه العلاقات لم تدرس بدرجة كافية من الصراحة ، مما يعني أنه لم يتم تحديد كل ما يعرقل تطورها ويحول بينها وبين دخولها مرحلة جديدة معاصرة . وفي نفس الوقت .

جمع كل بلد اشتراكى وكل مجتمع اشتراكى إمكانيات كبيرة خاصة به فى كل مناحى الحياة . وسوف تلحق أضرار مباشرة بهيبة الاشتراكية وإمكانياتها إذا ماتشبثنا بأشكال التعاون القديمة أو حصرنا أنفسنا فيها .

وفى الحقيقة ، فابتداء من أواخر السبعينيات أصبحت العلاقات بين قادة البلدان الشقيقة تتجه أكثر فأكثر للاستعراض أكثر منها للعمل الجاد فقلت الثقة فيها وأصبحت أشبه ماتكون بأداء مهمة .

والآن تغير الكثير من الأمور. فخلال العامين ونصف العام الماضيين نفذ الاتحاد السوفيتي واصدقاؤه في الأسرة الاشتراكية عملا عظيا. وهو يحتاج إلى الاستمرارية بل هو مستمر فعلا. وتجرى من جديد صياغة المدى العام للعلاقات السياسية والاقتصادية والإنسانية مع البلدان الاشتراكية. وهذا ما تمليه الحاجات الموضوعية لتطوركل بلدكما يمليه الوضع الدولي في مجموعه ، بدلا من الانفعالات والعواطف.

نحو علاقات جديدة

إن دور الاتحاد السوفيتي في الأسرة الاشتراكية في ظروف البيريسترويكا يحدده الموضع الموضوعي في بلادنا ، وإذاكانت الأمور تسير سيرا حسنا في بلادنا ، أو تسير بطريقة سيئة ، فإن هذا يؤثر بالضرورة على كل امرئ . بيد أن مستوى التفاعل الذي توصلنا إليه الآن هو نتيجة لما هو أكثر من مجرد العمل الذي نقوم به في الداخل . إنه أولا وقبل كل شيء نتيجة للنشاط الاقتصادي والجهود الدؤوبة للبلدان الشقيقة . وقد ناقشنا بدقة كل جوانب التعاون مع اصدقائنا وحلفائنا .

إننا ننطلق جميعا من الفرضية القائلة أنه فى هذه المرحلة الحاسمة من تطور العالم، ينبغى أن تبين الاشتراكية لأقصى درجة دينامية نظامها السياسى والاقتصادى وطريقتها للحياة الإنسانية. وتجرى بالفعل إعادة ملاءمة علاقات الأسرة الاشتراكية مع متطلبات المرحلة الحاضرة. ونحن لانستسلم للرضى عن

النفس: فالعمل بدأ لتوه يكتسب قوة دافعة . بيد أن الأهداف الرئيسية قد جرى تحديدها .

ماذا تتضمن هذه النقاط التى نرجع إليها؟ أولا ، إن كل إطار العلاقات السياسية للبلدان الاشتراكية ينبغى أن يستند بحزم إلى الاستقلال المطلق. وهذا هو الرأى الذى يؤمن به زعماء كافة البلدان الشقيقة. ويعتبر استقلال كل حزب ، وحقه السيادى فى تقرير المسائل التى تواجه بلده ومسئوليته أمام شعبه ، مبادئ غير قابلة للجدل.

ونحن على قناعة راسخة بأن الأسرة الاشتراكية ستكون ناجحة فقط إذا ما اهتم كل حزب ودولة بمصالحها الخاصة وبالمصالح الاشتراكية على السواء، وإذا ما احترما أصدقاءهما وحلفاءهما، وراعيا مصالحها وأوليا اهتماما بخبرة الآخرين. إن إدراك هذه العلاقة بين المسائل المحلية ومصالح الاشتراكية العالمية هوشىء تتبيز به بلدان الأسرة الاشتراكية . ونحن متحدون، وفي الوحدة تكن قوتنا، ومن الوحدة نستمد ثقتنا بأننا سنحل المسائل التي يطرحها عصرنا.

ويعتبر التعاون بين الأحزاب الشيوعية الحاكمة أمرا محوريا بالنسبة للتعاون بين البلدان الاشتراكية . وخلال السنوات القليلة الماضية أجرينا لقاءات ومناقشات مفصلة مع قيادة كل بلد شقيق . ويجرى تحديد أشكال هذا التعاون أيضا . وأحد الحلقات الجديدة ، وربما الرئيسية في هذا ، هي إقامة لقاءات عمل متعددة الأطراف بين زعماء البلدان الشقيقة . وتمكنا أمثال هذه اللقاءات من التشاور ، على الفور بطريقة رفاقية ، في كل سلسلة المسائل المتعلقة بالتنمية الاشتراكية ، وبجوانبها الداخلية والخارجية .

إن تمديد أجل معاهدة وارسو ، فى الوضع الدولى المعقد ، نتيجة قرار جماعى ، كان حدثا حاسما ، وتمهد الاجتماعات المنتظمة للجنة الاستشارية السياسية لمعاهدة

وارسو الطريق لتراكم أفكار ومبادرات المشاركين فيها ، وتسمح لهم « بضبط ساعاتهم معا » كها يقولون .

ما الذى نعنيه بالتوفيق بين مبادرات كل بلد شقيق وبين الخط العام فى الشئون الدولية . لقد أوضحت التجربة مدى أهمية كل من عنصرى هذه الصيغة . فليس بإمكان أى بلد شقيق _ ونحن ننسب هذا إلى الاتحاد السوفيتي بكل معنى الكلمة _ أن يحل مهامه فى المجال الدولى إذا ماانعزل عن المسار العام . وبالمثل ، فإن السياسة الخارجية المنسقة بين دولنا يمكنها أن تكون فعالة فقط إذا ما أخذت فى الاعتبار ، على النحو المناسب ، إسهام كل بلد فى القضية المشتركة .

وفيما يتعلق بالعلاقات الاقتصادية ، فإننا نقوم بتطويرها على أساس الالتزام الثابت بمبادئ المنفعة والمساعدة المتبادلتين ولقد توصلنا إلى تفاهم بأننا جميعا نحتاج الآن إلى قفزة فى العلم والتكنولوجيا وفى المجال الاقتصادى . ومن أجل هذه الغاية ، وضعنا وتبنينا برنامجا شاملا للتقدم العلمي والتكنولوجي يهدف إلى زيادة كفاءة الإنتاج بشكل حاد ، وإلى مضاعفة بل والتوصل إلى ثلاثة أمثال الإنتاجية بحلول عام ٢٠٠٠ . فهل هذا خيال ؟ كلا . إن الأسرة الاشتراكية تملك كل ما تحتاج إليه لتحقيق هذه المهمة ، بما فى ذلك قدرة انتاجية ضخمة ، وعدد هاثل من مشاريع الأبحاث والمشاريع الهندسية ، وكذلك موارد طبيعية وقوة عمل كافية ، إن نظامنا الذي يرتكز على خطة ، يمكننا كذلك من أن نوجه موارد هامة نحو تلبية احتياجات ذات أهمية وأولوية .

لقد توصل زعماء الدول الأعضاء في مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة نتيجة للمناقشات ، إلى استنتاج أن كافة المكونات البنيوية للنظام الاشتراكي يجب أن تعمل بكفاءة أكبر. وهذا مانوافق عليه جميعا. ولكنه لايعني بالطبع ، أن تلك العمليات ستسير بطريقة متاثلة في كافة البلدان الاشتراكية. إذ أن لكل بلد تقاليده الخاصة ، وخصائصه والطرق التي تعمل وفقا لها مؤسساته السياسية. ومن حيث

المبدأ ، فإن كافة البلدان الاشتراكية تمر ، بطريقة أو أخرى ، بعملية بحث عن التجديد والتحولات العميقة . ولكن كل بلد ، أى قيادته وشعبه ، يقرر بشكل مستقل النطاق والحجم ، والأشكال ، والمعدلات ، والأساليب التي يجب أن تحدث وفقا لها هذه التحولات وليست هناك خلافات حول هذا الموضوع ، وإنما هناك فقط سمات خاصة .

لقد سألنى رئيس وزراء فرنسا جاك شيراك: « هل تعتقد أن روح البيريسترويكا ستترك بصاتها على كافة الدول الاشتراكية فى أوروبا الشرقية ». قلت: إن التأثير متبادل. فنحن نستعير بعضا من خبرة اصدقائنا وهم يأخذون منا مايرون أنه يلائمهم بشكل أفضل. وباختصار، فإنها عملية تبادل وإثراء متبادل.

وإذا ما تحدثنا بأمانة ، فإنه يبدو لى أن هذه النقطة قد طرحت بدافع أكثر من مجرد الرغبة فى معرفة كيف نقوم بالعمل . لقد حفزتها لدرجة ما الشائعات حول أن بعض أصدقائنا « يختلفون » مع خط القيادة السوفيتية إزاء البيريسترويكا . فماذا يمكننى قوله حول ذلك ؟ إنه ليست لدينا خلافات خطيرة مع أصدقائنا وحلفائنا . لقد تعودنا أن نتحدث بصراحة وبطريقة جادة . وأعتقد أننا نكسب من التقييم النقدى الجاد لتحركاتنا ومبادراتنا أكثر مما نكسب من التصفيق الحاد لأى شىء نقوم به . وهذه هى النقطة الأولى . أما الثانية ، وسأكررها فى هذا السياق ، فهى أننا لا نزعم أننا وحدنا الذين نعرف الحقيقة . والحقيقة يسعى إليها الناس من خلال المساعى والجهود المشتركة .

ولكن اسمحوا لى بأن أقول بضع كلمات أخرى عن الشئون الاقتصادية : إننا نرى العلاقات المباشرة بين الشركات والمؤسسات والتخصص باعتبارها المعين والرافعة الرئيسية لتعميق تكاملنا . ووفق هذه الخطوط على وجه التحديد نعيد بناء نشاطنا الاقتصادى الخارجي ونزيل الحواجز التي تعوق المؤسسات عن وجود شركاء مناسبين في البلدان الشقيقة وعن البت على مسئوليتها في كيفية التعاون معهم . ونحن ننشئ

شركات اشتراكية مشتركة ، بما فى ذلك تلك الشركات التى نتوقع أن تلبى حاجات بلادنا بسرعة أكبر إلى أكثر السلع تعقيدا . وتقام مثل هذه الشركات فى مجالات الحدمات ، والانشاء ، والنقل . والاتحاد السوفيتي على استعداد لأن يتقدم إليها ببعض الطلبيات المربحة . ونحن مستعدون كذلك للتفكير فى إمكانية إشراك رجال الأعمال الغربيين فى أنشطة مثل هذه الشركات .

ونحن نأمل فى التعجيل بعملية التكامل فى السنوات القليلة المقبلة. ومن أجل هذه الغاية يجب على مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة أن يركز بصورة متزايدة على مسألتين هامتين.

الأولى ، عليه أن ينسق بين السياسات الاقتصادية ، ويضع برامج طويلة المدى للتعاون فى بعض المجالات الجوهرية ويطور الأبحاث الهامة المشتركة والبرامج والمشروعات الهندسية . وإذا مافعل ذلك فسيكون بالإمكان ، ومن الملائم ، التعاون مع البلدان غير الاشتراكية ومنظاتها ، وفى المقام الأول مع الجاعة الاقتصادية الأوربية .

والثانية ، أن يركز مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة على تطوير وتنسيق المقاييس العيارية اللازمة لدولاب التكامل ، وكذلك المتعلقة بالشروط الاقتصادية والقانونية لعلاقات التعاون المباشر ، بما فى ذلك بالطبع ، تحديد الأسعار .

ونحن نريد أن يكون لدى مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة جهاز إدارى أقل ، ولجان وهيئات أقل ، وأن يولى اهتماما أكبر للحوافز الاقتصادية والمبادرات ، والروح الاشتراكية للمشروعات ، ولزيادة مشاركة أسر العمل فى العملية . ونحن وزملاؤنا نعتقد أن مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة يجب أن يتخلص من فائض العمل المكتى والتشويش البيروقراطى .

ولاينبغى على مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة أن يعتدى بأية حال على استقلال أي من الدول المشاركة فيه وعلى حقها السيادى فى أن تكون مسئولة عن

مواردها وقدراتها ، وأن تفعل كل مافى وسعها من أجل مصلحة شعبها . إن مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة ليس تنظيا فوق القوميات . وهو يعتمد فى صنع القرارات على مبدأ الاجاع ، بدلا من التصويت بالأغلبية . والشيء الوحيد الهام هو أن عدم رغبة أو مصلحة أى بلد فى المشاركة فى مشروع ما لاينبغى أن يكون قيدا على الآخرين . ومن يريد أن يشارك فعلى الرحب والسعة ، ومن لايريد ، فيمكنه الانتظار ورؤية مايقوم به الآخرون . وكل بلد حر فى أن يقرر ماإذا كان مستعدا لمثل هذا التعاون ولأى درجة سيشارك وأعتقد أن هذا هو الموقف الوحيد الصحيح .

ولدينا كذلك مهمة ذات قيمة كبرى تتعلق بالتعاون فى المجال الفكرى . والتغيير ضرورى هنا كذلك . فكل بلد اشتراكى ، هو فى الحقيقة ، معمل اجتماعى يختبر فيه الأشكال والأساليب المختلفة للجهد الاشتراكى البناء ، وهذا هو السبب فى رأينا بأن تبادل الخبرات فى البناء الاشتراكى وتجميع تلك الخبرات تكتسبان قيمة متزايدة .

ونحن الشيوعيين السوفيت ، عندما ندرس مستقبل الاشتراكية ، ننطلق من فكرة لينين بأن هذا المستقبل ، سوف يبنى من خلال سلسلة من الجهود التى تقوم بها مختلف البلدان . ولهذا السبب فإننا نؤمن بالطبع بأن أحد الطرق الجيدة للحكم على جدية حزب حاكم هو أن ننظر إلى كيفية استخدامه لخبرته الخاصة ، وكذلك لخبرة أصدقائه ، والخبرة العالمية . وفيما يتعلق بقيمة هذه الخبرة ، فلدينا معيار واحد هنا : المارسة الاجتماعية والسياسية لل نتائج التطور الاجتماعي والنمو الاقتصادى ، وتقوية الاشتراكية في المارسة . وتقوم الآن مراكزنا العلمية ، وصحافتنا ، واختصاصيونا ، بتحليل خبرة البلدان الشقيقة على نطاق أوسع بكثير وبنشاط أكبر بكثير حتى يطبقوها بشكل خلاق على الظروف السوفيتية .

وتبدى هذه البلدان من جانبها ، اهتماما كبيرا بما يحدث فى الاتحاد السوفيتى . وقد رأيت ذلك حينما التقيت بزعماء البلدان الاشتراكية ، وبالمواطنين العاديين خلال رحلتى في الخارج . وإليكم توضيح بسيط . فخلال رحلتى إلى

تشيكوسلوفاكيا ، أتيحت لى الفرصة للتحدث إلى الناس فى الشوارع وفى مصانع براغ ، وقد أحبرونى : « إن ماتفعلونه الآن هو الشيء السليم » . وأشار رجل شاب : « وهكذا يتلخص الأمر فى : تحدثوا الحقيقة ، واحبوا الحقيقة ، وتمنوا للآخرين الحقيقة » . وأضفت : « وتصرفوا وفقا للحقيقة . وهذا هو أصعب العلوم » . وواصلت كلامى لأقول : « إن الحياة أصعب من أى مدرسة ، فلا يأتى كل شيء بسهولة . ويكون عليك أن تتراجع أحيانا ، ثم تتقدم . ومن المؤلم أن تفكر وتحالل بسهولة ، ولكن لا يجب أن تخشى من ذلك » .

وتتمثل النتيجة العامة التى خلصت إليها القيادة السوفيتية فى أننا يمكن أن نصل إلى مستوى جديد من الصداقة بين البلدان الاشتراكية عن طريق تطوير الصلات بين أسر العمل فيها والأفراد وكذلك من خلال تبادل الخبرة . إن صلاتنا فى كافة المجالات قد أصبحت أكثر قوة . وقد بدأنا بداية طيبة . وتلعب الشبكة الصلبة من الصلات على خطوط الحزب والدولة والجاهير دورا هاما بل وحاسما فى التعاون بين الموسات ، البلدان الشقيقة . ولدينا أنواع مختلفة من الصلات ـ من تلك التى بين المؤسسات ، وفرق العمل ، والأسر ، ومنظات الأطفال والشباب ، والجامعات والمدارس ، والاتحادات الابداعية ، والشخصيات الثقافية والأفراد ، إلى الروابط الاقتصادية والاتحادات الابداعية ، والشخصيات الثقافية والأفراد ، إلى الروابط الاقتصادية الدائمة بين مسئولى الإدارات ، وأعضاء الحكومة وامناء اللجنة المركزية .

وإليكم بضع كلمات عن علاقاتنا مع جمهورية الصين الشعبية ، حيث يتحقق في عملية « التحديثات الأربعة » أفكار هامة للغاية أو في عدة وجوه مشمرة . ونحن نرى في الصين دولة اشتراكية عظمى ، وتتخذ خطوات محددة لضمان أن يجرى تطوير العلاقات الصينية السوفيتية بروح حسن الجوار والتعاون . وقد طرأ بالفعل تحسن ما . ونحن على قناعة بأن فترة الاغتراب قد ولت . وندعو رفاقنا الصينيين للعمل معنا من أجل تطوير العلاقات الطيبة بين بلدينا وشعبينا .

إن المرحلة الحالية من التطور التاريخي تفرض مطلبا ملحا على الدول الاشتراكية ٢٠٣

بأن تزيد معدلاتها ، وأن تنتقل إلى مواقع اقتصادية وعلمية وتكنولوجية أكثر تقدما ، وأن تبرهن باقتناع على جاذبية طريقة الحياة الاشتراكية .

لقد كنا صريحين ومنتقدين لأنفسنا ، فى تقييمنا للتطور الماضى وتحملنا نصيبنا من اللوم عن جوانب فشل الأسرة الاشتراكية . وقد استجاب أصدقاؤنا بسرعة ، ومهد ذلك الطريق لإعادة بناء العلاقات ، وللوصول بها إلى مستوى عصرى جديد .

وقد انجزنا معا فى السنوات الأخيرة الكثير فى السياسة والاقتصاد وفى تبادل المعلومات. وإن كان هناك مالم ينجز حتى الآن فلا يجب أن يفقدنا ذلك أعصابنا. إننا نعمل بدأب ، ونستكشف مشارف جديدة . والشيء الرئيسي هو أننا على قناعة بأهمية التعاون وبالحاجة إلى تعزيزه . وفى المرحلة التاريخية الراهنة ، التى تعتبر فى الواقع نقطة انعطاف ، تعى الأحزاب الحاكمة فى البلدان الاشتراكية مسئوليتها الكبيرة ، وطنيا ودوليا ، وهي تتطلع بدأب إلى مزيد من الطرق لتسريع التنمية الاجتماعية . إن التوجه نحو التقدم العلمي والتكنولوجي ، ومسعى الشعب الخلاق ، وتطوير الديموقراطية ، هذا التوجه هو الضمان فى أن الاشتراكية فى الفترة القادمة ، وعلى عكس تنبؤات ذوى النوايا الشريرة ، سوف تكشف حتى بدرجة أكثر عن إمكانياتها الحقيقية كاملة .

لقد أصبحت التغييرات الثورية جزءاً لايتجزأ من العالم الاشتراكي الواسع . وهي تكتسب قوة دافعة مستمرة . وينطبق ذلك على البلدان الاشتراكية ، ولكنه إسهام أيضا في تقدم الحضارة العالمية .

الفصل انخامس العالم الثالث في المجتمع الدولي

يعتبر ظهور أكثر من ماثة دولة من بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية على المسرح الدولى ، وسلوكها طريق التطور المستقل ، إحدى الحقائق لعالم اليوم . ونحن نهلل لهذه الظاهرة للقرن العشرين . إن تلك البلدان عالم ضخم ومتنوع ، ومصالحه كبيرة ، ومشاكله صعبة . ونحن ندرك أن مستقبل الحضارة يتوقف على الكيفية التي يتطور بها هذا العالم .

إن المسئولية عن عشرات البلدان هذه والتي يصل مجموع سكانها إلى العديد من الملايين ، وعن تسخير إمكانياتها الهائلة لمصلحة تقدم العالم لاتقع على هذه البلدان وحدها .

فن ناحية ، نرى فى العالم الثالث أمثلة من النمو الاقتصادى السريع وإن يكن غير متساو وفيه معاناة . وقد أصبحت بلدان كثيرة منه دولاً صناعية حديثة ، وبعضها يتحول إلى دول عظمى . إن السياسة المستقلة لمعظم دول العالم الثالث ، والتى ترتكز على الكرامة الوطنية المكتسبة ، تؤثر بشكل متزايد على الشئون الدولية فى مجموعها .

ومن ناحية أخرى ، فإن الفقر ، وظروف المعيشة غير الإنسانية ، والأمية ، والجهل ، وسوء التغذية ، والمجاعة ، ومعدل وفيات الأطفال المنذر بالخطر ، والحويثة ، لاتزال تشكل سمات مشتركة للحياة لبليونين ونصف من الناس ممن يقطنون هذه البلدان التي كانت مستعمرات وشبه مستعمرات سابقة . وهذه هي الحقيقة المرة . وفي أوائل الثمانينيات كان الدخل بالنسبة للفرد في بلدان العالم الثالث أقل ١١ مرة عن الفرد في البلدان الرأسمالية الصناعية . وهذه الفجوة تتسع بدلا من أن تضيق .

ومع ذلك ، تواصل الدول الغربية الفنية جمع «الجزية » الاستعارية الجديدة . وخلال العقد الماضى وحده ، أدت أرباح الاحتكارات الأمريكية التي انتزعتها من البلدان النامية إلى مضاعفة الاستثارات أربع مرات . وقد يسمى الأمريكيون هذا أعالا مربحة ، ولكننا نقيم الوضع على نحو مختلف . وسأتعرض لذلك فيما بعد .

وتتحمل البلدان النامية عبء دين خارجى ضخم. وعند ربط هذا الدين المتنامى بحجم الأرباح التى تنقل إلى الخارج كل عام ، فإنه يعنى شيئا واحدا ـ نظرة كثيبة للتنمية وتفاقما محتوما للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من المشاكل التى بلغت بالفعل حد الخطورة البالغة.

وتحضرنى مناقشة اجريتها مع الرئيس ميتران. وتتلخص فيا يلى: تسعى كل مؤسسة رأسمالية بوضوح من أجل الحد الأقصى من الأرباح. ومع ذلك يضطر الرأسمالى أو الشركة ، تحت ضغط العال ، أن يضع فى حسابه حقيقة أنه إذا ما أريد للمؤسسة أن تعمل بشكل فعال ، فن الضرورى ضمان دخول الموظفين ، والتى رغم مستواها المنخفض فإنها تكنى لتمكينهم من استعادة قدراتهم الانتاجية ، والمحافظة على صحتهم ، والنهوض بمستواهم المهنى وتربية أطفاهم . والرأسمالى مضطر لأن يقوم بذلك ، لأنه يدرك أنه عندما يقوم به فإنه يضمن لنفسه الربح اليوم وغدا . بيد أن الرأسمالية فى مجموعها ، ممثلة فى بلدان الغرب ، لاتريد أن تدرك حتى هذه الحقيقة البسيطة فى علاقاتها مع مستعمراتها السابقة . لقد دفعت الرأسمالية العلاقات الاقتصادية مع آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية إلى نقطة أصبح محكوما عندها على الخاصة ، والغرق فى ديون ضخمة .

وستكون هذه البلدان عاجزة ، بالطبع ، عن سداد هذه الديون فى ظل الأوضاع الحالية ، وإذا لم يوجد حل عادل ، فن الممكن أن يحدث شىء . لقد تحول دين البلدان النامية إلى قنبلة موقوتة من نوع ردىء ويمكن أن يكون للانفجار

نتائج تبعث على اليأس. ويتراكم الآن انفجار اجتماعي ذو قوة تدميرية هائلة.

وتعتبر ديون البلدان النامية واحدة من أخطر المشاكل فى العالم. وهذه المشكلة قائمة منذ وقت طويل. وجرى إما تأجيلها أو تجاهلها أو مناقشتها بشكل عام. إن زعماء الغرب يهونون من الخطر، ويرفضون أن يروا خطورة الاضطرابات الاقتصادية التى قد تحدث. ولهذا السبب فإنهم يقترحون تدابير غير مدروسة ويحاولون حل الوضع بالمسكنات. وهناك عزوف واضح عن اتخاذ خطوات حقيقية وهامة لتطبيع التعاون إلاقتصادى مع البلدان النامية.

وهناك حاجة إلى القيام بجهود واسعة إذا ما أردنا اجراء تغييرات حقيقية وإقامة نظام اقتصادى عالمى جديد . وسيكون طريقا شاقا وطويلا ، وينبغى أن يكون المرء على استعداد لأى تحول غير متوقع . وتتطلب إعادة بناء العلاقات الدولية وضع مصالح جميع البلدان فى الاعتبار ، كما تتطلب توازنا فى المصالح ، بيد أن الكثيرين لا يريدون أن يتنازلوا عن شىء من مصالحهم .

النزاعات الإقليمية

إن الحالة الرهيبة للبلدان النامية هي السبب الحقيقي لكثير من النزاعات في آسيا ، وأفريقيا ، وأمريكا اللاتينية . وعند مناقشة ذلك مع الرئيس ريجان في لقائنا في جنيف ، أخبرته بأن على المرء أن يدرك أولا من أين تأتي النزاعات الإقليمية .

والحقيقة هي أنها ، رغم عدم تماثلها من حيث الجوهر ومن حيث طبيعة القوى المتعارضة ، فإنها تنشأ عادة على تربة محلية ، كنتيجة لنزاعات داخلية أو إقليمية ، أفرزها الماضي الاستعارى ، والعمليات الاجتاعية الجديدة ، أو عودة سياسة النهب ، أو أفرزتها الثلاثة معا .

إن الأزمات والنزاعات تربة صالحة للإرهاب الدولى. ويعارض الاتحاد السوفيتي الإرهاب من حيث المبدأ ، وهو على استعداد لأن يتعاون بنشاط مع الدول

الأخرى لاجتثاث هذا الشر. ومن الملائم أن تتركز هذه المهمة داخل الأمم المتحدة . وقد يكون من المفيد أن تقيم تحت إشرافها محكمة للتحقيق فى أعمال الإرهاب الدولى . وخلال حوار ثنائى مع بلدان الغرب (جرى فى العام الماضى تبادل هام للآراء حول هذا الموضوع بيننا وبين الولايات المتحدة ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وألمانيا الاتحادية ، وإيطاليا ، وكندا ، والسويد) اتفقنا على وضع اجراءات فعالة لمقاومة الإرهاب . ونحن على استعداد للتوقيع على اتفاقيات على وضع اجراءات فعالة لمقاومة الإرهاب . ونحن على استعداد للتوقيع على اتفاقيات ثنائية خاصة ، وآمل أن تتسع فى السنوات القادمة جبهة النضال المشترك ضد الإرهاب الدولى. ولكن شيئا واحدا لايقبل الجدل إذا ما أردنا استئصال الإرهاب ، إذ من الضرورى إزالة الأسباب التي تولد النزاعات والإرهاب .

وغالبًا ما قابلت ساسة غربيين بارزين يعتبرون وجود النزاعات الإقليمية ذاته نتاجا «لنشاط الكريملين التآمري». فكيف تجرى الأمور حقا ؟.

فى الشرق الأوسط ، يوجد منذ سنوات عديدة نزاع بين إسرائيل وجيرانها . وتوضع موسكو فى موضع الاتهام ، لأنها تعارض بثبات التوسع الإسرائيلى وتدافع عن الحقوق المشروعة للشعوب العربية ، ومن بينها الشعب العربي الفلسطيني . وتعزى إلى الاتحاد السوفيتي أوهام لا وجود لها بالعداوة لإسرائيل ، رغم أن بلادناكانت من أوائل الدول التي شجعت قيام دولة إسرائيل .

إن الأمور الهامة تنبغى مناقشها بشكل جاد . والشرق الأوسط عقدة مستعصية تتشابك فيها مصالح العديد من الدول . وسيظل الوضع هناك خطيرا . ونحن على قناعة بأن من المهم بالنسبة للشرق والغرب أن نحل هذه العقدة إنه مهم أيضا بالنسبة للعالم كله . ولكن هناك أيضا رأى يقول بأن مسائل الشرق الأوسط يستحيل حلها تماما . ومن الصعب حتى أن تفهم مثل هذا الموقف ، كما يستحيل الموافقة عليه لاعتبارات سياسية وأخلاقية على السواء . ومن حيث المنطق ، فإن النتيجة الوحيدة

التى يمكن استخلاصها هو أن الوضع لابد وأن يزداد تفاقما، وأنه لابد من اندلاع معارك جديدة ومزيد من المعاناة لشعوب المنطقة. أليس من الأفضل أن نتخذ موقفا إيجابيا ونساند جهود هؤلاء الذين يبحثون عن طرق لوضع حد لمأزق الشرق الأوسط عن طريق تسوية سياسية عادلة ؟.

ونحن ندرك أنه فى ظل الأوضاع القائمة يصعب التوفيق بين مصالح الأطراف المتنازعة ، ومع ذلك فن الضرورى أن نجد قاسما مشتركا بين مصالح العرب ، وإسرائيل وجاراتها والدول الأخرى . ومع ذلك فنحن لانريد بأية حال أن تؤدى عملية وضع تسوية للمشكلة ، أو أهداف هذه العملية ذاتها ، إلى المساس بطريقة ما بمصالح الولايات المتحدة والغرب . وكذلك لانرمى إلى دفع الولايات المتحدة خارج الشرق الأوسط فهذا ببساطة تفكير غير واقعى ـ وكذلك الولايات المتحدة يجب ألا تربط نفسها بأهداف غير واقعية هى الأخرى .

والشيء الرئيسي في هذه القضية هو أن نأخذ مصالح كافة الأطراف في الاعتبار. ويفسر هذا ، بشكل خاص ، مبادرتنا التي مضت عليها فترة طويلة فيها يتعلق بعقد مؤتمر دولي للشرق الأوسط. وقد ذكرت ذلك في محادثة لي مع جيمي كارتر. وقد استغرق الأمر من الأمريكيين عشر سنوات لكي يروا من خلال تجربتهم الخاصة ، رغم أنه كان بإمكانهم أن يعتمدوا على تجربة أسلافهم ، أن الصفقات المنفردة لانتيجة لها. والآن فقط ، وبعد أن مرت واشنطن بدورة «إعادة تأهيل» ، يبدو وكأنها تتحرك نحو تقييم أكثر واقعية للوضع وتعود إلى مناقشة أوسع لهذه المسائل.

ومن الضرورى أن تتحرك المفاوضات من مكانها . ويجب أن تدمج الاتصالات الثنائية والمتعددة الأطراف القائمة مع مسعى أكثر قوة وحيوية نحو تسوية سياسية عادلة ، وإذا لم يكن المؤتمر ليقدم مظلة لصفقات وخطوات منفردة ، وإذا كان يهدف إلى تسوية حقيقية في الشرق الأوسط ، مع إيلاء مصالح البلدان العربية ، بما

فى ذلك مصالح الفلسطينيين وإسرائيل ، ماتستحقه من اعتبار ، فإننا على استعداد لتقديم كافة أنواع المساعدات والمشاركة فى كافة مراحل المؤتمر. وأن نفعل ذلك بشكل بناء.

وأود أن أؤكد فى هذا الخصوص أننا لانكن أى عداء لإسرائيل من حيث المبدأ . ونحن نعترف بحقها المشروع فى الوجود . ومع ذلك ، فإننا فى ظل الوضع الحالى وفى ضوء الأعمال التى ترتكبها إسرائيل ، لا يمكننا أن نوافق على إقامة علاقات دبلوماسية معها . ولكن إذا ما تغير الوضع ، وإذا مارأينا إمكانية تطبيع وتسوية فى الشرق الأوسط ، فبإمكاننا إعادة النظر فى هذا الأمر . وليست لدينا أية عقد فى ذلك . أما فيما يتعلق بالاتصالات القائمة بالفعل بين بلدينا ، فلن نتخلى عنها .

ولنأخذ منطقة متفجرة أخرى من العالم ـ أمريكا الوسطى . فحول أى شىء يدور النزاع هناك؟ لقد أطبح بنظام سوموزا غير الشعبى فى نيكاراجوا ، وخرجت الثورة الشعبية ظافرة . ومرة أخرى ، أعلن أن ثورة الساندينستا مرفوضة لأنها «من صنع موسكو وكوبا » . وهذا هو التبرير الأيديولوجى النمطى المبتذل لحرب غير معلنة ضد بلد صغير كانت « خطيئته » الوحيدة أنه يريد أن يعيش بطريقته الخاصة ، ودون تدخل من الخارج . وبالمناسبة ، فإن ماحدث فى نيكاراجوا يبين ما يكن أن نتوقعه فى البلدان الأخرى . وإنه لما ينافى العقل أن نسمع مزاعم تقول بأن نيكاراجوا « تهدد » أمن الولايات المتحدة ، وأن القواعد العسكرية السوفيتية تجرى إقامتها هناك ـ القواعد التى يزعم الأمريكيون أنهم يعرفون عنها ، ولكننى من ناحيتى لم أسمع عنها إطلاقا .

وقد أجريت حوارا مع مارجريت تاتشر حول هذه النقطة . وقلت لها إن ظروف الحياة غير المحتملة قد أجبرت مواطني نيكاراجوا على القيام بالثورة . وقد خلق هذه الظروف الأمريكيون أصدقاء بريطانيا ، الذين حولوا كل أمريكا الوسطى إلى فناء خلني لهم ، مستنزفين مواردها بلا رحمة ، وهم الآن يتعجبون لماذا تثور الشعوب .

إن ما يحدث في نيكاراجوا هو من اختصاص الساندينستا وشعب نيكاراجوا. وكان حديثنا يتسم بالصراحة وسألت السيدة تاتشر: «أنت تتهميننا بالتضامن مع نيكاراجوا ، ولكن هل تعتبرين أنه من الطبيعي تقديم مساعدات للتمييز العنصري أو للعنصريين؟ ألا تزعجكم الصورة التي تبدون بها أمام الرأى العام العالمي؟ إننا نتعاطف مع حركات تحرير الشعوب التي تكافح من أجل العدالة الاجتاعية . ولكنكم ، كما أرى ، لا تفعلون ذلك . وهنا تختلف مواقفنا » .

والحقيقة أن الولايات المتحدة إذا تركت نيكاراجوا وشأنها تعيش في سلام فإن ذلك سيكون أفضل للولايات المتحدة نفسها ، ولشعوب أمريكا اللاتينية . ولبقية العالم .

إن المشاكل المتفجرة لا يمكن وضعها على الرف ، ولن تحل أو تختنى من تلقاء نفسها . إن الوضع فى جنوب أفريقيا كان عاصفا للغاية منذ زمن طويل . ويقاوم سكان جنوب أفريقيا كلا من التفرقة العنصرية والنظام القمعى غير الأخلاقى الذى تزداد عزلته . بيد أن الكثيرين فى الغرب يرون خلف هذا الموقف المتصارع مؤامرة شيوعية ونفوذ موسكو ، رغم أنه لا يوجد أى أثر لوجود سوفيتى فى جنوب أفريقيا ، وهو ما لا يمكن أن يقال عن الولايات المتحدة وحلفائها .

وينطبق نفس الشيء على الوضع فى منطقة الخليج. إن تقييم الاتحاد السوفيتى للوضع وأسباب تفاقه معروف ، وقد جرى توضيح ذلك فى بيانات رسمية . كما اتخذ مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة قرارا يطالب بوقف إطلاق النار ووقف كل النشاط العسكرى وكذلك سحب إيران والعراق لقواتهما إلى الحدود المعترف بها دوليا . وقد صوّت الاتحاد السوفيتى إلى جانب القرار . بيد أن الولايات المتحدة التى تتصرف على نحو يناقض قرار مجلس الأمن ، كانت تبحث عن ذريعة للتدخل فى النزاع على نحو يناقض قرار مجلس الأمن ، كانت تبحث عن ذريعة للتدخل فى النزاع الايرانى العراقى ، وتعمل على تعزيز تواجدها فى منطقة الخليج . وهى تزعم أن الاتحاد السوفيتى يهدد المصالح الغربية ، التى يجب أن تحمى ، وتعد بالإضافة إلى ذلك بأن تبقى فى الخليج حتى بعد أن ينتهى النزاع .

هذا هو تقييم جميع النزاعات الإقليمية من خلال منظور المواجهة السوفيتية الأمريكية. ولدينا انطباع بأن الولايات المتحدة تحتاج إلى النزاعات الإقليمية لكى تجد على الدوام فرصة للمناورة عن طريق التلاعب بمستوى المواجهة واستخدام سياسة القوة والدعاية المعادية للسوفيت. ويعتقد الاتحاد السوفيتي، من الناحية الأخرى، أن هذه النزاعات ينبغى ألا تستخدم في إثارة مواجهة بين النظامين، ويخاصة عندما تشمل الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة.

وطالما تناولت مسألة النزاعات الإقليمية ، فقد يسأل القارئ عما أراه بخصوص المسألة الافغانية . ربما لايكون معروفا عالميا أن أفغانستان كانت أول دولة يقيم معها الاتحاد السوفيتي علاقات دبلوماسية ، وقد كنا على الدوام على علاقات ودية مع هذا البلد ، ومع ملوكه ورؤسائه القبليين . وأفغانستان لديها بالتأكيد مشاكل كثيرة بسبب تخلفها الشديد ، الذى نشأ لدرجة كبيرة عن الحكم البريطاني . وعلى ذلك كان من الطبيعي تماما أن يرغب كثيرون من الأفغان في مساعدة شعبهم في التغلب على أنماط العصور الوسطى . وتحديث الدولة والمؤسسات العامة ، وفي الاسراع بالتقدم . ولكن بمجرد وضع معالم التغييرات التقدمية ، بدأت الدوائر الإمبريالية ضغطها على أفغانستان من الخارج . وهكذا ، فوفقا للمعاهدة السوفيتية الأفغانية طلب زعماء أفغانستان من الاتحاد السوفيتي المساعدة ، وخاطبونا إحدى عشرة مرة قبل أن نوافق على إدخال قوة عسكرية محدودة إلى هذا البلد .

ونحن نريد إعادة جنودنا إلى الوطن بأسرع ما يمكن . لقد تمت تسوية المسألة فى الأساس . ولكنها ترتبط بضرورة تسوية الوضع حول أفغانستان سياسيا . ونحن نؤيد النهج الحالى للقيادة الأفغانية فى المصالحة الوطنية . والاتحاد السوفيتى يريد لأفغانستان أن تكون مستقلة ذات سيادة وغير منحازة كماكانت من قبل . وإنه من حقوق السيادة لشعب أفغانستان أن يقرر أى طريق يختار ، وأية حكومة يريد ، وأية برامج للتنمية ينفذ . والتدخل الأمريكى يؤخر انسحاب قواتنا ويعرقل تنفيذ سياسة المصالحة الوطنية ، ومن ثم تسوية المسألة الأفغانية برمتها . إن نقل صواريخ ستنجر

إلى العصابات المعادية للثورة ، والتي تستخدمها لإسقاط الطائرات المدنية ، هو ببساطة عمل لا أخلاق ولامبرر له على الإطلاق .

لكل بلد الحق في اختيار طريق تطوره الحاص

لكل بلد الحق فى أن يختار طريق تطوره الخاص ، وأن يتصرف فى مصيره ، وأرضه ، وموارده البشرية والطبيعية . ولا يمكن تطبيع العلاقات الدولية مالم تدرك ذلك كافة البلدان إذ أن الاختلافات الأيديولوجية والاجتاعية .. والاختلافات فى الأنظمة السياسية هى نتيجة للاختيار الذى قام به الشعب . والاختيار القومى يجب ألا يستخدم فى العلاقات الدولية بطريقة تؤدى إلى خلق اتجاهات وأحداث يمكن أن تفجر النزاعات والمواجهة العسكرية .

لقد آن الأوان لكى يطرح زعماء الغرب جانبا سيكولوجية وأخطار الأزمنة الاستعارية . وسيفعلون ذلك إن عاجلا أم آجلا . وطالما يواصل الغرب النظر إلى العالم الثالث باعتباره مجالا لنفوذه ، ويواصل ممارسة سيطرته هناك ، فسوف تستمر التوترات ، وستظهر بؤر جديدة مع تصاعد المقاومة المعادية للامبريائية .

ولا يحب معارضونا فى الغرب أن نتحدث إليهم بهذه الطريقة . فهم يفقدون السيطرة على أعصابهم ويزداد انزعاجهم حينا نسمى الأشياء بأسمائها . وهم يفسرون تقيهاتنا بأنها تطاول على العلاقات التقليدية بين الولايات المتحدة وأوروبا الغربية ، فى المقام الأول ، والبلدان النامية ، فى المقام التالى . ويقولون إننا نرغب أن تتدنى مستويات المعيشة فى البلدان الرأسمالية .

وقد أوضحت فى مناسبات عديدة أن أهدافنا ليست موجهة ضد مصالح الغرب , ونحن نعرف مدى أهمية الشرق الأوسط ، وآسيا ، وأمريكا اللاتينية وغيرها من مناطق العالم وكذلك جنوب أفريقيا ، لاقتصاديات أمريكا وأوروبا الغربية وعلى الأخص كموارد للمواد الخام . وقطع هذه العلاقات هو آخر ما نصبو إليه ،

ولا تساورنا أية رغبة فى قطع هذه العلاقات الاقتصادية المتبادلة التى تشكلت تاريخيا .

لقد آن الأوان لأن نعترف بحق شعوب العالم الثالث فى أن يكونوا سادة أنفسهم لقد توصلت هذه الشعوب إلى استقلالها السياسي بعد سنوات عديدة من النضال الشاق . وهم يريدون تحقيق الاستقلال الاقتصادي كذلك . ويحظى زعماء هذه البلدان (وقد التقيت بعدد منهم شخصيا) بمساندة شعوبهم ويريدون أن يعملوا شيئا من أجلها . وهم يريدون أن تكون بلادهم مستقلة حقا وأن تتمكن من التعاون مع الآخرين على أساس متكافئ . ونحن نفهم رغبة هذه البلدان فى أن تستخدم مواردها الطبيعية والبشرية الضخمة من أجل التقدم الوطني . وهم يريدون أن يعيشوا فى وضع لايقل عن شعوب البلدان المتطورة . ولا يوجد لديهم الآن سوى يعيشوا فى وضع لايقل عن شعوب البلدان المتطورة ، ولا يوجد لديهم الآن سوى من خلال قنوات التبادل غير المتكافئ . ولن تقبل البلدان النامية هذا الوضع لزمن طويل .

وهذه إحدى حقائق عالمنا المعاصر التي لا يرغب الجميع في الغرب أن يأخذوها في الاعتبار ، رغم أنهم يعونها تماما . ولكنه أمر ينبغي أن يؤخذ في الحساب ، وبخاصة لأنه يهم عشرات الدول .

وكلما أسرع الجميع إلى الاعتراف بهذه الحقيقة ، فى كافة القارات ، كلما أصبحت العلاقات الدولية طبيعية بصورة أسرع . وهذا أمر فى غاية الأهمية ، لأنها المسألة الرئيسية .

لقد آن الأوان لطرح المشكلة على نطاق عالمى ، والبحث عن طريق لحلها على أساس توازن المصالح وإيجاد أشكال تنظيمية لحلها فى إطار المجتمع الدولى . وتعتبر الأمم المتحدة أفضل محفل لمناقشة هذه المسألة . ونحن نعد مقترحاتنا فى هذا الشأن . وقد أحطت بيريز دى كويار السكرتير العام للأمم المتحدة علما بذلك خلال لقائنا

ورحب بفكرة طرح المسألة على الأمم المتحدة .

وتتمسك غالبية البلدان النامية بسياسة عدم الانحياز. وقد نشأت حركة عدم الانحياز على أساس هذا البرنامج لتوحد مايزيد على مائة بلد ، تضم غالبية سكان العالم . وأصبحت الحركة قوة جبارة وعاملا هاما فى الشئون الدولية . وهى تساعد على تشكيل نوع جديد من العلاقات الدولية ، رغم ما تتميز به الحركة من سمات وتفاوت . وتجسد حركة عدم الانحياز رغبة البلدان الحديثة التحرر فى التعاون مع بعضها على أساس متكافئ ، وفى إلغاء الإملاء ومحاولات الهيمنة فى العلاقات الدولية . ويتفهم الاتحاد السوفيتي أهداف الحركة ويتضامن معها .

وحتى وقت قريب ، اعتقد كثير من دول عدم الانحياز أن نزع السلاح وإزالة الترسانات النووية أمور تخص الدولتين العظميين ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وأنها لاتهم كثيرا البلدان النامية . ومع ذلك أبدت الحركة تفها عميقا للعلاقة القائمة بين نزع السلاح والتنمية وذلك فى المؤتمر الثامن لرؤساء دول وحكومات بلدان عدم الانحياز فى هرارى . وأعلنت هناك عن موقفها بشكل رسمى ، وهو موقف يستند إلى أسس قوية . وإذا ما أوقف سباق التسلح ، وتحقق نزع السلاح ، فسوف تتوفر موارد كافية لحل أخطر مشاكل العالم الثالث .

ولقد ناقشت العلاقة بين نزع السلاح والتنمية مع السيد بيريز دى كويار. واتفقنا على أن المسألة تستحق اهتماما كبيرا من منظمة الأمم المتحدة . وتقدم الاتحاد السوفيتي بمقترحات محددة إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة حول العلاقة بين نزع السلاح والتنمية . ورفضت الولايات المتحدة للأسف أن تشارك في هذا المؤتمر.

ويرحب الاتحاد السوفيتي بهذه الحقيقة ويأخذها بعين الاعتبار في سياسته الخارجية . واليوم ، لا تعتبر الدول الاشتراكية وحدها حركة عدم الانحياز عاملا إيجابيا وهاما في السياسة العالمية بل يشاركها في ذلك كثير من الدول الرأسمالية .

عقدة آسيا _ الحيط الهادى

إن الشرق ، وعلى الأخص آسيا ومنطقة المحيط الهادى ، يعتبر الآن المكان الذى تسرع الحضارة فيه خطاها . ويتجه اقتصادنا فى تطوره نحو سيبريا والشرق الأقصى . ولذلك فنحن مهتمون حقا بتعزيز التعاون فى آسيا والمحيط الهادى .

والاتحاد السوفيتي بلد آسيوى ، كما هو أوروبي ، وهو يريد أن يرى لدى هذه المنطقة الضخمة ، آسيا والمحيط الهادى ، وهى المنطقة التي يرجح كثيرا أن تركز عليها السياسة العالمية في القرن القادم ، كل ماتحتاجه لتحسين الأوضاع فيها ، وإن مصالح كافة الدول والموازنة بينها ، يوليان مايستحقان من اعتبار . ونحن نعارض أن تكون هذه المنطقة مجالا لأحد . ونريد للجميع فيها مساواة وتعاونا وأمنا حقيقيا .

وفى آسيا ، ربما لاتكون مسائل السلام أقل حدة وإيلاما منها فى مناطق أخرى من العالم ، بل هى أكثر فى بعض أجزائها . وكان من الطبيعى أن يتقدم الاتحاد السوفيتي والهند وغيرهما من الدول المعنية بذلك ، بمبادرات مختلفة فى أعوام مختلفة . وكانت المبادرة المعروفة أكثر هى اقتراح بتحويل المحيط الهندى إلى منطقة سلام . وقد أيدته الجمعية العامة للأمم المتحدة وحركة عدم الانحياز . وأصبح التعهد بعدم البدء باستخدام الأسلحة النووية ، وهو ما قطعه على نفسه كل من الاتحاد السوفيتي وجمهورية الصين الشعبية ، عاملا هاما للسلام ليس فى آسيا والمحيط الهادى فحسب ، بل وفى العالم كله فى الحقيقة .

وعندما قابلت لأول مرة فى مايو ١٩٨٥ ، باعتبارى سكرتيرا عاما للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى ، راجيف غاندى ، رئيس وزراء جمهورية الهند ، اقترحت أنه فى إطار المبادرات السابقة ، والتجربة الأوروبية ، سيكون من المستحسن أن نفكر مليا فى موقف عام ومتكامل من مسألة الأمن فى آسيا وفى إمكانية تنسيق جهود البلدان الآسيوية فى هذا الاتجاه . وأخذت هذه الفكرة تنضج عندما التقيت بزعماء دول أوروبا وبغيرهم من الشخصيات السياسية . وقارنت ،

على غير رغبة منى ، الوضع فى آسيا بالوضع فى أوروبا . ودفعنى ذلك إلى التفكير بأن منطقة المحيط الهادى تحتاج بدورها بسبب النزعة العسكرية المتصاعدة إلى نظام ما من «اجراءات الحاية» الحاصة ، كتلك التى نصت عليها عملية هلسنكى فى أوروبا .

وأكد التقرير السياسي للجنة المركزية إلى المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي تزايد أهمية اتجاهات آسيا والمحيط الهادي في السياسة الخارجية السوفيتية . وأعلنًا أن الحلول المحلية يجب البحث عنها دون إبطاء ، بادئين بالتنسيق ثم حشد الجهود للتوصل إلى تسويات سياسية للمشاكل الحساسة ، يمكنها في خط متواز ، وعلى هذا الأساس ، على الأقل بنزع حدة المواجهة العسكرية في مختلف مناطق آسيا وإشاعة الاستقرار في الوضع هناك . وقدمت المقترحات المتصلة بالموضوع في فلاديفوستوك في يوليو ١٩٨٦ (وكانت تتعلق بإقامة حاجز ضد انتشار وتعزيز الأسلحة النووية في آسيا ومنطقة المحيط الهادي ، وتقليص النشاط البحري في المحيط الهادي ، وتقليص النشاط البحري في المحيط الهادي ، وتغفيض القوات المسلحة والأسلحة التقليدية في آسيا ، وتدابير بناء المحتف وعدم استخدام القوة في هذه المنطقة) .

وبيناكنت في زيارة لهذه المدينة بدا لى من المناسب على وجه الخصوص أن أدرس مسائل السياسة العالمية من زاوية آسيا والمحيط الهادى. وكان الوضع فى الشرق الأقصى بشكل عام ، فى آسيا ومناطق المحيط المجاورة ، حيث كنا نعيش ونبحر منذ وقت طويل يمثل أهمية قومية عظمى بالنسبة لنا . وهنا ، فى المساحات المترامية التى تغطى قرابة نصف الكرة الأرضية ، توجد بلدان رئيسية كبيرة ، من بينها الاتحاد السوفيتى ، والولايات المتحدة ، والهند ، والصين واليابان ، وفيتنام ، والمكسيك ، وأندونيسيا . كما تشمل أيضا دولا تعتبر متوسطة الحجم ، ولكنها كبيرة نسبيا بالمقاييس الأوروبية ـ كندا ، والفيلبين ، استراليا ونيوزيلندا ، وإلى جانها عشرات من الدول الصغيرة والمتناهية الصغر .

وبهذه المناسبة ، فقد أثيرت ضجة كبيرة حول خطابي في فلاديفوستوك. لقد

صدرت تلميحات عديدة بخصوص قرار الاتحاد السوفيتي « معالجة الوضع » في المحيط الهادي وإقامة هيمنة سوفيتية هناك ، والعدوان ، بطبيعة الحال ، على المصالح الأمريكية في المقام الأول . ولكننا اعتدنا بالفعل على مثل هذه الاستجابة ، استجابة « إنسان الكهف » لمبادراتنا . وكل محاولاتنا ، مهاكانت ، في تحسسها لإقامة علاقات طيبة أو ببساطة علاقات دبلوماسية أو تجارية مع هذا البلد أو ذاك في المنطقة كان ينظر إليها على الفور على أنها مخططات ماكرة .

لكن ماهى الحقائق ؟ بعد عام من رحلتى إلى الشرق الأقصى السوفيتى أدليت محديث صحفى للصحيفة الأندونسية « ميرديكا » . وقد قيّم رئيس تحريرها ب . م . ضياء تقييا سليما تماما فحوى خطابى هناك على أنه دعوة لكافة دول المنطقة لمعالجة مشاكلها المشتركة حقا . ولكن عند تعداد البلدان نسى أن يذكر الولايات المتحدة . وقد لفت نظره إلى ذلك وقلت إننا نأمل فى التعاون مع الولايات المتحدة كذلك . ومن السخف التخمين بأن انشطتنا ومصلحتنا فى هذه المنطقة يشكلان خطرا على مصالخ الآخرين . إن ما قيل فى فلاديفوستوك هو تعبير عن سياسة مدروسة . ولاينبغى أن يقلق أحد من ذلك . لقد أعلنا أننا على استعداد للتعاون مع الولايات المتحدة بنفس الطريقة التى نتعاون بها مع اليابان ورابطة دول جنوب شرقى آسيا ، والهند وغيرها من الدول ونحن ندعو الجميع لأن يعملوا معا من أجل السلام ومن أجل مصالح الجميع .

وعندما أجبت على رئيس تحرير « ميرديكا » ، ساندت نوايانا فى هذه المنطقة بمقترحات محددة جديدة ، أهمها الاقتراح بإزالة كافة الصواريخ المتوسطة المدى فى الجزء الآسيوى من الاتحاد السوفيتى ، وبالطبع على أساس « خيار الصفر » مع الولايات المتحدة .

وترتكز نظرتنا إلى هذا الجزء الهائل من العالم ، حيث تقع بلدان وشعوب مختلفة كثيرة ، على معرفة وفهم الحقائق الموجودة فيه . وترتكز مفاهيمنا حول وسائل ضهان الأمن الدولى والتعاون السلمى فى آسيا والمحيط الهادى على هذه الحقائق ، وتنبع من رغبتنا الحقيقية فى بناء علاقات جديدة وعادلة فى هذه المنطقة بأكملها.

بعد ذلك بعام تمكنا من تحديد اتجاهات أيجابية عديدة ـ وقد ذكرتها فى حديثى مع رئيس تحرير « ميرديكا » . بيد أن التناقضات والتعقيدات لم تقل ، وتزايدت اتجاهات المواجهة . وهذا ما دفعنا إلى اقتراح تدابير إضافية لتخفيف حدة التوتر فى آسيا والمحيط الهادى ، وهى تدابير تعتبر تطويرا وتفصيلا لمبادرات فلاديفوستوك .

ونحن نتابع بحرص مواقف ومبادرات الدول الواقعة فى هذا الجزء من العالم. وتحن نتابع بحرص مواقف ومبادرات الدول الواقعة فى هذا الجزء من العالم. وقد ظهرت أخيرا أفكار بناءة وأصيلة ويجرى تداولها فى الاتصالات الإقليمية . إن السيات المحددة للنظرة العالمية للشعوب التى تعيش هناك ، وخبرتها التاريخية والسياسية وهويتها الثقافية يمكن أن تساعد لدرجة كبيرة فى حل مشاكل المنطقة ، ويمكن أن تقدم أفكارا مفهومة ومقبولة لدى الجميع .

لقد أثار إعجابنا الاسهام المتنامى لرابطة بلدان جنوب شرقى آسيا فى الشئون الدولية ، ونحن على استعداد لتطوير علاقاتنا مع كل بلد من بلدان الرابطة على حدة ، ومع الرابطة ككل ، مع الاحترام الواجب للإسهام المستقل الذى قدمته بلدان الرابطة بشكل فردى وجاعى لتحسين الوضع الدولى .

لماذا أتحدث عن أهمية النهج المستقل الذي تسلكه دول بمفردها أو مجموعة من الدول ؟ ليس لأننا بمساندتنا لمثل هذا الخط نود أن نعمل ضد مصالح الطرف الآخر، وإنما لأن العلاقات الدولية الجديدة لا يمكن بناؤها إلا على أساس نهج مستقل . وحتى الآن كانت العلاقات الدولية تعتمد بدرجة كبيرة على تحركات دول معينة أو مجموعة من الدول . ولكن ذلك لم يؤد إلى تحسين الوضع في العالم . هذا هو درس الماضي الذي يجب أن يتعلمه كل الساسة ذوى العقلية الجادة . إن بناء علاقات جديدة في عالمنا المعقد ، وفي منطقة على هذه الدرجة من التشابك مثل علاقات جديدة في عالمنا المعقد ، وفي منطقة على هذه الدرجة من التشابك مثل السيا والمحيط الهادي ، لا يمكن أن يقوم إلا عبر طريق التعاون حيث تلتقي معا مصالح

كل الدول . أما نمط العلاقات التي ورثناها عن الماضي ، والتي تقف فيها البلدان المستعمرة في جانب والمستعمرات في الجانب الآخر ، قد انقضي زمانه . ويجب أن يخلى الطريق لنمط جديد من العلاقات .

وقد جرت تعليقات كثيرة عندما اقترح عقد مؤتمر للمحيط الهادى فى المستقبل المنظور تحضره كافة الدول المطلة على المحيط. وقد طرحت هذه الفكرة كافتراض عملى مفيد، أو لكى نكون أكثر دقة ، كدعوة إلى المناقشة . والتماثل مع هلسنكى يجد تفسيره فى حقيقة أن الأسرة العالمية ليس لديها بعد أى خبرة أخرى من هذا القبيل . بيد أن أى تجربة دولية فى عصرنا يكون لابد فيها من بعض السمات العامة ، العالمية .

ومن بين الأسئلة التى طرحتها على صحيفة «ميرديكا» كان هذا السؤال: «كيف ترى دور الاتحاد السوفيتى فى تنمية التعاون الاقتصادى الإقليمى ؟ وتمشيا مع مفهوم بلادنا فى النمو الاقتصادى والاجتهاعى المتسارع، فإننا نولى اهتهاما خاصا للمناطق شرقى الأورال التى تفوق قدرتها الاقتصادية الجزء الأوروبي من الاتحاد السوفيتي مرات عديدة، ونحن على قناعة بأن الشركات والمشروعات المشتركة التى تقام بالتعاون مع دوائر الأعمال فى دول آسيا والمحيط الهادى يمكن أن تشارك فى استثار ثروات هذه المناطق.

حول نزع السلاح النووى في آسيا

وإذ يهتم الاتحاد السوفيتي بآراء وهموم بلدان آسيا ، فقد اتخذ خطوة هامة إلى الإمام بموافقته على «خيار الصفر المزدوج» فيما يتعلق بالصواريخ المتوسطة المدى والصواريخ التكتيكية . وأبدينا كذلك استعدادنا بألّا نزيد في عدد الطائرات الحاملة للرءوس النووية في الجزء الآسيوي من بلادنا إذا ما وافقت الولايات المتحدة بألا تنشر في المنطقة أسلحة نووية إضافية يمكن أن تصل إلى الاتحاد السوفيتي . ونحن نتوقع بأن . يعطى كل ذلك دفعة قوية لعملية نزع السلاح النووي في آسيا .

ورغم تعقيد لوحة آسيا والمحيط الهادى وتصميمها المتعدد الألوان والتوزيع المتفاوت للألوان الفاتحة والداكنة فيها ، فإن تركيب الصورة العامة ، الأساسى والمعادى للأسلحة النووية ، تركيب واضح تماما . ومن الممكن أن تكون إحدى الحطوات الهامة فى هذا الاتجاه ، هى مثلا ، إقامة مناطق خالية من السلاح النووى . ومن المعروف أن الاتحاد السوفيتي قد وقع بروتوكولات معاهدة راروتونجا لإقامة مثل هذه المنطقة فى جنوب المحيط الهادى . كما نؤيد مقترحات البلدان الأخرى بإقامة مناطق خالية من السلاح النووى فى جنوب شرقى آسيا وشبه الجزيرة الكورية . كما يمكن لمؤتمر دولى بشأن المحيط الهندى أن يعزز مقاصد نزع السلاح النووى بدراسة وإقرار مسألة اعلان هذه المنطقة من العالم منطقة سلام .

إن أساليبنا ونظرتنا إلى نزع السلاح النووى فى آسيا وفى أوروبا متاثلة . ويجب أن يطبق نزع السلاح فى ظل اشراف دولى صارم ، بما فى ذلك التفتيش فى الموقع . ونحن نحث الولايات المتحدة على أن تبدأ محادثات حول الأسلحة النووية فى منطقة آسيا والمحيط الهادى ، وأن تحل هذه المشكلة على أساس المعاملة بالمثل ، مع المراعاة الصارمة للمصالح الأمنية للجميع .

هذا بشكل عام هو مفهومنا للطريقة التي يجب أن تُتحل العقدة النووية الآسيوية وفقا لها. إن الدول الواقعة في المنطقة يمكنها إذا ما تبنت المسألة أن تبدأ في بناء نظام أمن إقليمي . فما الذي نعنيه بالفعل بالعلاقات الطبيعية والوقع المواتى لمنطقة يقطنها بليون ونصف من البشر . إن الأمر أشبه ببناء بيت ، يضع كل منا طوبة أو اثنين في جدرانه كي نشيد صرحا للتعاون والتفاهم المتبادل خطوة خطوة ، من خلال الجهود المشتركة . وهذا هدف عظيم يتحدانا ولكنه ممكن .

ومن الممكن تعبئة جهود بلدان القارتين ــ أوروبا وآسيا ، في هذا الاتجاه ، لتصبح عملية أوروبية آسيوية مشتركة تعطى دافعا قويا لنظام شامل للأمن الدولى . وتقنعنا التطورات الأخيرة بصورة متزايدة بأن طرح مسألة الأمن لمنطقة آسيا والمحيط الهادى من جانبناكان صحيحا وأنه جاء فى وقته فقد أبدى مؤخرا اهتماماً كبيراً فى البحث عن الطرق المؤدية إلى التعاون البناء على أساس إقليمى وقارى ، كما أصبحت علاقاتنا الثنائية مع بعض دول منطقة آسيا والمحيط الهادى أكثر دينامية .

العلاقات السوفيتية الهندية

إن الهند ، جارتنا الجنوبية ، التي يبلغ عدد سكانها ٨٠٠ مليون نسمة هي قوة كبيرة . وهي تحظى بنفوذ كبير في حركة عدم الانحياز ، والعالم أجمع ، وتشكل عاملا حاسما للسلام في آسيا وفي العالم .

ولقد تطورت العلاقات السوفيتية الهندية باطراد طوال سنوات عديدة . والتقيت براجيف غاندى ، رئيس وزراء الهند ، عدة مرات ، فى موسكو ودلهى على السواء . وتركت زيارتى للهند فى ١٩٨٦ انطباعا فى نفسى لا ينسى . وتبنينا خلال هذه الزيارة إعلان دلهى الذى ذاعت شهرته الآن .

والاهتام العالمى بهذه الوثيقة أمر طبيعى. فإعلان دلهى لم يسبق له مثيل. إنه يكشف عن نظرة فلسفية سياسية جديدة تماما للعلاقات بين الدول. ويشكل الاعتراف بأولوية القيم الإنسانية العالمية في هذا العصر، عصر الذرة والفضاء، يشكل الأساس الفلسني والأخلاق. ورغم أن الوثيقة قد وضعها دولتان ، فإن دلالتها تتخطى الحدود الثنائية والإقليمية.

ونفس ظهور إعلان دلهى يعكس الطبيعة الفريدة للعلاقات السوفيتية الهندية . إن لدينا أنظمة اجتماعية مختلفة ، لكن هذا لا يمنع من قيام نوع من التعاون بيننا يثرى الجانبين روحيا ويؤدى إلى اتفاق واسع فى الآراء حول مسائل الساعة الأساسية . وقد وصل كل بلد إلى النظرة التي يشاطره الآخر فيها بطريقته الخاصة ، ولديه دوافعه الخاصة لهذه المواقف .

والعلاقات السوفيتية الهندية نموذجية من عدة وجوه : في محتواها السياسي ،

والاقتصادى، والعلمى، والتقنى والثقافى المتنوع، وفى الاحترام والحب الذى يكنه شعبانا لبعضها البعض، وفى الطابع العام لعلاقاتنا الذى يعكس ثقتنا المتبادلة ورغبتنا العميقة فى الصداقة. فكيف أمكن للهند والاتحاد السوفيتى، وهما دولتان ذاتا أنظمة اجتماعية وسياسية مختلفة، أن تعملا على تطوير علاقات من هذا النوع الرفيع ؟ لأن كلا منها يقيم سياسته _ ليسن بالأقوال وإنما بالأفعال _ على مبادئ السيادة والمساواة، وعدم التدخل فى الشئون الداخلية للآخرين، والتعاون. وكلاهما يعترف بحق كل شعب فى أن يختار نظامه السياسى الخاص ونموذج تطوره الاجتماعى.

ولذلك فلديناكل الحق فى أن نقول باعتزاز له كل ما يبرره بأن الاتحاد السوفيتى والهند يقدمان مثالا للعلاقات الطيبة بين الدول ، مثالا للآخرين ليحتذونه . ونحن نرى فى علاقاتنا نظاما عالميا يتفتح ، سوف يكون فيه التعايش السلمى ، والتعاون القائم على المنفعة المتبادلة القائمة على الارادة الطيبة ، سوف يكونان نموذجين عالمين .

عند خط فاصل صعب

التقيت فى فترة العام ونصف العام الماضية بالعديد من الزعماء السياسيين فى أفريقيا (والتقيت ببعضهم أكثر من مرة) ، وأجريت مناقشات شاملة معهم . وكان من بينهم جبريل موجابى ، ومانجستو هيل ماريام ، ومارسلينو دوش سانتوش ، وأوليفر تامبو، وموسى تراورى، ومثيوكريكو، والشاذلى بن جديد. وكلهم زعماء وطنيون ذوى نفوذ كبير ومعترف بهم على نطاق واسع . وخرجت من محادثاتى معهم بانطباع بأن أفريقيا تمر بفترة نشطة من تطورها تتطلب مسئوليات . إن أفريقيا فى حالة اختار، وتجرى بها تغييرات حيوية ، كما يواجه هذا الجزء من العالم مشاكل حادة عديدة .

ونحن لا ننظر إلى أفريقيا كقارة متجانسة تتطور فيها كافة العمليات وفقا لنفس

النموذج. وكأى بلد آخر فى العالم ، يمتلك كل بلد أفريقي سماته الخاصة المميزة ويرسم سياسته وفق هواه. والزعماء الأفارقة مختلفون كذلك. وقد ظل بعضهم فى الرئاسة لفترات طويلة نسبيا ، لدرجة أن العالم يعرفهم. بينما ظهر آخرون حديثا على المسرح الأفريق والعالمي ، وهؤلاء يكتسبون خبرة عملية.

إننا نقدر تماما المهام الضخمة التى تواجه الأنظمة التقدمية فى أفريقيا . والحقيقة أن البلدان الأفريقية ارتبطت تاريخيا بالبلدان الاستعارية الأم السابقة ، وما يزال بعضها يواصل اعتاده عليها اقتصاديا . ورغم أن الإمبريالية تعمل على الاحتفاظ بمواقعها بوسائل اقتصادية ومالية ، وحتى باللجوء إلى السلاح ، فإن الدول الافريقية المعنية مصممة على انتهاج المسار الذي يدعم مكاسبها .

ويساند الاتحاد السوفيتي هذه الجهود وهذه السياسة ، لأن السيادة السياسية المنيعة ، والاستقلال الاقتصادى يمكن أن يقدما أساسا سليما للعلاقات الدولية في عالم اليوم . إن كل بلد أفريتي له حق مشروع في الاختيار الحر لطريق تطوره . ونحن ندين بحزم كافة محاولات التدخل في شئونه الداخلية . وقد عمل بلدنا على الدوام ، وسيستمر في العمل من أجل مساندة نضال التحرر الوطني لشعوب أفريقيا ، بما في ذلك شعب جنوب أفريقيا ، حيث تقع إحدى القلاع الأخيرة للعنصرية .

وعندما التقيت باوليفر تامبو ، رئيس المؤتمر الوطنى الأفريق ، قلت له : « إننا نساندكم فى نضالكم ضد نظام التفرقة العنصرية وأذنابه ، ومن أجل دولة ديموقراطية وتطور مستقل ، ومن أجل المساواة بين كافة الأجناس والمجموعات العرقية . ومما له دلالته ، أن أعداداً متزايدة من البيض فى جنوب أفريقيا يدينون التفرقة العنصرية ويعلنون عن مساندتهم لأهداف المؤتمر الوطنى الأفريق ، ويسعون إلى إقامة علاقات معه . ويبرهن ذلك مرة أخرى أنه لا مستقبل للتمييز العنصري » .

ولدينا علاقات صداقة مع دول المواجهة فى جنوب أفريقيا . ونحن نؤيد مواقفها العادلة وندين بقوة أعمال جنوب أفريقيا المعادية ضدهم .

وليس للاتحاد السوفيتي أية مصالح خاصة في جنوب أفريقيا . نحن نريد شيئا واحدا فقط . ينبغي أن تحصل شعوب ودول المنطقة في النهاية على الفرصة لحل قضايا نموها وتطورها ، وتصريف شئونها الداخلية والخارجية بشكل مستقل وفي سلام واستقرار .

أمريكا اللاتينية: زمن التغير الكبير

ونحن ننطلق كذلك من نفس المبادئ العامة فى علاقاتنا ببلدان أمريكا اللاتينية . إن لهذا الجزء من العالم تقاليد فريدة وقدرات ضخمة . وتبدى بلدانها مسعى كبيرا لمستقبل أفضل. وهى ترغب فى أن تحقق آمالها رغم كل العقبات. إن الطريق إلى الحرية طريق صعب على الدوام ، ولكننا على يقين من أن حركة أمريكا اللاتينية من أجل التقدم ستكتسب قوة دافعة .

إن القوى والدعاية اليمينية فى الولايات المتحدة تصور اهتهامنا بأمريكا اللاتينية بأنه يرمى إلى تدبير سلسلة من «الثورات الاشتراكية» هناك. لغو فارغ! إن الطريقة التى تصرفنا بها لعشرات السنين تبرهن على أننا لا نخطط لأى شىء من هذا القبيل، ومثل هذه المخططات تتعارض مع نظريتنا، ومبادثنا، وكل مفاهيمنا للسياسة الحارجية.

لقد قلت للرئيس ريجان: «لقد نظرتم لعقود كثيرة إلى أمريكا اللاتينية باعتبارها عتبة بابكم ، وتصرفتم هناك على هذا الأساس. وتحملت الشعوب نتيجة لذلك ما فيه الكفاية. وإنه لمن صميم شئونها أن تحقق آمانيها بوسائل سلمية أو عسكرية ، فأنتم الذين زرعتم قنبلة في أمريكا اللاتينية في شكل دينها الخارجي الضخم. ولابد أن تفكروا حقا في ذلك».

وربما تفهم الدواثر الحاكمة الأمريكية ذلك فعلا ، ولكنها لن تعترف به ، لأنه سيكون عليها عندئذ أن تغير سياستها . وسيرى كل امرئ أن «يد موسكو » ليست إلا أكذوبة كبرى .

ونحن نتعاطف بالفعل مع بلدان أمريكا اللاتينية في نضالها من أجل تأكيد استقلالها في كافة المجالات ، وتحطيم كافة أغلال الاستعار الجديد ، ولم نحف ذلك أبدا . ونحن نقدر كثيرا السياسة الخارجية النشطة للمكسيك والأرجنتين ، ومواقفها المسئولة حول نزع السلاح والأمن الدولى ، وإسهامها في مبادرات الدول الست . ونحن نؤيد الجهود السلمية لمجموعة الكونتادورا ، ومبادرات رؤساء دول أمريكا الوسطى ، واتفاق جواتيالا . ونحن نرحب بالتغيرات الديموقراطية في عديد من بلدان أمريكا اللاتينية ، ونقدر التضامن المتزايد بين بلدان القارة ، والذي سيساعد في المحافظة على سيادتها الوطنية وتعزيزها .

وفى نفس الوقت ، أود أن أؤكد مرة أخرى أننا لا نسعى لأى مكاسب لأنفسنا فى أمريكا اللاتينية . فلسنا بحاجة لا لموادها الحام ولا لليد العاملة الرخيصة . ولن نستغل المواقف المعادية للولايات المتحدة ، ناهيك عن تغذيتها ، ولن ننوى إضعاف العلاقات المتقلدية بين أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة . إن ذلك سيكون نزعة إلى المغامرة وليس سياسة متعقلة ، ونحن واقعيون ، ولسنا مغامرين متهورين .

بيدأن تعاطفنا يظل على الدوام مع الشعوب التي تكافح من أجل الحرية والاستقلال. ويجب ألا يكون هناك أى سوء فهم حول هذا الموضوع.

التعاون ، وليس المواجهة

إننى على قناعة بأن الجنس البشرى قد دخل مرحلة نعتمد فيها جميعا على بعضنا البعض . ولا ينبغى اعتبار أى بلد أو شعب فى عزلة تامة عن غيره ، ناهيك عن دفعه إلى موقف المجابهة مع الآخرين . وهذا ما تسميه مفرداتنا الشيوعية بالأممية ، وهى تعنى القيم الإنسانية العالمية .

وسيكون على الدوائر الحاكمة فى الغرب أن تعمل حسابا فى النهاية المصالح شعوب العالم الثالث. وقد سألت جارى هارت ذات مرة: «ألا يمكن

لأمريكا أن تقدم سياسة مختلفة للبلدان النامية غير السياسة التى تتبعها الآن؟ إن بإمكان الولايات المتحدة أن تفعل الكثير لبناء العلاقات بين الدول ، ولن تفقد شيئا من الناحية الاقتصادية فى هذه العملية. بل على العكس، سوف تكسب من ذلك. فلهاذا ترفض الولايات المتحدة الفرصة السانحة كما لوكانت لا تعرف أى وجه من خبزها يدهن بالزيد؟».

يتوقف الشيء الكثير على موقف الولايات المتحدة والغرب ككل ، وفي المقام الأول ، يتوقف عليها ما إذا كنا سنتمكن من حل عقدة مشاكل العالم المعاصر ونتخطى الطريق المسدود أمام الامكانيات الحالية للتطوير ، وإذا ما نجحنا في بناء علاقات جديدة ترتكز على المساواة والاعتبار الواجب لمصالح كل طرف . فلإذا نكون في حاجة إلى الآلة العسكرية القائمة والتي صممت لتكون أداة لسياسة خارجية توسعية ؟ .

وإنه لأمر مفهوم ، أن هذه الآلة قد بنيت على امتداد قرون ، وليس من السهل تدميرها في يوم وليلة . لكننا اقتربنا من النقطة التي يجب أن نحطمها فيها ، لأن ملايين الآسيويين والافريقيين والأمريكيين اللاتينيين يريدون أن يعيشوا كآدميين . وأنا على قناعة بأن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يمكنها الاسهام كثيرا في البحث عن طرق لإقامة علاقات عالمية جديدة .

ونحن ندعو الإدارة الأمريكية إلى التعاون معنا فى البحث عن حلول لمشاكل العالم الثالث. وهناك طرق أخرى غير الإكراه للقيام بذلك. ومانقترحه واقعى تماما. فلابد أن تجد الولايات المتحدة طريقا لتحويل جبروتها، ورأسمالها وكل ما يبدد حاليا فى الأغراض العسكرية _ إلى تلبية الاحتياجات المختلفة، وإلى حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية للعالم الثالث. وأنا على يقين من أن هذا ممكن تماما. وبالإضافة إلى ذلك فبإمكان الولايات المتحدة أن تضم إليها البلدان الغربية الأخرى. وهل لى أن أكرر أن ذلك كله لن يعود عليها إلا بالكسب الكثير.



الفصىل السادس أوروبا في السياسة الخارجية السوفيتية

هل لى الآن أن أقدم تعليقا شخصيا . لقد قمت بأول رحلة إلى الخارج كسكرتير عام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي إلى فرنسا في أكتوبر ١٩٨٥ . وقبل ذلك بعام ، في ديسمبر ١٩٨٤ ، قمت بزيارة بريطانيا على رأس وفد من السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيتي . وهاتان الرحلتان دفعتاني إلى التفكير في أشياء كثيرة ، أولها ، يتعلق بدور أوروبا ومكانها في العالم .

وأعرب فرانسوا ميتران عمّا بدا لى فى ذلك الوقت أنه فكرة هامة . إذ قال :
«لماذا لا نفترض إمكانية التقدم التدريجي نحو سياسة أوروبية أوسع ؟» وبعد ذلك
بعام ، قال لى فى موسكو : « من الضرورى أن تصبح أوروبا حقا ، العامل الرئيسي
فى تاريخها الخاص من جديد حتى يمكنها أن تلعب دورها كعامل للتوازن والاستقرار
فى الشئون الدولية » . وسارت أفكارى فى نفس الخط . وساعدتنى علاقاتى المباشرة
مع زعماء الدولتين الرئيسيتين فى أوروبا الغربية ومع البرلمانيين وممثلى الأحزاب
السياسية ودوائر الأعمال على التوصل إلى تقييم أدق للوضع فى أوروبا .

وفى المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى ، تميز الاتجاه الأوروبي في سياستنا الخارجية بأهميته الكبيرة . وبودنا أن يفهم كل امرئ على نحو صحيح موقف القيادة السوفيتية فيها يتعلق بأوروبا الغربية .

وقبل المؤتمر وخلاله على السواء التقيت بشخصيات بارزة عديدة في أوروبا الغربية تنتمي إلى معسكرات سياسية مختلفة وتحدثت معها، وقد أكدت هذه الاتصالات أن دول أوروبا الغربية تهتم كذلك بتطوير العلاقات مع الاتحاد ٢٢٩

السوفيتي . وتحتل بلادنا مكانا بارزا في سياستها الخارجية . فلماذا هذا الاهتمام الكبير بأوروبا ؟ .

ميراث التاريخ

يجاول البعض في الغرب أن «يستبعد» الاتجاد السوفيتي من أوروبا. ومن حين لآخر، وكما لوكان عن غير قصد، يساوون مفهومي «أوروبا» و «أوروبا الغربية» ومع ذلك، فإن مثل هذه الألاعيب لا يمكنها أن تغير الحقائق الجغرافية والتاريخية إن علاقات روسيا التجارية والثقافية والسياسية مع شعوب أوروبا ودولها الأخرى لها جذور عميقة في التاريخ. ونحن أوروبيون. لقد كانت المسيحية توحد روسيا القديمة مع أوروبا، وسوف نحتفل في العام القادم (١٩٨٨) بمرور ألف عام على دخول المسيحية أرض أسلافنا. وتاريخ روسيا هو جزء عضوى من التاريخ الأوروبي العظيم. لقد ساهم الروس، والأوكرانيون، والبيلوروسيون، والمولدافيون، والليتوانيون، والليثيون، والاستونيون، والأكاريليون وغيرهم من شعوب بلادنا إسهاما ذا شأن في تطور الحضارة الأوروبية، ولذك فإنهم يعتبرون أنفسهم ورثتها الشرعين.

وتاريخنا الأوروبي المشترك معقد وغنى بالدروس ، عظيم ومأساوى . إنه جدير بالدراسة لنتعلم منه .

ومنذ عهد طويل ، كانت الحروب معالم رئيسية على الطريق فى تاريخ أوروبا . وفى القرن العشرين ، كانت القارة مرتعا لحربين عالميتين _ أكثر الحروب دموية ودمارا عرفتها البشرية. وقدم شعبنا أعظم التضحيات على مذبح النضال التحريرى ضد الفاشية . ومات ما يزيد على عشرين مليون مواطن سوفيتى فى هذه الحرب الرهيبة .

ونحن لا نذكر ذلك هنا لكى نقلل بأى حال من دور البلدان الأوروبية

الأخرى فى الكفاح ضد الفاشية . فالشعب السوفيتي يحترم إسهام كافة دول الاثتلاف المعادى للهتلرية ومقاتلى المقاومة ، فى هزيمة ودحر الخطر الفاشى ، ولكننا لا يمكن أبدا أن نتفق مع الرأى الذى يقول بأن الاتحاد السوفيتي لم ينضم إلى القتال ضد ألمانيا النازية إلا فى عام ١٩٤١ ، بينا كان على الآخرين أن يحاربو هتلر قبل ذلك « وحدهم » .

وعندما أخبرتنى السيدة تاتشر شيئا بهذا المعنى ، عارضته ، وذكرتها بأن الاتحاد السوفيتى قد حارب ضد الفاشية سياسيا من ١٩٣٣ ، وبالسلاح أيضا من ١٩٣٦، بساعدته الحكومة الجمهورية فى أسبانيا . أما فيما يتعلق بميئاق عدم الاعتداء مع ألمانيا (الذى يشوه خصومنا على الدوام مغزاه) فقد كان من الممكن تجنبه ، كماكان يمكن تجنب أشياء أخرى عديدة ، لو وافقت الدوائر الحاكمة فى بريطانيا وفرنسا على التعاون مع الاتحاد السوفيتى ضد المعتدى فى ذلك الوقت .

ومن الذى سلم تشيكوسلوفاكيا للنازيين، لقد قال تشميرلين لدى عودته من ميونيخ: إنه أتى بالسلام للشعب البريطانى. ولكن فى الحقيقة دارت الأمور فى الاتجاه الآخر.. لقد أتى لهم بالحرب. ويرجع ذلك أساسا إلى أن الحكام البريطانيين كانت تسيطر عليهم فكرة واحدة فقط: كيف يحولون هتلر ضد الشرق، ضد الاتجاد السوفيتي، وكيف يسحقون الشيوعية.

وأنا لا أريد تبسيط الأمور ، لأن دول أوروبا الشرقية تلقت كذلك إرثا صعبا . ولناخذ على سبيل المثال ، العلاقات بين روسيا وبولندا . لقد كانت معقدة لقرون عديدة نتيجة الصراع بين الدوائر الحاكمة فى كلا البلدين . لقد دفع الملوك والقياصرة ، البولنديون لمحاربة الروس ، والروس لمحاربة البولنديين . وكل هذه الحروب والعنف وأعال الغزو أدت إلى تسمم روح الشعبين وأثارت العداوة المتبادلة .

وكانت الاشتراكية بمثابة انعطاف جذرى فى التاريخ الذى امتد قرونا لهذا الجزء

من العالم. وقد خلقت هزيمة الفاشية وانتصار الثورات الاشتراكية فى بلدان أوروبا الشرقية وضعا جديدا فى القارة. فقد ظهرت قوة جبارة شرعت فى تحطيم السلسلة التي لا نهاية لها من النزاعات المسلحة. والآن تدخل شعوب أوروبا عقدا خامسا دون أية حرب.

ومع ذلك تظل أوروبا معتركا لمواجهات أيديولوجية وسياسية وعسكرية حادة . والبعض يرجع تقسيم أوروبا إلى مؤتمرى يالتا وبوتسدام ويشككون فى الاتفاقيات التاريخية التى وقعت هناك . ولكن هذا لا يعدو أن يكون قلبا للحقائق رأسا على عقب. لقد وضعت يالتا وبوتسدام الأساس لترتيبات مابعد الحرب فى أوروبا . وهى اتفاقات حيوية لأنها كانت فى جوهرها معادية للفاشية وديموقراطية . وقد نصت على إزالة «نظام هتلر الجديد» الذى حرم شعوبا ودولا بأكملها من الاستقلال وحتى من الأمل فى الحرية والسيادة . وأدى منطق التفكير السياسي القديم إلى تقسيم أوروبا إلى كتلتين عسكريتين متعارضتين . وهناك قول رائيج فى الغرب يقول إن أوروبا جرى تقسيمها بواسطة الشيوعيين . ولكن ماذا عن خطاب الغرب يقول إن أوروبا جرى تقسيمها بواسطة الشيوعيين . ولكن ماذا عن خطاب تشرشل فى فولتون ؟ أو مبدأ ترومان ؟ لقد بدأ تقسيم أوروبا بواسطة الذين حققوا تفكك الائتلاف المعادى لهتلر ، وشنوا الحرب الباردة ضد البلدان الاشتراكية ، وأقاموا حلف شهال الاطلنطلي كأداة للمواجهة العسكرية السياسية فى أوروبا. وينبغى أن نكرر أن معاهدة وارسو وُقَعت بعد إقامة حلف الأطلنطي .

ونتيجة لقيام حلف الأطلنطى ، وجدت أوروبا نفسها مرة أخرى تحت نير عربة الحرب ، وفى هذه المرة محملة بمتفجرات نووية . واليوم ينبغى إلقاء اللوم الأساسى عن استمرار تقسيم أوروبا على الذين حولوها إلى ميدان للمواجهة الصاروخية النووية ، والذين يدعون إلى إعادة النظر فى الحدود الأوروبية ، متجاهلين الحقائق الاقليمية السياسية .

وكبداية ، فقد اقترحنا مرارا التخلص من الأحلاف العسكرية ، أو على الأقل ٢٣٢ من الجناحين العسكريين للحلفين. ولكن حيث أن اقتراحنا هذا لم يلق القبول ، فينبغى أن نأخذ هذه الحقيقة في الاعتبار أيضا. وحتى مع ذلك ، فنحن على قناعة بأنه بأحلاف أو بدون أحلاف ، علينا أن نمهد الطريق لعالم أفضل ولعلاقات دولية بمكن أن تؤدى في مرحلة لاحقة إلى حل كافة الأحلاف العسكرية.

لقد كان هناك عدد لا بأس به من الأحداث والأوضاع المأساوية في تاريخ أوروبا ما بعد الحرب ، ولكن دول أوروبا حسمت خيارها ، على أية حال ، وفقا للظروف والفرص الملموسة : فقد ظلت بعضها رأسمالية بينا سارت أخرى نحو الاشتراكية . ولا يمكن انتهاج سياسة أوروبية مشتركة حقا وارساء عملية أوروبية حقا إلا على أساس الاعتراف بهذه الحقيقة واحترامها .

ونحن نرفض الاعتقاد بأن مصير أوروبا محتوم عليه المواجهة بين حلفين والإعداد المستمر للحرب ضد بعضها البعض . إن البلدان الاشتراكية لم تربط نفسها بهذا الأفق وهو ما تؤكده المبادرة التي قدمتها ، والتي أدت بكل أوروبا والولايات المتحدة وكندا إلى هلسنكي . وقد بينت الوثيقة الختامية التي وقعت هناك السبل الحقيقية للتوصل إلى وحدة القارة على أساس سلمي ومتكافئ .

ومع ذلك ، فإن الدافع الذى قدمه المؤتمر الشهير في عاصمة فنلندا بدأ يخبو تحت ضغط رياح «حرب باردة» ثانية . وقد قيل الكثير في أسباب ذلك ، ولكن ليس هذا هو مانتحدث عنه الآن . وعن طريق النقد الذاتي سأذكر مجرد أحد هذه الأسباب : ازدياد ضعف المواقع الاقتصادية للاشتراكية وهو ما سمحنا به في أواخر السبعينيات وأوائل المثانينيات . ومن ناحية أخرى ، فإن هذا يثبت مرة أخرى ، على السبعينيات وأوائل المثانينيات . ومن ناحية أخرى ، فإن هذا يثبت مرة أخرى ، على عكس ماحدث ، أنه من المفروض أن تلعب الاشتراكية الدور الحاسم في قهر أعداء الانفراج وتطبيع العلاقات بين كافة الدول الأوروبية لتجعلها علاقات حسن جوار : وعندما تضعف الاشتراكية تندفع النزعة العسكرية ، وسياسات القوة والطموحات الامبريالية .

واليوم يضطلع الاتحاد السوفيتي والأسرة الاشتراكية بالمبادرة مرة أخرى ، وعن طريق تعزيز الاشتراكية ، فإننا نضني قوة إضافية وحيوية على عملية هلسنكي لقد آن الأوان ليدرك كل فرد الحقيقة البسيطة وهي أن الحواجز القائمة لايمكن تخطيها إذا مافرض الغرب طرقه على الشرق والعكس . وعلينا أن نتحول عن طريق الجهود المشتركة من المواجهة والمنافسة العسكرية إلى التعايش السلمي والتعاون القائم على المنفعة المتبادلة . وعن طريق هذا الفهم فقط يمكن توحيد قارتنا .

أوروب بيتنا المسترك

خطر إلى ذهنى هذا التشبيه فى إحدى مناقشاتى . ورغم أننى استخدمته على مايبدو بشكل عابر ، فقد كنت أبحث فى ذهنى عن مثل هذه الصيغة منذ وقت طويل ، وعلى الأخص ، بعد لقاءات مع العديد من الزعماء الأوروبيين .

وبعد أن هيأت نفسى لنظرة سياسية جديدة ، لم أعد أقبل طريقة أوروبا السياسية المتعددة الألوان المزركشة كملاءة اللحاف . لقد شبعت القارة حروبا ودموعا . وكان لديها مافيه الكفاية . وعندما ألقيت نظرة عاجلة على الخريطة المتسعة لهذه البلاد التي عانت طويلا وفكرت في الجذور المشتركة لهذه الحضارة الأوروبية المتعددة الأشكال والمشتركة في جوهرها ، شعرت بحدة متزايدة بأن وجود حلف في مواجهة حلف والطبيعة البالية « للستار الحديدي » أمر مصطنع ومؤقت . وربما كانت هذه هي الطريقة التي قفزت بها إلى ذهني فكرة البيت الأوروبي المشترك . وفي اللحظة المناسبة صدر عني هذا التعبير من تلقاء نفسه .

ثم بدأت له حياته الخاصة ، كما نقول ، وظهر فى الصحافة . وكان هناك بعض اللوم أيضا ، فقد قبل إنه تعبير مجرد ولامعنى له . ولذلك قررت أن أطرح كل آرائى بخصوص هذا الأمر . وواتتنى فرصة مناسبة خلال زيارتى لتشيكوسلوفاكيا ، التى تقع على وجه الدقة فى وسط أوروبا جغرافيا . ودفع ذلك إلى « الفكرة الأوروبية » فى خطابى العام فى براغ .

وأوروبا في الحقيقة بيت مشترك ربط فيه كل من الجغرافيا والتاريخ ، وبشكل وثيق ، بين مصائر عشرات البلدان والشعوب وبطبيعة الحال ، فإن لكل من هذه البلدان والشعوب مشاكله الخاصة ، وكل منها يريد أن يحيا حياته الخاصة ، وأن يتبع تقاليده الحاصة . ولذلك فإذا أراد المرء أن يطور الاستعارة ، لأمكنه أن يقول : إن البيت مشترك ، وهذا صحيح ، ولكن لكل أسرة شقتها الخاصة ، وهناك مداخل مختلفة أيضا . ولكن بإمكان الأوروبيين أن ينقذوا بيتهم ، وأن يحموه ضد الحريق وضد الكوارث الأخرى ، وأن يجعلوه أفضل وأكثر أمنا ، ويحافظوا عليه في وضع مناسب ، فقط إذا عملوا معا ، وبشكل جاعى ، واتبعوا القواعد المعقولة للتعايش السلمى .

وقد يعتبر بعض الناس هذا خيالا جميلا. ولكنه ليس بخيال ، إنه نتيجة لتحليل دقيق للوضع فى القارة وإذا كان العالم يحتاج إلى علاقات جديدة ، فإن أوروبا تحتاجها قبل كل شيء. وبإمكاننا القول إن شعوب أوروبا قد أدركتها خلال المعاناة ، وهي تستحقها .

ومفهوم « البيت الأوروبي المشترك » يوحى قبل كل شيء بدرجة من التكامل ، حتى ولو كانت دولها تنتمى إلى أنظمة اجتاعية مختلفة وأحلاف عسكرية سياسية متعارضة . إنه يجمع بين الضرورة والامكانية .

الضرورة: حتميات سياسة لكل أوروبا

بإمكان المرء أن يذكر عددا من الظروف الموضوعية التي تخلق الحاجة إلى سياسة لكل أوروبا .

الفروية المحتيفة السكان والعالية التحضر تعج بالأسلحة ، النووية والتقليدية على السواء، وقد يكون غيركاف أن نطلق عليها اليوم أنها «برميل بارود».
 إن قوى المجموعتين العسكريتين ، المجهزتين بالمعدات الحديثة للغاية والتي يجرى

تحديثها على الدوام ، تواجهان بعضها البعض . وتتركز هنا آلاف الرءوس الحربية النووية على حين تكنى مجرد بضع عشرات منها لتحويل أوروبا إلى جهنم .

٢ - وحتى الحرب التقليدية ، ناهيك عن الحرب النووية ، ستكون كارثة لأوروبا اليوم . ولايعود ذلك فقط إلى أن الأسلحة التقليدية أكثر تدميرا عدة مرات ، عاكانت عليه خلال الحرب العالمية الثانية ، وإنما يعود أيضا إلى وجود وحدات للطاقة النووية تضم ما مجموعه حوالى ٢٠٠ مفاعلاً وعددا كبيرا من المصانع الكياوية الرئيسية . وتدمير هذه المنشآت خلال معارك تقليدية سيجعل القارة غير صالحة للحياة .

٣- تعتبر أوروبا واحدة من أكبر المناطق الصناعية في العالم. وقد تطورت الصناعة ووسائل النقل فيها لدرجة أصبح فيها الخطر على البيئة قريبا من النقطة الحرجة. وتجاوزت هذه المشكلة الحدود القومية بعيدا، لتكتسب بعدا أوروبيا مشتركا.

\$ - تتطور العمليات التكاملية بشكل مكثف في كل من شطرى أوروبا. وقد حان الوقت لكى نفكر فيا سيأتى بعد ذلك . هل سيتفاقم انقسام أوروبا بدرجة أكبر أم سيمكن العثور على صيغة لمنفعة كل من جزئيها الشرق والغربي ومن أجل مصلحة أوروبا ومصلحة بقية العالم في الحقيقة ؟ إن احتياجات التنمية الاقتصادية في كل من شطرى أوروبا ، وكذلك متطلبات التقدم العلمي والتكنولوجي تدفع إلى الحاجة للبحث عن شكل ما من التعاون على أساس المنفعة المتبادلة . وما أعنيه ليس نوعا ما من الاكتفاء الذاتي الأوروبي » وإنما الاستخدام الأفضل لمجموع قدرات أوروبا من أجل منفعة شعوبها ، وفي علاقاتها مع بقية العالم .

- إن شطرى أوروبا لديها الكثير من مشاكلها الخاصة ذات البعد الشرق ـ الغربى ، ولكن لهاكذلك مصلحة مشتركة فى حل مشكلة الشمال ـ الجنوب الحادة للغاية . ولا يعنى ذلك ، بالطبع ، أن بلدان أوروبا الشرقية تشارك فى المسئولية عن

الماضى الاستعارى لدول أوروبا الغربية . ولكن ليست هذه هى النقطة . ذلك أنه إذا ما أغفلت مصائر الشعوب فى البلدان النامية ، وإذا ماجرى تجاهل المشكلة الحادة للغاية المتعلقة بسد الفجوة بين الدول النامية والصناعية ، فقد يكون لذلك آثار وخيمة على أوروبا وبقية العالم . (وفى هذا الصدد فإننا نشارك روح وقوة تقارير «لجنة براندت » حول مسألة الشال والجنوب ، وتقرير الاشتراكية الدولية «التحدى العالمي » الذي تم إعداده تحت توجيه فيلى براندت وميشيل مانلى) . إن دول أوروبا الغربية مثل الاتحاد السوفيتي . والبلدان الاشتراكية الأخرى ، لها روابط واسعة مع العالم الثالث ، وبوسعها أن تعبئ جهودها من أجل تيسير تنميته .

هذه هي بوجه عام حتميات السياسة لكل أوروبا تحددها مصالح واحتياجات أوروبا ككل متكامل .

فسرص مسواتيمة لأوروبا

والآن ماذا عن الفرص المواتية للأوروبيين والمستلزمات التي يحتاجون إليها لكي يكونوا قادرين على أن يعيشوا كسكان في «بيت مشترك».

١ ـ إن لدى شعوب أوروبا أقسى وأمر تجربة للحربين العالميتين وقد ترك الوعى باستحالة السياح بحرب جديدة أعمل الآثار فى ذاكرتهم التاريخية . وليس من قبيل الصدفة أن توجد فى أوروبا اليوم أكبر حركة معادية للحرب وأكثرها نفوذا ، حركة تضم فى صفوفها كافة الفئات الاجتاعية .

٢ ــ وتعتبر التقاليد السياسية الأوروبية فيما يتعلق بمستوى السلوك فى الشئون الدولية أكثر التقاليد ثراء فى العالم . وأفكار الدول الأوروبية عن بعضها البعض أكثر واقعية منها فى أى منطقة أخرى . و « تعارفها » السياسي أوسع نطاقا وأطول أمدا ومن ثم أكثر قربا .

٣_ لايوجد لدى أى قارة أخرى إذا ما أخذت ككل مثل هذا النظام المتشعب ٢٣٧

من المفاوضات ، والمشاورات ، والمعاهدات والصلات الثنائية والمتعددة الأطراف على كل مستوى بالفعل . ولديها فى رصيدها مثل هذا الإنجاز الفريد فى العلاقات الدولية كعملية هلسنكى . وقد أعطى مؤتمر ستوكهولم نتائج مبشرة . ثم انتقلت الشعلة إلى فيينا ، حيث نأمل ، فى اتخاذ خطوة جديدة فى تطور عملية هلسنكى . وهكذا فإن مخططات بناء البيت الأوروبي المشترك جاهزة تماما .

\$ _ إن القدرة الاقتصادية والعلمية والتقنية لأوروبا هائلة . ولكنها مشتة ، وقوة الطرد بين شرق القارة وغربها أكبر من قوة الجذب . ومع ذلك فإن الحالة الراهنة للأمور من الناحية الاقتصادية ، سواء فى الغرب أو الشرق ، وآفاقها الملموسة يمكن أن تساعد فى العثور على طريقة لربط العمليتين الاقتصاديتين فى كل من شطرى أوروبا لمصلحة الجميع .

وهذا هو الطريق الوحيد المعقول للمزيد من تقدم الحضارة المادية الأوروبية .

إن أوروبا «من الأطلنطى إلى الأورال» تشكل كيانا ثقافيا تاريخيا يوحده التراث المشترك للنهضة والتنوير، وللتعاليم الفلسفية والاجتاعية العظيمة للقرنين التاسع عشر والعشرين. وهذه قوة جذب قوية تساعد صانعي السياسة في بحثهم عن طرق للتفاهم والتعاون المتبادل على مستوى العلاقات بين الدول. وتكن في التراث الثقافي الأوروبي إمكانات هاثلة لسياسة السلام وحسن الجوار. وبوجه عام، فإن النظرة الصحية الجديدة في أوروبا تجد تربة أشد خصوبة بكثير مما هي في أي منطقة أخرى يحتك فيها النظامان الاجتاعيان.

وأسلم صراحة بأننا سعداء لأن فكرة «البيت الأوروبي المشترك» تجد تفها بين شخصيات سياسية بارزة وعامة ليس فقط في أوروبا الشرقية ، وإنما أيضا في أوروبا الغربية . وهكذا ، فقد أعلن جينشر وزير خارجية ألمانيا الاتحادية استعداده «كقبول مفهوم البيت الأوروبي المشترك والعمل مع الاتحاد السوفيتي لجعله بيتا مشتركا حقا » . وقد تحدث إلى الرئيس الاتحادي ريتشارد فون فايتزكر ، ووزير الخارجية الإيطالي

جوليو أندريوتى وغيرهما من الزعماء فى نفس الاتجاه . وهكذا ، فإن الوعى بوحدة الثقافة الأوروبية ، وبالصلة المتبادلة والاعتماد المتبادل لمصائر كافة بلدان القارة ، وبالحاجة الملحة للتعاون فها بينهم ، لم يفقد بعد .

غير أنه يوجد أيديولوجيون وسياسيون يواصلون بذر عدم الثقة نحو الاتحاد السوفيتي. وتنشر غالبية بلدان أوروبا الغربية ، التي تسير في ركاب الولايات المتحدة ، عددا كبيرا من المقالات المحمومة ، ولكن كما هي العادة ، نجد الصحافة اليمينية الفرنسية أكثرها حاسا. إنها ترتعد ببساطة من مجرد توقع وضع أفضل في أوروبا. ولنأخذ ، على سبيل المثال المجلة الأسبوعية الفرنسية « لكسبرس » . فني ٦ أوروبا . ولنأخذ ، على سبيل المثال المجلة الأسبوعية الفرنسية « لكسبرس » . فني ٦ مارس ١٩٨٧ نسبت إلينا رغبة في فرض الهيمنة على أوروبا . وكتبت مقالا نشرته معنوان صارخ « جورباتشوف وأوروبا » على منوال «الفارس الأحمر الصغير» و «الذئب الكبير الشرس » .

وقلبت الأمر فى ذهنى: هل يمكن أن يكون القراء الأوروبيون ، وشعوب أوروبا من السذاجة لدرجة يصدقون فيها مثل هذه التفاهات ، إن لدينا ثقة فى رجاحة عقول الأوروبيين ، ونحن ندرك أنهم سيفرقون بين الحقيقة والأكاذيب إن عاجلا أو آجلا . وإذا ما حكمنا بالنتائج المنشورة لاستطلاعات الرأى العام ، فإن أغلبية الناس فى أوروبا الغربية يبدو أنهم يقدرون سياسة الاتحاد السوفيتي الصريحة نحو أوروبا والتي تهدف إلى وضع حد للنزاعات المستمرة على هذه القارة .

دولتان ألمانيتان

عندما نتأمل مفهوم « البيت الأوروبي المشترك » ، لا يسعنا إلا الإعراب عن موقفنا من الوضع الذي أحدثته الحرب العالمية الثانية في قلب أوروبا حيث توجد الآن الدولتان الألمانيتان ـ جمهورية ألمانيا الديموقراطية وجمهورية ألمانيا الاتحادية . وقد أجريت حديثا مفصلا نوعا ما حول هذا الموضوع مع الرئيس الفيدرالي لألمانيا الغربية ريتشارد فون فايتزكر وقال لي إن الناس في ألمانيا الغربية يولون أذنا صاغية

لشعار « البيت الأوروبي المشترك » وسألته : «كيف تفهمون ذلك في ألمانيا الغربية ؟» ودعوني الآن أن أورد هنا الحوار القصير الذي دار بيننا :

ريتشارد فون فايتزكر: إنها نقطة نرجع إليها لتساعدنا على تصور الطريقة التى يجب ترتيب الأمور وفقا لها فى هذا البيت الأوروبى المشترك. وبوجه خاص المدى الذى سيكون مسموحا به للزيارات المتبادلة بين هذه الشقق.

ميخائل جورياتشوف: إنك على حق تماما. ولكن قد لايحب كل امرئ استقبال زائرين في الليل.

ريتشارد فون فايتزكر : ونحن لايسرنا بشكل خاص أن يكون لدينا خندق عميق يمر داخل غرفة معيشة مشتركة .

وهو يشير بذلك إلى حقيقة أن جمهورية ألمانيا الاتحادية وجمهورية ألمانيا الديموقراطية مقسمتان بجدود دولية ، تمر بوجه خاص ، داخل برلين . وذلك واقع تشكل تاريخيا وتولد عن الاتفاقية التي اعقبت الحرب العالمية الثانية .

وبوسعنا فقط أن نخمن كيف كانت ألمانيا تبدو اليوم إذا ماكانت اتفاقية بوتسدام قد نفلت بكاملها . فلم يكن هناك أساس آخر لوحدة بوتسدام . ولم يقتصر الأمر على أن زعماء الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا فى ذلك الوقت قد خربوا الاتفاقات الموقعة معنا ، وإنما كان يعارضها أيضا أنصار سياسة القوة فى ألمانيا الغربية . وكانت بوتسدام كابوسا بالنسبة لهم ، وكلنا يعرف النتيجة .

ويتعين علينا ، بالطبع ، أن نأخد حذرنا من التصريحات التي تفيد بأن « المسألة الألمانية » تظل مفتوحة ، وأن كل شيء ليس واضحا بعد بالنسبة « للأراضي الموجودة في الشرق » ، وأن يالتا وبوتسدام « غير مشروعة » . ومثل هذه التصريحات ليست قليلة في جمهورية ألمانيا الاتحادية . ودعوني أقل بوضوح تام : إن كل هذه التصريحات حول إحياء « الوحدة الألمانية » بعيدة عن أن تكون « سياسة واقعية » إذا ما استخدمنا التعبير الألماني . وهي لم تعط جمهورية ألمانيا الاتحادية شيئا في الأربعين

عاما الماضية . إن تغذية الأوهام عن العودة إلى « حدود ألمانيا عام ١٩٣٧ » إنما يعنى تقويض الثقة في جمهورية ألمانيا الاتحادية من جيرانها ومن البلدان الأخرى .

ومها قال رونالد ريجان وغيره من زعماء الغرب حول هذا الموضوع ، فإنهم الايستطيعون بالفعل تقديم أى شيء واقعى لجمهورية ألمانيا الاتحادية فيما يتعلق بما يسمى بالمسألة الألمانية . إن ما تشكل تاريخيا هنا من الأفضل أن يترك للتاريخ . ويصدق ذلك أيضا على مسألة الأمة الألمانية وأشكال الدولة الألمانية . والأمر الهام الآن هو الجانب السياسي . إذ توجد دولتان ألمانيتان ذاتا نظامين اجتاعيين وسياسيين عنلفين . ولكل منهما قيم خاصة بها . وقد استخلصت كلتاهما دروسا من التاريخ ، وباستطاعة كل منهما أن تسهم في شئون أوروبا والعالم . أما ماذا سيكون بعد مائة عام فللتاريخ أن يقرره . وبالنسبة للوقت الحاضر . ينبغي علينا أن ننطلق من الوقائع عام فللتاريخ أن يقرره . وبالنسبة للوقت الحاضر . ينبغي علينا أن ننطلق من الوقائع القائمة وألا ندخل في مضاربات مثيرة للمشاكل .

ومن باب الاستطراد سوف أذكر محادثة شهدها معى فايتزكر. فنى ١٩٧٥ عند الاحتفال بالذكرى الثلاثين للانتصار على ألمانيا ، كنت فى جمهورية ألمانيا الأتحادية . وبالقرب من فرانكفورت ، تحدثت مع صاحب محطة بنزين . وقال لى : « إن ستالين قال : إن أمثال هتلر يجيئون ويذهبون ولكن الشعب الألمانى باق ، ولكن بعدئذ ، فى نهاية الحرب قام الاتحاد السوفيتي بتقسيم الشعب الألمانى » .

وتلت ذلك مناقشة . وذكرته بخطط تقسيم الدولة الألمانية التى وضعها تشرشل والسياسيون الأمريكيون فى سنوات الحرب . وكنا نعارض تلك الخطط ونريد إقامة دولة ألمانية واحدة ديموقراطية وذات سيادة . وذكرته أيضا بحقيقة أن الدول الغربية قد أيدت إقامة دولة منفصلة فى غرب ألمانيا ، وإن جمهورية ألمانيا الديموقراطية قد ظهرت فيما بعد . وحتى بعد مؤتمر يالتا وبوتسدام أيضا ، كنا نؤيد إقامة دولة ألمانية موحدة ذات سيادة ومسالمة فى المقام الأول ، على أساس تصفية النازية ، وإشاعة

الديموقراطية ، وتصفية الطابع العسكرى لألمانيا . ولكن كانت هناك فى الغرب قوى عملت بطريقة أدت إلى الوضع الحالى . ولذلك لايقع اللوم على الاتحاد السوفيتى بالنسبة لتقسيم ألمانيا ، ويجب البحث عمن يلامون على ذلك فى مكان آخر . واليوم توجد دولتان ألمانيتان ، وهو واقع أقرته المعاهدات الدولية . وأى سياسى ذو تفكير واقعى ليس أمامه إلا أن يهتدى بذلك وبه وحده .

وهذه كانت محادثتنا .

وحتى بعد أن خاض الاتحاد السوفيتى معمعة تلك الحرب الرهيبة ، فقد كان يتخذ موقفا مبدئيا ، ولم نتخل عن الإحساس بالواقع . ولم نخلط بين الشعب الألمانى والنظام النازى . كما أننا لانلقى عليه اللوم على الكوارث التى سببها عدوان هتلر .

ونحن فى علاقاتنا مع جمهورية ألمانيا الاتحادية نضع فى الاعتبار طاقاتها وإمكانياتها، ومكانها فى أوروبا وفى العالم ودورها السياسى. والتاريخ يجبرنا على أن يعامل بعضنا البعض معاملة سليمة . إن تطور أوروبا مستحيل بدون التعاون النشط بين دولتينا . وسيكون للعلاقات القوية بين جمهورية ألمانيا الاتحادية والاتحاد السوفيتى دلالة تاريخية حقا . فنى الوقت الذى تحافظان فيه على ذاتيتها الخاصة ، وفى إطار نظاميها وتحالفاتها ، يمكن لكلتا الدولتين أن تلعبا دورا رئيسيا فى التطورات الأوروبية والعالمية . والاتحاد السوفيتى معنى بتوافر الأمن لجمهورية ألمانيا الاتحادية ، مستقرة ، فلن يكون هناك أمل فى الاستقرار لأوروبا ، ومن ثم للعالم . وفى تعبير مقابل ، إن العلاقات المستقرة بين الاستقرار لأوروبا ، ومن ثم للعالم . وفى تعبير مقابل ، إن العلاقات المستقرة بين الاتحادية وبين الاتحاد السوفيتى سوف تحدث تغييرا مقدرا فى الوضع الأوروبي نحو الأفضل .

أوروبا ونزع السلاح

كل ما نوقش فى ريكيافيك له تأثير مباشر على أوروبا . وفى علاقاتنا مع الولايات المتحدة لم ننس أبدا ما يتعلق بمصالح أوروبا .

وبعد ريكيافيك التقيت برؤساء حكومات عدد من بلدان أوروبا الغربية الأعضاء في حلف شهال الأطلنطى ، وأعنى بول شلوتر من الدنمرك ، وردولف لوبرز من هولندا ، وجروهارلم بروندلاند من النرويج ، وستيجريمور هيرمانسون من أيسلندا ، وأمنتور فانفانى وجوليو أندريوتى ممثلى القيادة الإيطالية . وأجرينا مناقشات عديدة حول موضوع «أوروبا ونزع السلاح».

وسمعت من محدثى تعليقات هامة عديدة . وبعد ذلك بحثنا فى القيادة السوفيتية بشكل جاد حججهم وأفكارهم وأخذنا بعين اعتبار فى سياستنا ماوجدناه صحيحا من هذه الأفكار . ويتعلق ذلك بشكل خاص ، بالصواريخ الأوروبية . ولكن كانت هناك أيضا خلافات _ احتدت بشكل خاص مع مارجريت تاتشر وجاك شيراك ، حول مفهومها وكذلك الفكرة العامة لحلف شهال الأطلنطى عن «الردع النووى» . وأعربت لها عن دهشتى بخصوص الهياج الذى أحدثته ريكيافيك فى بعض العواصم الغربية . فليس هناك سبب من أى نوع لاعتبار نتائجها تهديدا لأمن أوروبا الغربية . ومثل هذه الاستنتاجات والتقييات ليست إلا ثمرة التفكير القديم لأيام الحرب الباردة .

وفى حديثى مع الزعماء الأجانب كنت أسأل أحيانا بشكل مباشر: هل تعتقدون أن الاتحاد السوفيتى ينوى مهاجمة بلادكم وأوروبا الغربية بشكل عام؟ وكانت إجابتهم جميعا: «كلا، لانعتقد ذلك». ولكن سرعان ماكان يبدى بعضهم تحفظا، قائلين بأن حقيقة المقدرة العسكرية الجبارة للاتحاد السوفيتى تخلق فى حد ذاتها تهديدا محتملا. وبوسع المرء أن يفهم مثل هذا التفكير. ولكن الأمر يكون أقل وضوحا بكثير عندما تكون المكانة والعظمة الوطنية مرتبطين بحيازة

الأسلحة النووية ، رغم أنه من الحقائق المعروفة أنه لو اندلعت حرب نووية فلن تكون هذه الأسلحة سوى دعوة لتوجيه الضربات دون أية دلالة حقيقية أخرى .

وعندما نتحدث عن نزع السلاح كوحدة حيوية ينبغى إرساؤها لدى تشييد بيت أوروبي مشترك ، فإننا نخاطب ، فى المقام الأول ، الدول النووية الأوروبية بريطانيا وفرنسا . لقد أبدى الاتحاد السوفيتي ثقة ضخمة فى أوروبا الغربية بموافقته خلال المباحثات الحالية حول نزع السلاح ، على ألا يضع قدرتها النووية فى الحساب . وكان الدافع الرئيسي وراء هذا التحرك أننا نستبعد ، حتى فى أفكارنا ، ناهيك عن خططنا الاستراتيجية ، إمكانية الحرب ذاتها مع بريطانيا وفرنسا ، ناهيك مع الدول النووية غير الأوروبية .

وعندما واجهنا ، فيما يتعلق بمقترحاتنا ، تحرزا بأن موسكو إنما تخطط لخدعة وتريد شق حلف الأطلنطى ، وإضعاف يقظة أوروبا الغربية ، ثم اجتياحها ، وعندما بدأ الهجوم على فكرة أوروبا الخالية من الأسلحة النووية باعتبارها فكرة ضارة وخطيرة ، قلت علانية لكل هؤلاء الناس : «مم تخافون ، أيها السادة ؟ هل من الصعوبة بمكان أن ترتفعوا إلى مستوى التقييات الحقيقية للعمليات التاريخية حقا التي تجرى في الاتحاد السوفيتي والعالم الاشتراكي بأكمله ؟ أليس بوسعكم أن تفهموا الصلة الموضوعية التي لا تنفصم بين هذه العمليات وبين النوايا الطيبة حقا في السياسة الخارجية ؟ » .

لقد آن الأوان لوضع حد للأكاذيب المتعلقة بعدوانية الاتحاد السوفيتي. ولن يبدأ بلدنا ، إطلاقا تحت أى ظروف ، عمليات عسكرية ضد أوروبا الغربية مالم نهاجم نحن وحلفاؤنا من جانب حلف الأطلنطي ! وأكرر ، لن نبدأ إطلاقا !

فلتتخلص أوروبا الغربية بسرعة من مخاوفها من الاتحاد السوفيتي التي فرضت عليها . ولتعمل العقل في أن فكرة إزالة الأسلحة النووية في أوروبا قد تخلق وضعا جديدا ليس للغرب فحسب وإنما لناكذلك . ولايمكننا أن ننسى أن عمليات غزو

أراضينا فى العصر ماقبل النووى قد قام بها الغرب أكثر من مرة . ثم ألا تتحدث عن نفسها كافة المناورات العسكرية لحلف شمال الأطلنطى التى تشمل بشكل ثابت مخططات هجومية ؟ .

ونحن نعتبر أن من الأهمية السياسية الكبيرة حقيقة أن اليونان ، وهولندا ، وأسبانيا ، وإيطاليا ، والسويد ، وفنلندا ، وغيرها الكثير من دول أوروبا قد رفعت صوتها مؤيدة إيجاد حل لمسألة الصواريخ الأوروبية .

إنهم يتحدثون فى الغرب عن عدم المساواة وانعدام التوازن. وهذا صحيح ، فهناك عدم توازن وعدم تماثل فى بعض أنواع الأسلحة والقوات المسلحة لدى كلا الجانبين فى أوروبا ، بسبب عوامل تاريخية وجغرافية وغيرها . ونحن نؤيد إزالة عدم المساواة القائم فى بعض المجالات ، ولكن ليس من خلال التعزيز من جانب اللين يتخلفون عن غيرهم وإنما من خلال التخفيض من جانب اللين يتقدمون على غيرهم .

وفى هذا المجال هناك مسائل محددة عديدة تنتظر الحل: تخفيض الأسلحة النووية التكتيكية وفى النهاية إزالتها ، على أن يصاحبه تخفيض كبير للقوات المسلحة والأسلحة التقليدية ، وسحب الأسلحة الهجومية من التماس المباشر لنستبعد إمكانية هجوم مفاجئ ، وتغييركل أنماط القوات المسلحة بهدف اضفاء طابع دفاعى بحت عليها . وقد تحدثت بصورة محددة عن ذلك فى اجتاع براغ . وقدمت مقترحات تفصيلية حول هذا الموضوع فى برنامج بودابست لمنظمة معاهدة وارسو .

وأعلنت بلدان معاهدة وارسو فى اجتماع لجنتها الاستشارية السياسية فى برلين فى مايو ١٩٨٧ اجراء حيويا لبناء الثقة بروح التفكير الجديد ويتعلق بمبدئها العسكرى الدفاعى تماما فى كافة مكوناته .

ومن الممكن أن تساعد إجراءات مثل إقامة مناطق منزوعة السلاح المنووى ومناطق منزوعة الأسلحة الكيماوية في دعم الأمن الأوروبي . ونحن نؤيد العرض

الذى تقدمت به حكومتا جمهورية ألمانيا الديموقراطية ونشيكوسلوفاكيا إلى حكومة ألمانيا الغربية لإقامة ممر خال من الأسلحة النووية فى وسط أوروبا . ومن المعروف أن الحزب الاشتراكي الديموقراطي في ألمانيا قد أسهم فى تكوين مثل هذا الممر . ونحن مستعدون لضان واحترام الوضع غير النووى لهذه المنطقة . ونعتقد أن خطة بولندا التوفيقية بشأن مسألة خفض الأسلحة وتدابير بناء الثقة فى وسط أوروبا قد جاءت في حينها وأنها خطة واعدة .

ونحن على قناعة بأن الأسلحة يجب خفضها لمستوى الكفاية المعقولة ، أى المستوى اللازم للأغراض الدفاعية البحتة . وقد حان الوقت ليقوم الحلفان العسكريان بتعديل مفاهيمها الاستراتيجية وتوجيهها بدرجة أكبر نحو أهداف الدفاع . إن كل شقة في «البيت الأوروبي» لها الحتى في حاية نفسها ضد اللصوص ، ولكنها يجب أن تفعل ذلك دون أن تدمر ممتلكات جيرانها .

التعماون الأوروبي

يحتاج بناء البيت الأوروبي إلى أساس مادى ، إلى تعاون بناء في عديد من المجالات المختلفة . ونحن في الاتحاد السوفيتي على استعداد لذلك ، بما في ذلك الحاجة إلى البحث عن أشكال جديدة من التعاون ، مثل البدء في مشروعات مشتركة ، وتنفيذ المشروعات المشتركة في بلدان ثالثة ، الخ . ونحن نطرح مسألة التعاون العلمي والتكنولوجي الواسع لا كمتسولين ليس لديهم مايقدمونه مقابل ذلك . ولسوء الحظ ، فهذا هو المجال الذي تقام فيه معظم الحواجز المصطنعة . وقد قدمت مزاعم بأن هذا يشمل ٥ التكنولوجيا الحساسة » ذات الأهمية الاستراتيجية . وتستخدم عبارة ٥ التكنولوجيا الحساسة » للإشارة أولا وقبل كل شيء إلى الإلكترونيات . غير أن الإلكترونيات تستخدم الآن عمليا في كافة الصناعات التي تعتمد على أساليب الإنتاج المتقدمة .

ولن تتقدم أوروبا الغربية تكنولوجيا ، على طريق برنامج حرب النجوم ۲٤٦ العسكرى ، كما لن تفتح عسكرة الفضاء الطريق إلى التقدم التكنولوجي. إنها مجرد ديماجوجية فيها نكهة الامبريالية التكنولوجية. إن هناك العديد من الفرص والمجالات للتعاون العلمي والتكنولوجي السلمي. وهناك تجربة المشروع المشترك لدراسة مذنب هالى من خلال رحلة الصاروخ الفضائي فيجا. وقد اكتشف هذا المشروع مواد بناء جديدة كما تمت اكتشافات أخرى في ألكترونيات الراديو ، وأنظمة التحكم ، والرياضيات ، والبصريات ، الخ. وتبدو فكرة جوليو أندريوتي عن التماء « معمل عالمي » فكرة واعدة أيضا . وهي تمثل مشروعا بحثيا جديدا ، وعالميا إلى حد بعيد ، ويبدو كما لوكان في طريقه إلى التبلور .

أما عن التعاون فى استخدام الطاقة النووية الحرارية ، فقد وضع أساس علمى لذلك فى عدد من البلدان بواسطة علماء يشتغلون فى الأفكار التى اقترحها زملاؤهم السوفيت. وباستطاعة العلماء الأمريكيين أن يشتركوا فى هذه الأبحاث. وهناك أيضا إمكانيات أخرى مثل الاستكشاف والاستخدام المشترك للفضاء الخارجى ولكواكب المجموعة الشمسية والأبحاث فى مجال الموصلات الفائقة والتكنولوجيا الحيوية.

صحیح إن كل ذلك سيزيد من التعاون المتبادل بين دول أوروبا ، ولكنه سيكون أيضا لمنفعة كل الناس ، وسيؤدى إلى إحساس أكبر بالمسئولية وضبط النفس .

وإنا إذ نعمل بروح التعاون ، نستطيع تحقيق الشيء الكثير في هذا المجال الهائل المسمى « بالمسائل الإنسانية » . وستكون إحدى العلامات الهامة على هذا الطريق عقد المؤتمر الدولى للتعاون في المجال الإنساني الذي يقترح الانحاد السوفيتي عقده في موسكو . وفي مثل هذا الاجتماع يستطيع الجانبان مناقشة جميع جوانب المشاكل التي تهم كلا من الشرق والغرب ، بما في ذلك تلك المسألة المعقدة ، مسألة حقوق الإنسان ، ومن شأن ذلك أن يعطى لعملية هلسنكي قوة دافعة جديدة .

ومع ذلك ، فعندما دعونا بلدان الغرب إلى مناقشة جادة وبناءة لمسألة حقوق

الإنسان ، وقارنا فى جو من العلانية المتبادلة ، كيف يعيش الناس بالفعل فى بلادنا وفى البلدان الرأسمالية ، ثارت أعصاب الآخرين ، وهم يحاولون الآن تقليص الأمور وتحويلها إلى حالات فردية وتجنب مناقشة البقية . ولقد قلت ، سواء علنا أو فى اجتماعات مع الزعماء والوفود الأجنبية ، أننا على استعداد لمناقشة الحالات الفردية بروح إنسانية ، ولكننا مصممون على أن نناقش علنا وعلى نطاق واسع هذه المشاكل برمتها .

وقد يقول المرء أن التعاون والمنافسة السلميين بين الشرق والغرب يستطيعان أن يحققا النفع لكلا الجانبين بل إنها يحققانه فعلا , ولدى بلدان أوروبا الصغيرة والمتوسطة الشيء الكثير الذي تستطيع أن تسهم به في هذه القضية . وقد ناقشنا هذا مع رئيس وزراء أيسلندا السابق هيرمانسون ، ورئيس وزراء هولندا لوبرس ، ورئيس وزراء السويد كارلسون وغيرهم من الزعماء .

بوادر التفكير الجديد في أوروبا

أعتقد أن أوروبا الغربية ، لاسيا بعد ريكيافيك ، بدأت تدرك بشكل ثاقب الحاجة إلى الإسهام فى تحسين الوضع فى القارة . ونحن نقدر حقيقة أن الأوروبيين يبذلون الآن جهدا كبيرا من أجل تنقية الجو السياسي فى العالم .

ولا أعتقد أننى سأفشى سرا هاما إذا ما حكيت لكم قصة حكاها لى رجل الدولة الإيطالى البارز أمينتور فانفانى . فقد كان يناقش ذات مرة الوضع السياسى الصعب مع إدواردو ديفيليبو المنتج السينائى الإيطالى المشهور دوليا . وسأل ديفيليبو : « ما الذى يجب علينا أن نفعله إذن ؟ » فقال فانفانى : « لنضع ثقتنا فى الله » فأجاب ديفيليبو : « إذن فعلينا نحن البشر ألا نخلق العقبات لله » .

إن هذا الإدراك بأننا جميعا مسئولون عن مستقبل العالم أمر له قيمته وأهميته الخاصة اليوم . ويجب أن يعزى الفضل لبعض السياسيين فى أوروبا الغربية لاعترافهم

بحاجة كافة الأوروبيين إلى توحيد قواهم والمحافظة على الأسس التي تم وضعها فى ريكيافيك .

وباستطاعتنا أن نرى البوادر الأولى لنظرة جديدة فى الشئون الدولية تظهر فى أوروبا الغربية ، فتحدث تغييرات معينة بين الدوائر الحاكمة . وتصوغ كثير من الأحزاب الاشتراكية والاشتراكية الديموقراطية فى أوروبا الغربية مواقف جديدة فى سياسة الدفاع والأمن . ويقودهم ساسة متمرسون ذوو نظرة شاملة للمشاكل الدولية .

قبل زيارتى لفرنسا عام ١٩٨٥ بوقت قصير، سألنى الصحفيون الفرنسيون أن أعلق على علاقاتنا بالحكومات الاشتراكية الديموقراطية فى أوروبا. فقلت إنناكنا خلال السنوات القليلة الأخيرة نتعاون بنشاط مع الاشتراكيين الديموقراطيين فى المسائل المرتبطة بالحرب والسلام. وكانت اجتاعاتى مع وفود الأحزاب الاشتراكية والاشتراكية الديموقراطية تمثل جانبا كبيرا فى اتصلاتى مع الزعماء الأجانب.

وقد استقبلت المجلس الاستشارى للاشتراكية الدولية بقيادة كالينى سورسا والتقيت مع فيلى براندت ، وإيجون بهر ، وفيليب جونجاليز وغيرهم من الزعماء الاشتراكيين الديموقراطيين . وفي كل مرة كنا نلاحظ أن آراءنا حول المسائل الحاسمة للأمن الدولي ونزع السلاح كانت متقاربة أو متاثلة . وأنا في غاية الأسف لأنى لم ألتق أبدا بأولف بالم الذي كانت وفاته الفاجعة صدمة كبيرة لنا . إن فكرة « الأمن للجميع » التي طرحها والتي واصلت تطويرها لجنة بالم الدولية بها كثير من النقاط المتماثلة مع مفهومنا عن الأمن الشامل .

إن الحوار الذى بدأ بين الشيوعيين والاشتراكيين الديموقراطيين لايطمس بأى حال الحلافات الأيديولوجية بينهم . وفى نفس الوقت ، فلا يمكننا القول بأن أيًّا من الذين شاركوا فى هذا الحوار قد أراق ماء الوجه أو تعرض للضغط من الطرف الآخر . وقد أوضحت التجربة أنه لاخطر من مثل هذا الاحتال .

ولدينا علاقات طيبة وصلات مفيدة مع الاشتراكيين الديموقراطيين في جمهورية ألمانيا الاتحادية ، وفنلندا ، والسويد والدنمرك ، ومع حزب العمال البريطاني ، والاشتراكيين الأسبان ، الخ. ونحن نقدر هذه العلاقات لدرجة كبيرة . وبوجه عام فنحن على استعداد للتعاون مع كافة القوى التي يعنيها التغلب على الاتجاهات الخطرة في تطور الوضع العالمي . ورغم ذلك فإني أعتقد أن إسهام أوروبا في قضية السلام والأمن يمكن أن تكون أكبر بكثير . ولكن كثيرين من زعماء أوروبا الغربية يفتقدون الإرادة السياسية ، وربما الامكانيات أيضا ، ومع ذلك فإن الحياة سوف ترغم كل شخص على التحول إلى تقييات واقعية كما يحدث اليوم .

حول أوروب والولايات المتحدة

إنه لمن المؤسف أن حكومات بلدان حلف شمال الأطلنطى ، بما فيها هؤلاء الذين يتنصلون قولا من التجاوزات الخطيرة للسياسة الأمريكية ، ويرضخون فى النهاية للضغط ، تتحمل المسئولية عن تصاعد سباق التسلح وزيادة حدة التوتر الدولى .

وإليكم أحد الأمثلة على ذلك. فنى أبريل ١٩٨٦ قصفت الطائرات الحربية الأمريكية طرابلس، وبنغازى، وغيرهما من الأهداف فى الأراضى الليبية. ويتعذر تماما الدفاع بمقاييس المجتمع المتمدين عن هذا العمل العدوانى المباشر. لقد أقلعت الطائرات الحربية الأمريكية من قواعد فى بريطانيا وطارت فى المجال الجوى لأوروبا الغربية. فهاذا فعلت هذه الأخيرة؟.

لقد راقبت حكومات بلدان حلف شهال الأطلنطى التطورات فى صمت ولم تجرؤ على معارضة هذا العمل الأمريكى. وقلت لرئيس وزراء السويد، الذى تحدثت معه لساعات بعد أن وصلتنا أخبار هذه الغارات، إن مثل هذا الموقف يذكرنى باسترضاء المعتدين عشية الحرب العالمية الثانية. وماذا يحدث إذا ماخطرت

للعسكريين الأمريكيين فكرة معاقبة أحد بلدان معاهدة وارسو بقصفها بالقنابل؟ ماذا سيحدث عندئذ؟ إنهم يتصرفون وكأن شيئا لم يحدث؟ ولكن هذه حرب! إن مسئولية الجميع قد ازدادت بشكل لايقاس في عصرنا النووى.

هناك أسطورة إغريقية قديمة حول خطف أوروبا وإبعادها عن مكانها. وقد أصبحت هذه الحكاية الحرافية فجأة اليوم ذات علاقة كبيرة بما يجرى. وغنى عن القول أن أوروبا كفكرة جغرافية ستبقى فى مكانها. غير أنه يوجد لدى المرء أحيانا انطباع بأن السياسة المستقلة لبلدان أوروبا الغربية قد أبعدتها عن مكانها ، ونقلتها عبر المحيط ، وأن المصالح الوطنية يتم تأجيرها تحت حجة حاية الأمن.

وهناك تهديد خطير يحوم فوق الثقافة الأوروبية كذلك. وينشأ هذا التهديد ن انقضاض « الثقافة الهابطة » عبر الأطلنطى. ونحن نتفهم جيدا قلق المثقفين فى أوروبا الغربية. والحقيقة أنه لايسع المرء إلا أن يعجب من أن الثقافة الأوروبية العميقة والمتعمقة فى عقلانيتها والمتأصلة فى إنسانيتها تتراجع إلى الخلف أمام العربدة البدائية للعنف والأدب الإباحى وفيض المشاعر الرخيصة والأفكار الوضيعة.

وعندما نشير إلى أهمية الموقف المستقل لأوروبا ، كثيرا مانتهم بالرغبة فى الوقيعة بين أوروبا الغربية والولايات المتحدة . ولم تكن لدينا أبدا ، وليست لدينا الآن مثل هذه النوايا على الإطلاق . ونحن بعيدون عن تجاهل العلاقات التاريخية القائمة بين أوروبا الغربية والولايات المتحدة أو التقليل من شأنها . وإنه لأمر مناف للعقل أن نفسر الخط الأوروبي في سياسة الاتحاد السوفيتي على أنه تعبير عن «العداء للأمريكيين » . فليست لدينا نية للدخول في ألاعيب دبلوماسية كما ليست لدينا رغبة في إثارة التشويش في العلاقات الدولية . إن ذلك لايتفق مع الهدف الرئيسي لسياستنا الخارجية ـ تعزيز سلم مستقر ودائم يقوم على الثقة المتبادلة والتعاون بين الأمم . وفكرتنا عن «البيت الأوروبي المشترك » لاتنطوى بالتأكيد على إغلاق الأبواب في وجه أحد . حقا إننا لانحب أن نرى أحدا يضرب باب البيت الأوروبي

بقدمه ليدخل ويتصدر المائدة فى شقة شخص آخر. بيد أن الأمر عندئذ يكون من اختصاص مالك الشقة. وقد ردت البلدان الاشتراكية فى الماضى بالايجاب على مشاركة الولايات المتحدة وكندا فى عملية هلسنكى.

مسئولية أوروبا

وهكذا ، ودون التقليل من شأن دور القارات والشعوب الأخرى وأهميتها ، نتحدث عن الدور الفريد الذي يجب على أوروبا أن تقوم به اليوم .

إن نجاح العملية الأوروبية يجعل باستطاعتها تقديم إسهام حتى بدرجة أكبر فى تقدم بقية العالم. ولاينبغى لأوروبا أن تنأى بنفسها عن المشاركة فى حل مشاكل مثل المجاعات ، والديون ، والتخلف ، ووقف النزاعات المسلحة .

وما من شك فى أن كافة شعوب أوروبا دون استثناء تفضل مناخ حسن الجوار والثقة ، والتعايش والتعاون على أرض القارة . وسيكون ذلك انتصارا للتفكير السياسى الجديد بكل معنى الكلمة . وباستطاعة أوروبا أن تقدم مثالا يحتذى . فالعالم يقف اليوم عند مفترق الطرق ، ويتوقف الاتجاه الذى يسير فيه بدرجة كبيرة على الموقف السياسى لأوروبا .

وليس هناك من يستطيع أن يحل محل أوروبا بإمكانياتها وخبرتها الضخمة سواء ف السياسة العالمية أو فى التنمية العالمية . إن أوروبا تستطيع بل ويجب عليها أن تلعب دورا إيجابيا ، محددا ، وبناء .

الفصل السابع قضايا نزع السيسلاح والعلافات بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة

عندماكنت لا أزال طالبا فى جامعة موسكو، أبديت اهتاما بتاريخ الولايات المتحدة . وقرأت كتبا عديدة لمؤلفين أمريكيين وتابعت تاريخ علاقاتنا . وكانت هناك تقلبات حادة مفاجئة فى هذه العلاقات ، فمن تحالف زمن الحرب إلى « حرب باردة » فى الأربعينيات والخمسينيات، ومن انفراج فى السبعينيات إلى تدهور حاد فى بداية المئاتينات .

وقد شهدت الفترة مابين اجتاع أبريل ١٩٨٥ الكامل ، التي كانت نقطة انعطاف بالنسبة لنا ، وبين نشر هذا الكتاب أحداثا هامة وعديدة بينها أحداث ترتبط ارتباطا مباشرا بتطور العلاقات السوفيتية الأمريكية . ونحن الآن نواصل الحوار مع الولايات المتحدة . ونكتب ـ الرئيس ريجان وأنا ـ لبعضنا البعض من فترة لأخرى . ويناقش مفاوضو الجانبين مشاكل هامة فعلاً .

وكان هناك قليل من النشاط دبّ فى مجالات عديدة مثل التعاون العلمى والثقافى فى العام أو العامين الأخيرين . وحاليا يناقش الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، على مستويات مختلفة ، مسائل كانت ذات يوم موضع اتهامات متبادلة . وبدأت تظهر الخطوط العامة للاتصالات حتى فى مجال النشاط الإعلامي ، الذى يجب أن يتخلص من دعاية العنف والكراهية ، ومن التدخل فى الشئون الداخلية لبعضنا الآخر.

حسنا ، هل ذاب الجليد ، ودخلت علاقاتنا مرحلة بناءة وأكثر هدوءا ؟ يود المرء لو استمرت هذه العملية ، ولكن الزعم بأن تقدما ملحوظا قد تحقق قد يكون تطاولا على الحقيقة . وإذا كنا نعنى بتحسن حقيق فى العلاقات السوفيتية

الأمريكية ، فعلينا أن نقيم حالتها بأمانة . إن التغير إلى الأفضل ، إن وجد ، كان بطيئا للغاية . فبين حين وآخر تطغى أساليب النهج السابقة المتناقضة ، على الضرورة الحتمية لبعث النشاط في العلاقات السوفيتية الأمريكية .

إن تقدم التكنولوجيا العالية وعلوم الاتصالات جعل الشعوب الآن أكثر قربا من بعضها البعض. ويمكن استخدام هذه العمليات لتعزيز تفاهم متبادل أكبر قدرا. ويمكن استخدامها كذلك للتفرقة بين الشعوب وبسبب ذلك تعرضنا بالفعل لخسائر جسيمة. ولكن العالم الآن قد وصل إلى نقطة يجب فيها علينا وأعنى كلا من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي أن نفكر كيف نعتزم مواصلة المسيرة. ومالم نغير شيئا، فمن الصعب أن نتنبأ بما سيكون بعد عشرة، أو خمسة عشر، أو عشرين عاما من الآن. ويبدولى أن القلق على بلدنا وعلى مستقبل الحضارة كلها فى عشرين عاما من الآن. ويبدولى أن القلق على بلدنا وعلى مستقبل الحضارة كلها فى تزايد مستمر. إنه يتزايد داخل الشعب السوفيتي مثلما يتزايد داخل الشعب الأمريكى.

ولن أقبل مها قبل لى الزعم بأن الشعب الأمريكي عدواني تجاه الاتحاد السوفيتي . ولا يمكنني أن أصدق ذلك . ربماكان هناك بعض الأفراد الذين يسرهم وجود توتر أو مواجهة أو منافسة حادة بين بلدينا . وربماكان هناك بعض الناس الذين يجنون من وراء ذلك كسبا ما . ولكن مثل هذه الحالات لاتتفق مع المصالح الأكبر لشعبينا .

ونحن نفكر ، قبل كل شيء ، فيما يجب عمله لتحسين علاقاتنا . وهي بالفعل في حاجة إلى ذلك . لأننا لم نعجز فقط عن أن نتقدم في هذا السبيل منذ منتصف السبعينيات ، بل إن الكثير مما توصلنا إليه وفعلناه قد تم تدميره . ولم نتحرك إلى الإمام ، بل ربما في الاتجاه المضاد . ونحن نقول إن الأمريكيين هم الذين يقع عليهم اللوم . ويقول الأمريكيون إن اللوم إنما يقع على الاتحاد السوفيتي . وقد يكون من المتعين علينا أن نبحث عن الأسباب الكامنة خلف ماحدث ، إذ ينبغي أن

نستخلص الدروس من الماضى ، بما فى ذلك السجل الماضى لعلاقاتنا . فذلك علم ، وعلم جاد ومسئول ، إذا التزم المرء بالحقيقة بطبيعة الحال . ومع ذلك فإن ماينبغى أن نفكر فيه اليوم أكثر من غيره هوكيف سنعيش معا فى هذا العالم وكيف سنتعاون .

وقد أجريت عددا من اللقاءات مع سياسيين وشخصيات عامة أمريكية ، وهي تحدث لى في بعض الأحيان ازدحاما في جدول أعالى ، ولكننى كنت أحاول في كل مناسبة أن أجد الوقت لمثل هذه اللقاءات . إن مهمتى ، كما أراها ، ليست قاصرة على التوصل إلى تفهم سياستنا ورؤيتنا للعالم ، وإنما أيضا أن أتفهم وأدرك على وجه أكمل إطار العقلية الأمريكية ، وأن أتعلم بدرجة أفضل ماهية المشاكل الأمريكية ، وبصفة خاصة ، العمليات السياسية المحددة في الولايات المتحدة . ولا يمكن للمرء أن يفعل غير ذلك . إن السياسة العلمية يجب أن تبنى على تقييم دقيق للواقع . ومن المستحيل التحرك نحو علاقات أكثر انسجاما بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى في الوقت الذي نظل فيه مخدرين بالأساطير الأيديولوجية .

إننا لانتصل ببعضنا البعض بما فيه الكفاية ، ولا نفهم بعضنا البعض بما فيه الكفاية ، ولا حتى نحترم بعضنا البعض بما فيه الكفاية . وقد بذلت قوى معينة جهودا كبيرة للتوصل إلى مثل هذه الحالة . لقد تراكم الكثير من المفاهيم الخاطئة لتعرقل التعاون وتقف في طريق تطويره .

إن تاريخ العلاقات السوفيتية الأمريكية فى فترة مابعد الحرب ليس موضوع هذا الكتاب . ولكن إذا استعدنا إلى ذاكرتنا أحداث الماضى القريب ، تبين لنا الضرر اللذى سببته الأفكار الخاطئة ورفض الأفكار الجديدة . فعندما التقيت بالرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر فى مطلع صيف ١٩٨٧ ، قلت له بصراحة إننا لانعتبر بأية حال كل ما حدث خلال رئاسته سلبيا . لقد كانت هناك بعض الإيجابيات كذلك . وأشير بصفة خاصة إلى اتفاقية سولت .. ٢ ، التي رغم أنه لم يتم التصديق عليها حتى الآن ، فإنها تلعب دورا هاما رغم النهج الحالي للإدارة الأمريكية . إن

روح هذه الاتفاقية حية . وفى الوقت نفسه ، لا يعجز المرء عن رؤية أن هناك فرصا كثيرة قد أفلت . لقد اعتقدنا ، ومازلنا نعتقد ، أنه عندماكانت النمانينيات تلوح فى الأفق ، كانت اتفاقيات هامة على مجرد مرمى حجر فى مجالات مثل الأسلحة المضادة للصواريخ ، وتجارة السلاح ، والحد من النشاط العسكري فى المحيط الهندى ، ومسألة التسوية فى الشرق الأوسبط . وقد مضت عشر سنوات ! فكم من الوقت ومن الموارد جرى تبديدها على سباق التسلح ، وكم من الأرواح البشرية فقدت ا

ماذا نتوقع من الولايات المتحدة الأمريكية ؟

عندما أجبت على مجلة « تايم » فى أواخر أغسطس ١٩٨٥ قلت : « إن بلدينا ببساطة لا يستطيعان أن يسمحا للأمور بأن تصل إلى حد المواجهة . وفى ذلك تكمن المصلحة الحقيقية لكل من الشعبين السوفيتى والأمريكى . ويجب التعبير عن ذلك بلغة السياسة العملية . فن الضرورى وقف سباق التسلح ، ومعالجة نزع السلاح ، وتطبيع العلاقات السوفيتية الأمريكية . وبأمانة فقد حان الوقت لجعل هذه العلاقات بين الشعبين العظيمين جديرة بدورهما التاريخى . فهصير العالم ، ومصير المحارة العالمية ، يتوقفان على علاقاتنا . ونحن مستعدون للعمل فى هذا الاتجاه » .

علينا أن نتعلم أن نعيش في عالم واقعى ، عالم يأخذ في اعتباره مصالح الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، مصالح بريطانيا وفرنسا وجمهورية ألمانيا الاتحادية ، ولكن هناك أيضا مصالح الصين ، والهند ، وأستراليا ، وباكستان ، وتانزانيا ، وانجولا ، والأرجنتين وغيرها من الدول ، ومصالح بولندا وفيتنام وكوبا والبلدان الاشتراكية الأخرى . وعدم الاعتراف بهذه المصالح يعني إنكار حرية الاختيار بالنسبة لهذه الشعوب وإنكار حقها في أن تختار النظام الاجتماعي الذي يناسبها . وحتى إذا ما أخطأت في خيارها ، فلابد من أن تجد مخرجا بنفسها . وهذا حقها . ولقد تحدثت في ذلك مع كثير من الأمريكيين بمن فيهم جورج شولتز ، الذي

كان فى موسكو فى ربيع ١٩٨٧ . وقد أجريت معه محادثة متعمقة حرصت فيها على أن أعود به إلى الفكرة نفسها : لنحاول أن نعيش فى عالم واقعى ، ولنضع مصالح كل من البلدين فى الاعتبار . وسوف يستحيل ذلك ، مالم نضع فى الاعتبار مصالح الأعضاء الآخرين فى الأسرة الدولية . ولن تكون لدينا علاقات دولية سليمة إذا ما انطلقنا من مصالح الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة وحدهما . فلابد من أن يكون هناك توازن .

ويتخذ هذا الأمر وجها جديدا عند كل مرحلة من التاريخ. فالمصالح تتغير، ومن ثم يتغير التوازن. ويقتضى الأمر عندئذ نهج أساليب جديدة. وأكرر القول بأنه سيكون خطيرا ومدمرا أن تبنى السياسة فى نهاية القرن العشرين على النهج الذى ألهم خطاب تشرشل فى فولتون ومبدأ ترومان. لقد تأخر طويلا البدء فى بذل جهد جاد لا عادة تشكيل العلاقات السوفيتية الأمريكية. وعندما نسلم بذلك، فلابد من التخلى عن سياسة إصدار الأوامر. فلا الاتحاد السوفيتي، ولا الولايات المتحدة، ولا أى بلد آخر يمكنه اعتبار العالم أو أى جزء منه هدفا للاستغلال، حتى وإن يكن تحت عباءة «المصلحة الوطنية».

إن محاولات بناء العلاقات على الأساليب الدكتاتورية ، والعنف والأوامر يصعب أن تنجح عند هذه النقطة . وسرعان ماتصاب بالفشل تماما . إن عملية فهم الوقائع الجديدة ليست عملية سهلة . إنها تحتاج إلى وقت المرء وجهده . ولكن هذه العملية بمجرد أن تبدأ ، ستتواصل . وعلينا أن نتعلم كيف نصغى لبعضنا البعض ، ونفهم بعضنا البعض . وأناكها قلت لشولتز ، أؤيد التعاون مع الولايات المتحدة وأعنى التعاون بشكل بناء ، لأنه ليس هناك من يتحمل المسئولية التى على الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة أن يتحملها .

وأتذكر محادثتي مع الرئيس الأسبق للولايات المتحدة ريتشارد نيكسون. لقد استشهدت بكلمات ونستون تشرشل ، والتي آمل ألا تكون نبوءة ، بأن أجنحة العلم ٢٥٧

الوضاءة قد تعيد العصر الحجرى إلى الأرض، وأكد أنه سيكون على كسكرتير عام ، وعلى الرئيس ريجان ومن سيخلفه ، سيكون علينا أن نقرر الخيار التاريخي لصالح مستقبل سلمى . وقلت للسيد نيكسون عندئذ ، إنني رأيت ذات مرة فيلما عن رحلة قام بها بعض السياح الأمريكيين على الفولجا . وكانت هناك لقطات لمواطنينا إلى جانب لقطات للأمريكيين . ولم يكن من السهل تمييز الأمريكي من الروسي . كانوا جميعا يتحدثون ، ويحس من يشاهدهم أنهم يتحدثون كأصدقاء ، وأنهم يفهمون بعضهم بعضا : وهذا بالضبط هو مايعجز السياسيون عن القيام به على الوجه المرضى .

وإنه لأمر طيب أن السياسيين ليسوا هم وحدهم الذين يتحدثون إلى بعضهم بعضا . ولكن ممثلى الشعب العاديين يفعلون ذلك أيضا . وهذا أمر هام للغاية ، وأنا أرحب به . فليلتق المواطنون السوفيت والأمريكيون كثيرا ، وليشكلوا انطباعهم الحاص عن بعضهم بعضا . إن الاتصال ، والاتصال المباشر بين الناس شيء عظيم . وبدونه ، بدون الاتصال الواسع النطاق والتفاهم المتبادل بين الشعوب ، لن تفعل السياسة إلا القليل .

وقد نبهت نيكسون إلى حقيقة أن امتلاك بلدينا لترسانة عسكرية رهيبة بما فيها مستودعات الأسلحة النووية هو الواقع الأكثر خطورة فى عالم اليوم. وأخبرته إننا إذا بنينا سياستنا حيال بعضنا بعضا ، وحيال بقية العالم على مسلمات خاطئة ، فإن الأمور يمكن أن تصل إلى مداها ، إلى المواجهة المفعمة بأفظع العواقب مأساوية وفجيعة بالنسبة للاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة والعالم بأسره .

وأنا اليوم على استعداد لأن أكرر ماقلته فى تلك المحادثة: هناك اتجاه راسخ فى المجتمع السوفيتي ، وليس فى القيادة وحدها ، إلى البحث عن الطرق التى تؤدى إلى تطبيع العلاقات السوفيتية الأمريكية ، وإلى إيجاد وتوسيع مجالات الأرضية المشتركة لكى نصل إلى علاقة ودية فى المدى الطويل. وربما يبدو من المبالغ فيه أن نأمل

ذلك فى هذه الآونة . ومع ذلك فإننا على قناعة بأن هذا هو الخيار الواجب علينا ، وإلا فسيكون من المستحيل تصور ما قد نصل إليه .

إما إلى الأفضل وإما إلى الأسوأ . فالسياسة لاتعرف صيغة البين بين . والتاريخ يصنع دون « بروفات » . ولا يمكن إعادة مشاهده . وهذا يضاعف كثيرا من أهمية إدراك مسيرته ودروسه .

الولايات المتحدة: «مدينة متألقة فوق تال»

كثيرا جدا ما واجهنا تصورات مشوهة عن بلادنا وكذلك قوالب متكررة منتشرة معادية للسوفيت ـ ولذلك فنحن نعرف جيدا مدى الشر الذى يمكن أن يترتب على نظرة زائفة ـ سواء كانت بوعى أو بغير وعى ـ تنظر إلى الولايات المتحدة من خلال اللونين الأبيض والأسود فقط.

وأنا أعرف أن الدعاية الأمريكية ... أجل الدعاية .. تقدم أمريكا على أنها «المدينة المتألقة فوق تل». إن أمريكا لها تاريخ عظيم. ومن الذي يشكك في أهمية الثورة الأمريكية في التقدم الاجتماعي للبشرية ، أو في العبقرية العلمية التكنولوجية لأمريكا ومنجزاتها في الأدب والهندسة والفن ؟ كل هذا لدى أمريكا. ولكن لدى أمريكا اليوم كذلك مشاكل حادة اجتماعية وغيرها ، لم يجد المجتمع الأمريكي جوابا لها بعد. ولكن ، وهذا هو الأسوأ ، إنه يبحث عن حلول لها في أماكن وبطرق قد تؤدي إلى أن يتعين على الآخرين أن يدفعوا الثن.

وتمتلك الولايات المتحدة إمكانات انتاجية ضخمة وثروة مادية هائلة ، ولكن لديها فى الوقت نفسه الملايين من التعساء . وهذا شيء يدعو إلى التفكير والتأمل . وهذه النوبات الانفعالية شبه التبشيرية التي تنبعث منها ، فى حين نجد الإغفال عن تأمين نفس الحقوق الأولية على أراضيها ، هذا بدوره مما يدعو إلى التفكير . والحديث لاينتهى عن حرية الإنسان ومحاولات فرض طريقتها فى الحياة على والحديث لاينتهى عن حرية الإنسان ومحاولات فرض طريقتها فى الحياة على

الآخرين ، وعن الدعاية الواسعة لعبادة القوة والعنف . فكيف يمكننا فهم ذلك ؟ غطرسة القوة وبخاصة القوة العسكرية ، والزيادة المستمرة فى الإنفاق على الأسلحة والعجز فى الميزانية ، والدين الداخلى ، والآن أصبح هناك دين خارجى أيضا . من أجل ماذا ؟ وما الذى يدفع الولايات المتحدة إلى ذلك ؟ إننا نسأل أنفسنا كل هذه الأسئلة وأسئلة أخرى غيرها ، فى محاولة لأن نفهم الواقع الأمريكى وأن نرى الأسباب الرئيسية التى تكمن خلف سياسة الولايات المتحدة .

واعترف صراحة أن مانعرفه لايؤيد الفكرة القائلة بأن الولايات المتحدة تشبه «مدينة متألقة فوق تل ». وبنفس التحديد يمكننى أن أقول: إننا لم نعتبر الولايات المتحدة أبدا «إمبراطورية للشر». فأمريكا فى الواقع ، مثلها مثل كافة البلدان ، تلقى بضوئها وبظلالها على السواء. إننا نرى الولايات المتحدة كما هى بالفعل مختلفة فى آرائها فى داخل المجتمع الأمريكى وعنه على السواء.

والقيادة السوفيتية لاتتصور الولايات المتحدة فى بعد واحد فقط ، ولكنها تميز بوضوح بين كل أوجه المجتمع الأمريكى : ملايين العاملين الذين يقومون بعملهم اليومى والمطبوعون بوجه عام على السلام ، والسياسيون الواقعيو التفكير ، والمحافظون ذوو النفوذ ، وجنبا إلى جنب معهم ، مجموعات رجعية لها ارتباطات مع التجمع العسكرى الصناعى وتحقق الأرباح من صناعة الأسلحة . وكما نرى اهتماما صحيا وطبيعيا بنا ، نرى كذلك نزعة عمياء وواسعة الانتشار معادية للسوفيت ومعادية للشيوعية .

ونحن نعتقد أن النظامين السياسي والاجتاعي للولايات المتحدة هما من صميم اختصاص الشعب الأمريكي نفسه. وعليهم أن يقرروا كيف يحكمون بلادهم . وكيف ينتخبون قيادتهم وحكومتهم . ونحن نحترم هذا الحق السيادي . وإذا ما بدأنا نشك في خيار الشعب الأمريكي ، فما الذي يمكن أن يترتب على ذلك ؟ إن السياسة يجب أن تبني على الحقائق ، وعلى إدراك حقيقة أن كل بلد له الحق في أن يختار

طريقته في الحياة ، ونظامه الخاص وحكومته بشكل مستقل .

والولايات المتحدة دولة يتعين علينا أن نتعايش معها ونقيم معها علاقات . وهذه حقيقة . وبغض النظر عن كل الطبيعة المتناقضة لعلاقاتنا ، فمن الواضح أننا بدون الولايات المتحدة لانستطيع أن نفعل شيئا لتأمين السلام . وكذلك بدوننا لن تحقق الولايات المتحدة شيئا . فلا مناص لكل منا عن الآخر . فالحاجة ماسة إلى الاتصال والحوار . ويتعين علينا أن نبحث عن طرق لتحسين علاقاتنا .

ونحن نعرف وندرك جيدا أن الولايات المتحدة لديها إدارة مى البيت الأبيض ولحديها الكونجرس . ونحن نريد أن نتعاون مع كل من الإدارة والكونجرس . ونحن الآن نعمل على توسيع قدراتنا على فهم العملية السياسية الأمريكية . ونرى ، على وجه الخصوص ، الاختلاف فى الآراء بين وزير الدفاع ، وهو مدنى ، والعسكريين المحترفين فى الولايات المتحدة . فبالنسبة للأول ، فإن الأعال الاقتصادية وطلبيات الأسلحة تعنى الشىء الكثير ، بينا يدرك المحترفون الواقعيون جيدا ما يملكونه فى أيديهم وما الذى يمكن أن يجلبه على العالم . ويشهد مثل هذا الإدراك بما يبديه العسكريون من إحساس بالواقعية والمسئولية ، ومن المهم مثل هذا الإدراك بما يبديه العسكريون الوضع الحالى على نحو صحيح .

ودعونى أضف أننا لاننوى تشكيل علاقاتنا وفقا للوضع السياسى داخل الولايات المتحدة ، فالجمهوريون اليوم يقبعون فى السلطة فى الولايات المتحدة ، وغدا سيكون الديموقراطيون أو الجمهوريون مرة أخرى . وليس هناك اختلاف متميز . ولكن هناك مصالح الولايات المتحدة كدولة وهى التى يجب أخلها فى الاعتبار . وسنحتفظ بالعلاقات مع الإدارة التى تكون قائمة فى السلطة . ولتبق الشئون الأمريكية أمريكية ، وكذلك شئوننا هى ملك لنا . وهذا هو موقفنا المبدئى .

« صـورة العـدو »

نحن ، بالتأكيد ، لسنا في حاجة إلى أن نرى أمريكا في « صورة عدو » ، لا بالنسبة لمصالح سياستنا الحارجية . والمرء في حاجة إلى عدو وهمي أو حقيق ، فقط عندما يكون مصرا على المحافظة على التوتر وعلى المواجهة بعواقبها البعيدة المدى ، بل أضيف ، والتي لا يمكن التكهن بها . وتوجهاتنا مختلفة تماما .

ومن جانبنا لاتوجد لدى الاتحاد السوفيتى دعاية للكراهية ضد الأمريكيين أو الاستخفاف بأمريكا . لن تجد ذلك فى أى موقع فى بلادنا ، لا فى السياسة ولا فى التعليم . إننا ننتقد السياسة التى لانوافق عليها . ولكن هذا أمر مختلف ، وهو لا يعنى أننا نبدى أى عدم احترام للشعب الأمريكي .

وفى صيف ١٩٨٧ التقيت بمجموعة من الأمريكيين يعلمون اللغة الروسية فى الولايات المتحدة ، وقد تلقوا منهجا تدريبيا لمدة شهرين فى ليننجراد . ودارت معهم مناقشة طيبة ـ صريحة ودافئة . وسأورد هنا مقتطفا موجزا من المحضر الحرفى لها :

ميخائيل جورباتشوف: هل قابلتم ولو حالة واحدة لموقف عدم احترام تجاه الأمريكيين خلال إقامتكم ؟ .

د . بادولا : كلا رغم أن رجلا سألنى فى الشارع ذات مرة ، متى سيكون هناك سلام ؟ فقلت له أتمنى أن يأتى السلام قريبا .

ميخائيل جورباتشوف: هذه معلومة هامة للغاية. وأنا على قناعة ، أيها الاصدقاء ، بأنكم حيثا توجهتم فى الاتحاد السوفيتى ، فلن تقابلوا موقف عدم احترام حيال الأمريكيين. فى أى مكان. وبإمكانكم أن تقرأوا صحافتنا كذلك. وستجدون بها انتقادات ، وتحليلات وأحكاما وتقييات لسياسة الحكومة ، وللبيانات والأعمال الصادرة عن مجموعات خاصة. ولكنكم لن تجدوا قط ما ينم

عن عدم احترام لأمريكا والأمريكيين .. ومن ثم إذا كان «الحمر قادمون» ، فهم قادمون معكم على الطريق المشترك للبشرية .

ومع ذلك فإن بعض الناس فى الولايات المتحدة ، فيما يبدون ، «يحتاجون» إلى الاتحاد السوفيتى فى «صورة عدو». وإلا تعذر علينا فهم بعض الأفلام ، والإذاعات الأمريكية الملتهبة من ميونيخ ، وفيض المقالات والبرامج المليئة بالإهانات والكراهية تجاه الشعب السوفيتى . ويعود كل ذلك إلى الأربعينيات ، إن لم يكن قبل ذلك .

ولن أضفى المثالية على كل خطوة فى السياسة الخارجية السوفيتية طوال العقود العديدة الماضية . لقد حدثت أخطاء أيضا . ولكنهاكانت فى الغالب نتيجة لرد فعل قصير النظر تجاه الأعمال الأمريكية ، تجاه سياسة يوجهها مهندسو «دفع الشيوعية إلى الخلف » .

ونحن حساسون، وبصراحة حذرون تجاه الجهود التي تبذل لإعطاء الاتحاد السوفيتي صورة العدو، لاسيا عندما لا تقتصر على مجرد ممارسات أيديولوجية على نمط القصص الخيالية المعتادة عن «الخطر العسكرى السوفيتي» و«يد موسكو» و«مخططات الكريملين» والتصور السلبي تماما لشئوننا الداخلية . وأنا لا أريد حتى أن أشير إلى سخف مثل هذه المزاعم ، ولكننا لا نستطيع في الوقت نفسه تجاهل حقيقة أن كل شيء في السياسة له هدفه الخاص . وهكذا فإنها مسألة ممارسة سياسية تكن أن كل شيء في السياسة له هدفه الخاص . وهكذا فإنها مسألة ممارسة سياسية تكن خلفها نوايا ومخططات معينة . فينبغي علينا أن نتخلص من أي وجود للشوفينية «التعصب القومي» في بلدنا ، ولاسيما إذا وضعنا في الاعتبار القوة التي يمتلكها «التعصب القومي» في بلدنا ، ولاسيما إذا وضعنا في الاعتبار القوة التي يمتلكها كل منا . والشوفينية يمكن أن تدخل إلى السياسة عناصر لا يمكن السماح بها .

إنها لحقيقة مأساوية ومؤسفة أن العلاقات السوفيتية الأمريكية كانت تتدهور منذ فترة طويلة . لقد أخلت فترات التحسن القصيرة مكانها لفترات طويلة من التوتر وتصاعد العداء . وأنا على قناعة بأن الفرص متاحة لتصحيح الوضع ، ويبدو أن

الأمور تتحرك فى هذا الاتجاه . ونحن على استعداد لفعل كل ما من شأنه أن يحدث تغييرات نحو الأفضل .

من يحتاج إلى سباق التسليح ولماذا؟

إذا تأملنا فى مسألة ما الذى يقف فى طريق علاقات سوفيتية أمريكية طيبة ، نخلص إلى استنتاج ، أنه فى الغالب سباق التسلح . لست أريد وصف تاريخه . واسمحوا لى فقط أن أشير مرة أخرى إلى أن الاتحاد السوفيتي كان هو الطرف الذى يحاول اللحاق بالطرف الآخر فى كل هذا السباق تقريبا . ومع بداية السبعينيات كنا قد وصلنا ، على وجه تقريبي ، إلى تعادل عسكرى استراتيجي ، ولكن عند مستوى مرعب حقا . وكل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الآن ، لديه القدرة على تدمير الآخر عدة مرات .

وقد يبدو ومن المنطق فى مواجهة التورط الاسترتيجى أن نوقف سباق التسلح ونتجه إلى نزع السلاح. ولكن الواقع مختلف. فستودعات الأسلحة ، التى تفيض بالفعل ، لا تزال تملأ بأنواع من الأسلحة ، جديدة ومعقدة ، كما يجرى تطوير مجالات جديدة من التكنولوجيا العسكرية. والولايات المتحدة هى التى تحدد الإيقاع فى هذا المسعى الخطر، إن لم يكن المدمر.

ولا أفشى سرا إذا ما قلت لكم إن الاتحاد السوفيتى يفعل كل ما يلزم لكى تظل دفاعاته على أحدث مستوى ويعول عليها . وهذا هو واجبنا نحو شعبنا وحلفائنا . وفى الوقت نفسه أود أن أقول بكل التحديد إن هذا ليس خيارنا . لقد فرض علينا .

وتنشركافة أنواع الشكوك بين الأمريكيين حول النوايا السوفيتية فى مجال نزع السلاح . بيد أن التاريخ يوضح استطاعتنا المحافظة على الكلمة التى نقطعها على أنفسنا ، وأننا نحترم التعهدات التى نأخذها على عاتقنا . ولسوء الحظ ، لا يمكن أن يقال ذلك بالنسبة للولايات المتحدة . فالإدارة تقوم بتكييف الرأى العام ، وتخويفه

من الخطر السوفيتي ، وهي تفعل ذلك بعناد خاص عندما تكون هناك ميزانية عسكرية جديدة في طريقها إلى الكونجرس للتصديق عليها . وعلينا أن نسأل أنفسنا لماذا يحدث كل ذلك وما هو الهدف الذي ترمى إليه الولايات المتحدة .

وإنه لنى وضوح البلاور أنه فى العالم الذى نعيش فيه ، عالم الأسلحة النووية ستكون أى محاولة لاستخدام هذه الأسلحة النووية فى حل المشاكل السوفيتية الأمريكية ، إنما تعنى الانتحار . هذه حقيقة لست أعتقد أن الساسة الأمريكيين غافلون عنها . وفضلا عن ذلك ، فقد نشأ الآن وضع متناقض حقيقة . فحتى لو أنهمك أحد البلدين فى تعزيز الأسلحة باطراد بينا لم يفعل الآخر شيئا ، فإن الجانب الذى يسلح نفسه لن يكسب مع ذلك شيئا . فقد يفجر الجانب الأضعف ببساطة كل شحناته النووية ، ولو فوق أراضيه ، وهذا يعنى الانتحار بالنسبة له والموت البطىء بالنسبة للعدو . ولهذا السبب فإن أى مسعى للتفوق العسكرى يعنى أن يدور المرء فى حلقة مفرغة . ولا يمكن استخدام ذلك فى السياسة الواقعية .

كما أن الولايات المتحدة ليست فى عجلة لأن تتخلى عن وهم آخر ، وأعنى به عزمها غير الأخلاق على استنزاف الاتحاد السوفيتى حتى آخر قطرة اقتصاديا ، والحيلولة بيننا وبين تنفيذ خططنا فى البناء بجرِّنا أكثر فأكثر إلى هاوية سباق التسلح .

وأطلب من القارئ أن يلتى نظرة على خبرة سنوات ما بعد الحرب القد خرج الاتحاد السوفيتى من الحرب العالمية الثانية فى وضع صعب للغاية . نعم ، لقد كسبنا الصراع ضد الفاشية ، وانتصرنا جنبا إلى جنب مع الولايات المتحدة وغيرها من الدول التى شاركت فى التحالف المعادى لهتلر . ولكن بينا لم تلق قنبلة واحدة للعدو ، أو تسمع طلقة واحدة للعدو فى أراضى الولايات المتحدة القارية ، كان جزء كبير من أراضينا مسرحا لأشرس المعارك . وكانت خسائرنا ـ البشرية والمادية على السواء ـ هائلة ومع ذلك ، نجحنا فى استعادة ما تم تدميره ، وفى بناء امكانياتنا الاقتصادية ، وفى التصدى بثقة لمهامنا الدفاعية . ألا يعتبر ذلك درسا للمستقبل !

ومن غير المسموح به أن تقيم الدول سياستها على تصورات خاطئة . ونحن نعرف أن هناك رأيا شائعا في الولايات المتحدة والغرب بشكل عام يقول بأن الحظر القادم من الاتحاد السوفيتي ليس مرده إلى أنه يمتلك أسلحة نووية ، وهم هناك يفكرون على النحو التالى ، كما سبق أن ذكرت في مناسبة أخرى : إن السوفيت يعرفون جيدا أنهم إذا ما هاجموا الولايات المتحدة ، فإنهم لن يفلتوا من الانتقام . وتدرك الولايات المتحدة بالمثل تماما أن الانتقام سيعقب أي هجوم على الاتحاد السوفيتي . ولذلك فإنه لا يمكن أن يشعل حربا نووية إلا شخص مجنون . إن التهديد الحقيق ، وفقا لهؤلاء الناس ، سينشأ إذا ما حقق الاتحاد السوفيتي خططه للإسراع في التنمية وفقا لهؤلاء الناس ، سينشأ إذا ما حقق الاقتصادية والسياسية الجديدة . ومن ثم كانت الرغبة في استنزاف الاتحاد السوفيتي اقتصاديا .

ونحن ننصح الأمريكيين بإخلاص: حاولوا أن تتخلصوا من مثل هذا الموقف حيال بلادنا . إن الآمال في استخدام أى ميزات في التكنولوجيا أو المعدات المتقدمة لتحقيق تفوق على بلادنا هي آمال خائبة ولا طائل من ورائها . إن التصرف على أساس الافتراض بأن الاتحاد السوفيتي في «وضع ميئوس منه» وبأنه من الضروري الضغط عليه فقط ولكن بدرجة أشد ، لاعتصاركل ما تريده الولايات المتحدة ، لمو خطأ عميق . ولن تجدى هذه المخططات شيئا . فني السياسات الحقة لا يقبل الاعتقاد بصحة شيء لمجرد الرغبة فيه وتمنيه . وإذا كان الاتحاد السوفيتي عندماكان الاعتقاد بصحة شيء لمجرد الرغبة فيه وتمنيه . وإذا كان الاتحاد السوفيتي عندماكان أضعف كثيرا من الآن _ قد مكنه الوضع الذي كان فيه من التصدى لكافة التحديات التي واجهته ، فإنه ليس إلا الأعمى الذي يعجز عن رؤية أن قدراتنا ، على الاحتفاظ بدفاعات قوية ، وفي الوقت نفسه على حل مهامنا الاجتاعية وغيرها ، قد تزايدت بدرجة هائلة .

وسأكرر فيما يتعلق بسياسة الولايات المتحدة الخارجية ، أنها ترتكز على الأقل على وهمين. أولها هو الاعتقاد بأن النظام الاقتصادى للاتحاد السوفيتي على وشك الانهيار وأن الاتحاد السوفيتي لن ينجح في إعادة البناء. والثاني وهو الأهم يتم حسابه على أساس تفوق الغرب فى المعدات والتكنولوجيا ، ثم فى نهاية الأمر فى المجال العسكرى . وهذان الوهمان يغذيان سياسة موجهة نحو استنزاف الاشتراكية من خلال سباق التسلح ، بهدف إملاء الشروط فيما بعد . ذلك هو المخطط ، وإنه حقا لمخطط ساذج .

إن السياسة الغربية الحالية ليست سياسة مسئولة بالقدر الكافى ، وتفتقر إلى أسلوب التفكير الجديد . وأعلن ذلك بصراحة . وإذا لم نتوقف الآن ونبدأ نزع السلاح بشكل عملى ، فقد نجد أنفسنا جميعا على شفاكارئة . واليوم يحتاج الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، كما لم يحدث من قبل ، إلى سياسة مسئولة . ولدى كل من البلدين مشاكله السياسية والاجتماعية والاقتصادية : مجال واسع للنشاط . وفي هذه الأثناء تعمل هيئات كثيرة من الخبراء على وضع خطط استراتيجية وتتلاعب بملايين الأرواح وتتمخض توصياتهم عا يلى : الاتحاد السوفيتي هو التهديد الرهيب الأكبر للولايات المتحدة والعالم . وأكرر : لقد حان الوقت للتخلى عن عقلية إنسان الكهف هذه . وبطبيعة الحال فقد تورط الكثيرون من الزعماء السياسيين والدبلوماسيين ، تحديدا ، في سياسات من هذا القبيل تقوم على مثل هذه العقلية لعدة عقود . لكن زمانهم قد انقضى . ويتحتم نظرة جديدة للعصر النووى . وتحتاج الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي للغاية إلى هذه النظرة الجديدة في علاقاتها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي للغاية إلى هذه النظرة الجديدة في علاقاتها المنائلة .

إننا واقعيون . ولذلك فنحن نضع فى الاعتبار حقيقة أنه فى السياسة الخارجية تكون لجميع البلاد ، حتى أصغرها ، مصالحها الخاصة . ولقد آن الأوان لتدرك الدول العظمى أنه لم يعد باستطاعتها إعادة تشكيل العالم وفقا لأنماطها الخاصة . إن هذا العصر قد تراجع ، أو هو على الأقل يتراجع إلى الماضى .

مزيد حول الوقائع : إزالة الحدة الأيولوجية من العلاقات بين الدول

كان ينبغى أن تكون لنا منذ فترة طويلة رؤية واقعية للعالم حولنا ولماضينا . وكان ينبغى أن نرى دون خوف أين نحن . فعندما يرى بلد ما بلدا آخر على أنه «الشر محسداً » ، ويرى نفسه على أنه التجسيد «للخير المطلق » ، تكون العلاقات بينها قد وصلت إلى طريق مسدود . وأنا لا أفكر هنا فى الكلام المنمق المعادى للشيوعية ، مهاكان أثره وضرره ، وإنما أفكر فى العجز ، أو العزوف عن إدراك أننا جميعا نمثل جنسا بشريا واحدا ، وأننا نشارك فى مصير واحد وعلينا أن نتعلم أن نكون جيرانا متحضرين فوق كوكبنا . لقد ورثت أجيال اليوم من الماضى المواجهة السوفيتية الأمريكية . ولكن هل قدر علينا أن نستمر فى العداوة ؟ .

ونحن على وجه الاجهال، قد عشنا طويلا في سلام. ولكن الوضع الدولى الحالى لا يمكن وصفه بأنه مرضٍ فسباق التسلح، لاسيا مباق التسلح النووى، يتواصل والنزاعات الإقليمية تستعر وخطر الحرب يزداد والمخرج الوحيد هو جعل العلاقات الدولية أكثر إنسانية وهذه مهمة صعبة ونرى طرح المسألة بالكيفية التالية : من الجوهرى أن نرتفع فوق الخلافات الأيديولوجية وليقرركل منا خياره المتالية : من الجوهرى أن نرتفع فوق الخلافات الأيديولوجية وليقرركل منا خياره الحاص ، ولنحترم جميعا هذا الخيار ومن أجل ذلك فهناك ضرورة لأسلوب جديد في التفكير السياسي ، أسلوب ينطلق من إدراك الاعتاد المتبادل العام ومن فكرة أن الحضارة يجب أن تبقى وإذا ما توصلنا إلى تفاهم حول معايير مثل هذا التفكير الجديد ، فسوف نصل إلى قرارات صحيحة للقضايا العالمية . وإذا ما أدرك الزعماء السياسيون هذه النقطة ونفذوها عمليا ، فسيكون ذلك انتصارا هاما للعقل .

وعندما نتحدث عن تحسين الوضع العالمي ، فإننا نخص معيارين لسياسة خارجية واقعية وهما: وضع اعتبار للمصالح الوطنية الخاصة واحترام مصالح

البلدان الأخرى . وهذا الموقف سليم ومعقول ، ويتعين الدفاع عنه بدأب . هكذا نفكر على هذا النحو وهكذا نتصرف وفقا له .

الاغتراب شسر

غالبا ما نسمع أن الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة باستطاعة كل منها أن تعمل دون الأخرى . وللحقيقة ، فإنى أقول ذلك أيضا في بعض الأحيان . حسنا ، إن ذلك صحيح من وجهة النظر الاقتصادية ، وإذا ما أخذنا في الاعتبار علاقاتنا الاقتصادية المحددة للغاية اليوم . وسواء كانت هناك علاقات أم لا ، فإننا نعيش ، ونتعلم الدروس التي يلقننا إياها الأمريكيون .

لقد كانت وارداتنا من حبوب العلف مسألة حساسة . وقد تأمن وضعنا الآن بتوقيع عقود استيراد مع عديد من البلدان ، وتطبيق تكنولوجيات زراعية مكثفة لزيادة انتاج الحبوب فى الداخل . ومهمتنا الحالية هى أن نبدأ فى تصدير الحبوب فى المستقبل القريب .

لقد أنشأ الغرب لجنة التنسيق الخاصة بالضوائط على الصادرات الثناثية المتعددة (كوكوم). وتقف الولايات المتحدة موقف الحذر واليقظة من انتهاك قيودها وللتأكد من أن قوائم السلع غير المسموح ببيعها للاتحاد السوفيتي تتسع ، ولا تتردد أمريكا في التدخل في الشئون الداخلية للمشتركين في تدابير الحظر.

وقد رد الاتحاد السوفيتي على الفور بوضع برنامج مقابل ، يسمى « البرنامج مقابل ، يسمى « البرنامج مقابل ، يسمى « البرنامج معاب » » » لأنه يتضمن مائة صنف من المواد . وقد انجزناه فى أقل من ثلاث سنوات . وحوالى • ٩ ٪ من المواد التى نستخدمها مصنوعة محليا . وهكذا يمكننا القول أننا نجحنا فى التغلب على المشكلة فى الأساس .

وقلنا صراحة أنه قد حان الوقت لنتغلب على مركب النقص لدينا . إن بلادنا بلاد شاسعة ذات موارد هائلة وامكانيات علمية ضخمة . وشركاؤنا الرأسماليون في الخارج لا يعول عليهم على الدوام ويستخدمون التجارة أحيانا للابتزاز السياسى والتخويف. وقد بدأت التدابير التى اتخذناها تعطى ثمارها بالفعل. وحققنا تطورات رائدة فى تكنولوجيا الحاسبات والحاسبات المعقدة ، والموصلات الفائقة وغيرها من المجالات. وتأمل الولايات المتحدة فى أنها ستقود العالم على الدوام: أمل لا طائل منه ، كما يدرك الكثير من العلماء الأمريكيين.

لقد اغترب بلدانا كل عن الآخر لسنوات ، وفقد كل من الاقتصاد السوفيتى والأمريكي فرصا رائعة عديدة ، وعجزنا عن أن نفعل كثيرا من الأشياء الطيبة معا بسبب الشك وافتقاد الثقة . إن الإغتراب شر . وإلى جانب ذلك ، فإن العلاقات الاقتصادية توفر الأساس المادى للتقارب السياسي . كما أنها تخلق مصالح متبادلة تساعد في السياسة ، وإذا ما عززنا علاقاتنا التجارية والاقتصادية وواصلنا العملية الثقافية التي تجرى حاليا ، حتى وإن تكن أبطأ مما نود ، فسنكون قادرين على بناء الثقة بين بلدينا . ولكن الولايات المتحدة وضعت حواجز عديدة في المجال الاقتصادي .

إننا مازلنا نستورد الحبوب _ وحتى وإن يكن من أجل الإبقاء على التجارة . وإلا فقد تموت . ولكننا قد لا نحتاج قريبا إلى واردات حبوب على الإطلاق كما سبق أن قلت . والتجارة السوفيتية الأمريكية فى السلع الأخرى غير قائمة عمليا . وبمجرد أن دخلت بعض السلع السوفيتية السوق الأمريكي ، شرعت الولايات المتحدة ، بقلق ، فى اتخاذ تدابير لحظر التجارة أو على الأقل للحدّ منها . وهناك اجراءات وقوانين وخبرة فى أمريكا تحول دون تنمية التجارة مع الاتحاد السوفيتي .

إن باستطاعة أمريكا أن تدبر أمورها بدون الاتحاد السوفيتي ، ونحن أيضا نستطيع أن ندبر أمورنا بدون أمريكا ، مادامت التجارة مستمرة . ولكن بمجرد التفكير في مدى اعتاد العالم على بلدينا وعلى التفاهم بيننا ، ندرك على الفور ضرورة تنمية تفاهمنا المتبادل . ومن ثم ، يجب أن تنمو تجارتنا بدورها . وهذا أمر طبيعي تماما ، بل ومفيد .

ولكن هناك دواثر معينة فى الولايات المتحدة ليست مستعدة للتقارب، ولا تبدى أية رغبة فى التفاهم. إنها تفتقر إلى القدرة على الانفتاح. « فإذا كان هناك شىء يمكن الحصول عليه من الاتحاد السوفيتي فأمريكا على استعداد. ولكن عندما يتعلق الأمر بربح متبادل فعلينا أن ننساه».

وثمة شيء يتوقف على الاتحاد السوفيتي بدوره وهو شيء كبير في الحقيقة . فنحن قد نكون تجارا سيثين . أو قد نخفق في بذل الجهد اللازم لأننا نستطيع تدبير أمورنا بدون التجارة . وعلى الجانبين أن يعملا من أجل إزالة العقبات .

وهذا هو النهج الصحيح من مسألة الثقة . والتعاويذ لا تصلح فى هذا المجال . فالثقة تأتى نتيجة للإجراءات العملية ، بما فى ذلك الجهود المشتركة لتنمية الروابط التجارية ، والاقتصادية ، والعلمية ، والتكنولوجية ، والثقافية وغيرها . وعلى كلا الجانبين أن يعملا من أجل وقف سباق التسلح والانتقال إلى نزع السلاح . وإذا ما عملنا معا من أجل تسوية النزاعات الاقليمية ، فسوف نكسب الثقة المتبادلة أيضا .

وعندما أسمع أن علينا أن نرعى الثقة ، وأن المشاكل الأساسية سوف تحل فيها بعد ، يتعذر على فهم ذلك ، إذ يبدو ذلك أشبه بعدر كسيح . هل الثقة هبة من السماء ؟ أو هل تنشأ من نفسها إذا ما أخد الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة يكروان أنها يؤيدان الثقة ، إنها لاشيء من هذا القبيل . فإقامة الثقة عملية طويلة ، وتتوقف درجتها على الدوام على العلاقات العملية وعلى التعاون في مجالات عديدة .

وعلينا أن نشرع في معرفة كل منا للآخر بدرجة أفضل إذا ما أردنا أن نتجنب الأحداث التي تحمل الكوارث في طياتها . وأكرر مرة أخرى إن العوامل الاقتصادية ليست هي وحدها التي تحفزنا على التعاون . فالأهداف السياسية هنا أكثر أهمية من الأهداف الاقتصادية . ويجب أن نضع دائما نصب أعيننا هدفنا الرئيسي وهو المتمثل في تطبيع العلاقات السوفيتية الأمريكية . وينبغي أن نتذكره مها بدا بعيداً ، ومها

كان طريقنا إليه قائمًا نتيجة عوامل داخلية ودولية .

والناس ذوو العقلية الواقعية في أمريكا وفي كل بلد آخر يريدون التعاون وليس المواجهة . وتبين المعلومات والاتصالات الشخصية أن هذه هي الحال . ويرحب هؤلاء الناس بواقعية السياسة السوفيتية ، ويعلقون عليها آمالا كبار . وأنا ألتتي بكثير من رجال الأعال ، وأرى أنهم يفكرون من زاوية الحالة العامة ، رغم أنهم لا ينسون أبدا مصالح أعالهم . ويسرني على الدوام أن ألتتي بالدكتور أرماند هامر . إنه يفعل الكثير من أجل تعزيز التفاهم والصلات الودية بين بلدينا . وقد سمعت أخيرا عن السيد برونتان ، وهو أحد أغنى المواطنين في أمريكا ، يقترح نخبا في صحة جورباتشوف ويقول لزميله ، « لقد حصلت على كل ما أستطيع أن أحصل عليه ماديا في الحياة ، ولكن مايهم الآن هو مستقبل البشرية . وإذا ما استمرت التنمية في الاتحاد السوفيتي . فسيكون باستطاعته المحافظة على توازن القوى ، وبالتالي سيكون هناك سوق وسلام » .

إن الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة هما بلاشك دولتان قويتان لها مصالح ضخمة . ولكل منها حلفاؤه وأصدقاؤه . ولدينا _كلينا _ أولوياتنا في السياسة الخارجية ، ولكن ذلك لايعني بالضرورة أننا لابد أن ننتهي إلى المواجهة . فمن المنطقي بدرجة أكبر أن نتوصل إلى نتيجة مختلفة _ إن الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة مسئولان بشكل خاص عن مستقبل العالم .

إن الجانب الأكبر من الأسلحة النووية يتركز لدى الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة. وفي الوقت نفسه فإن عشرة في الماثة أو حتى واحدا في الماثة من إمكانياتها كاف لانزال أضرار لا يمكن إصلاحها بكوكبنا وبكل الحضارة البشرية.

وتتضمن وجهة النظر هذه ، أيضا ، أننا والأمريكيين نتحمل أكبر مسئولية تجاه شعوب العالم . إن بلدينا وشعبينا ، وساستهم ، يتحملون مسئولية خاصة فريدة تجاه كل الحضارة البشرية . لقد كان الشعب الأمريكي من القوة بما سمح له بأن يبني

أمريكاكما هي عليه الآن. وبرهن الاتحاد السوفيتي على أنه من القوة بالدرجة التي جعلت من بلد كان ذات يوم متخلفا، قوة متقدمة. واليوم، ورغم كل الصعوبات، التي عانيناها خلال تاريخنا الصعب، أصبح الاتحاد السوفيتي دولة متقدمة جبارة وبلدا جيد التعليم ذا إمكانيات فكرية ضخمة. ولذا أعتقد أننا والأمريكيين، بمنجزاتنا، سيكون لدينا من الحكمة، والمقدرة، والمسئولية، واحترام كل منا للآخر ما يلزم لنمسك بالواقع بين قبضتينا ونتجنب الكارثة.

ونحن نعى تماما جبال المشاكل التى تراكمت بين بلدينا . ومن المستحيل أن نتمكن سريعا من مناقشة وتسوية المشاكل التى تراكمت على مر السنين . وسيكون من قبيل الوهم أو الحلم الزائف أن نفكر بغير ذلك . والشىء الأكثر أهمية فى العلاقات السوفيتية الأمريكية هو عدم الجرى وراء الخرافات ، وإنما رؤية الأشياء كما هى بالحالة التى هى عليها . إننا ننظر إلى العالم ، بما فيه الولايات المتحدة ، من موقع السياسة الواقعية . وننطلق من حقيقة أساسية تتمثل فى أن كلا من الشعبين الأمريكي والسوفيتي لا يريد الدمار الذاتى . ونحن اقتناعا منا بذلك ، بدأنا السير فى طريق مكرس لتحسين العلاقات مع الولايات المتحدة ، ونتوقع منها المعاملة بالمثل .

على الطريق إلى جنيف

خلال « استعراض ومراجعة » مستفيضة لشئوننا الداخلية وللوضع الدولى بعد اجتماع أبريل ١٩٨٥ الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتي خلصت القيادة السوفيتية إلى استنتاج بأن الوضع فى العالم بالغ الخطورة لدرجة لا تسمح بأن تفلت من أيدينا أدنى فرصة لتحسينه والتوصل إلى سلم أكثر دواما .

وقررنا أن نحاول عن طريق الإقناع وضرب المثال وإظهار الحصافة أن نعكس مجرى الأحداث الحظير. وأقنعتنا خطورة الوضع بأن لقاءاتى الشخصية مع رئيس الولايات المتحدة ضرورية ، حتى وإن يكن فقط من أجل تبادل عميق للآراء وتفهم أفضل لكل منا لمواقف الآخر.

وبدأنا ، قبل اللقاء بعدة شهور ، نمهد الطريق بخلق مناخ أكثر مواتاة . وفى صيف ١٩٨٥ أعلن الاتحاد السوفيتي من جانب واحد وقف جميع التفجيرات النووية ، وأعرب عن استعداده لأن يستأنف على الفور المفاوضات من أجل معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية . كما أكدنا من جديد قرارنا بوقف التجارب على الأسلحة المضادة للأقار الصناعية من جانب واحد وتقدمنا باقتراح جذرى لتخفيض الترسانات النووية . ودعمنا اقتناعنا القوى بأن سباق التسلح يجب ألا ينتشر في الفضاء ، باقتراح بشأن تعاون دولى واسع في استكشاف الفضاء واستخدامه سلميا .

وعشية لقاء جنيف ، أعلنت دول معاهدة وارسو فى اجتاع لجنها الاستشارية السياسية فى صوفيا أنها عاقدة العزم على مواصلة العمل من أجل السلام ، والانفراج ، وضد سباق التسلح والمواجهة ، ومن أجل تحسين الوضع الدولى لصالح كل بلدان العالم .

جنينف

إن كل تفاصيل لقاء جنيف حية فى ذاكرتى . فخلال يومين حافلين أجريت عدة مناقشات منفردة مع الرئيس ريجان . وعقدت خمسا من تلك اللقاءات على وجه الدقة ، دون حساب لقائنا لدقيقتين لنودع بعضنا البعض .

وكما سبق أن قلت ، كانت مناقشاتنا صريحة ، وطويلة ، وحادة ، بل وحادة للغاية فى بعض الأحيان . ورأينا أن لدينا ما أعتقد أنه نقطة انطلاق للعمل من أجل علاقات سوفيتية أمريكية أفضل . وتتمثل هذه النقطة فى إدراك أن الحرب لا يمكن كسبها ، ويجب عدم خوضها قط .

وقد أعرب عن هذا الرأى مرارا الجانب السوفيتى . وكذلك الجانب الأمريكى . وهذا يعنى أن المسألة المركزية فى العلاقات بين بلدينا اليوم هى الأمن . وقلت للرئيس إن علينا أن نفكر فى طرق لتحسين العلاقات الثنائية لصالح الشعبين السوفيتى

والأمريكى ثم نحاول أن نجعل هذه العلاقات ودية ، واضعين فى الاعتبار أن بلدينا ليسا فقط مختلفين ، وإنما هما أيضا مرتبطان . وذلك لأن البديل هو الدمار الشامل .

وانطلاقا من وجهة النظر هذه تحدثنا عن الحاجة لاتخاذ اجراءات لتجنب سباق التسلح فى الفضاء ووقفه على الأرض ، وتحدثنا كذلك عن أهمية المحافظة على التوازن الاستراتيجي وخفض مستواه . ومن هذا الموقع ناقشنا كذلك العالم الحارجي ، الذي يتكون من مجموعة متعددة الأوجه من الشعوب ، لكل منها مصالحه الخاصة ، وتطلعاته ، وسياسته ، وتقاليده وأحلامه . وتحدثنا عن الرغبة الطبيعية لكل شعب فى ممارسة حقوق السيادة فى المجال السياسي وفى المجالين الاقتصادي والاجتاعي كذلك . ولكل بلد الحق فى اختيار طريق تطوره الخاص ، ونظامه ، وأصدقائه . وإذا لم نعترف بذلك ، فلن نكون أبدا قادرين على تنظيم علاقات دولية طبيعية .

وفى بعض المسائل اتفق معى الرئيس ، ولكننا لم نستطع أن نتوصل إلى اتفاق حول عديد من الأمور . وبقيت خلافاتنا الرئيسية حول المبدأ . وعجزنا في جنيف أن نتوصل إلى حل للمشكلة الأساسية المتعلقة بوقف سباق التسلح وتدعيم السلام .

ومع ذلك ، فحتى فى ذلك الحين ، فى خريف ١٩٨٥ ، كنت أعتقد ، كما لا أزال ، أن اللقاء كان ضروريا ومفيدا . فنى أصعب فترات التاريخ نحتاج إلى لحظات صدق حاجتنا إلى الهواء . لقد جعل سباق التسلح الوضع الدولى مقلقا للغاية وكم من لغو قيل حول هذا الموضوع . وقد جاء الوقت لتبديد هذه السحب واختبار الأقوال بالأفعال . وليس هناك ما يؤدى إلى ذلك أفضل من المناقشة الشخصية ، وهذا ماتهدف إليه لقاءات القمة . فنى الحوار المباشر لا يمكنك أن تختبئ من الحقيقة .

وفى جنيف توصلنا إلى تعرف كل منا على الآخر بصورة أفضل ، ورأينا بوضوح طبيعة خلافاتنا ، وبدأنا الحوار . ووقعنا اتفاقا حول التبادل الثقافي الذي يجرى

بالفعل لمصلحتنا المتبادلة . وأدركنا أنه مايزال أمامنا طريق طويل لكى نصل إلى تفاهم متبادل مرضى وأن علينا أن نعمل بمثابرة فعلا لكى نحقق تغيرا نحو الأفضل فى العلاقات السوفيتية الأمريكية وفى العالم بوجه عام .

بعد جنيف

فماذا حدث بعد جنيف؟ كنا نعرف دائما أن لا شيء يتغير من تلقاء نفسه وأن هناك حاجة إلى قدر كبير من المبادرة لمواصلة ماتم تحقيقه . إن الاتفاقيات الملزمة التي وقعت في جنيف والتي تعهد فيها كل من الطرفين بأن الحرب النووية يجب ألا تبدأ أبدا ، وبألا يسعى أى طرف للتوصل إلى تفوق عسكرى ، وبضرورة الاسراع في مفاوضات جنيف ، كان لابد من ترجمتها إلى خطوات عملية . وقد قمنا بمثل هذه الخطوات .

الوقف المؤقت للتجارب النووية (الموراثوريوم)

فى أول يناير ١٩٨٦ انتهت فترة الوقف المؤقت من جانب واحد للتفجيرات النووية . ولكن الاتحاد السوفيتي قام بتمديده . ولقد كان قرارا خطيرا للغاية تضمن بعض المخاطر بالنسبة لنا ، لأن التقدم فى تكنولوجيا الفضاء كان مستمرا ، وجرى تطوير أنماط جديدة من الأسلحة النووية مثل سلاح الليزر الحامل لجرعات نووية . ومع ذلك كانت لدينا الشجاعة لأن نقوم بما قمنا به وأن ندعو الولايات المتحدة لأن تسير فى إثرنا من أجل مصلحة السلام العالمي .

إن حظر التجارب النووية يعتبر بمثابة محك . وإذا ماكنت ترغب بإخلاص فى إزالة الأسلحة النووية ، فسوف توافق على حظر التجارب لأن مثل هذا الحظر سيؤدى إلى تخفيض الترسانات القائمة وإلى وضع حد لتحديثها . وإذا لم تكن تريد لذلك أن يحدث ، فستبذل كل مافى وسعك من أجل ضمان استمرار التجارب .

إن حظر التجارب النووية إجراء سيؤدى على الفور إلى إدخال عنصر جديد

مشجع فى العلاقات السوفيتية الأمريكية والوضع الدولى بكامله. والأساس الطيب لتنفيذ هذا الإجراء موجود. فالاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة كلاهما من بين الموقعين على معاهدة حظر التجارب النووية فى البيئات الثلاث. كما توصلنا إلى اتفاق حول الحد من التفجيرات النووية تحت الأرض ولدينا بعض الحبرة فى التباحث حول تحريمها بالكامل.

وفى الفترة السابقة ، كانت مشكلة التحقق تمثل العقبة الكأداء. ولإزالة هذه العقبة أعلنا أننا مستعدون لقبول الرقابة فى أى شكل ، واستخدام المرافق التقنية الوطنية والدولية على السواء ، بما فى ذلك مرافق بلدان ثالثة من أجل هذا الغرض .

ووقف الاتحاد السوفيتي للتفجيرات النووية ، باعتباره عملا وليس مجرد اقتراح ، إنما يدل على جدية وإخلاص برنامجنا لنزع السلاح النووى وكذلك نداءاتنا من أجل سياسة جديدة ـ سياسة الواقعية ، والسلام والتعاون .

وقد رحب ذوو الإرادة الطيبة بقرارنا بوقف التفجيرات النووية . وسمعنا كلمات الترحيب والتأييد من جميع أنحاء العالم . ورأى الساسة والبرلمانيون ، والشخصيات والمنظات العامة في هذا العمل مثالاً لنهج صحيح في المشاكل الحالية وأملا للتحرر من الحوف من الكارثة النووية . وحظى الوقف السوفيتي للتجارب بتأييد الجمعية العامة للأم المتحدة ، الهيئة الأكثر تمثيلا للدول في العالم . وأيدنا كذلك علماء طبيعة وأطباء بارزون ، ممن يدركون ، ربما أكثر من غيرهم ، أخطار الذرة . وألهم الموقف السوفيتي للتجارب أفراد الأسرة العلمية في عديد من البلدان للقيام بأعمال نشطة .

ومع ذلك ، فكل هذه المظاهر الواضحة والمشجعة للتفكير الجديد تقابل بالنزعة العسكرية والمواقف السياسية المرتبطة بها ، والتي تخلفت بشكل خطير عن التحولات العميقة التي تجرى اليوم على النطاق الدولى . وقد ردت الإدارة الأمريكية ، بشكل لا مواربة فيه ، على تمديد الوقف السوفيتي للتجارب _ إذ واصلت سلسلة من

التجارب النووية . وأعلن متحدثوها الرسميون أن إجراء التجارب على الشحنات المتحدة النووية أو عدم إجرائها هما من شأن موسكو وحدها . وفيها يتعلق بالولايات المتحدة فسوف تستمر التجارب دون أى توقف .

وساد الصمت مواقع التجارب السوفيتية . وقد قلبنا الرأى ، بطبيعة الحال ، في الأخطار التي تتضمنها أفعال واشنطن ورأينا كيف تصر الإدارة الأمريكية في حاقة وبغير تحفظ على دفع خطها متجاهلة تماما كل النداءات لوضع حد لكافة التفجيرات النووية . وعلى الرغم من ذلك ، فقد قرر المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي والحكومة السوفيتية في أغسطس ١٩٨٦ تجديد وقف التجارب النووية من جانب واحد حتى أول يناير ١٩٨٧ ، بعد أن درسا المشاكل من جميع الجوانب ، مسترشدين بشعور من المسئولية عن مصير العالم ولكن الولايات المتحدة اختارت ألا تحذو حذو الاتحاد السوفيتي .

ولست أعتقد أن وقف التجارب من جانبنا كان بلا نتيجة . فلقد تعلم الرأى العام العالمي أنه بالإمكان وقف التجارب النووية كما عرف من الذي يعارض ذلك . صحيح أنه في ذلك الحين قد فاتت على العالم ، فرصة تاريخية لوقف سباق التسلح ، ولكن الدروس السياسية من كل ذلك لم تضع هباء .

والآن بعد أن توصلنا إلى اتفاق بالبدء فى مفاوضات شاملة ، ومرحلة بعد مرحلة ، حول التجارب النووية فى أول ديسمبر ، يمكننا أن نهنئ أنفسنا وكل الناس لأننا استطعنا أن نحرك الأمور .

برنامج نزع السلاح النووى

فى ١٥ يناير ١٩٨٦ تقدمنا ببرنامج مدته خمسة عشر عاما لإزالة الأسلحة النووية على مراحل تنتهى عند نهاية القرن العشرين . ووضعنا هذا البرنامج بعناية ، سعيا إلى ضان توازن مقبول ومتبادل للمصالح فى كل مرحلة حتى لا يتعرض أمن أحد للضرر فى أى مرحلة . وأى نهج آخر سيكون ببساطة غير واقعى . وعلى أساس

هذا البرنامج تقدم ممثلونا فى محادثات جنيف بمقترحات توفيقية هامة تناولت الصواريخ المتوسطة المدى ، والأسلحة الاستراتيجية الهجومية ، وعدم عسكرة الفضاء الخارجي .

إن بيان ١٥ ينايركان بيانا محوريا فى صنع السياسة . لقد أردنا أن نبرز الحطر الرئيسى الذى تتعرض له الحضارة والمرتبط بالأسلحة النووية والتفجيرات النووية ، دون أن نتغاضى عن المسائل المتصلة بتحريم وإزالة الأسلحة الكياوية ، والحفض الكبير فى الأسلحة التقليدية . وقد تمثل ذلك فى مجموعة من التدابير ذات الطابع العام . وكان المبدأ الأساسى الفعال فى كافة مراحل هذا البرنامج هو المحافظة على التوازن . ولم تكن هناك حاجة إلى أى تلاعبات أو خدع سياسية ، وإنما إلى المسئولية السياسية ، والإدراك الواضح بأنه لا أحد سوف يسعى إلى خداع الآخر عندما تكون المسألة المطروحة فى حساسية مسألة مثل أمن الدولة .

وخطوة كتلك التى اتخذناها فى ١٥ يناير لم تكن تتطلب فقط إدراكا لمسئوليتنا . وإنما أيضا تصميمنا السياسى . وانطلقنا من الحاجة إلى مداخل جديدة لمسائل الأمن فى العصر الفضائى النووى . وكانت هذه إرادة شعبنا بأسره . وعندما اتخذنا هذه الخطوة ، كان آخر شىء فكرنا فيه هو تحقيق كسب إعلامى على حساب الجانب الآخر . وقد أملى هذا التحرك إحساسنا بالمسئولية عن تجنب الحرب النووية والمحافظة على السلام . واتفق موقفنا فى ذلك مع موقف الرأى العام العالمى ، وكان بين أمور أخرى ، استجابة لنداء مجموعة البلدان الستة (الهند ، والارجبتين ، والسويد ، واليونان ، والمكسيك ، وتانزانيا) .

إننا مخلصون إخلاصا عميقا لفكرة عالم خال من الأسلحة النووية, وهذه الفكرة التي أثرتها التقاليد السياسية للهند، وخصائص الفلسفة والثقافة الهندية، جرى تطويرها في إعلان دلهي حول مبادئ عالم خال من الأسلحة النووية ومن العنف. وهي بالنسبة لنا ليست مجرد شعار رفعناه لنلهب الخيال, فالأمن مسألة

سياسية ، وليس وظيفة للمواجهة العسكرية . والعجز عن إدراك ذلك يمكن أن يؤدى فقط إلى الحرب بكل آثارها المدمرة . وإذا ما أطلقت المخزونات الضخمة من الأسلحة النووية والكياوية وغيرها من الأسلحة التي تراكمت فلن يبقى من العالم شيء . إننا نتحدث عن بقاء البشرية . وبالنسبة لنا تمثل فكرة عالم خال من الاسلحة النووية اقتناعا توصلنا إليه من خلال قدر كبير من المعاناة . ونحن نعتبر الأمن مفهوما شاملا لا يجسد الجوانب العسكرية السياسية وحدها وإنما يجسد أيضا الجوانب الاقتصادية والبيئية والإنسانية .

وفى المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي جسدنا من جميع الوجوه مفهوم بناء نظام شامل للأمن الدولى. وقدمناه إلى العالم بأسره، إلى الحكومات، والأحزاب، والتنظيمات العامة والحركات المعنية في الحقيقة بالسلام على الأرض (١).

⁽١) نحن نرى المبادئ الأساسية لهذا النظام كما يلى:

١ ـ في المجال العسكري

⁽أ) تخلى الدول النووية عن الحرب ــ سواء كانت نووية أم تقليدية ــ ضد بعضها البعض أو ضد بلدان ثالثة .

 ⁽س) تجنب سباق التسلح فى الفضاء الخارجي ، ووقف كافة تجارب الأسلحة النووية والتدمير
 الكامل لهذه الأسلحة ، وحظر انتاج الأسلحة الكيماوية وتدميرها ، والتخلى عن تطوير
 وسائل الإبادة الشاملة الأخرى .

⁽ج.) التخفيض الحاد تحت رقابة صارمة لمستوى القدرات العسكرية للبلدان إلى حدود الكفاية المعقولة .

⁽د) حل الأحلاف العسكرية ، وكخطوة نحو ذلك يجب التخلي عن توسيعها أو تشكيل أحلاف جديدة .

⁽هـ) التخفيض المتوازن والنسبي للميزانيات العسكرية .

٢ - فى المجال السياسي

⁽أ) الاحترام الصارم في المارسة الدولية لحق كل شعب في اختيار طرق وأشكال تطوره المستقل.

⁽ب) التسوية السياسية العادلة للأزمات الدولية والنزاعات الإقليمية .

ونحن لا نتراجع عن أى من المقترحات التى تضمنها برنامج مؤتمرنا ، كما أننا على استعداد لأن ندرس بأكبر قدر من العناية أية أفكار يمكن أن تعزز التعايش السلمى

.____

(ج.) اتخاذ عدد من التدابير الهادفة إلى بناء الثقة بين الدول ووضع ضانات فعالة ضد الهجوم
 من الخارج ومن أجل ضان حرمة حدودها

(د) تقرير أساليب فعالة لمنيع الارهاب الدولى ، بَمَا فيصيذلك الأساليب التى تضمن أمن المواصلات البرية والجوية والبحرية الدولية .

٣- في المحال الاقتصادي

- (أ) استبعاد كافة أشكال التمييز في المارسة الدولية ، ونبذ سياسة الحصار الاقتصادى والعقوبات إلاقتصادية إذا لم تكن قد اتخذت بشكل مباشر بناء على توصية من المجتمع الدولى.
 - (ب) البحث المشترك عن طرق للتسوية العادلة لمشكلة الديون.
- (ح) إقامة نظام اقتصادى عالمي جديد يكفل الأمن الاقتصادى المتكافئ لجميع الدول.
- (د) وضع المبادىء اللازمة لاستخدام جزء من الأموال التي توفرت نتيجة لتخفيض الميزانيات
 العسكرية من أجل خير المجتمع العالمي ، والمبلدان النامية في المقام الأول.
- (هـ) تعبئة الجهود من أجل استكشاف الفضاء واستخدامه سلميا ومن أجل حل المشاكل العالمية التي تتوقف عليها مصائر الحضارة .

٤ - في المجال الإنساني

- (أ) التعاون فى نشر أفكار السلام ، ونزع السلاح ، والأمن الدولى ، وزيادة تدفق المعلومات الموضوعية العامة وتوسيع الاتصالات بين الشعوب بهدف التعرف على بعضها البعض ، وتعزيز روح التفاهم المتبادل والوفاق فى العلاقات بينها .
- (س) نبذ جميع أشكال إبادة الجنس ، والتفرقة العنصرية ، والدفاع عن الفاشية وأى شكل آخر من أشكال التمييز العرقى أو القومى أو الدين ، وكذلك التمييز ضد الناس على هذا الأساس .
- (ج.) توسيع التعاون الدولى فى تنفيذ حقوق الإنسان السياسية والاجتاعية والشخصية فى ظل احترام قوانين كل بلد .
- (د) حل المسائل المتعلقة بإعادة توحيد الأسر، والزواج، وتطوير الاتصالات بين الشعوب والمنظات بروح إنسانية وإيجابية.
- (هـ) تعريز الأشكال القائمة للتعاون في الثقافة والفنون والعلوم والتعليم والطلب . والبحث عن أشكال جديدة لهذا التعاون .

باعتباره المبدأ العالمي الأسمى للعلاقات بين الدول .

وقد تحدثنا أيضا في المؤتمر عن العلاقات السوفيتية الأمريكية . وبودى أن أعيد إلى الذاكرة تصريحنا في هذا الصدد : إن العزم الأكيد للاتحاد السوفيتي هو أن يكون في مستوى آمال شعبي البلدين وشعوب العالم أجمع الذين يتوقعون من زعماء الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة خطوات محددة ، واجراءات عملية ، واتفاقات ملموسة حول كيفية كبح سباق التسلح . وبإمكاننا أن نعبر عن جوهر موقف المؤتمر حول العلاقات السوفيتية الأمريكية في بضع كلات _ إننا نعيش فوق نفس حول العلاقات المتحدة .

الولايات المتحدة منذ جنيف

كيف تصرفت الإدارة الأمريكية منذ جنيف؟ لقد بدأت حملة صاخبة ترمى إلى إثارة المشاعر المعادية للسوفيت. وبذلت المحاولات المرة بعد المرة لتقديم الاتحاد السوفيتي في صورة «بعبع» لتزداد المخاوف منه حتى يمكن تمرير آخر ميزانية عسكرية في الكونجرس. واقترح لقب «إمبراطورية الشر». وأكد الرئيس مجدداً أنه لا ينوى التخلي عن هذا اللقب.

وكل هذا يمكن اعتباره كلاما منمقا طنانا ، ولكن الخطب الرنانة المعادية ، كما سبق أن قلت تخرب العلاقات أيضا . فلها تداعياتها السريعة . والأمور تبدو الآن أكثر خطورة . فقد طلب من الاتحاد السوفيتي ، مثلا ، أن يخفض عدد بعثته الدبلوماسية في الولايات المتحدة بمقدار ٤٠٪ ، كما أبحرت السفن الحربية الأمريكية في المياه الاقليمية السوفيتية بالقرب من سواحل القرم ، وشن هجوم عسكرى ضد ليبيا ذات السيادة . وقد قيمنا تلك الأعمال التي أقدمت عليها الإدارة الأمريكية في وضع ما بعد جنيف على أنها تحد ، ليس للاتحاد السوفيتي فقط ، وإنما للعالم بأسره ، بما فيه الشعب الأمريكي .

وكان فى ذلك الحين أن أعلنت الولايات عن عزمها على الانسحاب من اتفاقية سولت ـ ٢ وأعلن عن وفاة هذه المعاهدة. وبدلا من المضى نحو اتفاقيات رئيسية جديدة لوضع حد لسباق التسلح، فضلت الإدارة الأمريكية التحلل من الاتفاقيات القائمة. وبدأت حملة «غسيل مخ» للأمريكيين والرأى العام العالمي تمهيدا لتدمير معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ غير المحدودة.

لقد أوضحت فترة مابعد جنيف أنه بينا لم يكن بوسعنا فى الماضى سوى الحدس والظن ، فإنه تتوافر فى متناولنا اليوم حقائق تشهد على إعراض إدارة الولايات المتحدة عن الالتزام باتفاقيات جنيف . غير أنها بينا استمرت تتصرف بالطريقة القديمة ، فإنها كانت تريد أن « تهدئ » الرأى العام . وأخذنا نسأل أنفسنا من جديد عا إذا كانت واشنطن تعتقد حقا أنها تتعامل مع أناس ضعيني الإرادة ، وأن باستطاعتها أن تستمر في التصرف كمقامر ، وأن الاتحاد السوفيتي يرتعد عند مشهد استعراضات عسكرية جديدة ؟ .

فى ذلك الوقت كان على أن أتحدث فى مدينة تولياتى وكان على أن أشرح للطبقة العاملة فى هذه المدينة ، ولكل الشعب السوفيتي ، ماذا حدث منذ جنيف.

لقد انجزنا الشيء الكثير ، ووفينا بالتزاماتنا تجاه العالم ، متخذين موقفا مسئولا عاليا من تعهداتنا في جنيف .

ولكن ماذا عن الولايات المتحدة ؟ لقد أوردت الحقائق ، ومن جديد ثار السؤال : ما الذى تريده الولايات المتحدة حقا إذا كان على المرء أن يحكم بسياستها الحقيقية وليس من بياناتها . فهى لم تكتف بالتخلى عن الانفراج ، وإنما يبدو أنها ترتعد لأى مظهر من مظاهر الدفء فى العلاقات . وكان على أن أخبر الشعب السوفيتي بأمانة عن مصالح من التي من المتوقع أن تخدمها مثل هذه السياسة . وبالتأكيد لم يكن الشعب الأمريكي هو الذى يريد للتهديد العسكرى أن يزداد وبالتأكيد لم يكن الشعب الأمريكي هو الذى يريد للتهديد العسكرى أن يزداد أليس كذلك ؟ لقد كان ينبغي التحدث عن التجمع العسكرى الصناعي فى

الولايات المتحدة ، الذى لايلتهم فقط ، مثل الإله مولوخ القديم ، الموارد الضخمة للأمريكيين والشعوب الأخرى ، وإنما يلتهم أيضا ثمار الجهود الرامية إلى إزالة التهديد بحرب نووية .

وطبعا ، تزعج شعبنا مبادرة الدفاع الاستراتيجي . وقد قلنا ذلك أكثر من مرة . ولكن ربما يحاولون فقط إخافتنا من جديد ؟ وربماكان من الأفضل أن نكف عن الخوف من مبادرة الدفاع الاستراتيجي .

واللامبالاة لم يكن مسموحا بها على التأكيد. وقد رأينا أنه رغم أن ملايين الأمريكيين ومن بينهم ساسة مرموقون وشخصيات عامة بارزة ، وأناس عاديون ، وعلماء ، وزعماء دينيون ، وطلبة في المدارس والجامعات يقفون ضد مبادرة الدفاع الاستراتيجي والتجارب النووية ، فإن بعض الدوائر في الولايات المتحدة قد أصيبت بلوثة بخصوص برناميج حرب النجوم . وكان ذلك أشد خطورة بكثير لأنه ينبع مباشرة من عسكرة سريعة للفكر السياسي . ومع ذلك كان لابد من التخلص من الانطباع الذي لديها عنّا والذي لم نكن مسئولين عنه . فهذه الدوائر تعتقد بأن الاتحاد السوفيتي إذا كان خائفا من مبادرة الدفاع الاستراتيجي ، فينبغي إرهابه معنويا ، واقتصاديا وعسكريا بهذه المبادرة . وهذا مايفسر التركيز الكبير على مبادرة الدفاع الاستراتيجي بهدف استنزافنا . وهكذا ، فقد قررنا أن نقول : نعم ، نحن ضد مبادرة الدفاع الاستراتيجي ، لأننا مع القضاء الكامل على الأسلحة النووية ، ولأن مبادرة الدفاع الاستراتيجي تجعل العالم غير مستقر بدرجة أكبر من أي وقت مضى . ولكن المسألة بالنسبة لنا تنطوي على المسئولية وليس على الحوف ، ولأن مضى . ولكن المسألة بالنسبة لنا تنطوى على المسئولية وليس على الحوف ، ولأن النائم ، فإنها تدمر بقايا ما قد لايزال يجدم الأمن .

عندما كنت أتحدث فى تولياتى ، قررت أن أقول مرة أخرى إن ردنا على مبادرة الدفاع الاستراتيجى سيكون فعالاً. وتأمل الولايات المتحدة فى أننا سنطور أنظمة

مماثلة . وبذلك يمكنها أن تسبقنا تكنولوجيا وأن تستفيد من تفوقها التقنى . ولكننا في القيادة السوفيتية نعرف أنه ليس هناك ماتستطيع الولايات المتحدة تحقيقه ويعجز عنه علماؤنا ومهندسونا . إن عشر الاستثارات الأمريكية سيكون كافيا لإقامة نظام مضاد لإحباط مبادرة الدفاع الاستراتيجي .

وهكذا قررنا أن نفضح كلية البيانات الديماجوجية بأننا نترنح أمام مبادرة الدفاع الاستراتيجي .

وقد كررت فى خطابى الصيغة التى أقرها مؤتمر الحزب ـ إننا لانريد أكثر من الأمن ، ولكننا لن نقبل ماهو أقل منه .

وعندما لخصنا نتائج الشهور التي أعقبت جنيف ، أردنا أن نقول للغرب ، وللولايات المتحدة وحلف الأطلنطي أننا لن نتخلي عن سياستنا للسلام ، رغم أننا نأخذ في الاعتبار سياسات الغرب الحقيقية . ولن نستجدى من أجل السلام . وقد رددنا أكثر من مرة على التحديات وسوف نفعل ذلك كل مرة .

وبدا أنه كان على الولايات المتحدة أن ترد على مبادراتنا وتحركاتنا منذ قمة جنيف بمقابلتنا فى منتصف الطريق ومحاولة إرضاء تطلعات الناس. ولكن تلك لم تكن هى الحال. فالمجموعة الحاكمة تضع مصالح أنانية فوق مصالح البشرية ومصالح شعبها. وكان الشيء الهام أيضا أنها فعلت ذلك بشكل قاطع وبتحدي، متجاهلة تماما الرأى العام العالمي.

وتشير مثل هذه المواقف إلى أن الإحساس بالمسئولية قد تراجع من جديد أمام العقلية المعتادة التي تتيح للمرء أن يفعل أى شىء ويتخلى عن أى شىء دون مجازاة أو حساب .

وسرعان ما أفسحت الآمال التي انتعشت بعد قمة جنيف ، فى كل مكان ، حتى فى السياسة الحقيقية فى المريكى ، الطريق لحيبة الأمل ، لأن كل شىء فى السياسة الحقيقية للولايات المتحدة ظل كما كان .

درس تشيرنوبيل

لقننا أبريل ١٩٨٦ درسا خطيرا فيا تستطيع أن تفعله الذرة المنفلتة من التحكم، حتى ولوكانت تستخدم لأغراض سلمية . وأنا أشير هنا إلى مأساة تشيرنوبيل . لقد كشفنا الحقيقة كاملة عن كبف حدثت الكارثة ، ولماذا حدثت وما النتائج . أما هؤلاء المسئولون عن الكارثة فقد قدموا بالفعل إلى المحاكمة . والعالم يعرف ما الذى قنا به في بلادنا لنقلل من أبعاد هذه الكارثة .

وقد ناقشنا الحادث مرات عديدة فى المكتب السياسى للجنة المركزية . وبمجرد أن وصلتنا التقارير الأولية المحدودة أدركنا أن الأمر خطير وأننا مسئولون عن تقييم الحادث وعن الاستنتاجات السليمة على السواء . وكان عملنا واضحا للعيان بالنسبة لكل الشعب وكل العالم . ومن غير المقبول الاعتقاد بأنه كان فى استطاعتنا قبول تدابير جزئية أو تفادى المسألة . إنه يتعين أن تقدم المعلومات عاحدث كاملة وغير منحيزة إن الموقف الجبان يعنى سياسة غير مقبولة . وليست هناك أية مصالح تضطرنا إلى إخفاء الحقيقة .

وقد شاركت القيادة السوفيتية بشكل مباشر فى الجهود المبذولة من أجل التغلب على آثار الحادث. واعتبرنا ذلك والجبنا أمام الشعب ومسئوليتنا الدولية. واستدعى خبرة العلماء والأطباء والتقنيين لإزالة الآثار المترتبة على الحادث. وقد تلقينا العون الذى نقدره كثيرا من علماء وشركات صناعية، وأطباء من بلاد كثيرة من بينها الولايات المتحدة. وأخيرا خلصنا إلى بعض النتائج الحاسمة فيما يتعلق بالتطوير التالى لصناعة الطاقة النووية.

وبفضل الجهود المتفانية لعشرات الآلاف من الناس والمساندة التي تلقيناها من البلاد بأسرها ، بما فيها التبرعات ، نجحنا في احتواء آثار الحادث . ولكننا لانعتبر ذلك سببا لأن نظل صامتين . ونحن لانميل إلى المبالغة في تبسيط الوضع ، سواء

لأنفسنا أو للآخرين. والعمل يتواصل. وسوف يستغرق سنوات بالرغم من أن الوضع ، وأكرر ذلك ، تحت السيطرة.

لقد كان هذا حادثا شمل مجرد مفاعل واحد. إن تشيرنوبيل قد ذكرتنا بغير رحمة بما سوف نعانيه جميعا لو انطلقت عاصفة رعدية نووية من عقالها.

وأنا لن استرجع كافة الأكاذيب التى اختلقت عن تشيرنوبيل. هل لى فقط أن أقدر وأثنى كثيرا على التفهم والعون من جانب كل هؤلاء الذين تعاطفوا معنا فى عنتنا، ولكنا شهدنا أيضا مرة أخرى كم يوجد من الخبث والحقد فى العالم.

ريكيافيك

لقد تحققنا من أن المجموعة العسكرية فى الولايات المتحدة (ولا أعنى بذلك الحزب الجمهورى أو الديموقراطى ، وإنما هؤلاء الذين يرتبطون بقوة بانتاج الأسلحة) يتملكها الرعب من أية مبادرة لذوبان الجليد فى العلاقات بين بلدينا . وكانت هذه المجموعة تبذل كل ماهو مستطاع لنسيان كل مايتعلق بقمة جنيف ، واجتثاث روح جنيف ، ولتزيل كل العقبات فى طريقها لتواصل سباق التسلح دون عائق ، بما فى ذلك الاتجاه الجديد _ تجاه الفضاء الخارجى .

ولكننا أيضا أدركنا جيدا أن المجموعة العسكرية ليست أبدا هي الكيان الوحيد على المسرح السياسي للولايات المتحدة . فالساسة الأمريكيون ، الذين يتخذون مواقف واقعية ، ولاينساقون وراء الأوهام فيا يتعلق بالوضع العالمي ، كانوا يدافعون عن استمرار المفاوضات مع الاتحاد السوفيتي بحثا عن طرق لتطبيع العلاقات السوفيتية الأمريكية ، مدركين أن سباق التسلح سيسفر عن نتائج سلبية خطيرة بالنسبة للولايات المتحده نفسها . ولكن مصالح المجموعة العسكرية كانت على الدوام هي المنتصرة بطريقة أو بأخرى ، كما حدث في الغالب حقيقة ، قبل ذلك .

وكانت الفرص أمام انعقاد قمة سوفيتية أمريكية ناجحة ومثمرة تخبو بسرعة

وكان الذهاب إلى قمة جديدة لمجرد المصافحة والاحتفاظ بعلاقات ودية هو عبث لامعنى له . ومع ذلك لم نستطع قبول الرفض الأمريكي لجهودنا الدؤوبة للتوصل إلى تقارب في المواقف والتوصل إلى حلول وسط معقولة . وعرفنا أننا بحاجة إلى اختراق ، وأن الوقت يعمل ضد مصالح البشرية . ثم جاءت فكرة عقد اجتاع قمة سوفيتي أمريكي مؤقت لإعطاء دفعة قوية حقا لقضية نزع السلاح النووي ، وللتغلب على الاتجاهات الخطرة ، ولدفع الأحداث في الاتجاه الصحيح . وقبل الرئيس الأمريكي مبادرتنا ، التي كانت تبدو ملهمة تماما . وبذلك جرى تمهيد الطريق لقمة ريكيافيك في أكتوبر ١٩٨٦ .

وخلال مناقشتنا الأولى فى ريكيافيك أخبرت الرئيس أنه فى أعقاب قمة جنيف نجحنا فى تنشيط الدولاب الضخم والمعقد للحوار السوفيتى الأمريكى . ولكن هذا الدولاب تعثر أكثر من مرة : ولم يكن هناك أى تقدم فى المسائل الرئيسية التى كانت تهم الطرفين ـ كيف نخفف من التهديد النووى ، وكيف نستفيد من قوة الدفع التى وفرتها قمة جنيف ، وكيف نتوصل إلى اتفاقات محددة . وقد أقلقنا هذا الوضع كثيرا . وأحبرت الرئيس أيضا أن مفاوضات جنيف تختنق فى المناقشات التى لا نهاية لها حول مسائل ميتة . وهناك ما بين خمسين إلى مائة اقتراح بديل ، ولكنها جميعا معلقة فى الهواء . ولم يتأت لواحد منها أن يمهد الطريق نحو التقدم .

لقد خططنا بدقة لقمة ريكيافيك وفمنا بقدر كبير من الأعال التحضيرية . وانتهجنا خطا واضحا وحازما ـ أن نوافق فى المدى الطويل على الازالة الكاملة للأسلحة النووية مع تحقيق الأمن المتكافئ للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي فى جميع مراحل التقدم نحو هذا الهدف . وأى مدخل آخر سيكون غامضا ، وغير واقعى ، وغير مشروع . وكنا على قناعة ، بأن اجتاع ريكيافيك ، سيمهد الطريق لتوقيع اتفاقيات حول المسائل الرئيسية للرقابة على التسلح فى اجتاعنا التالى .

وحملنا معنا إلى ريكيافيك مجموعة من التدابير الحيوية على شكل مشروعات

اتفاقات. ولو قبلت هذه التدابير، لكانت البشرية تقف الآن على عتبة عصر جديد، عصر خال من الأسلحة النووية. ولم تكن النقطة موضع الحلاف هي الحد من الأسلحة النووية، كماكان الحال في اتفاقيتي سولت ــ ١ وسولت ــ ٢، وإنما كانت الإزالة السريعة لهذه الأسلحة.

وكان الاقتراح الأول يتعلق بالأسلحة الهجومية الاستراتيجية . وقد أعلنت عن استعدادنا لتخفيضها ٥٠٪ خلال السنوات الخمس القادمة .

ولم أسمع ردا على ذلك سوى كل ما يمكن أن يقال حول المستويات ، والمستويات الفرعية ، وتقديرات تدير الرءوس ، وهو ما ظلت الوفود المفاوضات جنيف تدور فيه بلا طائل لشهور قبل أن يجدوا أنفسهم في طريق مسدود . وبدأت أناقش . ولكن سرعان ما رأيت أن المناقشة لاتؤدى إلى نتيجة . وللخروج من مستنقع هذا المأزق الذي لم يقم في مفاوضات جنيف من قبيل الصدفة وإنما عن نية متعمدة لتشويه سمعة المفاوضات ، وجعل الأمركله يبدو وكأنه مهزلة تقدمت بحل واضح وبسيط . لقد كانت هناك الأسلحة الاستراتيجية الثلاث الصواريخ الي تطلق من البحر ، والطائرات . البعيدة ذات القواعد الأرضية ، والصواريخ التي تطلق من البحر ، والطائرات . وتوجد هذه الأسلحة لدى كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، رغم أن الأسلحة الهجومية الاستراتيجية لكل من الجانبين لها اختلافاتها التاريخية الخاصة ، فلنتفق على تخفيض كل المكونات أو أنماط الأسلحة ، أى ، كل من الأقسام الثلاثة للأسلحة إلى النصف بشكل متكافئ .

ولكى نسهل التوصل إلى اتفاق تقدمنا بتنازل هام إذ تخلينا عن طلبنا السابق بأن تشمل المعادلة الاستراتيجية الصواريخ الأمريكية المتوسطة المدى التى يمكنها أن تصل إلى أراضينا والأنظمة الأمريكية المقامة على قواعد متقدمة . ونحن على استعداد كذلك لأن نأخذ في اعتبارنا قلق الولايات المتحدة من صواريخنا الثقيلة .

ووافق الرئيس الأمريكي على هذا المدخل . وإضافة إلى ذلك ، تقدم بفكرة

الإزالة الكاملة للأسلحة الهجومية الاستراتيجية خلال السنوات الخمس القادمة ، وهذا ما أيدته بجزم .

وكان اقتراحنا الثانى يتعلق بالصواريخ المتوسطة المدى. واقترحت على الرئيس أن تزال بشكل كامل الأسلحة السوفيتية والأمريكية من هذا النوع فى أوروبا. وفى هذا المجال أيضا ، قدمنا تنازلات كبيرة . فقد تجاهلنا القوات النووية البريطانية والفرنسية الموجهة ضدنا . ووافقنا على تجميد الصواريخ التى يقل مداها عن ألف كيلومتر ، وأن تبدأ المفاوضات فوراً حول مستقبلها ، واضعين فى الاعتبار بالتأكيد أن أوروبا قد تخلصت نهائيا من هذا النوع من الصواريخ . وأخيرا قبلنا الاقتراح الأمريكي بالخفض الحاد فى عدد الصواريخ المتوسطة المدى المنتشرة فى القسم الآسيوى من الاتحاد السوفيتي ، تاركين مائة من الرءوس النووية على هذه الصواريخ شرقي الأورال فى الاتحاد السوفيتي ومائة من الرءوس النووية على الصواريخ الأمريكية المتوسطة المدى فى أراضي الولايات المتحدة . وكنتيجة المصواريخ الأمريكية المتوسطة المدى فى أراضي الولايات المتحدة . وكنتيجة لذلك ، لاحت لنا فرصة لنصدر التعليات إلى وزراء خارجيتنا بالبدء فى إعداد مشروع اتفاق حول الصواريخ المتوسطة المدى .

وكانت المسألة الثالثة التي طرحتها على الرئيس فى مناقشتنا الأولى ، والتي رأينا فيها جزءا لايتجزأ من مجموعة مقترحاتنا ، تتعلق بتعزيز نظام معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ والتوصل إلى حظر التجارب النووية .

وحاولت إقناع الرئيس بأن علينا ، فى الوقت الذى نسعى فيه إلى خفض الأسلحة النووية ، أن نتأكد من أن أيا من الطرفين لن يفعل ما من شأنه أن يعرض أمن الطرف الآخر للخطر . ومن هنا كان المغزى الرئيسي لتعزيز معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ . كذلك أخذنا فى اعتبارنا تمسك الرئيس العميق بفكرة مبادرة الدفاع الاستراتيجي . واقترحنا تسجيل أن الأبحاث المعملية لمبادرة الدفاع الاستراتيجي مسموح بها ، وبذلك تحل مسألة عدم استخدام الحق فى التخلى عن

معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ لمدة عشر سنوات . وكان عدم استخدام الحق فى التخلى عن معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ لمدة عشر سنوات أمرا لاغنى عنه لكى يجعلنا نطمئن إلى أنه سيكون باستطاعتنا عند تناول مسألة الرقابة على التسلح ، حاية أمننا المتبادل والحيلولة دون محاولات كسب ميزات من طرف واحد من خلال نشر أنظمة ذات قواعد فى الفضاء .

ومن الناحية السياسية ، والعملية ، والتقنية ، فإن مثل هذه القيود لاتشكل تهديدا لأحد . وسوف أطرح المسألة من جديد فيا بعد ، ولكنني أود التذكير الآن بأننا اقترحنا في ريكيافيك على الرئيس بأن يتم الاتفاق على أن يبدأ ممثلونا المفاوضات حول حظر التجارب النووية بمجرد انتهاء الاجتاع في عاصمة أيسلندا . وتبنينا موقفا مرنا من هذه المشكلة ، أيضا ، عندما أعلنا أننا نرى المعاهدة المكتملة المقومات للحظر التام والنهائي للتجارب النووية كعملية يتم التقدم فيها خطوة خطوة . وفي هذا الإطار ، يمكن أن تتضمن المسائل ذات الأولوية «القدرة الأولى» للتجارب النووية ، والعدد السنوى لمثل هذه التجارب ، ومستقبل معاهدتي ١٩٧٤ ، النووية ، والقد كنا قريبين جدا من إيجاد صيغ مناسبة لهذه المسألة أيضا .

ومازلت أعتقد أن الطريق إلى وقف التجارب لم يغلق بلا أمل. إن استئنافنا للتجارب لم يكن يعنى بالتأكيد أن الولايات المتحدة يمكنها أن تقرر الأمر وحدها . ومن الصعب أن نقول متى ستسود الواقعية فى تقييم كل منا للآخر . ولكنها ستجىء يوما ما ، وربما بشكل غير متوقع تماما ، لأن الحياة تزيدنا حكمة . والتاريخ غنى بالأمثلة التى توضح كيف يمكن أن يتغير الوضع فجأة .

وهكذا تمخضت قمة ريكيافيك عن فرصة تتيح إمكانية توجيه وزيرى خارجيتينا نحو إعداد ثلاثة مشروعات اتفاقيات للتوقيع عليها في القمة السوفيتية الأمريكية التالية . ولكن الفرصة ، الواضحة والملموسة للغاية لشق طريق نحو حل وسط تاريخي حقا بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، انهارت في النهاية ، رغم أنها كانت في متناول اليد .

وتبين أن العقبة الكؤود هي الموقف الأمريكي من معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ . وبعد ريكيافيك كنت أسائل نفسي المرة بعد الأخرى عن السبب في أن الولايات المتحدة تتجنب التوصل إلى اتفاق حول تعزيز نظام هذه المعاهدة ذات المدى غير المحدود . وفي كل مرة كنت أتوصل إلى نفس الاستنتاج : إن الولايات المتحدة ليست على استعداد للتخلي عن آمالها في كسب التفوق النووى ، وهي هذه المرة تريد أن تسبق الاتحاد السوفيتي بالإسراع بأبحاث مبادرة الدفاع الاستراتيجي .

وأود في هذا الإطار أن أكرر من جديد : إذا ما نجحت الولايات المتحدة في المضي بخطتها إزاء مبادرة الدفاع الاستراتيجي ، وهو مانشك فيه كثيرا جدا ، فإن الرد السوفيتي سيكون وشيكا . وإذا لم تتخل الولايات المتحدة عن مبادرة الدفاع الاستراتيجي ، فلن نجعل الحياة أيسر لها . وسيكون ردنا فعالا وموثوقا به وغير مكلف للغاية . فلدينا مخطط في مراحله قبل النهائية لإبطال مبادرة الدفاع الاستراتيجي دون إنفاق المبالغ الضخمة التي ستحتاجها الولايات المتحدة لتنفيذها . وعلي الأمريكيين أن يفكروا مرة أخرى فيا إذا كان من المجدى إرهاق أنفسهم بتنفيذ مبادرة الدفاع الاستراتيجي . إنها لن تقدم لهم حاية يعول عليها بأية حال .

ولكن مبادرة الدفاع الاستراتيجي تعنى نقل الأسلحة إلى بيئة جديدة ستؤدى بدرجة كبيرة إلى عدم استقرار الوضع الاستراتيجي . ومن ناحية أخرى ، فإن التمسك بمبادرة الدفاع الاستراتيجي يكشف عن النوايا والأهداف السياسية : وضع الاتحاد السوفيتي في وضع غير موات بأية وسيلة . إن هذه النوايا السياسية وهذه المخططات الوهمية . بالسيطرة على الاتحاد السوفيتي من خلال مبادرة الدفاع الاستراتيجي ... هي التي حالت دون تتويج ريكيافيك بقرارات ذات مغزى تاريخي .

وتحدثنا ، رونالد ريجان وأنا كثيرا عن ذلك ، وكانت مناقشاتنا حامية بعض الشيء . وكنت مخلصا حينها قلت للرئيس إن اجتماعنا لايمكن أن يكون الفوز فيه لجانب واحد ، فإما أن نفوز معا أو نخسر معا .

ومع ذلك فإن ريكيافيك تمثل نقطة انعطاف فى تاريخ العالم. وكشفت بشكل ملموس أن الوضع العالمي يمكن تحسينه . ونشأ عنها وضع جديد كيفيا . فلم يعد أحد يستطيع الآن أن يتصرف بالطريقة التي كان يتصرف بها من قبل . وقد اقتنعنا في ريكيافيك أن نهجنا كان صحيحا وأن طريقة التفكير السياسي الجديدة والبناءة أمر ضرورى .

ورفع الاجتاع الحوار السوفيتي الأمريكي إلى مستوى جديد ، كما رفع في الحقيقة كل الحوار بين الشرق والغرب . وقد تحرر هذا الحوار من لعبة التضاربات التقنية ، ومقارنة المعلومات ، والحسابات السياسية ، واكتسب ثوابت جديدة . لقد أصبحت ريكيافيك فرصة مواتية لآفاق رحبة لحل المسائل الصعبة _ وأقصد الأمن ونزع السلاح النووى والحاجة لوقف الأبعاد الجديدة في سباق التسلح . لقد رسمت ريكيافيك طريقا يمكن للبشرية بواسطته أن تستعيد ديمومتها التي فقدتها عندما حولت الأسلحة النووية هيروشها وناجازاكي إلى رماد .

ونحن نشعر أن اجتاع ايسلندا كان علامة طريق. لقد دل على إكال مرحلة في جهود نزع السلاح وبداية مرحلة جديدة. وحطمنا النمط القديم للمحادثات وأخرجنا الحوار السوفيتي الأمريكي ، مما يمكن أن أسميه ، بالضباب السياسي والديماجوجية السياسية . وخلال سنوات المفاوضات حولت المقترحات العديدة من الجانبين موضوعات نزع السلاح إلى شيء غير مفهوم حتى بالنسبة للزعماء السياسيين ، ناهيك عن الجمهور العريض . إن برنامج نزع السلاح النووى الأخير اللدى تقدمنا به بسيط ومفهوم للجميع . وهو ينحصر في أربع نقاط أو ضحناها في صفحة ونصف صفحة (كما عرضت من قبل) . وبامكان الجمهور العريض أن يفهمه . وهذا هو مانهدف إليه عن قصد ، أن نجعل المجتمع الدولي طرفا في عادثاتنا .

ما بعد ریکیافیك

يمكن تلخيص جدليات ريكيافيك فيما يلى: أصبح الهدف قريبا ومحسوسا بدرجة أكبر، بينما ازداد الوضع تعقيدا وتناقضا. وبإمكان المرء أن يرى بوضوح، من ناحية ، أن اتفاقا لم يصبح له مثيل فى أبعاده كان وشيكا ، ومن ناحية أخرى ، أن هناك حواجز ضخمة تعترض طريقه . وبوجه عام ، لم نكن قريبين بهذا القدر من الاتفاق قبل ذلك .

والحقيقة أننا توصلنا إلى تفاهم حول النقطتين الأولى والثانية من برنامجنا الأسلحة الاستراتيجية والصواريخ المتوسطة المدى ، رغم أن التفاهم كان صعبا . وأضاف هذا وحده الشيء الكثير إلى خبرتنا . وقدرنا الصعاب التي تواجه الرئيس وعرفنا أنه لا يملك حرية القرار . ولم نقم بدراما مثيرة ، من حقيقة أن مشكلة معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ قد حالت دون أن تصبح ريكيافيك نجاحاكاملا . وقررنا أن نعطى للرئيس فرصة للتفكير في كل ماحدث ، وللتشاور مع الكونجرس . وربماكان من الضرورى إجراء محاولة أخرى لتخطى مايفصل بيننا . وباستطاعتنا أن ننظر ولذلك لم نسحب المقترحات التي تقدمنا بها إلى ريكيافيك .

لقد أعطتنا ريكيافيك بصيرة نافذة هامة لرؤية موقع كل منا . ويلزمنا هنا نوع من التفكير الواضح والنظرة غير البدائية . ولن أسمى بأية حال ريكيافيك إخفاقا . لقد كانت مرحلة فى الحوار الطويل الصعب ، بحثا عن حلول لابد وأن تكون واسعة النطاق . وعندئذ فقط يكون الاتفاق ممكنا . وخلصنا من ريكيافيك إلى استنتاج بأن الحاجة إلى الحوار تتزايد . ولهذا فقد أصبحت بعد ريكيافيك أكثر تفاؤلا .

كان نص هذا الكتاب على مكتب الناشر عندما اتفق إدوارد شفيردنادزه وجورج شولتز فى واشنطن على إعداد مشروع اتفاق حول الصواريخ المتوسطة المدى والأقصر مدى وتوقيعه بعد وقت قصير وقبل نهاية العام . وستكون هذه هى الخطوة الرئيسية الأولى نحو نزع السلاح . وسيكون هذا أيضا نتيجة عملية لاجتاع

ريكيافيك ، تبرهن على أنه كان اجتماعا تاريخيا ، ونقطة انعطاف . وهكذا يكون لدينا الإجابة على سؤال كثيرا ماتردد حينذاك : هل أصبح العالم أكثر أمنا منذ ريكيافيك ؟.

حاول بعض الناس تفسير دراما ريكيافيك (وكان الوضع درامياً حقاً) كما لو أن الأمر برمته كان معلقا على كلمة واحدة وانهار بسبب تلك الكلمة . كلا ، لقد كان الأمر يتعلق بالمبادئ . وسرنا خطوات واسعة لنلتق مع الطرف الآخر ، ولكننا لم نستطع أن نقدم تنازلا يعرض أمن دولتنا للخطر . وعندما عدت إلى موسكو تحدثت مرتين عن نتائج ريكيافيك ، ليس فقط لاستعادة الحقيقة التي كانت قد شوهت بل كان هدفى قبل كل شيء أن أحدد ما الذي سنفعله بعد ذلك . وقد قلت في ذلك الوقت مازلت مقتنعا به ، من أن عدم نجاح ريكيافيك إنما يعود إلى مفهومين استراتيجيين خاطئين تتميز بهما بعض الدوائر الغربية .

أولها ، أن الروس خائفون من مبادرة الدفاع الاستراتيجي ولذلك فلابد أن يقدموا أى تنازلات . وثانيهها ، أن لنا مصلحة في نزع السلاح أكبر من مصلحة الولايات المتحدة . وكان لهذه المشاعر تأثيرها على مجرى محادثات ريكيافيك . وسرعان ما أحسسنا بما يتوقعونه منا : لقد وصل الوفد الأمريكي دون برنامج محدد وهو يريد فقط أن يجني المثار .

ودفعنا الشركاء الأمريكيون بعناد نحو ما ناقشه وفدانا دون جدوى فى محادثات جنيف. وأردنا ، من جانبنا ، أن نضع ما تم الاتفاق عليه من حيث المبدأ فى قمة جنيف موضع التنفيذ العملى والواقعى . وفى كلمات أخرى ، أردنا أن نعطى دفعة لعملية إزالة الأسلحة النووية .

وفى الحقيقة ، لقد كان كل الحديث السابق حول الحد من الأسلحة النووية . أما الآن فإنه حول خفضها وإزالتها. أما والأمر كذلك ، فقد كان من الضرورى سدكل الثغرات للالتفاف حول المناورات الواسعة التي يمكن أن تضمن التفوق .

ولهذا السبب تبين أن النقطة الأساسية هي الالتزام بمعاهدة الدفاع المضاد للصواريخ. وأوضح موقف الولايات المتحدة في ريكيافيك حول هذا الموضوع أن الجانب الأمريكي لم يخفض بصره عن التفوق. ووجدنا أنه يفتقر إلى الإحساس بالمسئولية وكذلك إلى التصميم السياسي على تخطى هذه العقبة ، لأن ذلك سيعنى زعزعة نفوذ التجمع العسكري الصناعي.

ومع ذلك ، فلم نسلم ونفقد الثقة فى الأمر بأكمله . وانطلقنا من الاعتقاد بأن ريكيافيك قد أتاحت فرصا جديدة للجميع _ للأوروبيين ، والأمريكيين ، ولنا لرؤية مايحدث . ومع ذلك ، فإن شيئا واحدا يتضح لنا : أن الأمريكيين يريدون النخلص من معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ والسير فى مبادرة الدفاع الاستراتيجي _ التى تعتبرأداة لضهان السيطرة _ فهناك إذن حاجة إلى « حزمة » تربط بداخلها كل شيء . ولدينا الرغبة فى أن نكون عادلين : فعندما تقدمنا « بحزمة مقترحاتنا » أردنا أن نوضح للعالم أن مبادرة الدفاع الاستراتيجي هى العقبة الرئيسية التي تعترض التوصل إلى اتفاق حول نزع السلاح النووى .

وقد أفادنا الكثير من الوقت الذى انقضى منذ ريكيافيك. فالدوائر العسكرية قد انتابها الذعر حقا. فحاولت ، وماتزال تحاول ، وضع عقبات سخيفة للغاية فى طريق العملية التى بدأت فى ريكيافيك لتجعلها تتلاشى بشكل ما. ونسجت كل أنواع الروايات حول ما جرت مناقشته فى ريكيافيك وبذلت كل الجهود من أجل إخفاء الحقيقة فى أن الجانب الأمريكى أتى إلى ريكيافيك صفر اليدين ، وعلى استعداد فقط لانتزاع بعض التنازلات السوفيتية.

وحدث ماحدث فى الأيام ، والأسابيع ، والشهور ، والعام الذى أوشك الآن أن ينقضى منذ ريكيافيك . وقد اخترت أن أسمى الأشياء بأسمائها : لقد انتهجت الإدارة الأمريكية فى الحقيقة خطا يرمى إلى إلغاء نتائج ريكيافيك . ولايترك أى من أعالها مجالاً للشك فى ذلك . ورأينا أن الولايات المتحدة بدأت تخلط الأمور فيما يتعلق بما حدث بالفعل فى ريكيافيك ، بينما انتشرت فى أوروبا الغربية مشاعر الذعر .

لكن الشيء الرئيسي هو نشاط الولايات المتحدة . وأعنى بذلك تخطى الولايات المتحدة بالفعل لحدود معاهدة سولت ٢ وذلك بنشر قاذفتها الاستراتيجية «١٣١» المجهزة بصواريخ كروز . وأعنى بالإضافة إلى ذلك ، المناقشات الصاخبة والمتعمدة في الإدارة لصالح مايسمي بالتفسير الواسع لمعاهدة الدفاع المضاد للصواريخ . وقد سمعنا من واشنطن في الشهور الأولى لعام ١٩٨٧ أن الوقت قد حان لكي تبدأ الولايات المتحدة في نشر المكونات الأولى لمبادرة الدفاع الاستراتيجي في الفضاء .

وكانت محادثات جنيف تسير هي الأخرى بخطى بطيئة . وبذلت محاولات لجرنا إلى الحلف ، وطرحت على مائدة المفاوضات من جديد كل تلك المستويات والمستويات الفرعية . ولأغراض دعائية جرى تزيين ذلك بالحديث عن تصلب الاتحاد السوفيتي وعناده . وقيل إن الاتحاد السوفيتي يتقدم بمقترحاته على شكل «حزمة » وأنه يحول دون التوصل إلى حلول عندما يكون ذلك ممكنا بالفعل .

فهاذا كان من المفروض أن نفعل ؟ هل نرد بطريقة مماثلة ؟ ولكن لن يتأتى أى خير من مثل هذا الموقف.

ولم نحذ حذو «المثال» الأمريكي وإنما قلنا إننا سنواصل احترام التزاماتنا الناجمة عن معاهدة سولت ـ ٢ . إن قاذفة قنابل أكثر أو قاذفة قنابل أقل لاتعني شيئا ذا بال في إطار التوازن الاستراتيجي الحالى بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة إن انتهاك واشنطن لمعاهدة سولت ـ ٢ ذو طابع سياسي أكثر منه عسكرى . إنه « دعوة » للاتحاد السوفيتي للعودة إلى عهد ماقبل ريكيافيك .

واحتفظنا ببرود أعصابنا حينا تحدثت الجاعات اليمينية فى الولايات المتحدة عن تصعيد مبادرة الدفاع الاستراتيجي والشروع فورا فى اختيار بل ونشر أنظمة الدفاع المضادة للصواريخ ذات القواعد الفضائية.

أما بالنسبة للحديث عن الحزمة السوفيتية ، فمازلت أعتقد ، بأنه لو كانت الولايات المتحدة قد وافقت على قبول «حزمة المقترحات» هذه بمواصفات ممكنة وتعديلات معينة لكنا قد حققنا تقدما هائلا . وفى وقت سابق كانت الحزمة تتضمن بنودا للحد من الأسلحة الهجومية الاستراتيجية وإزالتها وتجنب عسكرة الفضاء . وهذه المسائل ترتبط ببعضها عضويا . وهذا تنسيق استراتيجي وإذا لم تكن هناك قيود صارمة لتجنب سباق التسلح فى الفضاء ، فلن يكون هناك خفض للأسلحة الهجومية الاستراتيجية . وينبغى أن يكون هذا واضحا تماما للجميع .

وفى ريكيافيك ، أدخلنا فى حزمة المقترحات مسألة الصواريخ المتوسطة المدى لأننا أردنا أن نوقف سباق التسلح فى كافة الاتجاهات الرئيسية فى وقت واحد وأكرر أننا أردنا . فى نفس الوقت ، أن نبرز مبادرة الدفاع الاستراتيجى حتى يرى العالم بأسره العقبة الرئيسية فى طريق نزع السلاح النووى . وقد انتقدنا كثير من الساسة الغربيين وأدانونا لأننا أدخلنا الصواريخ المتوسطة المدى فى حزمة مقترحاتنا من جديد . وأنا أعرف أن دوائر الرأى العام المختلفة كانت تختلف أيضا معنا . ومع ذلك فإنى على قناعة بأننا اتخذنا القرار السليم .

محفل موسكو والصواريخ المتوسطة المدى

ترك محفل موسكو « من أجل عالم خال من الأسلحة النووية ، ومن أجل بقاء البشرية » انطباعا عميقا للغاية فى نفسى وفى غيرى من الزعماء السوفيت. لقد أدركنا بوضوح مشاعر الرأى العام العالمي ، ومخاوفه وقلقه إزاء مصير ريكيافيك ، وإزاء حقيقة أن الاتحاد السوفيتي بعد ريكيافيك بوقت قصير ، أنهى وقفه للتجارب النووية من جانب واحد ، وأن الولايات المتحدة قد قوضت معاهدة سولت ٢٠٠٠ وأن معاهدة الدفاع المضاد للصواريخ معرضة للخطر. وقد فكرنا نحن فى الاتحاد السوفيتي جديا وقررنا أن نتخذ خطوة أخرى من أجل تنشيط محادثات جنيف السوفيتي جديا وقررنا أن نتخذ خطوة أخرى من أجل تنشيط محادثات جنيف

والتوصل إلى تحول إيجابي فى نزع السلاح. وما أعنيه هو فصل مسألة الصواريخ المتوسطة المدى عن حزمة مقترحاتنا.

فماذا حدث؟

تماما كما حدث بعد ريكيافيك ، لقد دق معسكر حلف الاطلنطى نواقيس الانذار بالخطر. وكرد فعل على خطوتنا الجديدة نحو الغرب وأمام أعين الجميع ، بدأت دوائر حلف الأطلنطى الحاكمة تتخلى عن مواقفها التى دافعت عنها لوقت طويل ، ورفضت «خيار الصفر» الذى اقترحته أو قيدته بشروط مختلفة . وذهبوا إلى حد اقتراح تعزيز الترسانات النووية فى أوروبا عن طريق نشر الصواريخ الأمريكية الأقصر مدى ، بدلا من تخفيض مثل هذه الترسانات .

وسمعنا كذلك التصريحات التالية : إن الغرب سيثق بمقترحات الاتحاد السوفيتى حول خفض الأسلحة إذا ما غير الاتحاد السوفيتى نظامه السياسى ، وإذا ما قبل نحوذج المجتمع الغربي . وهذا أمر سخيف للغاية .

وبعد ريكيافيك ، وبخاصة بعد اقتراحنا بتوقيع اتفاقية منفصلة حول الصواريخ المتوسطة المدى ، أثارت دواثر حلف الأطلنطى ضجة حول استحالة ضمان السلام في أوروبا بدون أسلحة نووية .

ودارت مناقشة حادة حول هذه المسألة بين السيدة تاتشر وبيني. وقالت إن الأسلحة النووية تعتبر بالنسبة لبريطانيا الوسيلة الوحيدة لضان أمنها في حالة اندلاع حرب تقليدية في أوروبا . وهذه فلسفة متشائحة . وقلت لرئيسة وزراء بريطانيا : « عندما تعلنين بأن الأسلحة النووية نعمة وبأن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي قد يخفضان مستوياتها بينها تقف بريطانيا بعيدا عن ذلك ، يتضح لنا على الفور أننا أمام نصيرة متحمسة للأسلحة النووية . ولنفترض أننا نبدأ عملية نزع السلاح ، ونقوم بإزالة الصواريخ المتوسطة المدى من أوروبا وتخفض الأسلحة الهجومية الاستراتيجية ٥٠٪ أو بنسبة أخرى ، في الوقت الذي تواصلون فيه بناء قواتكم الاستراتيجية ٥٠٪ أو بنسبة أخرى ، في الوقت الذي تواصلون فيه بناء قواتكم

النووية . هل فكرتم كيف ستبدون في نظر الرأى العام العالمي ؟ » .

واعتقدت أن من واجبى أن أذكرها بأن بريطانيا قد شاركت فى المفاوضات الثلاثية التى دارت حول الحظر الكامل والعام للتجارب النووية ثم فقدت كل اهتمام بهذه المفاوضات ، وأننا ألتزمنا بوقف مؤقت للتجارب النووية لمدة ثمانية عشر شهرا بينما لم تتقيد بريطانيا بذلك .

إن وجود الأسلحة النووية ينطوى على خطر دائم لايمكن التنبؤ به . وإذا ما اتبعنا المنطق القائل بأن الأسلحة النووية نعمة وضان يعول عليه للأمن ، فليس هناك إذن داع لمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية ، لاسها وأن عشرات الدول لديها الآن القدرة العلمية والتكنولوجية والمادية لصنع قنبلتها الخاصة . فبأى حق معنوى ترفض الدول النووية الحالية امتلاك بلدان مثل الباكستان ، وإسرائيل ، والبرائيل أو أى بلد آخر للسلاح النووى ؟ ماذا سيحل بالعالم وبالعلاقات الدولية عندئذ ؟ .

وعند تقييمه للوضع ، أكد المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى الشوفيتى رفض القيادة السوفيتية الحازم للموقف الذى يقول بأن مباشرة الشئون الدولية والأمن القومى لا يمكن تحقيقها إلا من خلال الاعتاد على الأسلحة النووية .

ولنعد الآن إلى مسألة الصواريخ المتوسطة المدى . لقد كان الرئيس ريجان ، على وجه الدقة ، هو الذى اقترح «خيار الصفر» بالنسبة لأوروبا . ويقول هيلموت شميدت أيضا بأنه وحده صاحب هذه الفكرة . وقد كان شميدت ، فى الحقيقة ، أول من تقدم بهذا الاقتراح عندما كان مستشارا لجمهورية ألمانيا الاتحادية . وفى ريكيافيك وجدنا ، الرئيس وأنا ، حلا وطرحناه على مائدة الاتفاق . ومن الممكن تحقيقه الآن . وقد كتبت صحيفة ألمانية غربية أن هناك أناسا فى ألمانيا الاتحادية يصرون على أخذ جورباتشوف بكلامه ، ولكنه بموافقته على «خيار الصفر» ، قد

أخذ هو الآخرين بكلامهم. وتواصل الصحيفة ، حسنا فليبرهنوا الآن أنها لم تكن مجرد ثرثرة عندما تقدموا باقتراح الصفر ، معتمدين على أن الروس سيرفضون الاقتراح بالمثل . وابتسمت عند قراءة ذلك . ولكننى فكرت عندئذ : حسنا ، ربما كانت الصحيفة على حق في نهاية الأمر .

وكان يمكن أيضا حل مشكلة الصواريخ الأقصر مدى . ونحن مع إزالة هذه الصواريخ . ولنرالآن ماذا حدث . فى أبريل ١٩٨٧ وصل جورج شولتز إلى موسكو وحاول إقناعنا بأنه لابد وأن يكون للولايات المتحدة الحق فى تعزيز ترسانتها بنشر عدد من الصواريخ من هذا النوع حتى يزيل الاتحاد السوفيتي صواريخه بشكل كامل . وإنه لمنطق غريب ، ومقلوب . إننا راغبون فى إزالة الصواريخ الأقصر مدى التي يتم سحبها من جمهورية ألمانيا الديموقراطية وتشيكوسلوفاكيا ، ونحن على استعداد عند ثذ لإزالة الصواريخ المتبقية . ولكن عندما تقدمنا بهذا الاقتراح ، بدأوا فى حلف الأطلنطي مرة أخرى يدورون حوله كالقطة التي تدور حول إناء طعام ساخن . إن التاريخ يعيد نفسه .

ومع ذلك ، فإن هذا لم يوهن من عزيمتنا . فبعد فحص الوضع الذى نشأ فى محادثات جنيف فى الربيع وأواثل الصيف ، واستجابة لصوت الرأى العام الأوروبى والآسيوى ، اتخذنا خطوة هامة أخرى .

فنى ٢٧ يوليو ١٩٨٧ ، أعلنت باسم القيادة السوفيتية أن الاتحاد السوفيتى على استعداد لإزالة كافة صواريخه المتوسطة المدى فى الجزء الآسيوى من أراضيه ، أيضا . وهذا من شأنه أن يزيل مسألة الاحتفاظ بمائة رأس نووى على الصواريخ المتوسطة المدى التى اتفقنا عليها مع رئيس الولايات المتحدة فى ريكيافيك ، والتى ناقشها فيها بعد ممثلونا فى جنيف . وكان هذا ، بالطبع ، شريطة أن تقوم الولايات المتحدة بالمثل . وسوف تزال أيضا الصواريخ الأقصر مدى . وفى كلمة ، فالاتحاد السوفيتى على استعداد لتنفيذ « خيار الصفر المزدوج » العالمى .

ويمكننا أن نقول بضميرنتى : لقد فعل الاتحاد السوفيتى كل ما يستطيع من أجل ميلاد أول اتفاقية هامة حول إزالة نوعين ، وليس مجرد نوع واحد ، من الأسلحة النووية .

ولكن كم من الحواجز أقيمت وماتزال تقام لعرقلة الاتفاق! وكم من العقبات يجب إزالتها كي يسود العقل والتفكير السليم على الهوس النووى!.

احكموا بأنفسكم ، ماشعرنا به ، بعد أن اتفقنا على «الصفر المزدوج» ، وقيل لنا أن ٧٧ صاروخا (بيرشينج ١-أ) ستبقى على أراضى جمهورية ألمانيا الاتحادية وأن عددا مماثلا من الروس النووية الأمريكية لهذه الصواريخ لابد وأن يبقى . وهكذا يتضح أن كل شيء - الوضع غير النووى لجمهورية ألمانيا الاتحادية ، والمعاهدة الخاصة بمنع انتشار الأسلحة النووية ، ومبدأ التكافؤ بين الأطراف المعنية - يجب أن يبقى خارج نطاق البحث . ولكن إذا ماسارت الأمور بهذا الشكل ، ماذا يحدث لو طلبت منا جمهورية ألمانيا الديموقراطية أو تشيكوسلوفاكيا أو بولندا أن نعطيها شيئا لتحقق التوازن مع المجمع الصاروخي النووى للولايات المتحدة وألمانيا الغربية ؟ وماذا عندئذ ؟ هل نقبل وضعا إذا ما سد فيه طريق أمام سباق التسلح ، انفتح له طريق آخر جديد ؟ .

قلت لوزير خارجية الولايات المتحدة: «.هل تعتقد حقا أننا من الضعف بحيث نظل مستعدين وراغبين في استرضاء إدارتكم إلى ما لا نهاية ؟ أو هل تعتقدون أننا أكثر اهتماما بتنمية العلاقات السوفيتية الأمريكية. ومن ثم ، فليس على الجانب الأمريكي مايقوم به من ناحيته ؟ إذا اعتقدتم ذلك ، فهذا وهم ، ووهم خطير للغاية. وأنا أقول ذلك صراحة دون أى تغليف دبلوماسي ».

لقد ستم العالم من التوتر وتعب منه . وينتظر الناس بفارغ الصبر فرصة لتحسين الوضع والتقليل من خطر الحرب . وقد قدم الاتحاد السوفيتى تنازلات لم يسبق لها مثيل للمساعدة على أن تسنح مثل هذه الفرصة . وإذا ما ضاعت هذه الفرصة ،

فسوف تترك بصماتها على كل السياسات العالمية .

وقد يتساءل المرء ، لماذا الاتحاد السوفيتي في كل هذه العجلة في أمور مثل هذه ؟ إننا في الحقيقة ، سوف ندمر عددا من الصواريخ المتوسطة المدى أكثر من الغرب وسنفعل نفس الشيء بالنسبة للصواريخ الأقصر مدى . فما الذي يدفعنا إلى العجلة ؟ هناك شيء واحد فقط يجعلنا في عجلة _ وهو إدراكنا الواضح للحاجة إلى أن نقوم بشيء ما ، الحاجة إلى اتخاذ بعض الخطوات الحقيقية حتى يمكن أن تبدأ بالفعل عملية نزع السلاح ، حتى ولو ببطء وحتى لو اعتمدت على ظروف خاصة ، ولكن على الأقل لنبدأ .

ويجب أن نسعى فى كافة مناقشاتنا ومحافلنا ، وفى المقام الأول ، فى محادثات جنيف ، إلى حلول للمشاكل المعقدة . ونحن نوليها اهتماما ضخا . واعتقد أن القراء يعرفون الآن ما قمنا به من أجل تحقيق تقدم هناك .

ونحن لا نريد مجرد أن تجرى المباحثات. ينبغى أن أقرر صراحة أن الحقيقة البسيطة بأن المحادثات تجرى ، إنما تناسب بعض الناس فى أمريكا ولكنها لاتناسبنا . إنه لشىء طيب أن تجرى المحادثات . ولكن من الجوهرى أن تتحرك نحو شىء ماحتى نحقق تقدما ، ونصل إلى اتفاقيات ونمكن الشعبين السوفيتي والأمريكي بل والعالم أجمع من الحصول عبر اتفاقات جنيف على حل للمشاكل البارزة ، يؤدى إلى إزالة التهديد النووى ويمهد الطريق إلى نزع السلاح .

وهذا ما نسعى إليه . وإذا ما استخدمت المحادثات كستار لمواصلة كافة البرامج العسكرية وتصعيد ميزانيات الدفاع ، فإننا عندئذ سنكون ضدها ، وضدها بحزم . إنه نهج مرفوض .

وبطبيعة الحال ، ليس من السهل تغيير المفاهيم التى بنيت على أساسها العلاقات بين الشرق والغرب طيلة خمسين عاما . ولكن الجديد يطرق ، بالتعبير الحرفى ، كل الأبواب والنوافذ . وعلينا نحن الزعماء السياسيين من الجيل الحالى أن نصغى إلى

ذلك . ولكن ، من سوء الطالع أن كثيرا من الساسة ماتزال تكبلهم العقد والقوالب القديمة .

ولقد حان الوقت لتحديد خيارنا . وعلينا جميعا أن نواجه اختيار الإرادة الطيبة والشجاعة السياسية والعقل السليم . ومن الواضح أن الحل الناجح للمشاكل المتعلقة بالصواريخ المتوسطة المدى والأقصر مدى سيكون له مغزاه وآثاره الهامة بالنسبة لكل عملية نزع السلاح . وسيكون عاملا للثقة نحن في أمس الحاجة إليه .

وسوف نواصل ، بالطبع ، المباحثات حول الأسلحة الاستراتيجية وخفضها . وهناك تكافؤ وتعادل تقريبي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي من حيث قوة وقدرة القوات الاستراتيجية . وقد سمعت أكثر من مرة الجانب الأمريكي يقول إن الولايات المتحدة تعتبر صواريخنا العابرة للقارات تهديدا خاصا . ونحن نرى في الصواريخ الأمريكية التي تطلق من الغواصات تهديدا كبيرا لأنها أقل عرضة للهجوم ، ومزودة أيضا برءوس حربية توجه بشكل مستقل ، ولديها دقة كبيرة في إصابة الهلف . ونحن نرى تهديدا آخريأتي من القواعد العسكرية العديدة التي تحيط بالاتحاد السوفيتي . ومع ذلك ، فهناك تعادل استراتيجي بيننا . وعلى ذلك ، فبها أن بالاتحاد السوفيتي . ومع ذلك ، فهناك تعادل استراتيجي بيننا . وعلى ذلك ، فبها أن من أسلحة استراتيجية في الوقت الحاضر ، فإن التوازن سيمكن المحافظة عليه بعد من أسلحة استراتيجية في الوقت الحاضر ، فإن التوازن سيمكن المحافظة عليه بعد تخفيض الده من ، وحتى إلى مستوى أقل . وهذا سوف يغير الوضع . وهذا ما اقترحته على الرئيس ريجان في ريكيافيك _ تخفيض الثلاثي بأكمله وكل من عناصره عقدار خمسين في المائة . وكان من الممكن أن يكون هذا إنجازا عظها .

وبطبيعة الحال ، ينبغى أن نلتزم فى أمانة بمعاهدة الدفاع المضاد للصواريخ . وفيما يتعلق بمبادرة الدفاع الاستراتيجى ، ليس لدينا اعتراض على الأبحاث داخل حدود المعامل ، والمعاهد ، والمصانع ، ومجالات التجارب . والحقيقة أن اقتراحنا يأخذ فى اعتباره النقاط الخمس إلى الثمانية التى تؤيدها الولايات المتحدة فى إطار

موقفها من مبادرة الدفاع الاستراتيجي . فليجلس المتخصصون معا ، ويدرسوا الأمور ويروا أيا من المكونات يمكن أن تطلق إلى الفضاء وأيها يمنع من ذلك . إن أفكارنا المرتبطة بالحلول الوسط توفر فرصة طيبة للتوصل إلى حل .

لقد اتخذ الاتحاد السوفيتي خطوات عديدة لخلق وضع جديد وفرص جديدة لتحسين العلاقات السوفيتية الأمريكية وجعلها أكثر دينامية . ولم تتوافر لدى أى من الإدارات الأمريكية السابقة في العقود القليلة الماضية مثل هذه الفرص للقيام بشيء ما من أجل تحسين العلاقات مع الاتحاد السوفيتي . حسنا ، ثم ؟ لاشيء هناك نتفاخر به ! إننا لم نتحرك خطوة واحدة إلى الأمام .

والزمن ينقضى . ونحن على قناعة بأننا إما أن نتوصل إلى اتفاقيات وإما لن يتبقى لنا سوى إلقاء الخشب فى جذوة نار العلاقات السوفيتية الأمريكية حتى لا تنطفئ كلية .

وقد اتخذنا الخطوات اللازمة لتحرير سياستنا من الأوهام المرتكزة على التصورات الأيديولوجية. وهذا ماينبغى على الغرب القيام به كذلك. إن عليه ، أولا ، أن يتحرر من الوهم القائل بأن الاتحاد السوفيتي يحتاج لنزع السلاح أكثر من الغرب ، وأن قليلا من الضغط يمكن أن يجعلنا نتخلى عن مبدأ المساواة. إننا لن نفعل ذلك أبدا.

انظروا بأنفسكم : إن كافة المقترحات السوفيتية ، بغض النظر عن مدى الدقة في دراستها ، تستهدف المساواة والتوازن في كافة المراحل . ويتعلق ذلك بالأسلحة النووية ، والأسلحة التقليدية ، والأسلحة الكياوية ، كما يتعلق بأى منطقة جغرافية _ الشرق ، والغرب ، وأوروبا وأمريكا . ونحن نعد مقترحاتنا بدقة ، منطلقين من الفكرة القائلة بأن أى بلد لن يوافق على أى اجراء قد يلحق الضرر بأمنه .

وعندما نتقدم بمقترحاتنا في المحادثات ، مثلا ، في محادثات جنيف أو في أي

مكان آخر ، فإننا ننطلق من الفكرة القائلة بأننا إذا أخذنا في اعتبارنا مصالح الاتحاد السوفيتي فقط ، وتجاهلنا مصالح الطرف الآخر ، فلن نتوصل إلى اتفاق . ونحن ندعو الجانب الأمريكي إلى التصرف بالمثل ـ أن يعاملنا بنفس الطريقة ، لأننا لن نسمح على الإطلاق بتفوق الطرف الآخر أو بأي عدوان على أمننا . كما أننا لا نريد إلحاق الضرر بأمن الولايات المتحدة . وإذا ما أبدى الجانبان مثل هذا الموقف فسيكون بالإمكان تحقيق تقدم أكثر حسما في كافة ميادين التعاون الأمريكي السوفيتي .

وباستطاعتنا ، بالطبع ، الانتظار حتى تأتى إدارة أخرى إلى السلطة ، ولكننا نفضل أن نصل إلى اتفاق مع الإدارة الحالية . لقد قنا ببداية معينة . وهناك علاقات شخصية وقدر معين من التفاهم . ونحن نعتبر من الأهمية البالغة خلق مناخ طبيعى يمكن فى ظله تحقيق خطوة فى نهاية الأمر نحو الاتفاق . ولكن الجانب الأمريكي يتعثر المرة بعد الأخرى . والأسوأ من ذلك ، أننا فى كل مرة نتخذ خطوة للقاء واشنطن ، تسعى القوى المعادية لتعقيد الأمور ووقف التحرك نحو الأمام وذلك بتكثيف نشاطها .

وأحد الأمثلة الأخيرة على ذلك هو التصنت على السفارات. وقد اقترحت على جورج شولتز «مفهوما جديدا»: يفترض أنه وشفيردنادزه «الجاسوسان الرئيسيان». وأن سفيرينا في موسكو ووشنطن «جاسوسان» أيضا. وهما يشغلان منصبيها بالتحديد ليبلغا بلادهما بحالة الأمور في البلد الآخر ونواياه. فكل هذه الضجة حول هوس التجسس في السفارات لا معنى لها. إننا نعرف كل الأمور الرئيسية في الولايات المتحدة والولايات المتحدة تعرف كل شيء عنا. وهذه المرة دبرت ضجة الجواسيس لأنها أصبحت قاعدة: عندما نصل إلى نقطة مجددة ، وعندما يصبح في الإمكان حل مشكلة في علاقاتنا ، سرعان ما يستخدمون خديعة أو مكيدة لنسفها.

وأنا أعرف أن تخمينات زائفة مختلفة قد نسجت حول موقف القيادة

السوفيتية من الرئيس رونالد ريجان . ولدى انطباعات شخصية عن الرئيس . وقد التقينا مرتين وتحدثنا لساعات عديدة . وفي رأيي أنه قد جرى حوار جاد بين الرئيس ويني ، رغم كل الصاعب . وأحيانا نقول لبغضنا أشياء لاتبعث على السرود بل ونقولها علنا وفي كلمات حادة إلى حد ما . وأنا أقول من جانبي أننا سنواصل جهودنا ، وسنسعى إلى التعاون والمحادثات المثمرة مع أى رئيس ، ومع أى إدارة ينتخبها الشعب الأمريكي . إن انتخاب الرئيس ـ سواء كان ديموقراطيا أو جمهوريا ـ هو شأن الأمريكي الحاص . وأكرر أننا سنتعاون مع الإدارة التي يعهد إليها الشعب الأمريكي بحكم بلاده . وأعتقد أن على المرء أن يتصرف بهذه الطريقة في كافة الأحوال . فليعش الأمريكيون في بلادهم كما يريدون ، ونعش نحن في الاتحاد السوفيتي كما نرغب . ولاداعي لأن نصنف قائمة السياسيين إلى مفضلين وغير مفضلين وغير مغيل المنتبار وإلا تحولت السياسة إلى ارتجال وإلى انتقال من النقيض إلى النقيض ، وإلى عدم المقدرة على التنبؤ . وسيكون من الخطأ التصرف بهذه الطريقة في السياسة ، وبخاصة في العلاقات بين دول مثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي . وإنه لأمر على جانب العلاقات بين دول مثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي . وإنه لأمر على جانب كبير من الخطورة .

ومن المهم للغاية أن ينطلق كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة من الاقتناع بأنه لابد من التوصل إلى اتفاق ، وأنه مقدر علينا أن نتعلم كيف نعيش في سلام .

ومايزال أمام الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة على السواء عمل ضخم ذو أهمية تاريخية . ولن يكون في مقدور أى من بلدينا أن يقوم بهذا العمل على انفراد . وأعنى بذلك المسألة التي تهم عصرنا _ وهي مسألة دره خطر دمار البشرية في حرب نووية . وإذا أنجز هذا العمل بنجاح ، فسيكون هناك من الأسباب ما يجعلنا نتوقع ازدهار العلاقات السوفيتية الأمريكية ، وقيام « عصر ذهبي » يكون مفيدا للاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة وكل البلاد ، والمجتمع الدولي بأسره .



خساسمه

والآن حانت نهاية الكتاب ، ولم يبق سوى بضع كلبات فى الحتام . وأنا على اقتناع عميق بأن الكتاب لم ينته بعد ، ولا يمكن أن ينتهى . إذ يجب تكملته بالأعمال والتصرفات العملية التى ترمى إلى التوصل إلى الأهداف التى حاولت أن أضعها صراحة على هذه الصفحات .

إن إعادة البناء لا تسير بسهولة معنا. فنحن نقيّم بشكل انتقادى كل خطوة نخطوها ، ونحتبر أنفسنا بالنتائج العملية . ونتحقق بدقة من أن ما قد يبدو مقبولا وكافيا اليوم قد يكون غير مناسب للغد .

لقد قدم لنا العامان ونصف العام الماضية القدر الكبير. وسوف تشهد السنوات ، وربما حتى الشهور المقبلة تحركات جديدة غير تقليدية . وفي مجرى إعادة البناء ، نوسع ونوضح أفكارنا حول أمس الاشتراكية ، ويومها ، وغدها . ونحن نكتشف أنفسنا من جديد . لقد تم ذلك ويتم ، كما سبق أن قلت ، ليس من أجل إثارة الاعجاب بنا ، أو «كسب التعاطف» نحونا أو سماع التصفيق الحار . وإنما تحركنا أفكار ثورة أكتوبر ١٩١٧ ، أفكار لينين ، ومصالح الشعب السوفيتي .

ونحن على اقتناع بأن ثمار إعادة البناء ستكون مفيدة للعلاقات الدولية أيضا ، بما فى ذلك العلاقات السوفيتية الأمريكية . إن التفكير السياسى الجديد يعتبر ضرورة لاغنى عنها فى عصرنا .

وثواجه البشرية أخطارا كبيرة . فهناك عناصر كافية للمواجهة ، ولكن القوى الراغبة والقادرة على وقف هذه المواجهة والتغلب عليها ، تزداد قوة واتساعا أمام أعيننا .

إن الانتقال من الشك والعداء إلى الثقة . ومن 1 توازن الرعب 1 إلى توازن العقل والارادة الطيبة ، ومن المصالح القومية الضيقة إلى التعاون ــ هو مانحث

عليه . وهذا هو ما تهدف إليه مبادراتنا السلمية ، وما سنواصل العمل دون كلل من أجله .

إن هناك تعطشا شديدا فى العالم للتفاهم المتبادل والاتصال المتبادل. ويحس به الساسة ، ويكتسب قوة دافعة بين المثقفين ، وممثلى الثقافة ، والجاهير على اتساعها . وإذا ماكانت الكلمة الروسية « بيريسترويكا » قد دخلت بسهولة القاموس الدولى . فإن ذلك يرجع إلى أكثر من مجرد الاهتام بما يجرى فى الاتحاد السوفيتى . فالعالم كله الآن يحتاج إلى إعادة البناء ، أى إلى تطور تقدمى وتغيير جوهرى .

والناس يحسون ذلك ويفهمونه . وعليهم أن يحددوا مواقعهم ، ويفهموا المشاكل التي تقلق البشرية ، ويدركواكيف يجب أن يعيشوا في المستقبل . إن إعادة البناء ضرورة لعالم يفيض بالأسلحة النووية ، لعالم يعانى من مشاكل اقتصادية وبيثية خطيرة ، لعالم يرهقه الفقر ، والتخلف والمرض ، وضرورة لجنس بشرى يواجه الآن حاجة ملحة إلى ضان بقائه .

إننا جميعا طلبة ، ومدرسنا هو الحياة والزمن . واعتقد أن المزيد والمزيد من الناس سيدرك أنه من خلال إعادة البناء بالمعنى العريض للكلمة ، سيتعزز تكامل العالم . وعندما نحصل على درجات عالية من مدرسنا الرئيسي الحياة _ سندخل إلى القرن الحادى والعشرين ونحن على استعداد طيب وعلى ثقة بأنه سيكون هناك مزيد من التقدم .

إننا نريد للحرية أن ترفرف عاليا فى القرن القادم فى كل مكان فى العالم. ونريد للمنافسة السلمية بين الأنظمة الاجتماعية المختلفة أن تتطور دون عائق ، وأن تشجع على التعاون المتبادل للمصالح بدلا من المواجهة وسباق التسلح. ونريد لشعوب كل البلدان أن تتمتع بالرخاء والرفاهية والسعادة . ويكن الطريق نحو ذلك فى الانطلاق نحو عالم خالي من الأسلحة النووية ومن العنف . لقد بدأنا السير على هذا الطريق ، وندعو البلدان والشعوب الأخرى أن تتابع خطانا .

الفهندس

الصفحة	1-	سف	الو
--------	----	----	-----

٥	إلى القسارى
11	البساب الأول ـ البيريسترويكا
۱۳	الفصل الأول ـ البيريسترويكا : أصولها ، وجوهرها ، وطابعها الثورى
14	البيريسترويكا ـ ضرورة ملحة
74	التوجه إلى لينين، مصدر أيديولوجي للبيريسترويكا
40	برنامج أعد بعناية ، وليس إعلانا طنانا
۳۷	مزيد من الاشتراكية ومزيد من الديموقراطية
44	دروس التاريخ
٤٨	ما الذي ألهمنا أن نبدأ البيريسترويكا
٥٤	البيريسترويكا ثورة
17	ه ثورة من أعلى ، الحزب والبيريسزويكا
٦٧	الفصل الثانى ــ البيريسترويكا تحقق تقدما : الاستنتاجات الأولى
٨٢	أولاً المجتمع يبدأ في التحرك بحيف بدأت الأمور
٧٢	البيريسترويكا تكتسب قوة دافعة
٧٣	ليست لدينا صيغ جاهزة
٨٦	مزيد من الضوء على الجلاسنوست
94	البيريسترويكا والمثقفون
43	ثانياً ـ السياسة الاقتصادية والاجتماعية الجديدة في العمل
	الإصلاح الاقتصادى : اجتماع يونيو ١٩٨٥ الكامل للجنة
4٧	المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي

الصفحة

1.7	نحو الحساب الاقتصادى الكامل
1.4	مفهوم جديد للمركزية
١٠٧	الهدف : المستويات التكنولوجية العالمنية
111	النسيج الحي للبيريسترويكا
110	السياسة الاجتاعية لإعادة البناء
141	ثالثاً على طريق إشاعة الديموقراطية: احتياطينا الرئيسي
171	الالتزام بالقانون ـ عنصر لاغني عنه في إشاعة الديموقراطية
144	البيريسترويكا والسوفيتات
148	الدور الجديد للنقابات
140	الشباب والبيريسترويكنا
127	المرأة والأسرة
144	اتحاد الأمم الاشتراكية ـ تشكيل فريد
١٤٤	النفوذ والثقة
۱٤۸	رابعاً ــ الغرب والبيريسترويكا
104	البــاب الثـانى ــ التفكير الجديد والعالم
171	الفصل الثالث ـ كيف نرى عالم اليوم ـ أين نقف
171	أين نقف
177	التفكير السياسي الجديد
177	طريقنا إلى نظرة جديدة
174	« يد موسكو »
141	المغزى الدولى للتفكير الجديد
۱۸۸	من أجل سياسة خارجية صريحة وأمينة
194	الفصل الرابع ــ إعادة البناء في الاتحاد السوفيتي والعالم الاشتراكي
194	حول الاشتراكية الحقة
147	نحه علاقات حديدة

الصفحة	
4.0	الفصل الخامس ـ العالم الثالث في المجتمع الدولي العالم الثالث في المجتمع الدولي
4.4	النزاعات الإقليمية
414	لكل بلد الحق في اختيار طريق تطوره الخاص '
717	عقدة آسيا ـ المحيط الهادى
44.	حول نزع السلاح النووى فى آسيا
777	العلاقات السوفيتية الهندية
777	عند خط فاصل صعب
440	أمريكا اللاتينية : زمن التغيير الكبير
777	التعاون ، وليس المواجهة
774	الفصل السادس_ أوروبا في السياسة الخارجية السوفيتية
44.	ميراث التاريخ
44.8	أوروبا بيتنا المشترك
740	الضرورة : حتميات سياسة لكل أوروبا
440	فرص مواتية الأوروبا
744	دولتان ألمانيتان
724	أوروبا ونزع السلاح
727	التعاون الأوروبي
417	بوادر التفكير الجديد في أوروبا
40.	حول أوروبا والولايات المتحدة
YoY	مسئولية أوروبا
	الفصل السابع ــ قضايا نزع السلاح والعلاقات بين
704	
707	
709	الولايات المتحدة « مدينة متألقة فوق تل »
747	

الصفحة

475	من يحتاج إلى سباق التسلح ولماذا ؟
	مزيد حول الوقائع : إزالة الحدة الأيديولوجية من العلاقات
AFY	بين الدول
774	الاغتراب شر
777	على الطريق إلى جنيف
474	جنيف
777	يعد جنيف
777	الوقف المؤقت للتجارب النووية (الهوراثوريوم)
YVX	برنامج نزع السلاح النووى
787	الولايات المتحدة منذ جنيف
۲۸۲	درس تشیرنوبیل ۱
YAY	ریکیافیكریکیافیك
397	ما بعد ریکیافیك
111	محفل موسكو والصواريخ المتوسطة المدى
4.4	مساقمة المسترات المست



onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

70

رقم الايداع · ١٩٨٩/٨٦٩٥ الترقيم الدولى . ٣ ـ ٣٤٦ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروة___

التتامق، ۱۹ شارع جواد حسى.. هاتف ۱۹۳۲۵۷۸ و ۱۹۳۲۵۸۲ میلودی ۲۹۳۲۵۸۸ میلودی، ص ب: ۲۰۱۵۸ میلودی، ۱۹۳۲۸۸ میلودی، م



Ashilyan Lilius

ولد ميخائيل سيرجيفيتش جورباتشوف ف ٢ مارس ١٩٣١ . في قرية بريفولني . بإقليم ستافروبول (جنوب روسيا) وأصبح منذ مارس ١٩٨٥ السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيني . ورئيس محلس الدفاع في الاتحاد السوفيني . وعضو هيئة رئاسة السوفيت الأعلى للاتحاد السوفيني (الرئان السوفيني) وقد التحق بالحزب الشيوع عام ١٩٥٢

ت نخرج من شعبة القانون بجامعة الدولة في موسكو عام ١٩٥٥ . ومن معهد ستافروبول الزراعي في ١٩٦٧

وفي سن الحامسة عشرة بدأ العمل كعامل تشغيل لآلة حصاد وفي منصف الحسينيات كان قائدا للكومسومول (منظمة الشباب الشيوعي) في ستافروبول . باعتباره سكرتبرا للجنة كومسومول في المدينة . وفي عام ١٩٦٦ أصبح سكرتبرا للجنة مدينة اللخوب الشيوعي السوفيني . تم سكرتبرا أول للجنة إقلم ستافروبول للحزب الشيوعي السوفيني . السوفيني في العد

وفى عام ١٩٧٠ انتخب عضوا فى مجلس السوفيت وفى عام ١٩٧١ انتخب عضوا فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي فى المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي . وفى ١٩٧٨ انتخب سكرتبرا للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي فى الاجتاع الكامل للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي . وانتقل لموسكو فى هذا الوقت

وأصبح عضوا احتياطيا للمكتب السياسي و ١٩٧٨ . ومنذ عام ١٩٨٠ أصبح عضوا في المكتب السياسي للحنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي

ESTA ELIZABETH STATE OF THE PARTY OF THE PAR

البريسروبكا . تعمى اعادة البناء . هو العرض الذى يقدمه ميخائيل جورباتشوف بنضه للتورة التى يقدمه في الوقت الحاضر فى الاتحاد السوفيني وهي إذ تأتى بعد سبعين عاما على نورة أكتوبر . تشكل نورة في المواقف والأفكار والمارسة . تتطلب تغييرا جدريا في السياسة الداخلية والخارجية على السيامة الداخلية والخارجية على السيامة الداخلية والخارجية

والسرسترويكا هي المرحلة التالية في التاريخ الاشتراكي التي ينبغي أن ينسجع فيها بقوة بين المشعب فيها بقوة بين الشعب ، شعور أكبر بالمسئولية ، والمبادرة وروح المباراة من خلال إحساس حقيق بالمشاركة التخصية إليا تقطط للتعبير لم يسبق لله مثيل بمكن والسحوتير العام الذي ينسبر بالصراحة في نقده الماضي ، وبالحسم في توصياته بالنسبة للحاصر ، يصر الماضي ، وبالحسم في توصياته بالنسبة للحاصر ، يصر المنافي أن احتياجات العالم الانفصل عن الحياجات بلاده إذ أنه في السعى إلى العالم عن المتاجات بلاده إذ أنه في السعى إلى العالم عال المتاجدة النووية ، ومن العنف ، ينبغي أن الشاهم والتسامح إن دول وشعوب العالم مختلفون الماما وإنه الأمر طيب الهو كذلك

والسلام العالمي نمرة بمكن أن تكون البويسترويكا بنورتها إنها رؤية مناسكة ملهمة للمسرح السياسي الدوني الحافل والمنقسم بشكل لم يسبق له مثيل والمبريسترويكا باعتبارها سهلة المنال . وشخصية . ومليتة بالحياس والبلاغة في الغالب ينبغي أن تكون أحد أهم الوثائق السياسية في أيامنا